القرآن الكريم

تفسير التحليل الروائي

المجلّد الثانـــي

سورة الأنعام - سورة الأعراف

عبد الباقي يوسف

بسم الله الرحمن الرحیم

سورة الأنعام

استهلال

تمتاز هذه السورة الكريمة بمزاياها الخاصة، كما تمتاز كل سورة من سور التنزيل الحكيم بما حباها الله تعالى من مزايا، وبذلك تكتمل أركان عمارة البناء القرآني، حيث تتكامل مزايا هذه السُوَر مع نسيج بعضها البعض، لتنتج عن ذلك مزية القرآن المجيد كوحدة متكاملة، تستمدّ من ثنايا هذا التكامل مَعالِم التجدّد القرآني مع كل حقبة بشرية جديدة، فيُتاح لها أن تستكشف، وتستشرف في القرآن ما لم يستكشفه، وما لم يستشرفه غيرُها، وتقرأ في القرآن مالم يقرأه غيرُها، حتى يُتاح لها أن تنجز مالم ينجزه غيرُها.

وبذلك فإن المُنجَز البشري الجديد، يستند إلى المُستكشَف القرآني الجديد، ذلك أن الإنسان لا ينفصل عن الله، ولا يبتعد عنه مهما مضى الزمن، ومهما تحاقبت الأجيال البشرية، وما دام ثمة جديد في الإنسان، فإن الله - عز وجل - يَمدّه بمعارفَ جديدة حتى يُقدّم من خلالها منجزات جديدة لمقتضيات سيرورة إيقاع الحياة، وفق كل عصر بشري جديد.

ذلك أن التنزيل الحكيم، فيه هذا الحِساب، حِساب كل جيل في استكشاف وإنجاز ما هو جديد، وبذلك تتجدّد الحياةُ برمَّتِها، وتلبث قابلة وجديرة بالعيش، لأن عجلة الحضارة الإنسانية، تكون في عملية تقدّم وازدهار.

فكل سورة تنضح بإشراقة الجديد الذي ليس في غيرها، ومع كل سورة، تكون في رِحَابِ إشراقة قرآنية جديدة وفق كل مقوّمات الجديد، وهكذا فإن كل ذرة فيك، تشرق في حضرة كل سورة إشراقة جديدة،لم تدركها من قبل.

واعلم أنه ليس بمقدورك أن تلمس لحظة إشراق واحدة، دون نور الله:﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾النور٤٠.

والذي يتعرَّض لقبسات الإشراق الإلهية، فإن كل شيء فيه يُضيء: مُحيّاه، مُقلتاه، هيأته، صوته، بسمته، بل حتى الثياب التي يرتديها، والبيت الذي يقطنه. فثمة ثياب تبدو باهتة مهما كانت جودتها عالية، وباهظة الثمن عندما يرتديها أناس، وثمة ثياب تشعّ مهما كانت جودتها متواضعة، ومنخفضة الثمن، عندما يرتديها أناس.

وثمة منازل، وأنت تدلفها، تراها مُنطفِئة رغم ما هي عليه مِن فخامةِ البناء، والزينة، والأثاث، وكل ما فيها يبدو واجماً منطفئاً أمامك.

وثمة منازل تدلفها، تراها مُضاءة رغم تواضع بنائها، وتواضع ما تحتويه من أثاث.

كذلك الموائد، فيمكن أن تجلس إلى مائدة عامرة بأشهى وألذ أصناف الطعام والشراب في ذاك البيت، غير أنك تشعر بأن كل ما عليها يفتقد النكهة، والشهيّة. وتجلس إلى مائدة متواضعة في بيت متواضع، فتأكل بشهيّة، وكل لقمة تكون أكثر طِيباً من الأخرى، وكل شربة تكون أكثر لذة من الأخرى. وهكذا الإنسان، فترى شخصاً كُلُّ ما فيه مُظلم، مُطفأ، رغم أنّه بالغ الثروة، أو النفوذ، في حين تلفى شخصاً كلُّ ما فيه مشرق، ومُضيء، رغم ما هو عليه مِن تواضعٍ، وإمكاناتٍ محدودة. وإن عدتَ إلى الأصل، سترى الفارق الوحيد بين الشخصين هو الإيمان.

ذلك أن المؤمن هو كائنٌ مُباركٌ ببَرَكَةِ الله، وكلُّ ما يُصبحُ في عهدَتِه، يَغدو مُبارَكاً ببَرَكَةِ الله. في حينِ أن الكافِرَ، يفتقِدُ مِيزة المـُباركة الإلهية.

فاعلم أنه:

لا سورة في القرآن، لا لزوم لها،

لا آية في القرآن، لا لزوم لها،

لا كلمة في القرآن، لا لزوم لها،

لا حرفاً في القرآن، لا لزوم له،

لا نقطة في القرآن، لا لزوم لها،

لا حركة في القرآن، لا لزوم لها،

لا ترتيباً في النزول، لا لزوم له،

لا ترتيباً في تناسق مواضع السور، لا لزوم له،

لا تسمية لسورة، لا لزوم لها.. كل ما في القرآن يحمل شيئاً من نورِ الله جل شأنه.

بعد خمس سور مدنية - وفق ترتيب المصحف العثماني - تأتي سورة الأنعام التي أنزلت ليلاً على قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مكّة، وهي السورة الخامسة والخمسون، وفق ترتيب النزول، حيث أنزلت بعد سورة الحجر، وقبل سورة الصافات.

وهذا يعني بأننا مع آيات هذه السورة الكريمة، سنكون في أجواء بداياتِ نَشرِ الدعوة الإسلامية، تلك البدايات الصعبة التي مَرّ بها رسوله الله صلى الله عليه وسلم، ومَرّ بها صحابته الكرام رضوان الله عليهم، حتى تمكّنوا مِن وضع اللّبناتِ الأساسية لهذا الدين.

فنحن الآن في قلب مكّة المشتعلة، والمضطربة، حيث يقف الكفار والمشركون بكل قوتهم في وجه هذه الدعوة، ويلجؤون إلى سائر أشكال التضييق على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل مَن يواليه، ولو بكلمة واحدة.

وهذا يُتيح لنا أن نقف على عين الواقع، نتغلغل في تفاصيل وقائع الحياة اليومية التي كان العرب يعيشونها قبل بزوغ فجر الإسلام عليهم.

إننا نتعرّف على كل شيء ككتاب مفتوح دون حرج، وهذا ما يَتمَيّز به القرآن الكريم، ذلك أنه كِتاب مفتوح على كل الآفاق دون حرج.

فالقرآن هنا يكون حائلاً بين العرب، وبين ذاك الماضي الذي وثقته، وصوّرته الآيات القرآنية، وهم سيلبثون على ما كانوا عليه في أي زمان، أو مكان، إن تجتبوا العمل بهذا القرآن، فالنزعات هي، هي، والعرب هم، هم. والمُغَيِّر الوحيد هو القرآن، والتخلّي عن هذا المـُغَيِّر، يعني أن كل شيء يعود إلى ما كان عليه. ولا يعني حضور القرآن كظاهر، بل حضوره كمضمون، ولا يعني مجرّد قراءة المبنى، بل العمل بالمعنى، فدوماً يقترن الإيمان بالعمل الصالح الذي يُفعّل هذا الإيمان، ويجعل له معنى.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إذا سرّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام). وهو قوله تعالى : ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾ ١٤٠.

حملت هذه السورة اسم الأنعام، وهي كلمة ينشرح لها الصدر، وتذكّر أول ما تذكّر بالنعومة، والنِعمة، واللّين. فعندما توافق على شيء، تقول: نَعَمْ . وذلك يعطي للسامع انطباعاً إيجابياً، لأن نَعَمْ فيهـــــا إيحاء

بالنِعمة. وتقول: نِعمَ الرجل، ونِعمَ المرأة، وذلك يعني أنهما على نعمة الأخلاق، ونعمة القيم، فتتوسم فيهما الخير.

أمّا الأنعام، فهي ما أنعَمَ الله تعالى به على الإنسان من: الإبل، والبقر، والضأن، والماعز. كي تغني حياة الإنسان على الأرض، وينتفع بها، وهذه الأنعام تغتني بكثير من المنافع، وليس للإنسان غِنى عنها، فهي من المصادر الأساسية التي يتغذى بها الإنسان قبل كل شيء، فالمواد الأساسية التي يحتاجها بدن الإنسان متوافرة في هذه الأنعام، فهي مِن المصادر الأساسية للحليب، وكل ما يُمكن أن يُشتقّ منه، ومِن مصادرِ الصوف، وكل ما يُمكن أن يُشتقّ منه، والإبل تعدُّ مِن وسائلِ الركوبِ، وحملِ الأمتعةِ في الصحراء، والطرقات الوعرة. إضافة إلى كون هذه الأنعام من المصادر الأساسية للّحوم، حيث تحتوي على كميات كبيرة منها، وينتفع بها الناس في التجارة، والتربية.

وهي تنتمي إلى صنف الحيوانات الناعِمة القابلة للتربية، والاستئناس، والألفة، حيث يألف لها الناس، ويستأنسون بها، وحتى مظاهرها توحي بالسلم، وهي حيوانات مُسالِمة، لا تؤذي أحداً، وكل ما فيها نفع في نفع، حتى الروث، فإنه يُستخدم كنوع من الأسمدة في المزروعات، فتكون مرغوبة، ويُقبل الناس عليها ولا يكاد يخلو بيت في الأرياف، والقرى، والمناطق، بل حتى بعض الأحياء في المدن الكبيرة والصغيرة، من هذه الأنعام نظراً لِما تنتجه مِن فوائدَ جمّة، فهي تدر أشكال النِعَم على الناس، وهم ينعمون بما تدر عليهم من هذه النِعَم، وقد ذُكِرت كلمة الأنعام ست مرات في هذه السورة الكريمة، منها ثلاث مرات في آية واحدة، هي: ﴿ **وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾١٣٨

وذُكرت ثلاث مرات في:

﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ ١٣٦

﴿**وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ ١٣٩.

﴿ **وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ ١٤٢

فكَرّم الله تعالى الأنعام بأن حمَلَتْ هذه الآية الكريمة اسمها، وذلك بمثابة التذكرة للناس كي ينتبهوا إلى مدى نعمة الله عليهم من خلال هذه الأنعام، وهم ينتفعون بمنافعها، وألاّ يكون ذلك بشكل آلي، بل وهم يستخدمون هذه المنافع، عليهم أن يذكروا نعمة الله، ويشكروه عليها:

﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ** ﴾النحل٨٠.

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾المؤمنون٢١.

فبدون هذه النِعمة لحُرِمَ الإنسان مِن منافع جمّة، لقد خَلِقتْ هذه الأنعام لِنَفع الإنسان، فيستمتع بكل ما خصّها الله تعالى من منافع يحتاجها سواء في عافيته، أو في رزقه، فجسم الإنسان يحتاج إلى اللحوم الحمراء، بل أن كل موضع من أعضاء هذه الأنعام يغتني بخواص غذائية، مثل: لحم الفخذ، ولحم الرأس، ولحم الظهر، والكبد، والقلب، والكليتين، واللسان، والطحال، والمخ، والدهون.

وما يحتويه لحم الطير، والسمك، يختلف عمّا تحتويه لحوم الأنعام، ولذلك يرشد الطب إلى تنوّع استخدام اللحوم، ومن مختلف الأعضاء. كما الأمر بالنسبة للبيضة التي تختلف خواص صفارها، عن خواص البياض، رغم أن البيضة واحدة، أو بالنسبة للتفاح الذي تختلف فيه خواص الأحمر، عن خواص الأخضر، وخواص الأصفر عن الأحمر، رغم أن التفاح واحد.

لكن هذه السورة الكريمة لاتقتصر على بيان فضل الله على الإنسان من خلال الأنعام فحسب، بل تتسع إلى العقيدة، والتوحيد، والحركة من أجل اكتشاف الحياة، وتقدير نِعَمِ الله، والإسهام في فعل الخير.

وهذه الأنعام، وإن كانت أربعة، فهي مزدوجة تشكّل ثمانية: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾ الزمر٦ . فذَكرُ هذه الأنعام يَتمَتع بخواصه، كما أن أنثاها تتمَتع بخواصها، فنحن إزاء ثمانية أنعام، هي: جمل وناقة، ثور وبقرة، خروف ونعجة، تيس وعنزة.

والأنعام ليست عدوانية، أو شريرة، أو مؤذية بأي شكل من الأشكال، بل هي مُسالِمة، رفيقة، ناعمة رغم كِبَرِ حجمها، وهي لاتأكل اللحوم، بل تتغذى على الأعشاب، وما يتفرّع منها، والأعشاب تجعل الكائنات التي تتغذى بها هادئة، مُسالِمة.

وإذا نظرتَ إلى الحيوانات المفترسة، سترى بأنها تتغذى على اللحوم، ومنظرها يكون مُفزِعاً غير مُسالِم مثل: النمر، والفهد، والأسد، والذئب. وهي خَشِنة، عدوانية، شريرة، أي هي حيوانات دموية، يبدو الشر في هيأتها، ولذلك لا يقربها الناس، وتعيش في الغابات والكهوف. وهذا يأتي حتى على القطط والكلاب التي تعيش في البيوت ولكنها لاتؤتمَن من الأذى، خاصة عندما تجوع، و يأتي حتى على بعض الطيور التي تعيش على اللحوم، فيُقال عنها: طيور جارحة، ويمكن أن تفقأ عين الإنسان، أو تجرحه بمنقارها، أو أظافرها. والأمر يأتي على الأسماك أيضاً، كونها تأكل اللحوم، فهي يمكن أن تجرح، أو تؤذي عندما تكون حية، وحتى عندما تطهى، يكون الإنسان حذراً ممّا يحتوي لحمها من أشواك رغم طراوته.

من كل هذا، يمكنك استنتاج أن تناول اللحوم بشكل مُبالَغ فيه أمر غير محمود بالنسبة للإنسان، لأن هذه اللحوم يمكنها أن تزيد وتيرة نزعة الهيمنة لديه، فتراه يسعى للهيمنة على كل شيء، ويمكن لكثرة تناول اللحوم أن تفعّل لديه النزعات العدوانية بدرجات مرتفعة، وبأشكال مختلفة، ولذلك يُستحسَن أن يكتفي الإنسان بحاجة بدنه فقط من تناول اللحوم، وألاّ يجعلها مادة أساسية في وجباته الغذائية بشكل يومي. ولعل ذلك يحدث مع بعض الحُكّام، والقادة، والأباطرة، فهم يُكثرون من تناول اللحوم، بل مِنهم مَن يستخدمها في وجباته الثلاث، فحتى في الصباح، يتناول بعض أصناف اللحوم الباردة، ولذلك ترى هؤلاء يُقبلون على الانتهاكات، ويُشعلون الحروب الفتاكة في الناس، فكلّما أكثروا من تناول اللحوم، ازدادوا تأججاً، وعدوانية، وشراسة، وكذلك تضَخّمت لديهم نزعة الهيمنة، والسيطرة على كل شيء يتمكّنون منه.

ثم أنك ترى أن ذلك من شأنه أن يفرز أشكالاً أخرى مِن العدوانيين، مثل: القَتَلة، والقتاصين، والمغتصبين الذين يُمارسون أقصى أشكال العدوان على الناس بدماء باردة، - ووفق المصطلحات الحديثة-: (الساديين) الذين يتلذذون بتعذيب الآخرين، أو (المازوخيين) الذين يتلذذون بتعذيب أنفسهم، وهذه النماذج تستفحل غالباً في المجتمعات الثرية التي تكون الضوابط الدينية في سلوكياتها مُتدَنية، وكذلك في بعض العائلات الثرية التي تعيش في مجتمعات فقيرة، حيث ترى الفشل الذريع الذي يُحالف أبناء هذه العائلات، إلى جانب تفاقم المشاكل التي تقع في هذه البيوت، وبطبيعة الحال، فإن هؤلاء ليسوا نباتيين.

فالعوامل الخارجية يمكن لها أن تسهم في الانحراف حتى في مجتمع ملتزم، أو في بيت ملتزم، والاعتدال يكون محموداً وفق كل المقاييس، فالانقياد خلف الشهوات، والرغبات، وهوى النفس لاضفاف له، ويودي بصاحبه إلى التهلكة، وكُلّما تمّت التلبية، تأجّجَتْ النفسُ أكثر، كالنار التي كُلّما مددتها بالوقود، سعرتْ أكثر، ولاتتوقف عن سعيرها، إلاّ إذا أوقفتَ عنها الوقود، كذلك عندما تمسك بزمام نفسك، وتقودها، وتدرّبها على الصبر، تعتاد منك على ذلك: ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَى★ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا★ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى★ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى★ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾النازعات ٣٧- ٤١.

فالاعتدال في تناول اللحوم، يكون مُفيداً، ويأتي بنتائجه الإيجابية، للناس جميعاً، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بأن لديهم نزعات سلبية، مثل شعورهم بالحسد تجاه الآخرين، أو يُعانون نوبات عصبية، أو اضطرابات في السلوك، أو يلمسون في أنفسهم شيئاً من العدوانية، والميل إلى الاعتداء على أموال الناس، أو استباحة أعراضهم، أو يَستلذّون عندما يَستفزّون الآخرين.

فكل هذه النزعات التي هي بذور يمكن لها أن تنمو، وتفصح عن ذاتها أكثر من خلال العوامل الخارجية، ومن خلال التلبية تلو الأخرى، حتى تستقوى عليك، وتأبى قيادتك لها، وتتولى هي قيادتك، فتنقاد إلى المنعرجات، والمستنقعات التي تقودك إليها.

ولذلك يستطيع المرء أن يَتجَنّبَ تصعيدها، والتغذية تعدّ من العوامل الفَعّالة في ذلك، ومن ذلك عدم الإفراط في تناول اللحوم، وأن تكون نسبة الخضار، والفاكهة، والبقول، والحبوب، هي الأكثر في التغذية، وتكون ثمة أيام خالية من تناول اللحوم، بل وحتى الزيوت أيضاً، فتتناول طعاماً خفيفاً لراحة معدتك، وهذا بذاته يعكس راحة لسائر الأعضاء، وللنفس كذلك.

هذا جانب من الجوانب التي تعلّمك إياها قراءتك المتأنيّة لسورة الأنعام الكريمة، فلايكون نظرك مقتصراً على ظاهر الكلام فحسب، بل أن كل آية تجعلك ترفع نظرك لتنظر إلى آيات الكون، وتنهض لتسير في الأرض كي ترى قبسات من جمال الله في مخلوقاته. فعندما تقرأ، لاتكتفي بالقراءة فقط، وتغمض عينيك، بل عليك أن تقرأ، وتنظر، وتتفكّر، وتستنير، وإلاّ لو أمضيتَ عمرك كله في القراءة، ما نفعك ذلك في شيء، واعلم أن القرآن أُنزِل ليُغيّر، والقراءة هي وسيلة للتغيير، وليست قراءة للقراءة:﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾الإسراء٨٢.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾محمد٢٤.

فعلى القراءة النظريّة أن تحيلك إلى الحياة العمَليّة، وعندها يقوى نَظرُك، فترى ما لايراه غيرُك، وكذلك تستمتع بما لم يستمتع به غيرُك، وتستنير بما لم يستنر به غيرُك. وكما أن القراءة تحيلك إلى الخَلق، فإن الخلق أيضاً يُحيلك إلى القراءة، في علاقة تكاملية بين ما تقرأ، وما تنظر، وما تستنتج.

لذلك سوف نرى أن السورة لا تقتصر على الأنعام فحسب، بل تتسع إلى جوهر العقيدة، والتوحيد، والعلاقة بين الله والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة. أي أنها سورة اكتشافية، تجعلك تكتشف ما لَم تكتشفه، وتنتبه إلى ما لم تنتبه إليه. بمعنى تجعلك تتعرّف على الله أكثر مما تعرف، ونظراً لأن هذه السورة أُنزلت في مرحلة مضطربة من المواجهة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين مشركي مكّة، ترى كيف أن الله تعالى يبيّن قدراته التي يتفرّد بها، ولا يقدر عليها أحد سواه. وفي ذلك حض للإنسان كي يتحرّك، ويسعى إلى التعرّف على الحياة، والإسهام في فعل الخير، ويُقدّر نِعَم الله تعالى، شُكراً لله المُنعِم، وأن الخسارة الأكثر فداحة والتي لاتعوَض بأي حال مِن الأحوال، هي أن يفوت الإنسان الانتباه إلى كل هذه الاشراقات الروحية، ويلبث يمضي عمره في عتمة الروح.

عن أبي بن كعب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "أنزلت علي الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح و التحميد فمن قرأها صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من الأنعام يوما و ليلة".

وعن الثعلبي عن جابر مرفوعا " من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكّل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة معه مِرْزَبّة من حديد، فإذا أراد الشيطان أن يوسوسَ له أو يوحيَ في قلبه شيئا ضربه فيكون بينه وبينه سبعون حجابًا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: امش في ظِلّي يوم لا ظِلَّ إلا ظِلّي، وكُلْ من ثمار جنتي، واشرب من ماء الكوثر، واغتسل من ماء السلسبيل، فأنت عبدي وأنا ربك ".

تظهر لك السورة لمعات السطوع التي يتمتع بها المؤمن، فهو إنسان ساطع نَشِط، ممتلئ ببريق الحيوية، يعيش كل تفاصيل حياته بطولها وعرضها، وهو يستمدّ من ثنايا هذا السطوع مرتكزات الاعتدال، والرفق، والتوازن، والتهذيب، وبذلك يتجنّب عوامل الاضطراب، والعدوان، والكِبر، والتمادي، وتجاوز حدود كل ما هو إنساني.

إنه يُشكّل بحضوره في الحياة، حالةً من البطولة، وكل شيء من حوله، يستأنس به، ويسطع بسطوعه.

تطلِعك السورة أيضاً على وقائع الأحداث التي جرت في مكّة، وكيف بدأ الناسُ يخرجون مِن وباء الأوثان، إلى عافية التوحيد. وهذا من شأنه أن يُعزّز المناعة والحصانة لديك من كل آفات الريبة، والوساوس، والجور، والإعجاب بالنفس، والاستقواء بالمال، أو السلطة، أو الولد.

إنك تستمدّ من قراءتك معالِم الانضباط، والصبر، وتغدو أكثر تحكّماً بما تجنح النفس إليه من أهواء، وشيئاً فشيئاً تفضي بك إلى الانفلات الذي ينتهي بك إلى الهلاك، فتتعلّم أن لانهاية لاتباع الأهواء، وهي تلبث تنخر في القلب حتى تتمكّن من إفساده.

تعلّمك السورة أن مساحةُ الإنسان تتسع لديك وتنمو، على قدر ما تتسع لديك مساحةُ الإيمان، وأنك لن تستطيع أن تكون إنساناً تتمتع بمقوّمات الإنسان لديك، إلاّ إذا كنتَ مؤمناً، فإن كنتَ مؤمناً، أمِنَ الناس إليك، وأمنتَ إلى نفسكَ، وأمنتْ نفسُكَ إليك.

الباب الأول

الخَلق والجَعل

﴿١﴾

﴿الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾

نحن الآن في قلب الليل، في شِعاب مكة، والوضعُ العامُ محتقنٌ، بل على حافة الانفجار، حيث تتصاعد المواجهة الفعلية بين توجه فكري وعقائدي جديد، وما هو سائد في المجتمع المكّي الذي ينحدر منه، وينتمي إليه هذا الرجل الذي يتولى بنفسه قيادة هذا الانقلاب على ما تعارف عليه أبناءُ جلدته، وأمسى بالنسبة إليهم منهج حياة.

لقد أنزلت حتى الآن أربع وخمسون سورة من الكِتاب المؤسِس لهذا الانقلاب، والذين يعيشون في ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ يتشبثون بتلابيبها، ويأبون مغادرتها إلى ﴿النُّورَ﴾ وقد تحوّل قائد هذا الانقلاب إلى عدوٍ لدودٍ لهم.

السوَر التي أنزلت، استطاعت أن تستقطب بعض أفراد هذا المجتمع، وتجعلهم قوة مساندة للقائد الذي يقود هذا الانقلاب، بكل ما أوتي مِن عزيمة، بيد أن الطرف الآخر يبدو قوةً لا يُستهان بها، رجالاً، وسلاحاً، ومالاً، ونفوذاً، وبذلك يَسعى إلى إلحاق أقصى أشكال العقوبات، والأذى على الخارجين عنه إلى ما يدعو إليه ذاك الرجل، ويقول بأنه يحمل من الله إليهم ﴿النُّورَ﴾ الذي من شأنه أن يُبدّد ﴿ظُلُمَاتِ﴾ - هم - .

في هذه المرحلة الملتهبة المضطربة، تنزل سورة الأنعام :" جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح و التحميد" كما يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية لأبي بكر بن مردويه – بإسناده – عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج " ورسول الله يقول: " سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم ".

يقول البجلي: (أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي جعفر، عن يحيى بن الضريس، عن إسماعيل بن عياش، عن أبان، عن شهر بن حوشب، قال: سمعت ابن عباس يقول: أنزلت سورة الأنعام جميعاً بمكة معها موكب من الملائكة يشيعونها، قد طبقوا ما بين السماء والأرض، لهم زجل بالتسبيح حتى كـــادت الأرض أن ترتج

من زجلهم بالتسبيح ارتجاجا قال: فلما سمع النبي -صلّى الله عليه وسلم - زجلهم بالتسبيح رهب من ذلك فخر ساجداً حتى أنزلت عليه)[1] .

﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾، المستحق للحمد، والذي لا أحد يستحق الحمد سواه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فمَن ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هو الجدير بالحمد.

أول ما يبيّن الله في مستهل هذه السورة، ومستهل هذه الآية، أنه وحده: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، وعلى ذلك، فتعود حاكمية كل ما في:﴿ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إليه، و: ﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾ وحده لاشريك له: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ كذلك: ﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾ وحده لاشريك له ﴿الَّذِي﴾ ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾، وكلمة ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ مفتوحة الآفاق، ولا تقتصر على الليل الذي به ظلام، وهو فرع من فروع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾، فـ: ﴿ظُلُمَاتِ﴾ الكهوف، و ﴿ظُلُمَاتِ﴾ الأقبية، و﴿ظُلُمَاتِ﴾ المحيطات. كذلك: ﴿ظُلُمَاتِ﴾ النفس، و﴿ظُلُمَاتِ﴾ الأفكار، و﴿ظُلُمَاتِ﴾ مشاعر الاغتراب، ومشاعر اللا انتماء، ﴿ظُلُمَاتِ﴾ الضلال، ﴿ظُلُمَاتِ﴾ القلب، ﴿ظُلُمَاتِ﴾ الوساوس ، ﴿ظُلُمَاتِ﴾ الشرك، ﴿ظُلُمَاتِ﴾ عقدة الاستعلاء.

فهذه ﴿الظُّلُمَاتِ﴾، لايظنن أحد بأنها أتت مِن المجهول، وبالتالي لاأحد بوسعه السيطرة عليها، أو تبديدها، بل الله هو منشئها، وهي -وفق كل مستوياتها- عاجزة ألاّ تستجيب لِمَن أنشأها.

---

[1] فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، تأليف أبي عبد الله محمد بن أيوب بن الضريس البجلي، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر، دمشق.

وهذا يقودك إلى نتيجة أن الوساوس القهرية، أو غيرها، مهما استفحلَتْ عليك، فإن الله قادر أن يصرفها عنك، ومهما تصاعدتْ وتيرةُ مشاعر الاغتراب، أو اللا انتماء في دواخلك، فإن الله قادر أن يستأصلها، ومهما ضللت، فإن الله قادر أن يهديك، ومهما غلظتْ عُقدةُ الاستعلاء لديك، فإن الله قادر أن يواضعك، ومهما أشركت، فإن الله قادر أن يجعلك موَحِداً، ومهما فسد قلبُك، فإن الله قادر أن يُصلحه.

فاعلم أن كل هذه ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ إنما جاعلِها الله. ولعلك تسأل عن قوله- جل شأنه-: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾النساء٧٩. فالله هو الذي خلق الحسنة،

والسيئة معاً، والله يُفَضّل عليك بالنفع الكامن في الحَسَنة، والسَيّئة لم تتشكّل مِن تلقاء نفسها، وإلاّ لجاز لها ألا تؤتمَر بأمر الله، ولكنك تجلب الضر الكامن في السيئة على نفسك من خلال ارتكاب المعصية.

فكل هذه ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ إنما هي تحت أمرته، ولا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تخرج عن أمرته، فجاءت كلمة ﴿وَجَعَلَ﴾ حاسمة، فهو الذي ﴿جَعَلَ﴾ لها حضوراً، وهي غير قادرة إلاّ أن تستجيب لجاعلها، أينما كانت، ومهما كان شكلها.

كذلك ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿النُّورَ﴾. جاءت كلمة ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ جمعاً بكل ما تعنيه مِن تفرّعات ذكرتها لك، أو لم أذكرها، ولكن كلمة ﴿النُّورَ﴾ جاءت بصيغة المفرد، لأن ﴿النُّورَ﴾ بصيغته المفردة يمكن له أن يُبَدّد كل تلك ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ جملة واحدة. فالله لاينقذك مِن عتمات ومُستنقعات تلك ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ فحسب، بل ويجعلك تستنير بنوره. فبعد أن كُنتَ في: ظلمة، أو ظلمتين، أو ﴿ظُلُمَاتٍ﴾، يجعلك الله تعالى في﴿ نُورَ﴾ من أمرك.

وكون ﴿النُّورَ﴾ يعود بمرجعيته إلى الله، فهو أيضاً لايملك إلاّ أن يستجيب لأمره، ويؤتمَر بأمره. والإنسان إمّا أن يكون في ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ أو يكون في ﴿نُورَ﴾، لأنه إمّا أن يكون في درجات الجنّة، أو يكون في دركات النار، وإن دخل دركات النار، يمكن له أن يخرج إلى درجات الجنة، وإن دخل درجات الجنة، لايمكن له أن يخرج إلى دركات النار . لكن الأمر ليس كذلك في درجات ودركات الحياة، فإن كان في دركات ﴿الظُّلُمَاتِ﴾، يمكن له أن يخرج إلى درجات ﴿النُّورَ﴾، كذلك إن كان في درجات ﴿النُّورَ﴾، يمكن له أن يخرج إلى دركات ﴿الظُّلُمَاتِ﴾.

وعلى هذا المفصل، يكونُ جهدُ الإنسان، فعليه أن يجهد ويُجاهِد للخروج من ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وبذات الوقت، إن كان في﴿ نُورَ﴾، فعليه أن يَجهَد ويُجاهِد كي يُحافظ على ما أنعم به الله تعالى عليه من ﴿نُورَ﴾.

مفتتح السورة موجه إلى الناس جميعاً، سواء الذين آمنوا بما يحمل محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين أنكروا، أمّا الذين آمنوا، فيحمدون الله على ما أنعم عليهم بنعمة الإيمان، وأمّا الذين أنكروا، فالدعوة إليهم، كي يؤمنوا، ثم يحمدوا، لأن الحمد يأتي عَقِب الإيمان، فأن تحمد الله، ذلك يعني أنك مؤمِنٌ به.

فيا أيها الذين تجعلون لله شركاء، آمنوا بوحدانيته، لأن الله وحده هو:﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وهو وحده جدير بالإيمان، والحمد.

﴿ثُمَّ﴾أي بعد الذي تبيّن للناس جميعاً، وقد آمن منهم، مَن آمن، أمّا: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم﴾ أخفوا ما تبيَّن لهم من الحق، ﴿يَعْدِلُونَ﴾. يُعادلون مع الله غيره من الأوثان، فـ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بمعنى يُشركون، يجعلون مع الله تعالى شُركاء، ويساوونهم به. قال: ﴿بِرَبِّهِم﴾ ولم يقل بالله، وذلك تذكرة بأنهم يشركون ﴿بِرَبِّهِم﴾ الذي وحده قد خلقهم، وبذلك وحده يستحق الإيمان والحمد.

ويجوز أن تعني كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ إضافة إلى ذلك، أنهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق الذي تبيَّن لهم، وينحرفون عنه، فقد مالوا عن التوحيد، ووفق هذا المَيل جعلوا لله سبحانه وتعالى نُظراء، يعبدونهم كعبادتهم لله، ويؤمنون بمقدرتهم، كما يؤمنون بمقدرة الله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾النمل٦٠ . فالأصل هو الله جل جلاله، وهؤلاء بعدلهم عن التوحيد، يجعلون له شركاء.

عندما يتزوّج رجلان من أختين، يُقال بأن أحدهما عديل الآخر، أي هما سواء في الاقتران بأختين، وهذا ليس محض كلام فحسب، بل تترتب عليه عوامل تعادلية، مثل أن زوجة كل واحد منهما تكون خالة لأبناء الآخر، كما أن أخواتهما تكنَّ خالات لأبنائهما معاً، وأخوتهما يكونون أخوالاً لأبنائهما معاً، ويكون أبواهما جدَّين لأبنائهما معاً، فهذا التساوي في هذه النتائج جاء على أساس أنهما عديلان، ولولا ذلك، لَما نتج كل هذا التساوي بينهما. فالمشرك لايكون شِركُه محض كلام، أو محض تصرّفات لامسؤوله، بل هو يؤمِن ويقتنع بأن هؤلاء الشركاء يمكن لهم أن يفعلوا شيئاً مجدياً له، ويكونوا له وسطاء عند الله، فيعقد عليهم آمال

التوبة، أو المغفرة، أو دخول الجنة، فيُقدّم لهم العطايا أملاً بعطايا مقابلة، ولذلك كان الحسم القاطع في هذه المسألة ببيان الله في آيتين من سورة النساء:

﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً** ﴾النساء٤٨

﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً** ﴾النساء١١٦.

وعبارة: ﴿ **لاَ يَغْفِرُ** ﴾ فيها حسم بأن ما تدّعون بأنهم شركاء الله ليس بوسعهم بأي حال من الأحوال أن يكونوا لكم وسطاء، أو شفعاء، فيجعلوه يغفر، فالله -جلّت قدرته- يجزم لهم ولغيرهم بأنه: ﴿ **لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ وأي أملٍ في الشفاعة هو وهم كبير يعشعش في المخيّلة: ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ** ﴾الزمر٤٣

﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾الشورى٢١

﴿ **أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾يونس٦٦

﴿ **قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** ﴾الرعد١٦

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً** ﴾فاطر٤٠ .

فيبيّن الله كيف أن هؤلاء يتخلّون عنهم: ﴿ **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾النحل٨٦

﴿ **وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ** ﴾القصص٦٤ .

ومع مرور الزمن، استجدّت اشكال أخرى من الشرك، فأصبح بعض الناس يذكرون أشخاصاً أكثر من ذكرهم الله، ويدّعون أنهم لا يدخلون الجنة إلاّ عن طريق هؤلاء الأشخاص،

سواء أكانوا صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أم غيرهم، فالتوبة بالنسبة إليهم تكون من خلال هؤلاء الشفعاء. وترى أناساً يعتقدون بأن الشيطان الرجيم، يكون شفيعهم عند الله، وما إلى ذلك من أشكال الشرك الذي يبقى شِركاً سواء أكان المُتخَذ شريكاً لله من الملائكة، أو من الرسل، أو المقرّبين من الرسل، أو من الأوثان، أو كان الشيطان الرجيم. فالإدانة هي لفكرة الشرك، لأنه عند فكرة الشرك بذاتها، يكون العدول عن جوهر العلاقة بين العبد وربه، فهؤلاء هم الذين قال فيهم الله: ﴿ثمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾، والله أعلم.

الباب الثاني

وظيفة الطين

﴿٢﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

﴿هُوَ﴾ الله وحده ﴿الَّذِي﴾ بعد أن ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، ﴿خَلَقَكُم﴾ وكان يمكن له ألاّ يخلقكم، وعندها لم يكن بوسع أحد أن يخلقكم، وكما أنه ﴿خَلَقَكُم﴾، فهو قادر أن يُذهبكم، وعندها لن يكون بوسع أحد أن يُعيدكم. واعلموا أن الله الذي أوجَبَ عليكم حَمده، قد ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، أي قد خلق أباكم آدم - الإنسان الأول الذي تعودون بأصلكم إليه - ﴿مِّن طِينٍ﴾.

ولم تنته وظيفةُ الطين، بل لبث سبباً في تكاثركم، فالمَني الذي يتسبب في تكاثركم اعتباراً من وجود آدم، يتشكّل من خلال الطين. فلولا التغذية، لما تجمّع المَني، ولولا الطين، لما كانت هذه الأغذية، فالحيوان الذي تعتمدون عليه في تناول اللحوم، ليس بمقدوره أن يعيش إلا على ما ينبت في الطين، ولولا النبات، لما كان لكم أن تتناولون هذا اللحم، أو ما تنتجه هذه الحيوانات من أصناف التغذية. والأرض اليابسة دون أن نمدّها بالأمطار للتحول إلى ﴿طِينٍ﴾تعجز أن تنتج النبات: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾الأنبياء٣٠

﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾الحج٥

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾السجدة٢٧

بل وحتى إذا استغنى الإنسان عن الأمطار في مزروعاته، فإن الله هو الذي جعل الماء في العيون التي تسقى منها المزروعات: ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾القمر١٢.

فالمحصّلة تؤوب إلى الله، وحَمْدُكم يكون لله﴿**الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ**﴾ فهذا الوجود الذي أنتم فيه، إنما هو من الله الذي لولاه، لما كان لكم أي وجود، وما كان بمقدور أحد أن يحقق لكم هذا الوجود: ﴿**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**﴾مريم٩.

فإذن لولا الطين، لما كان للإنسان أن يتكاثر. ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ**﴾ يلبث هذا الطين سبباً في استمرار نسلكم، فلا يذهب بكم الظن بأن الله قد خلق آدم من الطين، وكان ذلك منذ عهد بعيد، وقد انتهت وظيفة الطين، وأنتم الآن ما عدتم بحاجة إليه، وأنكم تتكاثرون من خلال المَني. فاعلموا أن الله في كل زمان ومكان يخلقكم من الطين، ولولا الطين، سينقطع نسلكم.

﴿**ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ**﴾ فليست الحياة وحدها بيد الله، بل الموت أيضاً، فهو بعد أن خلقكم ﴿**قَضَى أَجَلاً**﴾ وضع لكل واحد منكم ﴿**أَجَلاً**﴾، ﴿**وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ**﴾ يوم القيامة حيث تبعثون جميعاً، ﴿**ثُمَّ أَنتُمْ**﴾ بعد هذا البيان ﴿**تَمْتَرُونَ**﴾ تشكّون في وحدانية الله، وأن بيده ملكوت كل شيء.

جاءت خاتمة هذه الآية الثانية﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، استئنافاً لخاتمة الآية الأولى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾، فهم يُشركون استناداً إلى ما في قلوبهم من ريب في التوحيد، وهذا البيان الذي يُقدّمه الله سبحانه وتعالى، مِن شأنه أن يَمحقَ أي ريب، لأن ما تم ذِكره، ليس بوسع أحد أن يفعله سوى الله، فبيّن -جل شأنه- أنه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وأنه خلق الإنسان، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾، تشكّون بوحدانية الله. والامتراء هنا، هو اعتقادهم بأن الله يستعين بغيره في إدارة الكون، وهذا الغير المُستعان به، إنما هو شريك لله، وعلى ذلك، فإنه يمتلك إمكانية التدخل في الثواب والعقاب، وبالتالي يستحق العبودية، فالله غير قادر أن يردّ له مطلباً نظراً لحاجته إليه، ووفق هذا المُعتقد، يقف:﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ على قاعدة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر٣ ، فحتى الإيمان بالله هنا، لم يعد ينفعهم لأنه إيمانٌ شابه فساد، وأمسى مُصاباً بلوثة الشرك.

فالله -جلّت قدرته- يُستعان، ولا يَستعين، وهو يُصدِر الأوامر إلى جميع خَلقه، ولا يَستعين بهم، لأن الاستعانة، نقص، والمُستعان به، يسدّ هذا النقص لدى المُستعين: ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾يوسف٢١، كامل القدرة، لاشيء يعجزه، والذي يرفض أمر الله، يلقى الجزاء كما الأمر بالنسبة لإبليس، ولو استعان به الله، لتنازل له حتى تتم الاستعانة، لكن الله الذي يُتنازَل له، لايَتنازَل لأحد، لأنه يُصدر الأوامر، والخلق جميعاً بحاجة إليه، وهو تعاظَمَ شأنه، لايَحتاج أحداً: " ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا، ولو كانوا

على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندي شيئا ". فعندما عصى إبليس، عاقبه الله، ولم يستطع إلاّ أن يمتثل للعنة الله التي حلّت عليه كعقوبة للعصيان.

والشرك يبقى شركاً وفق جميع المقاييس، مهما كان الذي يُتخَذ شَريكاً:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ البقرة ١٦٥

﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾المائدة١١٦

﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾التوبة٣١

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُـونَ اللّـهَ بِمَـا لاَ يَعْلَـمُ فِـي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِـي الأَرْضِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّـا يُشْـرِكُونَ﴾ يونس١٨ .

فهؤلاء يَتّبعون الرَيب الذي في قلوبهم، هذا الرَيب الذي يجعلهم يعـدلون عـن الحـق، وهـذه دعوة لسائر المشركين، بكل تفرّعات الشرك، ومستوياته، كي يخرجوا من ظلمـة الامـتراء، إلى نور الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لاشريك له.

الباب الثالث

الســر والجَهــر

﴿٣﴾
﴿وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

ذُكِرَت السماوات والأرض هنا مرة ثانية، وذِكرُ السماوات يقترن بذِكرِ الأرض في كتاب الله، وقد أحصيتُ ذلك (١٨٨) مرة، باستثناء ست مرات وردت دون ذكر الأرض: ﴿**اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾الرعد٢

﴿**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾المؤمنون٨٦

﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾فصلت١٢

﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى** ﴾النجم٢٦

﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً** ﴾الملك٣

﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً** ﴾نوح١٥.

إن وجودكم في الأرض، لا يفصلكم عن الله الذي في السماء، فقد بدأ خلقكم في السماء، ثم إليها ترجعون، وإن كنتم قد أُنزِلتم إلى الأرض، فإن رائحتكم ما تزال في السماء، وأنتم أبناء السماء أكثر ممّا أنتم أبناء الأرض: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾الحديد٤ ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ★ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾إبراهيم٣٣،٣٢

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾النحل١٢

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾النمل٦٠ .

فالأرض لم تبعدكم عن الله الذي ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾، ﴿وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ربكم ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾أنتم عباده: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾الزخرف٨٤. فإن كنتم في السماء، هو إلهكم، وإن كنتم في الأرض، هو إلهكم،

فكل ما ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ يخضع لمشيئة الله الذي ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ كل ما يختلج في قلوبكم، أو يخطر لكم ولو لومضة واحدة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ق١٦. وقد تقدّم السر على الجهر ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾ لأن الفكرة تخرج من السر إلى الجهر، فإن خرجت إلى الجهر، ما عاد بإمكانها العودة إلى السر، لكنها يمكن أن تلبث في السر ولا تخرج إلى الجهر، فالله يعلمها أينما كانت، سواء ألبثت في السر، أو خرجت إلى الجهر. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير، أو شر، في السر، أو العلانية، فلا شيء يخفى عن الله، ولا أحد سواه يملك ألاّ يخفى شيء عليه.

إننا هنا مع تفاصيل الأمور الدقيقة التي يبيّن الله من خلالها ربوبيته ووحدانيته بما لا يدع الشك في ذلك، وهذا من شأنه أن يعرّفنا على حقيقة ما يكون عليه الإنسان المشرك، فهو لا يجهل الحق، بل يعلمه، لكنه يأبى الخروج من القوقعة المظلمة التي وضع نفسه فيها، بل لا يريد للنور أن يسطع على غيره أيضاً، فيُقاتل الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي يدعو إلى هذا الحق، ويُقاتل الذين يُسلِمون بهذا الحق، وهذا هو لب العناد والاستكبار، ولم يكن ذلك مقتصراً على زمن، أو فئة، بل أنه مستمر مع أحقاب الزمن، في أوساط سائر المجتمعات البشرية بأشكال وألوان مختلفة، فترى شخصاً يستهزئ بالقرآن، أو يسعى إلى النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يكفر بالله، أو يشرك به.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾آل عمران١٤٠.

سورة الأنعام هنا تحصّن المسلم من هؤلاء، وتبيّن له كيف أن الإسلام انتصر عليهم، ومعاذ الله أن يكون النصر لغير دين الله، مهما مرّ المسلمون بأزمات.

الباب الرابع

أنتـــم وهـــم

﴿٤﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

الآن، وبعد أن عدل هؤلاء عن الحق، وامتروا في وحدانية الله، لا يكتفون بذلك ويلتزمون بيوتهم، بل يخرجون ﴿مُعْرِضِينَ﴾ عن نشر هذا الحق الذي أنزله الله تعالى هدى للعالمين،

فلاهـم يهتـدون بـه، ولا يريـدون للنـاس أن يهتـدوا بـه، و يتحوّلـون إلى ﴿مُعْرِضِيـنَ﴾لـه، فيعترضون سبيل نشر الدين بكل ما أمكنهم فعله حتى يمنعوا وصوله إلى الناس ما أمكنهم ذلك، وهم ينتشرون في كل زمان ومكان، ولعَلّنا نـرى نماذج مـن هـؤلاء الـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾ في زماننا، وكيف أنهم يسعون إلى الحدّ من انتشار الدين، يمنعون بنـاء المساجد، يُشَوّشـون على وسائل الاتصال التي تنشر الدين، يُسيئون إلى الرموز الدينية، يُضَيّقون على الدعاة، وبـذات الوقت، يُشجّعون كل ما يُعادي الدين.

فكلما يروا﴿آيَةٍ﴾ برهاناً ﴿مِّنْ آيَاتِ﴾ براهين ﴿رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم، ويربيهم، ويمـدّهم من الأعمار، يجحدون ما فيها، كما جحد الذين مِن قبلِهم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

و ﴿كَانُواْ﴾ هنا بالغة الدلالة، فهم يلبثون في الماضي كل ﴿مَا تَـأْتِيهِم مِّـنْ آيَـةٍ مِّـنْ آيَـاتِ رَبِّهِمْ﴾ استمراراً لِما ﴿كَانُواْ﴾ عليه، ولايريدون أن يبدّلوا، أو يتجاوزوا ما ﴿كَانُواْ﴾ عليـه، فالماضي يمسي بالنسبة إليهم حاضراً، فهم يتشبثون به، ويـأبون أن يتحوّلـوا مـن ﴿كَانُواْ﴾ إلى أصبحوا بمقتضى ما ﴿مَا تَأْتِيهِم﴾ ﴿مِّنْ﴾ براهين ﴿رَبِّهِمْ﴾. وشأن هؤلاء في أي حاضر، وفي أي زمن، هو شأن أولئك، فهم يستأنفون الانضمام إلى مَـن ﴿كَانُواْ﴾، ولايكتفـون بإنكار هذه البراهين والأدلة الدامغة التي تحملها إليهم آيات الله، بـل يقفـون عرضـة لهـا، أي يسعون إلى منع تداولها في الناس، كمن يعترض سـبيلك، فيمنعـك مـن المضـيء، فهـم يعرضـون عنهـا، ويدعون إلى الإعراض عنها، ويجعلون من أنفسهم عرضة في سبيل ذيوعها.

﴿٥﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

لم يؤمنوا بما ﴿جَاءهُمْ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يُخرجهم مـن الباطل الـذي يتخبطـون ببعضهم البعض في مستنقعاته.

بعد ذلك يُبشّر الله تعالى رسوله والمسلمين بأن الإسلام سينتصر على الكفر، وبذات الوقت، يُحذّرالمستهزئين مـن مَغَبّة استهزائهم بآيـات القـرآن: ﴿فَسَوْفَ يَـأْتِيهِمْ أَنبَـاء مَـا كَـانُواْ بِـهِ

﴿يَستهزئون﴾ يا محمّد، و ﴿سَوفَ﴾ تـ ﴿أتيـ﴾ كـ ﴿مْ﴾ يا مستهزئين ﴿أنبَاء مَا﴾ أنـتم ﴿بِهِ﴾ تـ ﴿ستهزئون﴾.

الاستهزاء هنا، التعالي، فالمرء لا يستهزئ بشيء إلاّ إذا وجد نفسه متعالياً عليه، فهؤلاء، يُكذّبون، ويعرضون، و﴿يَستهزئون﴾ وقد زيّن لهم معتقدهم الجاهلي بأنهم فوق الإيمان بهذه الآيات، وهذا يسري إلى يومنا؛ حيث ترى البعض يتعالى ويستكبر عن عبادة الله، ويستهزئ بالشعائر التي يؤدّيها المسلمون، فيذهبون إلى الغمز واللمز بذلك، وهؤلاء هم استمرار لأولئك، كما أن المسلمين هم استمرار لِمَن سبقهم من المسلمين، والصراع هو واحدٌ، مُتجدّد وبذلك، فهذا التنزيل الحكيم يلبث مُتجدّداً.

لكن تبَيّن لك الآيةُ أنه رَغمَ كل ما فعله هؤلاء وهم كفّار مكّة، الذين يقفون عَقَبة أمام انتشار الدِين، تبقى الدعوة مفتوحة لهم كي يؤمنوا. فنحن في ذروة الأحداث بين بدايات انتشار الإسلام، وردود أفعال كفّار مكّة، وهداية البعض، ونزول الآيات وفق تتابع الأحداث، وهم يعرضون عنها ويصفونها بالكَذِب، وفي هذه المرحلة ﴿يَستهزئون﴾ بهذه الآيات، وبكل مَن يؤمِن بها. وعبارة: ﴿فَسَوفَ يَأتِيهِمْ﴾ فيها شيء من التهديد والوعيد كي يُراجعوا أنفسهم قبل أن يتلقوا: ﴿أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَستهزئون﴾. وهذا أمر مفتوح في الدنيا، والآخرة، فهؤلاء سيتلقون ذلك في الدنيا، وكذلك في الآخرة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ص٨٨ .

وإن كان أولئك الذين لبثوا في عنادهم قد تلقوا الـ ﴿أنبَاء﴾ حيث جاء الانتصار الكبير في بَدر، وجاءت الفتوحات الإسلامية، وانتصر الحق على الباطل، فالكلام موجّه كذلك إلى الذين يستأنفون مسيرة العناد: ﴿فَسَوفَ يَأتِيهِمْ﴾ أيضاً ﴿أَنبَاء مَا﴾ هم ﴿بِهِ يَستهزئون﴾. وهذا بذاته يحمل أمرين معاً، أولهما

أن الإسلام لايُمكن أن يُنتصَر عليه، وثانيهما أن الذين يكفرون، سينتهون إلى ما انتهى إليه الذين يقتدون بهم، ويمضون على خطاهم؛ولكن هذا لايعني أن هؤلاء لايلقون الإنعاش في بعض المراحل الزمنية، وأن المسلمين لن يُصابوا ببعض النكسات على مختلف مستوياتها كما وقع في أحد، وما تلا ذلك، لكن توالت الانتصارات الكبرى فيما بعد، ولبثت ثنائية الانتصارات والانكسارات ، في المراحل الزمنية، لكن في كل الأحوال، فإن الإسلام بقي بخير، وبقي المسلمون بخير، وما حققوه من انتصارات في تبليغ الإسلام ونشره، ومنجزات علمية ومعرفية وإنسانية، تعدّ علامات بارزة في سجل الحضارة الإنسانية. وأمّا الانكسارات فهي

تنبيه لهم كي يَلبثوا يَقظين، ويردفوا المسيرة الإسلامية بمزيد من المـُنجزات العلمية والمعرفية والمواقف الإنسانية، وإذا تراخوا، سيدفعون ثمن ذلك، كما أنهم إذا أخلصوا العمل، سينعمون بنتائج عملهم.

لكن الإسلام يبقى منتصراً في جميع الأحوال، ولذلك فعندما يلقى المسلمون إخفاقات، نرى بعض الذين يعلمون الحق من غير المسلمين، يقولون بعظمة الإسلام، ولكنهم يُدينون المسلمين على التقصير، فعلى قدر تمسك المسلمين بتعاليم الإسلام وإخلاصهم العمل في سبيل ذلك يبلغون التألق، وعلى قدر التجاوزات والتخاذلات، يُمنَون بالإحباط.

وهذا لايكون على مستوى الأمة الإسلامية فحسب، بل يتفرّع إلى مستوى الدول، وكذلك إلى مستوى العائلات ضمن هذه الدول، والأفراد ضمن هذه العائلات.

الباب الخامس

حِكمـةُ التمكيـن

﴿٦﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾

التمكين هنا، مدى المقدرة على تمكّن ما تسعى إلى التمكّن منه ليُصبحَ تحت أمرتك، وتصبحَ مُتمكّناً منه بشكل جيّد، وكلّما تتسع إمكانات الإنسان، فإنه يغدو مُتمكّناً أكثر، وبذلك فإن الإنسان يمكن له أن يأخذ العِبرة من التمكّن، فقد يودي التمكينُ بصاحبه، إلى التواضع وفعل الخير، ثم إلى النجاة، وقد يودي بصاحبه إلى البطر والبطش، ثم إلى الهلاك. وللتمكين مستويات، لكن النتائج هي، هي، فالتمكين في الدولة، والتمكين في المدينة، في المؤسسة، في العائلة، في العلاقات الاجتماعية، الصحة، في المال، في المهنة. فهذه مسؤولية التمكين الجسيمة.

يُذكّر الله الـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾، الذين ﴿كَذَّبُواْ ﴾ و ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بالتنزيل الحكيم بأنه قادر على إهلاكهم: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ هؤلاء ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾، فلينظروا إلى المتمكّنين من قبلهم، ويتخذوا منهم عبرة.

إن التمكين ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وما يتفرّع عنه من أسباب القوة، والنفوذ، والثروة، والصحة، لايعني بأن الله غير قادر على أخذ كل شيء، بل الله الذي مكّنكم، قادر أن يأخذكم:

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر٤٢. كما أخذ الذين سبقوكم، فانظروا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ كـ ﴿م﴾ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، بمعنى ﴿مِّن﴾ جيل بشري خلال مائة عام بعد أن: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾.

جعلنا لهم مكاناً ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وجعلناهم متمكّنين فيه: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

فاعلموا يا أهل مكّة بأن ما أنعمناكم به هو أقل مِمّا أنعمنا به قوم عاد، وثمود، وشعيب، وفرعون، وغيرهم. حيث كانوا أكثر منكم لياقة وقوة في الأبدان، وأكثر جاهاً، ومالاً، ونفوذاً، وبنيناً: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾. المطر الغزير الذي جعلهم في خصوبة، ونماء، وكثرة الثمار والأرزاق، ﴿وَجَعَلْنَا

الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾. بيد أنهم لم يُقدّروا النعمة، ولبثوا في الذنوب: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾.

إن ذلك يجعلنا نتأمّل ما يمكن أن يفرزه التمكينُ مِن خَير، وشَر، فالمتمكّن الذي يسعى إلى الخير، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بحُكمِ إمكاناتِهِ المتاحة، والمُتمَكّن الذي يسعى إلى الشر، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بحكم إمكاناته المُتاحة، وكما أن الأول يتمدّد في بسطة الخير، فإن الثاني يتمدّد في بسطة الشر.

فالذنوب لابد أن تنتهي بصاحبها إلى الهلاك مهما بدا له، أو للآخرين بأنه قوي، ومُتمَكّن في الأرض. ولَدَينا في العصر الحديث شواهد على جبابرة مكّنهم الله في الأرض، وتمَتعوا بأسباب القوة، والنفوذ، والسلطان. لكنهم انتهوا نهايات مُذلة، مهلكة، فأقرب سبيل إلى الهلاك هو سبيل الذنوب، وأقرب سبيل إلى النجاة هو سبيل التوبة. وكأن الله - جل شأنه - يقول: كفاكم ذنوباً حتى لاتلحقوا بالذين ﴿أَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بعد أن أغدقناهم بأسباب الرفاهية ورَغد العيش، فمهما كُنتم أقوياء ومُتمَكّنين، فقد أهلكنا مَن هم أقوى، وأمكن منكم، عندما اتبعوا الشهوات، ولبثوا في الذنوب.

الباب السادس

آفــة الاستكبار

﴿٧﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

التقصير ليس منك يا محمّد، والتقصير ليس منكم يا أمة محمّد بل هم الذين يستكبرون على الإيمان بعد أن اتضح لهم كل شيء، اكمل المسيرة يا محمّد ، واكملوا المسيرة يا أمّة محمّدٍ مِن بَعده، وليؤمِن مَن يؤمِن، ويَكفر مَن يَكفر: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ - يا محمّد - ﴿كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾ورق ، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ - على رسولكم يا مَن أسلمتم به - ﴿كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لا تأبهوا بهؤلاء، وامضوا في نشر نور الله، ولا تكرهوا أحداً: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾البقرة٢٥٦.

إنهم يعيشون في وهم كبير، ويحلو لهم أن يلبثوا في هذا الوهم، ولايسعون للخروج منه قيد أنملة، فحتى لو أنزل الله كتاباً مكتوباً، ولمسوا هذا الكتاب، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿٨﴾
﴿وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾

يشترطون شروطاً على الله، ويريدون أن يرسل الله ﴿مَلَكاً﴾ مع محمد صلى الله عليه وسلم، ويُخبرهم بأنه مُرسلٌ من عند الله، فهم يريدون أن يملوا شروطاً، وأن يمضي كل شيء وفق مشيئتهم.

هنا يبيّن الله تعالى بأنه حتى لو استجاب لهم، فإن ذلك لاينفعهم، بل يؤذيهم، فيقول جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً﴾ استجابة لمطلبهم ﴿لَّقُضِيَ الأمْرُ﴾.

يُحتمل أن يكون قضاء ﴿الأمْرُ﴾ بأنهم لن يحتملوا رؤية الملك، فيكون بذلك مصرعهم؛ لكن الرسل والأنبياء كانوا يرونهم بقدرة الله، عندما يرسلهم الله لمحادثتهم، ويتمثلون بصور بشرية، مثلما حدث مع موسى، أو مثل ضيف إبراهيم، أو ضيف لوط، أو جبريل عندما كان يتراءى لمحمد صلى الله عليه وسلم في صورة بشـــــرية،

وأنه قد غُشي عليه عندما رأى جبريل في صورته الأصلية، فإذا كان ذلك مع رسل الله وأنبيائه، فالنتيجة هي: قضاء ﴿الأمرُ﴾ بالنسبة لهؤلاء، ﴿ثمّ لا يُنظَرُونَ﴾ لايحتملون البقاء بعد ذلك طرفة عين.

حتى مريم التي كانت تمرّ بظروف شديدة الخصوصية في ولادتها، عندما شاء الله تعالى أن يُرسل لها ملكاً، أرسل جبريل: ﴿فتمَثلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾مريم١٧، حيث أن إمكانات الإنسان في الأرض، لا تحتمل رؤية بعض مخلوقات الله، ورأفة من الله بالإنسان، فقد جعلها غير مرئية بالنسبة إليه، ولكن أن يتحدّى الإنسان طبيعته، وإمكاناته، فإنه يقود نفسه بذلك إلى التهلكة، ولأن باب التوبة يلبث مفتوحاً، فإن الله يمهل عباده لعلّهم يتقون.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فابلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بي كلدة، وعبدة بن عبد يغوث، وأبي خلف بن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمّد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وقالُوا لَوْلا أنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ.. ﴾ الآية).

﴿٩﴾
﴿وَلَوْ جَعَلنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلنَاهُ رَجُلاً وَللبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلبسُونَ﴾

طبيعة الإنسان تستأنس إلى الإنسان، ولذلك جعل الله الأنبياء والرسل من سلالة الإنسان، وهذه هي مشيئة الله التي هي لصالح الإنسان، وليست عليه، ولو كان الأنبياء والرسل من الملائكة، لبدوا غرباء على الإنسان بسبب اختلاف الخلَق، واختلاف الطبيعة، فما يفعله الملائكة، لايفعله الإنسان، وما يفعله الإنسان، لايفعله الملائكة، مثل الطعام، والشراب، والزواج، والذنوب، وما إلى ذلك ممّا يكون عليه الإنسان، ولايكون عليه الملائكة، ويكون عليه الملائكة، ولايكون عليه الإنسان. وعندها كان الإنسان يتمنى من الله فيما لو أنه جعل الأنبياء والرسل من جنسه.

في هذه الآية يبيّن الله جلّت قدرته، أن هذا الملك سيكون على صورة رجل، وذلك رحمة بالإنسان الذي لا تحتمل قدراته أن ينظر إلى الملك ويتحاور معه إذا لبث في صورته الأصلية؛ ولأنه سيكون ذلك، سيرتدي ثياب الرجال؛ وفي كل الأحوال، لابدّ من الإنسان أن يكون مساهماً لنشر دين الله، من خلال العلماء، والدعاة، والمساجد، والمنابر العلمية، والآباء عليهم أن يفقّهوا أبناءهم في أصول الدين، ويزرعوا فيهم القِيَم الدينية، وهذا يأتي إلى المدرّسين، في المدارس، والجامعات ، بمعنى أن النتيجة هي واحدة، ويلبث هؤلاء على ما هم عليه من كفر وشرك.

فلله حِكمة في اختيار رسله وأنبيائه إلى الناس، ودوماً فإن كل الخير يكمن للإنسان فيما يختاره له ربه. فهؤلاء يقفون على نوايا سيئة، ولا يُحسنون الظن في اتباع ما أنزل الله من الحق.

الباب السابع

الحيـــق

﴿١٠﴾

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

فيا مُحَمّد، استأنف نشر ما يأتيك من ربك، وهؤلاء استمرار لِما هُم مِن قبلِهم من أهل العصيان، كما أنك استمرار، واستكمال للرسل من قبلِك، وأن هؤلاء ليس بوسعهم أن يقفوا عقبة بين دِين الله، وبين عِباده الصالحين؛ ليس بوسعهم أن يحجبوا دين الله، أو يحولوا بينه وبين الانتشار .

فإن قابلك هؤلاء بالاستهزاء ممّا تبشّر به، فاعلم أنك لستَ أول مَن يلقى ذلك، وأن هؤلاء ليسوا أول المستهزئين بما أنزل الله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وكانت النتيجة أن ﴿حَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. فهؤلاء ينتهون إلى الحيق الذي حاق بأضرابهم الأولين.

نرى هنا كيف أن الله يخفف عن رسوله، عندما يضيق قلبه ممّا يسمع من عبارات الاستهزاء، ويسيئون معه الأدب، وكيف يستمدّ الرسول صلى الله عليه وسلم القوة والعزيمة ممّا يبيّن له الله، فيعلم أن سوء أدب هؤلاء ليس مقتصراً عليه، بل لاقى رسل الله وأنبياؤه ذات الاستهزاء، و سوء الأدب، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أن يحيق بك شيء، بمعنى أن تعود نتيجته عليك، أي غدوا هم أنفسهم موضع استهزاء، والحيق هو الإحاطة، أي أمسوا مُحاطين بما كان يبدر منهم:﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر ٤٣.

﴿١١﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

هذه الآية هي استئناف للآية السادسة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. فإن لم يكونوا يروا، فـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحَمّد: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ وسوف ترون ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

فقد كانوا هنا، كما أنتم الآن هنا، وقد انتهوا نهايات مخزية نتيجة تكذيبهم بآيات الله.

و﴿ثُمَّ﴾التي أتت بعد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، لعلّها تجعل من الأمر جمعاً، فيكون الكلام موجهاً للناس جميعاً، مؤمنين، وغير مؤمنين، وإن كان غير المؤمنين يجدون العبرة في تلك العاقبة، وذلك من شأنه أن يجعلهم يؤمنوا، فإن المؤمنين يزدادون ثباتاً في إيمانهم، فـ ﴿انظُرُوا﴾، ليست مقتصرة على الكفار فحسب، بل حتى أنتم أيها المؤمنون إن سرتكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿انظُرُوا ﴾.

تبيّن هذه الآية بأن الثبات في موضعٍ واحدٍ، يجعل معرفة الإنسان محدودة، ويجعل مدركاته محدودة مقتصرة على ذاك المكان، وقد وسَّع الله تعالى الأرض حتى يَسير الناسُ فيها، وبصيغةِ الأمرِ جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾. فلا يكون السير للسياحة، أو للتجارة فحسب، ﴿ثُمَّ﴾ أي لكم الحرية في ذلك إن سرتم للمنافع الدنيوية، لكن عليكم أيضاً أن تـ ﴿نظُرُوا﴾. تتأملوا وتأخذوا العِبرة مما ترون في هذه الأرض التي تسيرون فيها الآن، ﴿كَيْفَ﴾ انتهى الذين كذّبوا بآياتنا.

﴿١٢﴾

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

علينا أن نذكر بأننا ما نزال في شِعاب مَكّة، وأن الطرف الرافض للهداية، يَقدم على فعلِ كلِ شيءٍ في مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومَن أصبح مؤمناً بما يُبشّر به، ويؤازره، ويُشكّل قوة إلى جانبه، ويوماً بعد يوم يَستقطب المسلمون المزيد من الطرف الآخر للهداية، ونور القرآن ينتشر في ظلمات مكّة، وظلمات أهلها:﴿قُل﴾ لهم يا مُحَمّد: ﴿لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَن الذي خلقهما، ولِمَن تعود ملكيتهما ؟.

ولعلّ ظاهر الآية يُبَيِّن بأن هؤلاء لا يعترفون بأنهما لله، ولذلك يُخبر الله رسوله: ﴿قُل لِلّهِ﴾، وهذه دعوة سلمية إلى الإيمان، بل تستمر الدعوة السلمية في استئناف القول: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي إن تبتم واهتديتم إلى الإيمان، يتجاوز لكم عمّا قد سلف.

جاء في الصحيحين، من طريق الأعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله لما خَلَقَ الخَلْق كتب كتابًا عنده فوق العرش، إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي ".

فالله الذي له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وأن الله وحده هو الذي يجمعهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهنا إرشاد لهم بأن يؤمنوا، حتى لا يكونوا من الخاسرين.

الباب الثامن
ولايــة اللــه

﴿١٣﴾

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿وَ﴾- ﴿قُلْ﴾- لهم يا محمّد: لله ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

في الآية الأولى ذكر الله - جلّ شأنه - ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ و﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

وفي الآية التي تسبق هذه الآية ذكر:﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾. والآن: ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

وعلى هذا النحو، يتكامل السياق الروائي لمضمون هذه السورة الكريمة مع بعضه البعض، فالليل لا يكون ليلاً دون ظلمة، والنهار لا يكون نهاراً دون نور، والأرض تستقبل ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾و﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ من السماء، في علاقة تكاملية بين السماء والأرض؛ وهنا فإن

الأرض لا يمكنها الاستغناء عن السماء، لأن مصادر الاستمرار، والتجدّد تأتي من السماء، في الوقت الذي يمكن للسماء أن تستغني عن الأرض؛ وهذا يُبَيِّن لنا بأن الله يمكن أن يستغني عن الإنسان، بل وعن الأرض ، وكل ما فيها جملة واحدة، بَيدَ أن الإنسان لا يكون بوسعه أن يستغني عن الله، بصرف النظر إن كان هذا الإنسان مؤمناً، أو كافراً، فملكية ما يسكن ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، تعود إلى الله.

ولعل (السَكَنْ) هنا يعني الإقامة، وليس نقيض الحركة، فلله كل ما يَتحَرك، وما يَسكن عن الحركة. وعبارة: ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المفتوحة الشاملة تعني السكّان عموماً، وليس الذين يسكنون إلى الراحة بعد عناء: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾إبراهيم٤٥.

والسَكَنْ هنا، يشمل كل ما يَسكن الأرض من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وما شاء الله أن يجعله ساكِناً في الأرض، ويحل عليه ﴿اللَّيْلِ﴾، ويسطع عليه ﴿النَّهَارِ﴾.

ثم يُخبِر الله تعالى بأنه يسمع ويعلم كل ما يبدر من عموم ما سكن، سواء ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أو في ﴿النَّهَارِ﴾.

﴿١٤﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ﴾

بعد أن تبَيّن لهم ذلك يا مُحمّد: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أ﴾ بعد هذا البيان تريدون ﴿غَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً﴾، بمعنى أن وليي هو الله، الذي أدعوكم إليه استناداً إلى كل هذه البراهين التي أحملها من الله إليكم.

إن الله - جلّ شأنه - يُعلّم رسوله ما يقوله، فكل ذلك ضمن توجه الله الذي يُعلّمه هذا الكلام، فـ ﴿قُلْ﴾ لهم:﴿أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً﴾. كما في قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾الزمر٦٤.

فلا أحد جدير بأن يكون ولياً سوى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وكلمة ﴿فَاطِرِ﴾ تشير إلى الإنشاء، والابتداء. فبعد أن ﴿خلق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فطرهما، أي جعل لهما فِطرة، وهذا لا يكون إلاّ لله.

وقد أصبحنا مع كلمات ثلاث، هي: ﴿خَلَقَ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾ و﴿فَاطِرِ﴾، وقد قُرِئت (فطر). وكل كلمة تعبّر عن قدرة الله المتفرّدة في الـ: الخَلق، والجَعل، والفَطر.

إضافة إلى ذلك، أمَرَ الله رسوله أن يقول للمشركين الذين دعوه إلى عبادة الأوثان، بأن ربي الذي أعبده: ﴿يُطعِمُ وَلاَ يُطعَمُ﴾. فهو مصدر الرزق، يُحتاج، ولا يَحتاج، يُعطي، ولا يُعطى.

وجاء ذِكرُ الطعام لأن الإنسان يَتغذّى به بشكل يومي، والبَدَن ينمو عن طريق هذا الطعام الذي أطعمه الله تعالى لعباده، فواجب أن يشكر الإنسان ربه مع كل لقمة يتناولها، فكل لقمة تذكّره بفضل الله عليه، وبذلك فإن العافية التي يَتمتّع بها الإنسان، إنما هي من الله تعالى.

أخرج النسائي وابن السني والحاكم والبيهقي في الشعب وابن مردويه عن أبي هريرة قال: (دعا رجل من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقنا معه، فلما طعَم النبي صلى الله عليه وسلم وغسل يده قال:

"الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطعَم ومنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير

مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغني عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين").

فإذا كان كل شيء يعود بملكيته إلى الله، فمَن يستحق أن ﴿أتخذُ وليّاً﴾ ﴿غَيْرَ اللهِ﴾. إن الله هو وليي، وقد﴿أمِرتُ أن أكونَ أوّلَ مَن أسلمَ﴾، ولن أكون مثلكم ﴿مِنَ المُشرِكِينَ﴾، بل أرسلني الله رحمة لكم كي أخرجكم من ظلمات الشرك، إلى نور الإيمان.

﴿١٥﴾

﴿قُل إِنّيَ أَخَافُ إِن عَصَيتُ رَبّي عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾

العصيان يفضي إلى غضب الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾- استجابة لمطلبكم - ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وليس بوسعكم أن تنجوني من العذاب، لأن كل شيء بيد الله كما تبيّن، وفي ذلك إشارة بالغة لدعوتهم كي يتخلّوا عن الأوثان، نجاة من ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٦﴾
﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾

الفوزُ، كل الفوزِ، يكمنُ في نجاةِ الإنسان من العذاب يوم القيامة، وهذا الكلام دعوة للناس كي يؤمنوا، ويعملوا الصالحات كي يصرف الله تعالى ذكره، عنهم عذاب يوم الحساب برحمته، بمعنى أن تعمل كي تكون أهلاً للرحمة، وليس أهلاً للعذاب، أهلاً للفوز، لا للخسارة .

و﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ هنا يكون من وجهَين، وجه صرف العذاب، ووجه دخول الجنة، ولذلك جاءت كلمة ﴿رَحِمَهُ﴾، أي صَرَفَ عنه العذاب الذي يستحقه، وأدخله الجنة برحمته.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾آل عمران١٨٥، فلولا الرحمة لَما ﴿زُحْزِحَ عَنِ النارِ﴾ ولما صُرِفَ عنه العذاب، وبالتالي ما دخل الجنة، وما ﴿فَازَ﴾ وبناءً على ما تقدّم:﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

الباب التاسع

قدرة اللـــه

﴿١٧﴾
﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾

إذا أراد الله لإنسان مرضاً، أو فقراً، فليس بوسع أحد أن يرفع إرادة الله، وإذا أراد لإنسان صحة، وغِنى، فليس بوسع أحد أن يدفع إرادته، فهو وحده عز وجل يمتلك المقدرة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾فاطر٢.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أُهدي للنبي صلى الله عليه وسلم بغلةٌ أهداها له كسرى، فركِبها بحبْل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي ميلاً، ثم التفت إلي فقال: "يا غلام" فقلت: لبيك يا رسول الله. فقال: "أحفَظِ الله يحفَظْك، احفظ الله تجدْه أمامك، تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرِفْك في الشدة، وإذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، فقد مضى القلمُ بما هو كائن، فلو جَهَدَ الخلائقُ أن ينفعوك بما لم يقضِه الله لك لم يقدِروا عليه، ولو جَهَدوا أن يضروك بما لم يكتبِ الله عليك ما قدَروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطعْ فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع الكرْب فرَجاً، وأن مع العسر يسراً".

فيا مَن تشركون بالله، فإن الأوثان لاتستطيع أن ترفع، أو تدفع عنكم أمراً قدّره الله. وإن كانت الأوثان بشكلها الماضي قد أزيلت، فإنها مستمرّة بأشكال مختلفة لدى البعض، فمِنهم مَن يؤمِن بأن هذا الحاكم، أو هذا الوجيه، يمكن له أن ينفعه، أو يضره، وبذلك فإنه يعقد عليه كل آماله، ويفعل كل شيء من أجل مرضاة هذا الشخص، أو ذاك.

﴿١٨﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

يُقهِر، ولا يُقهَر، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الذي لا قاهر سواه - جلّت قدرته - ومهما طغى الإنسان وتمادى، فإن الله قادر أن يُقهره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾. لايملك العِباد إلاّ أن يستجيبوا لمشيئته:﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهرون﴾ الأعراف ١٢٧. وبذلك فإن الله ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، يحكم كل شيء، ويخبر بكل شيء.

﴿١٩﴾

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بيني وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرى قُل لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ﴾

لعل التكرار في ﴿قُلْ﴾، هو نظير تكرار طلب المشركين من محمّد - صلى الله عليه وسلم - كي يؤمن بأوثانهم، أو يعترف بها إلى جانب الإسلام، وهم يسعون ما بجهدهم، ويقدّمون له بعض المغريات كي يتخلى عن نشر الدعوة:

- (يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله)
- (يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلاً وترجع عما أنت عليه)
- (يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم).

فأجبهم يا محمّد: ﴿اللهِ شَهِيدٌ بيني وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ واعلموا ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. فما عند الله، يُغني عمّا عند سواه، وهو قادر على ما لا تقدر عليه أوثانكم.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَن بَلَغَ ﴾ قال من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم - زاد أبو خالد - : وكلّمه).

روى ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: (من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم).

الباب العاشر

عَقيدةُ التكذيب

﴿٢٠﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

اليهود والنصارى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أنعم الله تعالى عليهم بـ ﴿الْكِتَابَ﴾التوراة والإنجيل: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، يعرفون مُحَمّداً صلى الله عليه وسلم﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾.

جاء الأبناء، لأن الابن هو أقرب الناس لأبيه، وأينما وجده، عرفه. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضي الله عنه لعبد اللّه بن سلام: (أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية وكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرِف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمدٍ مني بابني، لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه حقٌّ من الله تعالى).

﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بنكرانهم أن محمدّاً عليه الصلاة والسلام، رسول الله ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، الخسارة هنا لأنهم يعرفون حق المعرفة، لكنهم يستكبرون على الإيمان.

﴿٢١﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

بمعنى لا أحد أكثر ظلماً مِن الذي ﴿افْتَرَى﴾ ادّعى النبوة مثل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، أو ابتدع أحكاماً في الحلال والحرام، ونَسَبها إلى الله.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، أنكر آيات الله. فلا أحد ﴿أَظْلَمُ﴾ من هؤلاء الذين ادّعوا النبوة، وابتدعوا أحكاماً نسبوها إلى الله، وقالوا بأن آيات الله التي حمَلَها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي من السحر. ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، لا يلقون الفلاح بظلمهم.

﴿٢٢﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

جاء الكلام هنا بالغ الدلالة: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، ولا يملكوا من أمرهم إلاّ أن يُحشَروا إلينا، وهذا بيان بأن ما ادّعوه كان كذباً في كذب، ويجوز أن يكون مبتدأ الآية استئنافاً لنهاية الآية السابقة، فهم لا يُفلحون في الدنيا، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾، وقد تبيّن أن هؤلاء لم يلقوا الفلاح في الدنيا، بل خرجوا منها مخذولين، مخرج سوء. فيخبر الله عز وجل بأنهم لن يلقوا الفلاح أيضاً يوم يحشرهم.

﴿ثُمَّ﴾ يقول ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ بأنهم سيشفعون لكم، فليس بوسع أحد أن ينقذهم، لأن الأمر لله وحده لاشريك له.

﴿٢٣﴾

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

يسعون للتهرّب مِمّا كانوا عليه من شرك، فقد تبيَّن بأن لا أحد يمكن له أن يكون معهم، فهؤلاء كانوا في وهم ، وقد تجلَّت لهم الحقيقة، ولذلك يريدون نكران الشرك.

﴿٢٤﴾

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

عاد وبال ما ﴿كَذَبُوا﴾ به عليهم، وقد تلاشى عنهم كل شيء، وأصبحوا في مواجهة ما كانوا عليه من ظلم. الذين جعلوهم شركاء مع الله، وعقَدوا عليهم الآمال، لا ينفعونهم بشيء.

﴿انظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ وضعوا ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ في وهم، وأرادوا أن يُصَدِّقوا الوهم على أنه حقيقة، في الوقت الذي أنكروا فيه الحقيقة الساطعة.

﴿وَضَلَّ﴾ توارى وتخلّى ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الأوثان التي جعلوها شركاء لله.

﴿٢٥﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾

كان بعض المشركين في مكّة يستمعون القرآن، ليس للهداية، بل للإنكار، ولعل ذلك حتى لا يُقال بأنهم يرفضون القرآن وهم لم يستمعوا إليه، فكان الاستماع بهدف التحجج والتآويل الخاطئة.

﴿وَمِنْهُم﴾ مِن مُشركي مكّة ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن يامُحَمّد، ﴿وَ﴾لأن استماعهم بنِيَّة الإنكار: ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

هنا نَتعرَّف على أهمية النِيَّة في مسألة الاستيعاب، فكأن الله - جلّ شأنه - يُخبر بأنهم ما داموا قد عَزَموا على نِيَّة الرفض أول الأمر، وقبل أن يحضروا، جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ . فما دمتَ لا تريد أن تفقه، وقد عَزَمتَ على ذلك، فإن الله لا يفرض عليك أن تفقه، بل عليك أن تسعى وتشقى حتى تفقه، وعندها، يجعلك الله تفقه آياته، إن شاء.

﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، جمع كِنان، وهو الغطاء، فقد جعل الله تعالى أغطية ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، تحول بينها وبين استيعاب آيات الله، والاهتداء بها. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾، والوقر ثقل في الأذن يحول دون الاستماع بشكل جيد، كونهم حضروا بنيّة مسبوقة في إنكارها. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾الأنفال٢٣ .

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ﴾، رؤية آيات الكون والمعجزات والدلالات التي تبيّن وحدانية الله، لكنهم يأبون الإيمان.

﴿حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. يلبثون على موقفهم في عدم الإيمان بهذه الآيات، و﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشارة بأن بعض المشركين لم يكونوا على ذاك الإصرار، بل كان لديهم استعداد للفهم.

وإذا عدنا إلى الكلمة الأولى من الآية: ﴿وَمِنْهُم﴾، يَظهر لنا ذلك، فليس جميع المشركين في مكّة، بل ﴿وَمِنْهُم﴾. أمّا ما تبقّى مِن الـ مِن، فهو خارج الأكنّة، والوقر رغم أنه يمشي مع المشركين، لكنه لا يُشاطرهم النيّة المسبوقة في الرفض.

ولعل ذلك يُعيدنا إلى أسباب النزول، حتى نرى المشهد، ومِمّا قيل في أسباب نزول هذه الآية الكريمة، أنه ذات يوم: (اجتمع أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية وأبي ابنا خلف، والحارث بن عامر، يستمعون القرآن وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم وأسفنديار، فكان يحدثهم، قالوا له: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾).

لذلك، فإن مِن هؤلاء، هداه الله إلى الإسلام، لأنه لم يقل:﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، أي لم يقل بأن هذه الآيات هي الأحاديث التي قالها الأولون، وليست من عند الله.

عندما استمعوا إلى هذه الآيات، بدأوا يؤمنون بأنها أُنزلت على محمد عليه الصلاة والسلام، حتى أعلنوا إيمانهم، ودخلوا الإسلام .

الباب الحادي عشــر

النهــي والنأي

﴿٢٦﴾

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

ما يزال أبوطالب يقف في الوسط بين مَحَبّته لابن أخيه، وبين تردّده من الإيمان بما يَتَنَزّل عليه من القرآن.

يأتيه رؤوس الشرك كي يثنوه عن موقفه: يا أبا طالب خذ شاباً مِن أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً.

يجيب: ما أنصفتموني، أدفع إليكم ولدي لتقتلوه، وأربّي ولدكم.

يراقب الكفار النبي - صلى الله عليه وسلم- في تحرّكاته، وذات يوم يخرج إلى الكعبة للصلاة، وعندما يُباشر في صلاته، يقول أبو جهل: مَن يقوم إلى هذا الرجل، فيفسد عليه صلاته؟

ينهض ابن الزبعري، يتناول فرثاً ودماً، يتقدّم إليه، ويُلطّخ به وجهه. عندئذ يفتل النبي – صلى الله عليه وسلم- من صلاته، ثم يأتي إلى أبي طالب شاكياً: "يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي"

يقول العم وقد بدا لاستياء عليه: مَن فعل بك هذا ؟

يجيب: " عبد الله بن الزبعري"

يحمل أبو طالب سيفه، ويتجه مع ابن أخيه على الفور إلى القوم، عندما تفاجأوا به متقدّماً إليهم، أخذوا ينهضون، فانبعثت نبرات صوته تسبقه إليهم: والله لئن قام رجل، جللته بسيفي.

عندئذ لبثوا في جلوسهم حتى وصلا إليهم، فقال على الفور: يا بني مَن الفاعل بك هذا؟

قال: " عبد الله بن الزبعري"

فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً، وراح يلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، ويوبخهم بالقول.

يعود النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن ردّ عليهم عمّه بما ردّ، ويأتيه جبريل - عليه السلام – : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾. بعد أن يتلقى الآية الكريمة، يَتجه إلى عمّه قائلاً له: " يا عم نزلت فيك آية ". يقول أبو طالب: وما هي؟ يقول:" تمنع قريشاً أن يؤذيني وتأبى أن تؤمن بي"

يطمئنه بأنه سيبقى مؤازراً له، ولن يتخلى عنه تحت أي ظرف. وعندما يعلم الصحابة – رضوان الله عليهم- هذا الموقف الإيجابي من عمّه، يسألوه: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته ؟

يقول: " نعم دفع عنه بذاك الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً ".

يوجّه الله تعالى رسوله بالصبر ويُنزل عليه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الأحقاف٣٥، يصبر على ما يتلقى من الأذى، ويستمر في نشر الدعوة، وعندما يرى عمّه يقول له: " قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ".

يجيبه العم: لولا تعيرني قريش بالقول: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك.

فيأتيه جبريل – عليه السلام – ويخبره بأن الله يقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾القصص٥٦، وفي ذلك يرى النبي صلى الله عليه وسلم، ذات يوم في عام الفتح عبد الله بن الزبعري، الذي أساء إليه وهو في صلاته، يُقدّم إليه اعتذاره، فيقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه الاعتذار، ويدخل الإسلام، وممّا قاله في اعتذاره شعراً حيث كان يكتب الشعر:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة فانقضت أسبابها وأتت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق حقا وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل في الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم فرع تمكن في الذرى وأروم.

﴿وَإِن﴾ كان الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، فإن الذين﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿وَ﴾ لا ﴿يَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ينجون ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ وهم ﴿يَشْعُرُونَ﴾.

كنا هنا مع شخصين، أحدهما عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمدافع عنه بقوة، ولكنه نأى رغم قناعته بهذا الدين، ومن قوله: (وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا)

لكن الذي منعه من دخول الإسلام كما قال: (لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا).

والثاني عبد الله بن الزبعري، الذي هداه الله تعالى، وقدّم اعتذاره عمّا بدر منه بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل دين الإسلام. ولا تقتصر هذه المسألة على هذين الشخصين، بل لهما امتداد في سائر الأجيال البشرية، فترى شخصاً يعترف بأن الإسلام دين حق، لكنه ينأى بنفسه من دخول الإسلام، وترى شخصاً يُعادي الإسلام، لكن فيما بعد يعلم الحق، فيدخل الإسلام، وينقلب من المعادين له، إلى المدافعين عنه.

تبيّن لك الآية الكريمة بأن باب الأمل في الإصلاح يلبث مفتوحاً، لأن ﴿اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ولا يجوز لك أن تفقد الأمل في إصلاح أي شخص كائناً مَن كان، وفاعلاً ما فعل، فالناس عندما يكونون في جهالة من أمرهم، يفعلون ما يفعلون دون رادع، وعليك أن تفعل ما باستطاعتك في سبيل إصلاح هؤلاء، وأقل الاستطاعة، هو عدم فقدان الأمل.

الباب الثاني عشر

الخســران

﴿٢٧﴾

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الآن تبيّن لك الآية مصير المؤمن، ومصير الكافر، ولعلّ أحدهما يرى مصير الآخر. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم:" أن الناس كلهم يوقفون على متن جهنم كأنها متن إهالة، ثم ينادي مناد خذي أصحابك ودعي أصحابي".

عندئذ يقول الذين تكون النار مصيرهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، وفي ذلك إفساحٌ أمام المـُخيّلة كي تتخيّل مناظر أولئك، وهم يقفون لدخول النار ، وبذات الوقت يرون المؤمنين، يدخلون الجنة؛ وهذا محض إنذار، لأنه لم يقع، فتنذرك الآية حتى لا تكون من أولئك الذين سيستحقون نتيجة عصيانهم، واستكبارهم ذاك المصير: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾سبأ.٤٢

يمكن لك أن تتجنب ذلك بالإيمان بوحدانية الله، والعمل الصالح بدلاً عن الشرك، بكل تفرّعاته ، وعن الاستكبار، والإفساد في الأرض.

﴿٢٨﴾

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

يُخبر الله تعالى ذكره الذي: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾غافر١٩، وجواباً على قولهم:﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أنهم يكذبون حتى في قولهم ، وما ذلك إلاّ لأنه: ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم﴾ الذي ﴿كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ علمهم به ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن يُبعثوا إلى الآخرة.

والآن يُثاب الصادق، ويُجازى الكاذب، فحتى لو ردّهم الله تعالى إلى الحياة الدنيا ﴿لَعَادُواْ﴾ إلى ما كانوا عليه من عصيان لأن الكَذِب دَيدَنهم.

﴿٢٩﴾

﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

الفكرة التي يستندون إليها في عصيانهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ لأن هذه الفكرة من شأنها أن تجعلهم يستمرّوا في العصيان، وإنكار الشرع الإلهي، ولذلك فحتى في الآخرة، يريدون العودة إلى الدنيا، كي يتهرّبوا من المواجهة مع الحق الذي كانوا يعلمونه وبذات الوقت يخفونه، وهم يقولون بالحياة الدنيا فحسب، وينكرون البعث. ﴿وَقَالُواْ﴾ أي شعارهم في ذلك: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ﴾ عندما نخرج من الدنيا ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ إلى الحِساب.

﴿٣٠﴾

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

للمرة الثانية يبيّن الله جل جلاله في مبتدأ آيتين: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾، والكلام موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يجعله أكثر قوة، وأكثر صبراً، فالله جَلّ شأنه، يبيّن له عاقبة هؤلاء، وإلى جانب ذلك، فالكلام مفتوحٌ أمام الناس جميعاً في بيان عاقبة الكفار، وهذا بذاته تحذير للكفار كي يقوا أنفسهم هذه النهاية، وألاّ يستأنفوا مسيرة العِناد التي انتهجها سالفوهم. وإن كان الله عز وجل قد بيّن حجم عِناد أولئك، فالقول لِمن يحذون حذوهم بأن يتعظوا من هذا الإنذار الإلهي.

قال الله في الآية٢٧: ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ﴾، والآن يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ﴾. وجاءت كلمة ﴿وُقِفُواْ﴾ بكسر القاف، وهذه الحركة تفرّق بين حالتين من الوقوف، فيمكن لك

أن تقف في مكان ما من تلقاء نفسك، وتمتلك حرية ترك المكان الذي وَقفتَ فيه، ولكن إذا وُقِفتَ، فذلك يعني بأنك لم تعد قادراً على المغادرة من تلقاء نفسك، لأنك بالأصل وُقِفت رغماً عنك، وليس وَقفت بمحض إرادتك، فأنت موقوفٌ، ولستَ واقفاً، وفي السجون، غُرَف التوقيف، أي يتم توقيف الناس فيها ريثما يُبَث في شأنهم، والموقوف أصبح رهن غرفة التوقيف.

فهنا الموقِف هو الله تعالى، وقد أوقف الناس جميعاً يوم الحِساب، وهم يرون النار، فقال الله جل جلاله: ﴿وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي وُوجِهوا بالعِقاب الذي وعدهم به ﴿رَبِّهِمْ﴾، فمَن ذهب إلى الجنة، قد ذهب، ولبث هؤلاء في مواجهة العقاب، وعندئذ يُخبرهم الله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الذي كنتم تخفونه وتكذّبون به. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

دوماً عليك أن تدرك أن هذه الآيات هي تحذير للناس كي لايجعلوا أنفسهم في ذاك الموقف، والقرآن مفتوح لهم من أجل هذا المقصد.

الباب الثالث عشر

الحَســـرة

﴿٣١﴾

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

ما يزال التحذير الإلهي مستمراً لأهل العِناد والاستكبار، فاعلموا أنه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ الخسارة الجسيمة التي لاتعويض لها، وأنكم سوف تمنون بذات الخسارة إن سلكتم نهجهم.

هنا إخبار من الله بما سيحدث لأولئك، وما الذي سيقولوه، فقد أصبحوا في حكم الذين حق عليهم العقاب نتيجة عصيانهم، ونتيجة ما ألحقوه من الأذى بأنفسهم، وبكل مَن تمكّنوا منهم، فهؤلاء واستناداً إلى قولهم بعدم البعث، وعدم الحِساب، يُقدمون على فعل أي

شيء دون رادع، فينتهكون الناموس الإنساني، يستحلّون أعراض، وأموال، ودماء الناس، يبثون الفتن ، يُطلقون الإشاعات، فكل ما فيهم أذى في أذى.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ ساعة الحِساب يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، وفي ذروة هول هذه المباغتة التي ستضعهم في مواجهة أعمالهم: ﴿قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. الحسرة هنا بمعنى الندم الشديد على عدم فعل عمل من باب الاستهتار، وكان بالمستطاع فعله، فيتحوّل الندم إلى حسرة في القلب.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾مريم٣٩

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾الزمر٥٦

فالحسرة تنتج عن التفريط، والذي يكون قادراً على التفريط، يكون قادراً على عدم التفريط، لكنه يجنح إلى التفريط استهتاراً ولا مبالاةً ﴿قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. أي في حياتنا، والتفريط هنا بشرع الله، فلم يكونوا وقّافين عند حدود الله تعالى ، بل كانوا معتدين هذه الحدود، وللتفريط فروع، مثل التفريط بالصحة، فيستهلك المرء صحته بالأهواء، والتفريط بالمال، فيبذر ماله دون طائل، وفي العلاقات

الاجتماعية، فيفسد كل علاقاته مع الآخرين، والتفريط بالسمعة، فيسيء إلى سمعته بالمجون، ولكل تلك الفروع عواقبها وآثارها على الإنسان، لكن التفريط الأكبر يكون في الدين.

تنتهي الآية الكريمة بإخبار الله:﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾، وهذا مشهد تصويري يحفز مخيّلتك على التصوّر استناداً إلى إخبار الله.

والأوزار، جمع وزر، وهو الذنب، فكما أن أهل الجنة تحملهم صالحات أعمالهم إلى درجات الجنة، لأنهم كانوا يحملون، ويتحمّلون مشقّة الطاعات، والإحسان، والإنفاق في سبيل الله، بكل ما يستطيعون من طاقات الصبر، وكظم الغيظ، فهذه الأعمال الصالحة، حان وقتها الآن كي تكافئهم بأمر الله، فيجنوا الحصيلة: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾آل عمران١٧١، فكذلك أهل النار، يمضون في أفواج، ﴿وَهُمْ﴾ يرزحون تحت أثقال ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ التي يحملونها ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ إلى دركات النار.

وَزِرَ، يَزِرُ، فهو وازر، ويُشتق من ذلك الوزير، لأنه يتولى حمل الأثقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي★ هَارُونَ أَخِي★ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي★ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾طه ٢٩-٣٢.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾الفرقان٣٥.

تلك هي الحصيلة الوخيمة التي نتجت عن تلك السيئات التي اقترفوها:﴿ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾.

من هنا يمكنك معرفة أن الوزر، هو الذنب الثقيل، وكان يمكن أن تكون كلمة الذنب بدلاً عن الوزر، لكن جاء الوز، لثقل الذنب وعظمته.

﴿٣٢﴾

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

بَيّن الحق سبحانه وتعالى بأن ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هي ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ مقارنة بالدار ﴿الآخِرَةُ﴾ التي هي ﴿خَيْرٌ﴾ من لعب الدنيا ولهوها ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، واللعب مهما طال أمده، فلا بدّ أن ينتهي ، ومهما طال أمد اللهو بإنسان، فلابد له من نهاية، ولذلك على الإنسان ألاّ يعقد الآمال الكبرى على أمر زائـــــل،

بل يتخذ من حياته الدنيا وسيلة لفعل الخير، والعمل الصالح، وهنا إخبار من الله تعالى ذكره للناس جميعاً بأن الدار ﴿الآخِرَةُ ﴾ هي ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾من ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي ماهي ﴿إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قياساً بالخير الذي يكون في الدار﴿الآخِرَةُ ﴾، ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ حتى تكونوا متقين كي تبلغوا خير الدار ﴿الآخِرَةُ ﴾، ولا تعقدوا كل أمانيكم على خير ناقص وزائل. فنحن ما نزال ضمن أجواء الذين يتعلقون كل التعلق بـ ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، فجاء بيان الله: ﴿إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ رداً على قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وبيانه: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ رداً على قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وفي كل ذلك: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ دعوة من الله جل شأنه بأن يعقلوا هذه الحقيقة، ويتركوا عِنادهم، ويتقوا قبل أن يفوت الأوان، ويصبحوا مِن مِلّة أولئك الذين: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ وأن الله عز وجل يدعوهم إلى عدم ذلك، بل يعقلوا، ويعملوا الحسنات، فتحملهم حسناتهم إلى جنات النعيم.

الباب الرابع عشـــر

الجحود بالرسالــة

﴿٣٣﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾

ذات ليلة جاء أبو جهل خلسة ليستمع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن لأصحابه، وصدف أن تسلل إلى ذات الموضع أبو سفيان صخر بن حرب، وكذلك الأخنس بن شريف، دون أن يعلم أحدهم بوجود الآخر، وهم يسترقون السمع إلى قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للقرآن، وطال بهم ذلك حتى الصباح، فانصرفوا، ولكنهم التقوا معاً في الطريق، فسأل أحدهم الآخر عن سبب مجيئه إلى هذا المكان في ذاك الوقت المبكّر، فكانت المصارحة بينهم. عند ذاك بدأ القلق يساورهم في حال سماع شباب قريش بذلك، ولعلّهم يحذون حذوهم في المجيء والاستماع إلى محمّد - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن. فكان أن اتفقوا بألاّ يعودوا إلى ذلك مرة أخرى، لكن في الليلة التالية، تسللوا واحداً تلو الآخر ظناً من كل واحد منهم بأنه الوحيد القادم للاستماع، وحدث أن التقوا مصادفة مرة أخرى في طريق العودة، فأخذ كل واحد يكيل اللوم للآخر على نقض الاتفاق، ثم عادوا واتفقوا كرة أخرى على عدم العودة. لكن في الليلة الثالثة تكرر ذات الأمر معهم، فلم يملكوا أنفسهم من عدم التسلل خلسة، وكل واحد يظن بأنه الوحيد المتسلل إلى المكان، وحدث أن التقوا في طريق العودة للمرة الثالثة، فاتفقوا مرة أخرى على عدم تكرار ذلك.

بعد ذلك أخذ الأخنس بن شريف عصاه، وقدم إلى أبي سفيان في بيته، وقال له: (أخبرني يا أبا حنظلة، ما رأيك فيما سمعت من محمد)؟

قال أبو سفيان: (يا أبا ثعلبة، والله لقد سمِعتُ أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمِعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يُراد بها).

قال الأخنس: (وأنا والذي حلفت به).

عندئذ بَرَحَه، مُتجهاً إلى أبي جهل في بيته، وقال له:(يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟

قال: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف لشرف أطعِموا، فأطعمنا، وحملوا، فحملنا، وأعطوا، فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كَفَرَسَي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى نُدرك هذه ؟ والله لانؤمن به، ولا نُصدّقه).

أمام هذه الازدواجية التي ينتهجها القوم تجنّباً من الاعتراف بنبوّته، وقد اختلطتْ بهم الأوراق، فهم ما يزالوا ينظرون إلى الأمر من منظور دنيوي صرف، فيتهيّأ لهم بأن الاعتراف يُرَتب عليهم تنازلات دنيوية، هي في جوهرها اقتصادية، ولذلك يريد أحدهم أن يعرف لبّ هذه الحقيقة من فم الآخر، ولو كان ذلك في خلوة بينهما، فذات يوم عندما اختلى الأخنس بأبي جهل، واجهه بهذا السؤال البالغ الحساسية، وطلب منه الإجابة، فلم يكن من أبي جهل إلاّ أن يعترف له بهذه الحقيقة.

قال له الأخنس: (أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري)؟

أجاب أبو جهل:(والله أن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجاب، والندوة، والنبوة، فما الذي يكون لسائر قريش).

وكان أبو جهل قد صارح رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما التقاه وصافحه، وحينها قال له رجل: (ألا أراك تصافح هذا الصابي)؟!

ردّ عليه أبو جهل:(والله أعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً).

وقال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم:(لا نتهمك، ولا نكّذبك، ولكنا نكذّب الذي جئتَ به).

فهذا الواقع المرير من شأنه أن يبعث الحزن إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو يدعو إلى أمّة إسلامية كبرى تنقذ العالم من الظلمات إلى النور، ولا أحد يكون فيها مفضّلاً على أحد إلاّ بمقدار ما هو عليه من تقوى، كائناً مَن كان: لوناً، أو لغة، أو قوماً، أو نفوذاً، أو مالاً. وفي ذلك يقول:" يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على

أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى "[٢]
وهؤلاء يُحجّمون الأمر، ويقصرونه على القبيلة، والعشيرة، وتبقى نظرتهم ضيّقة محدودة، فلا يبتغون أن يتحرروا من ضيق النظر إلى فسحة ما هو إنساني عام.

فانظر إلى دقّة الآية، وإلى جماليات تنسيق كلماتها، وإلى سِعة معانيها رغم قِصَرِها: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾. إننا ﴿نَعْلَمُ﴾ ما ينتابك من حزن نتيجة ما يطلقون من أقاويل، ولا عليك ممّا يقولون: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾ كشخص، أو يريدوا أن ينالوا منك،﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فأنت تحمل آياتي إليهم، وهم يجحدون آياتي، فهؤلاء يجعلون من أنفسهم عقبة ليس أمامك، بل أمام نشر شريعتي التي تحملها إلى عِبادي.

ونظير ذلك:﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح١٠

وجاءت كلمة: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بمعنى ينكرون رغم أنهم يعلمون، وتكتنز الكلمة بقوة معانيها ودلالاتها ضمن سياق الآية، فالجاحد هو ناكر المعروف، فهؤلاء يتزمّتون ولا يريدون أن يروا ما هو أبعد من هذا الضيق الذي وضعوا أنفسهم فيه، ولذلك وصفهم الله تبارك وتعالى بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ والكلمة تشير إلى الظلمة، وكل ظالم يعيش في ظلمة النفس، ومن منطلق تلك الظلمة الداكنة، يمارس أفعال الظلم، وآيات الله وحدها، هي القادرة على إنارة النفس المظلمة، مهما كانت الظلمة مستبدَة بها.

إن هؤلاء ﴿يَجْحَدُونَ﴾ هذا الفضل من الله الذي يبيّن لهم سبيل تحرير نفوسهم من قوقعة القبيلة، والأوثان، والوأد، والتمييز، إلى ما هو أسمى وأرقى.

وهذا الكلام يلبث مستمراً للذين ينشرون القرآن، بعد محمّد صلى الله عليه وسلم ، ويلقون مالقيه من الجاحدين.

﴿٣٤﴾

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

[٢] أخرجه أحمد في مسنده،٥ /٤١١ برقم ٢٣٥٣٦

فاعلم يا مُحَمّد أنك تكمل مسيرة إصلاح العالم، وأن هؤلاء استمرار لـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين سبقوهم في تكذيب الرسل الذين ﴿صَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ ولم يفقدوا أمل الإصلاح، رغم كل ما لقوه من تكذيب، وما لحقهم من أذى﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ وكذلك سيأتيك نصرنا مع الصبر والاستمرار في نشر الإصلاح. ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾، فلا شيء يمكن له أن ينال من هذا النصر، فهذه: ﴿كَلِمَاتِ اللّهِ﴾ التي ﴿لاَ مُبَدِّلَ﴾ لها، ﴿وَلَقَدْ جَاءكَ ﴾ أيها النبي ﴿مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نصرناهم على الظالمين.

﴿٣٥﴾

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

تتعرّف في هذه الآية الكريمة على جانب من جوانب العلاقة بين الله عز وجل المُرسِل، وبين محمد صلى الله عليه وسلم، الرسول إلى الناس، وكيف أن مهمّة الرسولية لا تخرجه عن طبيعته الإنسانية، وهذا يُتيح لك أن تتعرّف على ملامح شخصيته كإنسان ينتمي إلى ما تنتمي إليه.

ثم ترى كيف أنه يتدرّج في تطوير شخصيته من خلال ما يُعلّمه الله سبحانه وتعالى، ومن حُسن حظ الإنسان أن هذه النقلات التعليمية الكبرى لا تحدث سراً بين المُرسِل ورسوله، وبذلك كان سيفوت الإنسان الاطلاع على حيثيات هذا التطوّر لدى الشخصية الإنسانية، ولكن وفضلاً من الله تعالى على عِباده، فإنه -جل شأنه- جعل حيثيات هذه العلاقة في العلَن، وهذا يفسح أمام الإنسان مجالاً كي يطوّر شخصيته في علاقته مع الله أولاً، ثم علاقته مع نفسه، ثم علاقته مع أسرته، ثم علاقته مع مريديه وخصومه. فالنزعات الإنسانية، سلبية كانت أم إيجابية، تبقى هي هي لدى الناس جميعاً، ولكنهم يتطوّرون على مقدار ما يتحكّمون بهذه النزعات، ويوظفونها توظيفاً إيجابياً.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ يا مُحَمّد ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، وهذه المرحلة جاءت وفق تدرّج، ولعل النبي- صلى الله عليه وسلم- يريد لهؤلاء أن يؤمنوا، لأنه يعلم عاقبة الجاحدين، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لإنسان يتمتع بروح إنسانية عالية، وبذلك فإنه لايريد الأذى لأي إنسان، وعندما يرى هذا الإنسان يقدم على أذى نفسه، يحاول أن ينقذه.

هنا يبيّن الله تعالى ذكره جوهر العلاقة بين الإنسان الصالح، والإنسان الفاسد، فلا يذهب الصالح إلى تقديم تنازلات، أو فرض الإصلاح بالقوة على الفاسد، ويكون الاكتفاء بالموعظة الحسنة، فالذي يبتغي الفهم، تكفيه الموعظة الحسنة، والذي لايبتغي الفهم، لاتكفيه كل التنازلات، ولاتثنيه قوة العالم عن نيّة الفساد. وما دام عاقداً على نيّة الفساد، فإنه يلبث في دائرة سوء الظن، فلا يُحسن الظن بأي بادرة خير تبدرها نحوه، وإن قدّمتَ تنازلاً، ظن بأن ذلك نتيجة قوة منه، وضعف منك، فيزداد تشبثاً بموقفه، ويُطالبك بتنازلات أخرى، وعليك أن تميّز جيداً بين الإرشاد، وبين التنازلات، أو استخدام القوة، ففي جميع الأحوال يبقى الأمل قائماً بالإصلاح مهما بلغ حجم الفساد لدى شخص ما، ولا يجوز فقدان أمل إصلاحه بأي حال من الأحوال، لكن دون تنازلات، ودون قوة.

﴿فَإِنِ استطعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ﴾ حتى تثنيهم عن ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، لن تكون هدايتهم إلاّ بمشيئة الله ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ولَمَا أذِنَ لهم أن يُكذّبوا بآياته. فلو أتى لهم ببرهان من نفق، والنفق يكون تحت الأرض، فيدلفه المرء من موضع، ويخرج من موضع آخر، وقد جاءت كلمة النفق لتدل على مدى ازدواجيتهم، وظلمتهم في آن، فالنفق بطبعه مظلم، وهنا إشارة إلى الظلمة التي يعيشون فيها، والكلمة قريبة من النفاق الذي هم فيه، فهؤلاء عندما يطلبون منك يا محمد ما يطلبون، لا يكون ذلك حتى يؤمنوا، بل أنهم ينافقون، وبراهين الله جلية في آياته، وهم يعلمونها، لكنهم يكتمون علمهم بها.

﴿أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء﴾، وهي كلمة تشير إلى السلِم، فالسلّم هو وسيلة للصعود إلى مكان ما بسلام، ودرجات السُلّم، تسند قدميك مع كل خطوة صعود، وتصعِدك بأمان حتى تبلغ ما تريد، فإذن نظير النفق المظلم الذي في جوف الأرض، فسحة السماء المُنارة، فلو هبطتَ ﴿نَفَقاً﴾ وأتيتَ لهؤلاء ببرهان من براهين وحدانية الله من جوف ﴿الأَرْضِ﴾، أو صعدتَ ﴿سُلَّماً﴾ وأتيت لهم بمعجزة من عند الله، سوف يُطالبونك بالمزيد، ولن يهتدوا بأي برهان، أو معجزة، لأنهم لاينشدون الهداية، بل يبتغون المكوث في قعر العصيان، فليس ذلك لأن الله غير قادر على هِدايتهم، بل: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾.

من كل هذا تعلم بأن الإنسان عندما يريد الهداية، فإنها تأبى أن تأتيه إلاّ إذا أذِنَ لها الله، وعندما يريد الضلال، فإنه يأبى أن يأتيه إلاّ بإذن الله، وقد كان ذلك حتى بالنسبة لإبليس الذي أذِنَ له الله أن يضل عندما استكبر، وأراد الخروج عن طاعة الله، وكان بمقدور الله أن يجعله يسجد طوعاً، أوكرهاً. لكن مشيئته تكمن في منح عِباده الحرية المطلقة سواء في الطاعة، أو العصيان، وعبارة: ﴿فَإِنِ استطعْتَ﴾ لعل فيها إشارة بأنه لو استطاع ذلك، لفعل

﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ بمعنى أنك لا تستطيع، وحتى لو ﴿اسْتَطَعْتَ﴾ أي جعلك الله مستطيعاً ذلك، لكان الأمر عندهم سيّان.

وهذا الأمر يكون لعموم المسلمين، حيث يقوموا بتبليغ الإسلام إلى الناس، ولايقتصر ذلك على أهل العلم فحسب، بل يشمل سائر المسلمين في جميع مواقعهم، فكل واحد يمكن له أن يعطي انطباعاً إيجابياً عن التعاليم الإسلامية؛ ولعل شخصاً غير مسلم يتأثر بموقف طيّب من مسلم، فيكون ذلك سبباً في هدايته إلى الإسلام. فأنتَ الغاية من الرسالة التي حملها الرسول مِن المُرسِل إليك، وقد أودع الرسول القرآن في أمانتك، وفي عهدتك، فلبثتْ العلاقة بينك وبين الله في استئناف مسيرة الاصلاح بما يُقدّرك الله عليه، وقد تبيّن لك من خلال هذه الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يكبر عليه الإعراض، وكان يريد أن يتجاوز مهمّة الإبلاغ، رأفة بالناس، ومن منطلق المعرفة الإنسانية، ولكن الله تبارك وتعالى، بيّن له الاكتفاء بالبلاغ، وهو أعلم بالذين يستكبرون على الإيمان، ويستهزؤون بآيات الله، وهذه تعاليم الله عز وجل مع أنبيائه ورسله، وممّا يُروى عن أبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، عندما جاءه رجل جائع يسأله طعاماً، ولمّا عَلِم إبراهيم أن هذا الرجل لا يؤمن بوحدانية الله، قال له: لن أطعمك إلا إذا آمنت بما أدعوك إليه من عبادة الواحد الأحد. رفض الرجل وآثر جوعه على أن يؤمن بنفاق وقال بأنه مصر على عبادة النار وانصرف جائعاً.

فأوحى الله إلى نبيه بأنه يطعم ذاك الشخص أربعين سنة على كفره، فلِمَ اشترط عليه تبديل دينه، فانتبه إبراهيم أن ربه أعظم من أن يفرض الإيمان به على شخص يأبى هذا النور، وأن ربه لا يهدد بالجوع والفقر والمرض حتى يؤمَن به عنوة، فتعلّم درساً جديداً في مدرسة ربه، وما لبث أن ركض يلتحق بالرجل حتى يزيل عنه سوء الفهم الذي أعطاه عن الله، وهذا بذاته نوع من الاعتذار لعبد الله هذا، فانظر كيف أن نبياً بحجم إبراهيم يعرض الاعتذار على شخص غير مؤمن، وبإيعاز من الله حتى لا يخرج هذا العبد من عند النبي غضباناً، وهذا النبي يمثل كلمة الله. عندما لحق به، عرض عليه الطعام ساحباً عرضه السابق، فوقف عابد النار ونظر لإبراهيم قائلا له: لن أقبل دعوتك حتى تخبرني ما الذي غيرك ؟

ولم يكن أمام النبي إلا أن يصارحه بما جرى بينه وبين ربه، الذي نظر من عليائه في تحاورهما وتدخل دافعاً نبيه هذا التوجه، فوقف عابد النار دَهِشاً وقال: سبحان الله، هكذا يعاملني ربك وأنا أعبد سواه. فكانت خطواته الأولى نحو مملكة الإيمان بالله.

إن الإيمان هو شعلة نور إلهي تنير نفس الإنسان وروحه حتى لا يلجأ لغير الله، حتى لا يسأل غير الله.

الإيمان بالله يرفع الإنسان ويسمو به حتى لا يستضعف أمام بشر، أو حيوان، أو جان، أو جماد ،ثم إن الإيمان يجعلك في سعة من أمرك، فلا ترغب على بشر أن يؤمن كما أنت مؤمن، ولا ترغب على ابنتك رجلاً لا تبغاه ،ولا ترغب على رجل أن يعطيك من ماله، ولا ترغب على شخص أن يواليك خشية أذى، ولا ترهب شخصاً بحضورك ، وأن تكون أعمالك هي التي تقرب الناس إليك وتحببك بهم ،وتحببهم بك.

يمنحك الإيمان فرصة ثمينة لتتجلى وتتألق فتعيش حالة راقية من الالتذاذ بكمال الإنسان الروحي، يشرق نور الإيمان في عمقك لينمّي فيك الإنساني، إنه ينبهك ويوقظك على حالة الإنسانية العامة لديك في جو من الصحوة والصفاء الذهني والروحي.

﴿٣٦﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

هذا استئنافٌ لحريّة الإنسان ضمن نسيج البناء الروائي للسورة، حيث يكون له أن يقرّر ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ أو يقرّر ﴿وَالنُّورَ﴾، فنحن نستمر ضمن مفرزات ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ منذ الآية الأولى، حتى بلغنا في الآية السابقة إلى ظلمة النفق، ونور الفضاء المفتوح: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي يهيّئون أنفسهم للتغيير، و﴿يَسْتَجِيبُ﴾ -ون – لِما ﴿يَسْمَعُونَ﴾، لأن لديهم نيّة الاستجابة، ولا يعني ذلك أن الجاحدين لا ﴿يَسْمَعُونَ﴾، بل أرتنا الآيات السابقة أن البلاغ يصلهم، وأن البعض كان يتسلل في دجى الليل كي يسمع القرآن من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا الصنف من الجاحدين يستمرّ، فيمكن أن ترى شخصاً جاحداً يستمع إلى القرآن، أو يقرأه خلسة، فيعرف الحق، لكن لايؤمن به، فبيّن الله بأن هؤلاء ليسوا أحياء، رغم أنهم يتحرّكون، ويتحدّثون، وأن قلوبهم ميتة لأنها لا تستجيب للحق. ولذلك ترى أناساً يمضون في الطرقات، ويتحدّثون، لكنك عندما تنظر إليهم، وتتحدّث إليهم تشعر بأن المشاعر الإنسانية ميتة في قلوبهم، وقد فقدوا الحساسية الإنسانية، فقدوا كل فضيلة يتمتع بها الإنسان. فلا مساحة للمحبة الإنسانية في قلوبهم، بل هي ممتلئة بظلمة الحقد والضغينة، فلا تريد أن ترى أحدهم، في حين تسعى إلى رؤية المؤمن، لأنه مُنار ببريق الحيوية التي يكمن فيها نبض الحياة المشعّة. وهذا ضمن

الســـــياق العام للمحوَر الذي تنبني عليه آيات السورة، فنرى كيف أن الآيات، تشكّل سورة من خلال ما تتسوّر به سوُرِ السورة، وكلُ سورة هي محورٌ تتفرّع منه فروع، تنبض في قلب جسد كل آية، فتتحوّل كل سورة بذلك إلى حديقة، وكل آية إلى شجرة يانعة من أشجار تلك الحديقة، وكل كلمة إلى غصن من غصون تلك الشجرة، وكل حرف إلى ثمرة من ثمار تلك الغصون. والسوُرُ شائكٌ حولها، ولا يسمح بدخول أي عابث بشكل مخالف للعبث بالأشجار، لكن أبواب الحديقة مفتوحة ليل نهار لا تغلق في أي وقت من الأوقات، ومهما كانت عوامل الطقس، فيدخل الناس وينتقلون من شجرة إلى أخرى، يستريحون تحت ظلالها، يقطفون ثمارها، يشربون مياه جداولها، يستنشقون عبير زهورها.

وهنا أمام مراحل تعلّم النبي صلى الله عليه وسلم، من الله، وأمام انفتاحه على حكمة الله مرحلة تلو مرحلة، يتبيّن له وللمسلمين كافة، مدى فعالية الكلمة الطيبة: ﴿**ألَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثلاً كَلِمَةً طيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طيِّبَةٍ أصلُهَا ثابِت وَفرْعُهَا فِي السَّمَاءِ★ تؤْتِي أكُلهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ لعَلهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ إبراهيم٢٤، ٢٥. فنرى على مدار الزمن، بعض الذين يكونون في أوج كفرهم وشركهم، يُشهرون إسلامهم عن قناعة تامة ، وهؤلاء لو اجتمعت قوة العالم كلها عليهم، لما استطاعت أن تجعلهم يعتنقون الإسلام، ولكن الكلمة الطيبة استطاعت أن تحيي قلوبهم الميتة، وتمدّها بإشراقة الحياة الجديدة التي انبثقت من نور الإيمان.

﴿٣٧﴾

﴿وَقالوا لوْلا نُزِّلَ عَليْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قلْ إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أن يُنَزِّلِ آيَةً وَلـَكِنَّ أكْثرَهُمْ لا يَعْلمُونَ﴾

ترى في هذه الآية إضاءة إلى ما جاء في الآية ٣٥، فيتبيّن لك أن كفّار مكة كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنزل الله تعالى آية عليه، بمعنى معجزة مثل: الناقة، والعصا، والمائدة. ويبدو أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يريد ذلك حتى يقتنعوا ويهتدوا، ولكن الله عز وجل، رأفة منه على كفار مكة لم يستجب حينما قال لرسوله: **﴿فإِنِ اسْتَطعْتَ أن تبْتغِيَ نَفقاً فِي الأرْضِ أوْ سُلماً فِي السَّمَاءِ فتأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾**. بمعنى أنك

لاتستطيع دون أن نمدك بمقوّمـــــات هذه الاستطاعة، وإن أنزلنا هذه الآية، لن يؤمنوا، وعند ذاك ســـــوف يحل عليهم

العقاب، كما حل على الذين من قبلهم. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾الإسراء٥٩، وهذا يبقى ضمن حرية الإنسان، لأن الله قادر على فرض الإيمان عليهم: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾الشعراء٤ .

إذن، فإن النبي صلى الله عليه وسلم، يريد أن يستجيب الله عز وجل، رأفة بهؤلاء لعلّهم يؤمنون عندما يروا هذه المعجزة التي طلبوها، والنبي صلى الله عليه وسلم، هو إنسان، لايعلم ما يبيّت هؤلاء من نوايا سيّئة، لكن الله الذي لا يخفى عليه شيء، يعلم بتلك النوايا، ولذلك لايريد أن يهلكهم بهذه الاستجابة، لأن نيّة السوء مُبَيّتة لديهم حتى لو أنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿وَقَالُواْ﴾ كفار مكة: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ معجزة خارقة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أجبهم يا مُحَمّد: ﴿ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بأن هذه الاستجابة فيها هلاككم. وقوله: ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى ليس جميعهم، بل هناك مَن يعلمون هذه الحقيقة.

فعدم الاستجابة هي فسحٌ للمجال أمام مَن يمكن له أن يؤمن منهم مع مرور الوقت وتتالي إنزال آيات القرآن الذي سيبقى كتاباً مفتوحاً للهدى أمام البشرية.

الباب الخامس عشــر

أمَـم

﴿٣٨﴾

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

الأمة، هي النوع، والناس جميعاً يشكّلون أمة، فكل إنسان ينتمي إلى أمة البشر، أي نوع البشر، وهو خلق يتمتع بخصائص مستقلة. يبيّن الله للعَبَثيين الذين يظنون أن الحياة فوضى، فيعيشون كالهَمَج بدوافع غريزية مُنفَلِتة، بأن كل شيء مُقتن، ومنضبط. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾

الدابة، هي كلُ ما يدبّ ﴿فِي الأَرْضِ﴾ من صنف الحيوان بشكل عام، ممّا كبر أو صغر، والدب ﴿فِي الأَرْضِ﴾ يكون من خلال الأرجل، أو الزحف على البطن، وما إلى ذلك ممّا يعين على التنقل، ومن ذلك دبيب النمل، ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ مهما كانت نسبة الطيران، منخفضة مثل الدواجن الأهلية حيث تطير بشكل منخفض، أو مرتفعة مثل الطيور البرّية التي تحلّق في الفضاء وترتحل من خلال جناحيها من بلد إلى آخر؛ فكل نوع من أنواع هذه الدواب، وهذه الطيور، يُشكّل أمة مستقلة عن الأخرى: فلا الأرنب يشبه الأفعى، ولا النمل يشبه الفيل، كذلك لا البعوضة تشبه الخفّاش، ولا الدجاجة تشبه النحلة، وما إلى ذلك ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ مستقلة كما أنتم. وهذا يبيّن غِنى الله في خَلقه. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، ما فرّط الله عز وجل في كِتاب الخَلق الذي هو اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيْءٍ﴾، فلا شيء البتة مِن خَلق الله لاوجود له في هذا الكتاب، فكل شيء مكتوب فيه بدقّة بالغة.

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، ما أكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد "[٣]

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ فكل شيء متقن، منضبط، والذين يفرّطون عليهم أن يعتدلوا من خلال التشريع الإلهي الذي لاتفريط فيه، وقد سبق أن وردت ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ في الآية٣١ عندما قال ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاء

[٣] رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

اللهِ﴾: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فالحسرة ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ هناك، وهنا ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ فهنا يتخلّص المفرّطون من كل حالة للتفريط في حياتهم، كونهم يأتون إلى تشريع إلهي معتدل لاتفريط فيه.

وهذا مجدّداً ينبهك إلى أهمية اليقظة، فلعل لحظة لامبالاة تبدر منك، تقلّب كل شيء رأساً على عقب بالنسبة إليك، فمادام كل شيء جاء من الله دون تفريط، فإن السلامة تكمن في اتخاذ الحياة بمسؤولية عالية دون تفريط، لأن التفريط يفضي بصاحبه إلى الحسرة، سواء في الدنيا، أو الآخرة. وقد وردت الكلمة مرتين تنبيهاً لك، للنظر إلى هذه المعادلة، فما أتاك دون تفريط، لايجوز لك أن تتخذه بتفريط، لأن ذلك يُحدث خللاً في المعادلة؛ وهذا يعكس خللاً إلى حياتك برمّتها، فيختل توازنك، وتختل علاقتك الزوجية، وتختل تربيتك لأبنائك، وتختل مهنتك، وتختل علاقتك الإنسانية بالمجتمع، وما ذلك إلاّ لأن علاقتك بنفسك قد اختلت، وأنك جنحتَ بها شطر الإفراط:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، أي أنك إمّا أن تقطف زهور الانضباط، أو توخَز بأشواك الإفراط، هذا في الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، أي كل هذه الأمم تحشر إلى ربها الذي خلقها لأنه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿٣٩﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَالَّذِينَ﴾ لايُبالون بهذه الحقائق التي تبيّنها لهم آيات الله، هم ﴿صُمٌّ﴾لأنهم يستمعون الحق، ويتولّون عنه، فإن جاء تحذير إلى ثلاثة أشخاص يتواجدون في مكان واحد، اثنان منهم يسمعان، والثالث به ﴿صُمٌّ﴾. أحد الاثنين يعمل بما سَمِع ويتجنّب الأذى، والثاني لايبالي به، فيقع الأذى عليه وعلى الثالث الأصم معاً، وبذلك يكون مثله مثل الأصم الذي لم يسمع التحذير. فنفع السمع يكمن في مدى الانتفاع به، سواء بتحقيق المكسب، أو بتجنب الأذى، فإن لم يحقق لصاحبة مكسباً، أو يُجنبه أذى، فوجوده يكون كعدم وجوده. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ قال ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي استمعوا، ثم﴿كَذَّبُواْ﴾، فلا تستطيع أن تكذب

شـــــــــيئاً إلاّ إذا سمعته، فهؤلاء﴿صُمٌّ﴾ ، لاينتفعون بمـــــا أنعـم الله بـه عــــــليهم مـن نعمة الســـــمع،

﴿وَبُكْمٌ﴾، ليس بالضـرورة أن يكون الإنسـان الأصـم أبكمـاً في الحالـة الطبيعيـة، فقـد يكـون أصماً، وقد يكون أبكماً فحسب. لكن في هذه الحالة، كون الصم والبكم أصبحا قِياسَين، يكـون الأصم أبكماً أيضاً، وما ذلك إلاّ لأنـه قـادر علـى النطـق بـالحق، لكنـه لايفـه بهـذا الحـق الـذي يعلمه، فوصفه الله تعالى بالبكم، ثم قال: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، فحتـى لـو كـان الإنسـان في الحالـة الطبيعية أصم السمع، وأبكم النطق، قد يكون في النور، لأن الأصم يمكـن لـه أن يُـدرك شـيئاً من خلال حدسه، فيعلم الحق، وهو قادر على التعبير عن نفسه بوسائل غير النطق، مثـل الكتابة، والإيماء. فهذا يكون أصماً وأبكماً كحالة عضوية، ولكنه يتلقى الحق، وينطق بـه بمـا آتاه الله تعالى مِن مَلِكاتٍ أخرى، وبذلك فإنه لايكون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾رغـم مـا بـه مـن صـم، وبكم، لكن هؤلاء الذين يصفهم الله عز وجل في الآية يعيشون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لايسـتنيرون بما يسمعون، ولا تخرج كلمة حق من أفواههم. وذلـك هـو الصـم الأكبر الـذي يكمـن في عـدم الاستجابة لسماع الحق، وذلك هو البكم الأكبر الذي يكمن في عدم النطق بشهادة أن لا إلـه إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله.

﴿مَـن يَشَإِ اللّـهُ يُضْلِلْهُ﴾ يدعـه في ظلاميـة ضـلاله ﴿وَمَـن يَشَـأْ يَجْعَلْـهُ عَلَـى صِـرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يُبارك له ما هو عليه من ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٤٠﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

يوجّه الله تعالى رسوله كي يقول لأهل مكة الذين يشركون بالله، ويعدلون به غيره:

﴿أَرَأَيْتَكُم﴾، وهذه كلمة بلاغية مكثفة بمعنى أرأيتم حالكم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ﴾. مـا يمكـن أن يلقـاه الإنسـان في الـدنيا نتيجـة مـرض، أو محنـة، أو كـرب، ﴿أَوْ أَتَـتْكُمُ السَّـاعَةُ﴾ القيامة، ﴿أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ﴾ تسألون النجاة ﴿إِن كُنـتُمْ صَـادِقِينَ﴾في قـولكم بـأن الأصـنام تنفعكم. وقد جاءت الآية بصيغة سؤال، أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. بمعنـى عليـكم أن تواجهـوا أنفسـكم بهـذه الحقيقـة، وتتركوا الأصنام.

﴿٤١﴾

﴿بَل إِيَّاهُ تَدعُونَ فَيَكشِفُ مَا تَدعُونَ إِلَيهِ إِن شَاءَ وَتَنسَونَ مَا تُشرِكُونَ﴾

الحقيقة أنكم تسألون الله، لأنكم تعلمون أن الأصنام لاتملك أن ترفع عنكم الضر، ﴿فَيَكشِفُ مَا تَدعُونَ إِلَيهِ﴾، وهنا تبقى مشيئة الله مفتوحة، فـ ﴿إِن شَاءَ﴾كشَفَ الضر، ﴿وَتَنسَونَ مَا تُشرِكُونَ﴾ أي تعرضون عن الأصنام حين يأتيكم العذاب لأنها غير قادرة على كشف الضر.

﴿٤٢﴾

﴿وَلَقَد أَرسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبلِكَ فَأَخَذنَاهُم بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعُونَ﴾

تكمن مهمّة الرسل في إيصال شرع الله إلى الناس، ويستأنف أهلُ العِلم، والدعاة هذا المنهج، دون تجاوز ذلك، لأن الله هو الذي يتولى أمر عباده بحكمته. فاعلم أيها الرسول بأننا﴿أَرسَلنَا﴾ رسلاً ﴿إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبلِكَ﴾، وقد أوصلوا ما حملوه إلى أقوامهم،﴿فَـ﴾ عندما كذّبوا بآياتنا ﴿أَخَذنَاهُم بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

تبيّن لك الآية بأن الناس كلّهم عيال الله، ولايجوز لإنسان صالح أن يعتدي على أخيه الفاسد، ثم لعلّ الذي يظهر بأنه صالح، يكون فاسداً في عقيدته، والذي يظهر بأنه فاسد، يكون صالحاً في عقيدته، وإلاّ ستتحوّل الحياة إلى فوضى عارِمة، كل شخص يقول بأن الآخر على خطأ، فيجيز بذلك لنفسه الاعتداء عليه. هنا تنتبه بأن الله لم يأذن حتى للأنبياء والرسل بمثل هذا الإجراء.

ولكن لماذا نهى الله عن ذلك؟ الجواب، أن الإنسان لايعلم ما الذي سيحدث غداً، فلعلّ هذا الذي تعتدي عليه حتى يؤمن بالقوة، تكون لديه نيّة الإيمان من خلال الكلمة الطيبة التي أرسلها الله تعالى إليه من خلال الرسل وتدخّلك التعسفي يعيقه عن ذلك، لأنك ستشعِره بأنه آمَنَ خوفاً منك، وتفادياً لوقوع عِقابك عليه، وفي ذلك فإنك تفسِد ما أسّسَته الكلمة

الطيبةَ في قلبه، ثم لعلّك أنت تتحوّل إلى إنسان فاسد، بعد أن كُنتَ صالِحاً، وذاك الذي كُنتَ تراه فاسِداً، يهديه الله، ويُصبح مِن دُعاة الإيمان.

تبيّن لك الآية بأن الله وحده هو الذي يعلم الغيب، وأمرُه أن تبلّغ القرآن، دون أن تتجاوز ذلك، والله يفعل ما يشاء.

في هذه الآية تعلم بأن الله أخذ المُكذّبين﴿بالبَأسَاء﴾ أي جعلهم تحت سطوة ﴿البَأسَاء﴾ حتى أصبحوا بائسين، يُعانون وبال البؤس الذي أخذهم الله تعالى به. لم يقل: ﴿فأخذناهُمْ﴾ بالبؤس، بل ﴿بالبَأسَاء﴾، لأن ﴿بالبَأسَاء﴾ تشمل ألوان الفاقة، والعَوز، وكل تفرّعات المحل والجفاف، من جوع، وبرد، وخوف، ممّا يجعل المرء بائساً، فترى علامات البؤس على مَظهره، وقد يحل عليه ذلك، وهو يكون معافى في بدنه، بل ولديه أموال وممتلكات، لكن الحِصار الشديد أدّى إلى نفاذ المواد الغذائية، فلا يستطيع الحصول عليها، بل ويُعاني البرد وهو في قصره الفاخر، بسبب انقطاع الكهرباء، وعدم وجود الوقود، وحتى شربة الماء، لايحصل عليها إلاّ بالكاد، بسبب انقطاع المياه، فترى كل وسائل الرفاهية قد انقطعت بهؤلاء الناس، وغدوا يعيشون في نمط واحد من المعيشة البائسة. ثم قال الله جَلّ شأنه: ﴿وَالضَّرَّاء﴾ وهذا يعني إضافة إلى ذلك، جعلهم يتضررون، أي يتعرّضون للأوبئة، وتتعرّض أموالهم وممتلكاتهم للضرر، نتيجة الزلازل، أو الفيضانات، أو العواصف، أو الفلتان الأمني، أو حتى الحروب، سواء أكانت خارجية، أو داخلية، ممّا يجعل الخراب يطال البنية التحتية برمّتها. ذلك أن الله عز وجل، يتولى عقاب المفسدين بهذا الإجراء، ليس للعقاب بذاته، بل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يصلحون من شأنهم، و﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله كي يكشف ما حل بهم من مفرزات ﴿البَأسَاء وَالضَّرَّاء﴾، وبذلك يبدؤون صفحة جديدة من حياتهم على أنقاض صفحة الفساد.

﴿٤٣﴾

﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

يبيّن لك الله بأن ذاك الإجراء الذي انتهى بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾أي لعل ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تلين لِما لاقوا مِن مُعاناة شديدة، فيجعلهم ذلك يصلحون، و﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله تعالى

بالتوبـــــــــــــــة، لكـــــــــــن هنـــــــــــــا يبـــــــــــــيّن

الله أنهم لبثوا في عنادهم، وبدل أن تلين ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ و ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾، ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ واتبعوا خطوات الشيطان الذي ﴿زَيَّنَ لَهُمُ﴾ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الفساد.

تعلم من ذلك بأن الآلام التي يتلقاها الإنسان، تجعله رقيقاً، فيتنازل عمّا هو عليه من استعلاء، ويتواضع، ويتضرّع إلى الله، ﴿وَلَكِن﴾ هؤلاء على ما كانوا عليه من جور، لم تلن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، بل ﴿قَسَتْ﴾، فقد جعلهم الشيطان يُعجَبون بمعاصيهم، وهنا تعلم بأن المعاصي، تغلّظ القلوب، وتجعلها قاسية، فتتفاقم لدى المرء نزعة الإعجاب بنفسه، حيث يزيّن له الشيطان كل هذه العوامل.

﴿٤٤﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

في هذه الآية يأتي استكمال ما يشاء الله لهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ انظر إلى بلاغة العِبارة ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. النسيان هنا بمعنى عدم الاتعاظ من الذي وقع عليهم نتيجة ﴿الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، فقد تجاهلوا السبب الذي جعلهم يتلقون كل ذلك، مثل الذي يعلم بأن هذه المعصية، تسبّب له هذه الكارثة، فبدل أن يتعظ بهذه المعرفة، ويتجنّب المعصية، يُعاود إليها.

وهنا ترى بأن الله ينعم عليهم بنقيض ﴿الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الخيرات، والعمار، والازدهار ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي بدل أن يجعلهم ذلك يشكروا الله على تلك النعَم، أحسّوا بأنهم انتصروا في نهاية الأمر، و ﴿فَرِحُوا﴾ بنصرهم، عند ذاك: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أخرجناهم ممّا هم عليه من رفاه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. جُردوا من كل شيء، وكلمة ﴿مُّبْلِسُونَ﴾ دلالة إلى الذي لاقى الوجهين من المعيشة، ولم يتعظ، فخرج مفلساً مُتحسّراً، والمبلس هو الشخص الذي فقد الأمل من شدّة ما مُني به من خسارة جسيمة، وهنا يتبيّن لك بأن المؤمن لا يبلس مهما أصابه، وإن لم

يكن مؤمناً، فإن الإيمان دليله للخروج من الإبلاس ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾الزمر٥٣ .

﴿٤٥﴾

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وفي ذلك يتبيّن لك بأن الظالم مهما بدا قوياً، فإن الخلفية التي يستند إليها، سوف يقطعها الله،﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ**﴾ استأصلهم، وأهلكهم بظلمهم. ﴿**وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾الذي أراح العالم من شر هؤلاء، وهذه إفادة بأن الله لايترك الأرض للظالمين، حتى لو فتح ﴿**عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ في مرحلة ما، وأن الله جلّ شأنه، يقطع دابرهم.

الباب السادس عشـــر

الصرف والصدف

﴿٤٦﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

﴿قُلْ﴾ لكفار مكة يا رسولنا:﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أرأى بعضكم حال بعض ﴿إِنْ أَخَذَ﴾ استردّ ﴿اللّهُ﴾ منكم ﴿سَمْعَكُمْ﴾ الذي به تسمعون الحق وتجحدونه، ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ التي تنظرون بها، وتتجاهلون ما ترون من الحق ﴿وَخَتَمَ﴾ طَبَعَ ﴿عَلَى قُلُوبِكُم﴾ التي لاتخشع لِما تسمعون وترون.

إن استردّ الله منكم كل ذلك: ﴿مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم﴾ يعوّضكم ﴿بِهِ﴾.

وفي ذلك دعوة لتحفيز المخيّلة إلى تصوّر هذه الحال، ليتخيّل كفار مكة منظراً يجتمعوا فيه، ويرى أحدهم الآخر وهو يفقد سمعه، ثم يفقد بصره، ثم يفقد المشاعر، وبذلك يُصبح مُهَلوَساً، وهكذا حتى يفقد الجميع كل هذه النِعَم واحداً تلو الآخر. فتخيّلوا ذلك

وقد تحوّل إلى واقع، ولا أحد يستطيع أن يُحيله إلى واقع سوى الله، ثم اسألوا أنفسكم أيها الكفار: ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم﴾ يمكن له أن يعيدكم إلى ما كنتم عليه.

و﴿إن ﴾ بمعنى لم يفعل ذلك، لكنه قادر على فعله، و﴿إن ﴾ فعل، هل بمقدور أحد سواه أن ينجيكم، ومن هذه الحقيقة يستمدّ التصوّر مشروعيته، وفي ذلك تنبيه كي ينتفعوا بهذه الملكات التي أنعم بها الله عليهم قبل فوات الأوان.

﴿انظُرْ﴾ يا رسولنا وأنت تستخدم نظرك لرؤية الحق: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ الأدلة الدامغة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون عنها.

﴿٤٧﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾

أرأى كل واحد منكم حاله، ثم أرأيتم جميعكم حال بعضكم البعض، ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ وقع عليكم ﴿عَذَابُ﴾ عقاب ﴿اللهِ﴾ على إعراضكم ﴿ بَغْتَةً﴾ فجأة دون أن تروه ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ عياناً وأنتم تنظرون إليه. وهنا أيضاً من باب التخيّل تفادياً لتحويله إلى واقع، فـ ﴿أَرَأَيْتُم﴾ و ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بصيغة السؤال الذي يحفّز على التخيّل والتصوّر، مثل قولك لشخص: أرأيتَ إن فعلتَ كذا، ستودَع في السجن، وأرأيتَ حالك إن وقع عليك رجال الدولة ﴿ بَغْتَةً﴾ دون أن تراهم، ورأيتَ نفسك ﴿ بَغْتَةً﴾ بين أياديهم، أو أنهم قدِموا إليك وأنت تنظر إليهم حتى ألقوا القبض عليك، أرأيتَ ما الذي سيحل بك وأنت تودَع في السجن، فلأجل أن تتفادى ذلك سواء ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ تجنب هذا الذي أنتَ فيه، ويودي بك إلى تلك النهاية.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾، لايقع عِقابُ الله ﴿إِلاَّ﴾ على الذين يعرضون عن آياته، ويظلمون أنفسهم.

﴿٤٨﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

تكمن مهمة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ في تقديم البشارة للمطيعين شرع الله، والعاملين به، وتقديم الإنذار للمعرضين عنه، والمنتهكين حدوده، ﴿فَمَنْ﴾ منكم ﴿آمَنَ﴾ بما تلقى من آيات ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل بما ﴿آمَنَ﴾ به ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ممّا سبق من ذنوب، ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنهم لن يتلقوا عِقاب ما ارتكبوا من تلك الذنوب، حيث يغفرها الله لهم.

﴿٤٩﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾

أمّا ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أنكروها واستهزأوا بها ﴿يَمَسُّهُمُ﴾، المَس هنا، بمعنى الصَعق، أو يُصعَق بمَس العذاب. تقول: فُلان صُعِق بماس كهربائي، أي احتك جسده بمس الكهرباء، فتلقى الصعقة، وهذا شكلٌ من أشكال الإنذار الذي يحمله المرسلون للمكذّبين بآيات الله، فذلك لايصيب إلا الذين ﴿يَفْسُقُونَ﴾، والفاسق، هو الذي يُداوم على المعاصي، ويتخذها منهاجاً لحياته.

﴿٥٠﴾

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾

أجب عليهم يارسولنا وهم يسألونك، و﴿قُل﴾ لهم: ﴿لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ﴾ حتى أغنيكم منها، ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ كي أطلعكم عليه، ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى أقوم بالخوارق، لأنني وإن كُنتُ رسولاً، فإن قدراتي الإنسانية هي قدرات محدودة، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لا أملك سوى أن أمضي وفقما يوحيه الله ﴿إِلَيَّ﴾. هذا ما أخبركم به.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ شتان بين ﴿الأَعْمَى﴾ الذي لا يرى هذه الحقيقة، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي يراها،﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾، التفكّر السليم يؤدّي إلى هذه الحقيقة، فلا يعمى الإنسان عن رؤيتها، وفحوى الآية: لاتطالبوني بشيء لم قل لكم يوماً بأنني قادر عليه.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فاطر٢.

يتبيّن لك في ذروة هذه الأجواء كيف أن الله تبارك وتعالى، يُعلّم رسوله الكلام الذي يجيب به على كفار مكة، فهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتولى الله عز شأنه، الإجابة عن رسوله، فهي إجابة لهم من الله، على لسان رسوله.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

والخزائن، جمع خزانة، أي التي تخزن ما يُضع فيها، وتخزن بمعنى تحفظ، فكل هذه الأرزاق مُخزّنة في ﴿خَزَآئِنُ اللّهِ﴾، ولا أحد بمقدوره أن يتصرّف بها سوى الله، فكفّار مكة الذين كانوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يغدق عليهم بالأرزاق نظير أن يؤمنوا، فإن ذلك فوق صلاحياته، لأنه لا يستطيع أن يجعل من غني فقيراً، ولا من فقير غنياً. وعندما يطلبون منه أن يُخبرهم بما سيقع معهم بعد حين، يقول لهم: ﴿لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، وعندما يطلبون منه أن يتجاوز حدوده البشرية، ويكون مثل الملائكة، يقول لهم: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾. فأنا لم أقل لكم ﴿عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ﴾ حتى أغنيكم منها، ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى أخبركم بما سيحدث معكم، ولم أقل ﴿لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى أتجاوز إمكاناتي البشرية، فليس بمقدوري تجاوز ﴿مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

﴿٥١﴾

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

هذه الآية موجّهة إلى المؤمنين الذين يرتكبون المعاصي، والإنذار في الآية بمثابة التحذير من التعرّض للعذاب في حال الاستمرار في المعاصي، فشخصٌ مؤمن، لكنه يرتكب المعاصي، ولا يتراجع عنها، تبيّن الآية بأن الإيمان لوحده لا يكون له حصانة من العذاب إذا أوغل في المعاصي، حتى تصبح هذه المعاصي بالنسبة إليه أكثر من الطاعات. ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ﴾، أي يؤمنون بالله، و﴿يَخَافُونَ﴾ عِقابه في معاصيهم، والإنذار هنا بالقرآن، ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ حذّر بالقرآن المؤمنين ﴿الَّذِينَ

يَخَافُونَ﴾ من وقع العذاب عليهم عندما ﴿يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ نتيجة ما ارتكبوا من آثام. وبعد هذا التحذير، أخبرهم يا رسولنا أن: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ يمكن له أن ينفعهم ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع

لهم كي يتجنبوا العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. وهذه بشارة من الله للذين يُذنبون، وثقلت عليهم ذنوبُهم، بأنهم مهما أوغلوا في الذنوب، فإن الله يبقى وليهم، وشفيعهم، إذا أصلحوا، وأقلعوا عن المعاصي. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ ليتوبوا إليه، وأن الله يقبل توبة التائب.

الباب السابع عشـــر

بُنيـــة المساواة

هذه هي البيئة التي ينزل فيها خِطابُ الله، وهؤلاء هم الأشخاص الذين تنزل فيه الآيات، وهذه هي حيثيات العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المشركين الذين

﴿٥٢﴾

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

هذه هي البيئة التي ينزل فيها خِطابُ الله، وهؤلاء هم الأشخاص الذين تنزل فيه الآيات، وهذه هي حيثيات العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المشركين الذين

يشترطون عليه شروطاً حتى يُخففّوا عنه مِن تعسّفهم. ومع كل هذه الوقائع يأتي توجيه الله إلى رسوله، ويبدو أن ظاهر الآية يُشير بأن مشركي مكة اشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم، أن يُخرِج فقراء المؤمنين مِن المسجد، حتى يأتوا ويجلسوا إليه، وهذه إشارة إلى تعاليهم واستكبارهم، فهم يرون بأن الجلوس مع الفقراء، انتقاصٌ من شأنهم. وهنا ترى بأن أي اعتبار دنيوي لإنسان مِن مال، أو جاه، أو نفوذ، لايأخذ الإسلام به، إذ يَكمن اعتبار الإنسان في إيمانه فحسب، فالفقير المدقع يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإيمانه، وترى هنا بأن الله عز وجل يُدافع عن هذا الفقير، ويوجّه رسوله بأن يُبقي الفقراء في المسجد، ﴿وَلاَ﴾ يطردهم، استجابة لمطلب المشركين، فحتى يكون الحوار سليماً، فلابدّ له من قاعدة سليمة، لأنها ستكون الأساس لِما هو قادم بعد الحوار. فالبداية تكمن في تنازل هؤلاء عن استكبارهم، وإن أبوا ذلك، لاتستجب لهم يا محمد: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ﴾ لاتخرج عبادنا الفقراء ﴿الَّذِينَ﴾ هديناهم وآمنوا ﴿يَدْعُونَ﴾ يبتهلون إلى ﴿رَبَّهُم﴾ بالدعاء ويعبدونه ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ عندما يستفتحون يومهم في الصباح الباكر، ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ وحتى ينهون يومهم في الليل المتأخر ﴿يُرِيدُونَ﴾ يأملون من هذه العبادة ﴿وَجْهَهُ﴾ مرضاته.

﴿مَا عَلَيْكَ﴾ لايقع على عاتقك ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن﴾ أي ﴿شَيْءٍ﴾، ويبدو أن المشركين كانوا يكيلون الاتهامات لهؤلاء الفقراء، ويقولون بأنهم لم يؤمنوا عن قناعة، بل أن الحاجة دفعتهم إلى الإيمان حتى يحصلوا على بعض المنافع التي يتم توزيعها على المسلمين، فهؤلاء فقراء، وقد جلبهم الفقر إلى المسجد، ولم يجلبهم الإيمان بك، فعليك أن تطردهم حتى نجلس إليك.

هنا تأتي شهادة الله سبحانه وتعالى دفاعاً عن هؤلاء الذين ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ بشكل خالص دون أي طمع في منافع دنيوية، والله أعلم بما يبطن هؤلاء، وما يظهرون، وما دام الأمر على هذا النحو ﴿مَا عَلَيْكَ

مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ، فخذ الظاهر، ودع الباطن على الله، لأنه لايعلم الباطن غير الله، وهو الذي يتولى حساب الناس على ما يظهرون، وعلى ما يبطنون. فهؤلاء لاينفعونك بشيء إن استجبت لهم لأن:﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وحِسابك على الله.

إنه موقف يريد المشركون أن يسجلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت هذه الذريعة، وينبّهه الله إلى ذلك بصيغة الأمر الحاسم: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ﴾، وفي نهاية الآية، يتكرر الحسم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ولذلك أصبح النبي صلى الله عليه وسلم، يُطيل

البقاء مع الفقراء، حتى أنه لاينهض إلاّ عندما يراهم ينهضون، فعندما ينتهي من حديثه، ويحل وقت عودته إلى البيت، ينهضون قبله، ثم يخرج بعدهم.

﴿٥٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ بيّنا خذلان **﴿بَعْضَهُم﴾** مشركي مكة الأغنياء الذين لبثوا في الشرك **﴿بِبَعْضٍ﴾** مشركي مكة الفقراء الذين هداهم الله تعالى، وآمنوا. ويكمن الخذلان في قولهم: **﴿أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾**، وعبارتهم تحمل شيئاً من التعجّب، وشيئاً من الاستفهام، بمعنى: **﴿أ﴾**- يُعقل أن- **﴿هَؤُلاء﴾** الفقراء **﴿مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم﴾** فضّلهم بنعمة الإيمان **﴿مِّن بَيْنِنَا﴾** ونحن الوجهاء، والأغنياء، والأسياد .

ولذلك يأبون الاعتراف بهذه الحقيقة، ويرفضون حتى الجلوس معهم في مكان واحد، ويشترطون إخراجهم من المسجد، حتى يأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويتفاوضوا معه. ولكن الله عز شأنه، لايُحقق لهم هذه الأمنية بذاك الحسم: **﴿أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾** الذين اهتزّت جوارحُهم عندما سَمعوا آيات الله، فآمنوا وشكروا الله على نعمة الإيمان، وأصبحوا **﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾**، فهؤلاء تحرّكت جوارحهم للحق الذي سمعوه، فمنّ الله عليهم بنعمة الإيمان:**﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾**الزمر٢٣ . في حين أن الآخرين لبثوا في شركهم واستكبارهم، فمُنيوا بالخذلان.

﴿٥٤﴾

﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

تبيّن الآية بأن هؤلاء كانوا يُداومون على المجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى المسجد، أو إلى مجلس تدعو فيه إلى الله، فسمعوا بحضورك وتوافدوا إليك، استقبلهم، و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾،السلامُ مِنَ السلِم، والسِلمُ مِنَ الأمان، وقد جاءت عِبارة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تحمل معها تحقيق الأمن والحماية لهم من المشركين الذين يملكون نفوذاً، بمعنى لاندع المشركين يؤذونكم، وأنتم معنا. وهنا يُدافع المسلمون جميعاً عن هؤلاء، كونهم أصبحوا مسلمين مِنهم، وفيهم، وغدوا مِن مِلّة الإسلام. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وفي ذلك أيضاً بشارة من الله إلى كل شخص يدخل الإسلام، فيأتي له قول الله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. ويجوز أن يكون السلام من الله إليهم، أي عندما يؤمنون، ويُشهرون إسلامهم، يجب تبليغ سلام الله -عز وجل- إليهم، ﴿فَقُلْ﴾ بلّغ مِن الله، كون الكلام هو لله جل شأنه إليهم، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. والمسلم يقول لِمَن يدخل الإسلام في أي زمان أو مكان، بأن الله تعالى ذكره، أجرى هذا التبليغ بصيغة الأمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن نبلغكم هذا السلام من الله تعالى. وبذلك يجوز أن يستقبله المسلم، ويبدأه بالسلام، كقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

قيل: (الألف واللام للعهد، فيُراد بها الرحمة الواحدة التي أنزلها الله تعالى من المائة الرحمة التي خلقها وأخر تسعة وتسعين يرحم بها عباده في الآخرة. وقال الزجاج: ﴿الرَّحْمَةَ﴾ إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، فلم يعاجلهم على كفرهم).

فلا تكون العقوبة على العاصي عاجلة، إمهالاً له لعلّه يتوب، فيغفر الله له، وذلك من رحمته بعباده. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لَمَّا قضى الله تعالى الخلقَ كتبَ في كتابٍ فهو عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي"[٤]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لله رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تتعاطف الوحوش على أولادها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"[٥]

---

[٤] صحيح البخاري ٣٠٢٢

وليس ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فحسب، بل تستمر البشارة: ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ كل ما ارتكبتموه من ذنوب سابقة مهما كانت، صغيرة، أم كبيرة، ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾العمل ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين المصلحين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

[٥] رواه مسلم

الباب الثامن عشـــر

الاسـتبانـة

﴿٥٥﴾
﴿وَكَذَلِكَ نفصّلُ الآيَاتِ وَلِتستبينَ سَبيلُ المُجْرِمينَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ نفصّلُ﴾ نبيّن ﴿الآيَاتِ﴾ البراهين والأدلّة حتى تظهر إلى العيان وتتضح ﴿سَبيلُ﴾ طريق، والسبيل يذكر في القرآن، ويؤنث: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾الأعراف١٤٦.

فِفصال الآيات من الله تعالى يجعل من ﴿سَبيلُ المُجْرِمينَ﴾ مستبيناً أمام الناس جميعاً، سواء أكانوا مؤمنين، أو مشركين، وفي ذلك تثبيتٌ للإيمان لدى المؤمنين، وفرصةٌ للخروج من تلك السبيل بالنسبة للمشركين الذين ليس لديهم استكبار، ويمكن أن تخشع قلوبُهم، عندما يستمعون الآيات، فهؤلاء يكونون من المترددين في الشرك، ويستمعون لنداء التوحيد إذا سمعوه، فهنا ﴿تستبينَ﴾ أمامهم ﴿سَبيلُ المُجْرِمينَ﴾ فيتركونها ويتبرّؤون منها.

السبيل هنا، ليس الطريق الذي يمضي عليه المرء بقدَميه، بل هو المنهج الذي يسلكه في معتقده، فهذا المنهج، غير بائن بالنسبة للناس، ولعلّهم لايعلمون عنه سوى الظاهر، وهذا يجعل البعض يمضي وفق ذاك المنهج دون أن يعلم كينونته، أمّا بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو بصفته نبي، يعلم ضلال هذا المنهج، لكنه يقترب إليهم ، ويحاورهم حتى يقنعهم بترك الأوثان، والإيمان بالقرآن الذي يحمله إليهم، لكن الله عز وجل، يُحدّد له

العلاقة بينه وبينهم، كون الله يعلم ما في نفوسهم، والرسول لايعلم ما في نفوسهم، فيأمره ما يفعل، وما لايفعل. ثم يعلّمه الكلام الذي يردّ به عليهم، ﴿وَ﴾ - من خلال ذلك - ﴿لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ الضلال الذي يسلكه المجرمون.

وهذا فِصال حكيم من الله جل شأنه، وقد كان لهذا الفِصال أثره كما تبيّن معنا في الآيات السابقة، عندما اعتنقت أفواج الناس دين الاسلام وتخلّت عن عبادة الأوثان، وكان ذلك يغيظ المشركين الذين أبوا الإصغاء إلى قول الحق، استكباراً واستعلاءً منهم، وقد وصفهم الله تعالى بـ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ كونهم لم يكتفوا بما هم عليه من ضلال، بل أرادوا من النبي صلى الله عليه وسلم، أن يطرد الذين هداهم الله من حوله.

﴿٥٦﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

في هذه الآية بيان آخر ممّا يُفصّله الله من ﴿الآيَاتِ﴾ في استبانة ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، فهم يتبعون﴿سَبِيلُ﴾ الأهواء، فيمضون وفق ما تمليه عليهم أهواؤهم في الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وكل ما يتفرّع من ذلك.

أجب المشركين يا مَن تحمل رسالتنا و ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، نهاني الله أن أحذو حذوكم، وأعبد الأصنام ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ واستجابة لأمر ربي فإني ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لأنني إن اتبعت ﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾ أكون ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ انحرفت ﴿إِذاً﴾ عن الصراط المستقيم الذي أمرني به، وبذلك سأصبح ضالاً مثلكم، ولا أكون ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، فقد أرسلني الله إليكم حتى أنقذكم من مغبّة اتباع الأهواء، وأبيّن لك الصراط المستقيم.

واعلم أن هذا يكون شأن أي مسلم وهو يرى شخصاً يتبع الأهواء، فأولاً عليه أن يشكر الله الذي فضّل عليه، ولم يجعله متبعاً للأهواء. ثانياً أن يسعى بالكلمة الطيبة، والموقف الحسَن أن يترك أثراً على متبع الأهواء، فلعلّه يتسبب بذلك في هدايته، ولو بشكل متدرّج، لا أن يترك الصراط المستقيم، ويُصبح متبعاً للأهواء مثله. ودوماً فإن المرأة هي شريكة للرجل في عملية الإصلاح، خاصة في أوساط النساء، فالمرأة الضعيفة الإيمان، والضعيفة الشخصية،

عندما ترى نساءً يتبعن أهواءهن، قد تنجرّ إلى ذلك، وتتأثر بهن، وشيئاً فشيئاً تخرج عن الصراط المستقيم، لتمسي على الصراط الملتوي، وقد تنتبه في لحظة ما وتتراجع وتتوب، وقد تستكمل عمرها في نهج الفساد. في حين أن المرأة القوية الإيمان، والقوية الشخصية، عندما ترى نساءً يتبعن أهواءهن، تزداد ثباتاً في إيمانها، هذا الثبات الذي من شأنه أن يترك أثراً عليهن، فيتأثرن بها وهنّ يرين صلاحها، فيتحوّلن من الصراط الملتوي إلى الصراط المستقيم، وتكون تلك المرأة المستقيمة قد تسبّبَت في هذا التحوّل الكبير في حياتهن. فالمرأة الثابتة في إيمانها، تلبث على ما هي عليه مِن مَبادئ وصلاح، حتى عندما ترى امرأة متبعة الأهواء، لكن المرأة المهزوزة في إيمانها، تغدو كما لو أنها في حـــــــرَج ممّا

هي عليه مِن سلوك قويم إزاء امرأة متبعة الأهواء، حتى تراها تستدرَج شيئاً فشيئاً إلى ظلمات الفَساد، فهي إمّا أن تستدرِج، أو تستَدرَج في مواجهة كهذه، كما هو شأن الرجل.

﴿٥٧﴾

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

فالنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة ومعرفة ﴿مِّن﴾ ربه، فقد بيّن له الأهواء مِن الحق. والمشركون يُكَذِبون آيات الله التي تدعوهم إلى الحق، ويشترطون على النبي صلى الله عليه وسلم، أن يستعجل لهم في بعض الأمور وفقما تملي عليهم أهواؤهم، فـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا بأن لا صلاحيات لدي فيما تطلبونه مني ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾، الذي يأتي منه ﴿الْحَقَّ﴾، مُفصّل الآيات ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين الضلال والهدى.

﴿٥٨﴾

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

بعد أن يقول لهم:﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، وإثباتاً لهم على ذلك يقول: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، ﴿لَّوْ﴾ كان بحكمي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ واستعجلتكم ﴿بِهِ﴾

كما تطلبون مني: ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأُغلِقَ المجالُ أمام توبة تائب، وفي ذلك هلاككم.

وقد مضى معنا في الآية ٨ عندما قال مشركو مكّة:﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾. فالله -جل جلاله- لا يستجيب لُعاجَلتِهم رأفة بهم، ولعلّ مَن يقول الآن بالاستعجال، عندما يهديه الله، يحمده على عدم الاستجابة، ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أكثر مِمّا يعلموا عن أنفسهم.

﴿٥٩﴾

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

ما تزال السورة تعرّفنا على الله أكثر، والبيان هو عام للناس كافة بما فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يتعرّف على الله أكثر مع تلقي الآيات، وهذا شأن الناس الذين يتلقون القرآن من المتلقّي الأول، فالقرآن دليلهم إلى معرفة الله، وهو كِتاب معرفة الله بامتياز.

في هذه الآية تتعرّف على جانب آخر من قدرة الله الذي ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

﴿مَفَاتِحُ﴾ كلمة غاية في القوة، والبلاغة، والدقة، فلم يقل مفاتيح بل ﴿مَفَاتِحُ﴾، وقد تكون هذه الـ ﴿مَفَاتِحُ﴾ بالنسبة للناس جمعاً لمفتاح، أي مفاتيح، لأنهم يحتاجون إلى المفاتيح لرؤية ومعرفة ما يغيب عنهم. ولكنها بالنسبة لله -تقدّست أسماؤه- هي جَمعٌ لِمَفتح، وهذا مختلف عن المفتاح، كون كل شيء هو مُفتحٌ أمام الله، ولايملك أن يَخفى عنه، فلا حاجة له عن فتح ما هو مُفتح. والله مُفاتِحٌ لـ ﴿الْغَيْبِ﴾، بمعنى لاشيء يملك أن يغيب عنه لحظة واحدة، فـ ﴿الْغَيْبِ﴾ هو غيب بالنسبة للمخاليق، وهو المجهول الغائب عن البصر والبصيرة، وما هو غائبٌ عنك، هو مجهولٌ بالنسبة إليك، وفقط عندما تملك سبيلاً إلى هذا الغائب، عند ذاك يفقد صفة الغَيب بالنسبة إليك، ويلبث غَيباً لِمَن لايملك سبيلاً إليه.

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه "[٦]

هنا يُخبركَ الله سبحانه وتعالى، وبشكل مطلق أن لا أحد يعلم ﴿الْغَيْبِ﴾ غيره، وهذا يشمل جميع ما خَلَقَ الله عزو وجل، فعِلمُ الغيب مُقتصرٌ عليه وحده، أي لا الأنبياء، ولا الملائكة يعلم بالذي سيحدث بعد قليل، سوى الله الذي ﴿عِندَهُ﴾ فقط ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ فهذا الموجود في علم

الغيب، مخفي عن المخاليق، ولا أحد يملك مفتاحاً كي يفتحه ويطّلع عليه، كما أن لا أحد دون الله مُفاتِحٌ لهذا ﴿الْغَيْبِ﴾ .

في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾)النمل٦٥ .

ثم جاء علمه بتفاصيل دقيقة:﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ كل ما يحتويه ﴿الْبَرِّ﴾ من كائنات مرئية، وغير مرئية، يعلم الله عز وجل، أحوالها لحظة بلحظة. ﴿وَالْبَحْرِ﴾ لايخفى عنه كذلك كل ما يحتويه ﴿الْبَحْرِ﴾. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾، أي لاتملك ﴿وَرَقَةٍ﴾ أن تسقط من نبتتها دون إذن الله، وبذلك فهو- جلّت قدرته- يعلم بسقوطها، كما أنه عالم ببقائها. وكلمة السقوط تشمل ما تمرّ به من تقلّبات في الهواء وهي تسقط. ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ الـ ﴿حَبَّةٍ﴾ و ﴿ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾، فانظر إلى بلاغة المعنى، الـ ﴿حَبَّةٍ﴾ صغيرة، و الجسم الصغير لايظهر في الظلام، فالله يعلم بما يجري مع هذه الـ ﴿حَبَّةٍ﴾، وهي ﴿فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾أي تحت الأرض ﴿وَلاَ رَطْبٍ﴾ كل ما يكون رطباً، ﴿وَلاَ يَابِسٍ﴾ كل ما لايكون رطباً، والـ ﴿رَطْبٍ﴾ هو الليّن، الذي يستمدّ لينه ممّا يحتويه من رطوبة، والـ﴿يَابِسٍ﴾ هو القاسي الذي يستمدّ قسوته ممّا يحتويه من يباس ﴿إِلاَّ﴾ لايملك ﴿إِلاَّ﴾

[٦] رواه ابن ماجة ١٩٥، السلسلة الصحيحة ١٣٣٢ /٢

أن يكون ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بائناً لله الذي لايخفى عنه شيء، ولعل الـ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾هو اللوح المحفوظ، والله أعلم.

﴿٦٠﴾
﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

فمادام كل ما تم ذكره في الآية السابقة، مِن تفاصيل دقيقة، لايخفى مِنه شيءٌ عن الله، فاعلموا أنه حتى النوم الذي تنامونه، هو مِن الله الذي يجعلكم تنامون، ثم يجعلكم تستيقظون، ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ما تفعلون مِن أعمال عندما تكونون مستيقظين، وعندما تبعَثون ستجدون أعمالكم.

﴿٦١﴾
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

إن الله ﴿فَوْقَ﴾ كل ما خَلَقَ مِن ﴿عِبَادِهِ﴾، ويجعل الملائكة يحفظون كل ما تقومون به من أعمال، وإذا جاء أجل أحد، فإن الملائكة يقومون بتنفيذ أمر الله.

﴿٦٢﴾
﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

قد يظن البعض أن كل هذه الأعداد الهائلة من البشر، تستغرق أوقاتاً طويلة، حتى يتلقون حسابهم. وهنا يبيّن الله عز وجل، بأن ذلك لن يطول، بل يأتي بسرعة مهما بلغ الناس مِن أعداد. وفي الحديث الشريف أن محاسبة الخَلق جميعاً يكون في نحو نصف نهار من أيام الدنيا.

فعندما يـ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾الذي يتولى حكمهم بـ ﴿الْحَقِّ﴾ يرون بأنه ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾. وهذا نظير الإمهال في الدنيا، فهو – جلّت قدرته- يمهل الناس ولايسرع في

حسابهم حتى لو طلبوا هم ذلك، فلعلّ الوقت يجعلهم يتوبون كما تقدّم معنا في تحليل الآيتين ٥٧، ٥٨ لكن عند الردّ لملاقاة الحِساب يكون الله ﴿أسرَع الحَاسِبِينَ﴾.

الباب التاسع عشـــر

النجاة

﴿٦٣﴾

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

إذا دهمَكَ خَطَرٌ، أو حلّ بكَ كَربٌ، مَن الذي ينجيك؟ هكذا بغتةً رأيتك في خطرٍ عظيم، ولا أحد بمقدوره أن يُنقذك أو يُقدّم لك عوناً، إلى مَن تلجأ مُتوسِلاً الإنقاذ، أو حتى ألمّ بك كربٌ عظيم ولا أحد يمكن له أن يُخَفِفَ عنك، فمَن الذي يملك أن يُفرّج عنك كربتك؟ فثلاث مرات متتاليات يأمر الله رسوله أن يقول لك: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أجل، فإن الله قادر أن ينتشلك حتى ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ عندما تتوه فيها، وتنقطع عنك السُبل، وتلفاكَ في وحشةِ عتمةِ ليلٍ في بَيداء خالية تنهال على أسماعك أصوات حيوانات مفترسة، أو رأيتكَ في ظلمة بحر، سواء سَقَطَت بك طائرة، أو غَرِقَت بك مركبة، أوترديّتَ مِن جسر، أو قادتك عاصفةٌ إلى ظلمة ﴿الْبَحْرِ﴾، أو ما شابه، مَن الذي تناجي كي ينقذك؟ فاعلم أن ما لايقدر عليه مخلوق قط، يقدر عليه الله، مهما بلغ بك الخطر، فإن الله تعالى ذكره، قادرٌ أن ينجيك، سواء أكان هذا الخطر ماديّاً، أو معنويّاً، فمهما بلغتَ مِن حِدّةِ ألم نفسي، يستطيع الله أن ينجيك منه في لحظات، حتى لو اجتمع عليك أطباء النفس في العالم كله، وفقدوا الأمل بك.

على هذا النحو يُريكَ الله – عز وجل- بأنه يعلم كل شيء عنك، وأن الحقيقة الوحيدة التي عليك أن تؤمن بها، أن لا أحد لك غيره. وكلمة ﴿ظُلُمَاتِ﴾ تبيّن مرحلة الخطر القصوى التي ترتفع فيها درجة حالة الخوف إلى أقصاها، فقد يكون المرء أقل رعباً وذعراً إذا وجد نفسه بغتة في صحراء في وضح النهار، لكن عندما تحلّ عتمة الليل الحالك، تتقدّم به درجة الخوف لأنه لايرى ما الذي يحدث بالقرب منه، وما الذي يدنو إليه، فتزداد عليه وتيرة الخوف.

كذلك عندما يكون في مركبة، وتتعرّض المركبة لخطر، وشيئاً فشيئاً يبدأ الليل يخيّم على البحر، فإن ساعات الليل تكون أكثر رعباً من ساعات النهار خلال عملية الصراع مع ذاك الخطر، فقال جلّ شأنه لك:﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وقد ذكر لك

مكانين لاخطر يمكن له أن يتجاوزهما، ففي الأول، تعرّض للحيوانات البرّية المفترسة، وفي الثاني، تعرّض للغرق، وكذلك للحيوانات البحرية المفترســـــــــــة،

وهذا ليس محض افتراض غير قابل للتحقق، بل وقع لكثير من الناس، وذهبوا ضحيته، وكذلك نجا منه كثير من الناس ،عندما شاء الله لهم النجاة، وهم أنفسهم يُدركون، كما يُرك الناس أنهم نجوا بأعجوبة، أي لقد تدخلت العِناية الإلهية في نجاتهم.

﴿تدْعُونَهُ تضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ تسألونه النجاة ﴿تضَرُّعاً﴾ توسلاً في العَلَن ﴿وَخُفْيَةً﴾ في أنفسكم، أي تناجونه سراً وتقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـٰذِهِ﴾الكارثة التي دهمَتنا ﴿لَنَكُونَنَّ﴾له ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فضله ومنته علينا.

﴿٦٤﴾

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

إن الله هو المنجي الذي ﴿يُنَجِّيكُم﴾ ينقذكم ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ﴿وَ﴾ - كذلك - ﴿مِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ يقع عليكم. جاء ﴿كُلِّ﴾ مفتوحاً وشاملاً، أي ﴿كُلِّ﴾ ما يمكن له أن يُسَبّب لكم كرباً، والكرب هنا نظير ما يقع للإنسان من ألم بَدَني ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾أي كل ما يمكن له أن يُسبّب الأذى البَدَني للإنسان سواء في اليابسة، أو في الماء.

فالكرب هنا، ألمٌ نفسي، وهذا يشمل الاهتزازات النفسية الحادّة مثل: الاكتئاب، الأفكار السوداوية، الإرهاصات، القلق، وكذلك ما يمكن أن يُسَبّبه لك شخصٌ يتسلّط عليك، فيستفزّك، أو يُهدّدك، أو يفتري عليك بالكَذِب، فيمسي هذا الشرير مصدراً لقلقٍ نفسي بالنسبة إليك، فإذن الله تعالى هو القادر على نجاتكم ﴿مِن كُلِّ﴾ دون استثناء ﴿كَرْبٍ﴾ يصيبكم.

فكما أن الله ينجي البَدَن مِن وقوع الأذى عليه، ويجعله في مَوضعٍ آمن، كذلك ينجي النفس من الاضطرابات، فيتمتع المرء بحالةٍ مُستكينةٍ مِن صفاء الذهن، والراحة النفسية، إلى جانب الشعور بالأمان، والراحة البَدَنية، وذلك مِن نِعَمِ الله الكُبرى على الإنسان. تختتم الآية بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ، بعد كل هذا الذي يتبيّن لكم، وبعد استجابة الله لتوسّلكم إليه عندما كنتم ﴿تدْعُونَهُ تضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ وتقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. الآن قد اســــــــتجاب الله لتوسّلكم وتضرّعكـــــــــم

إليـه، ونجّاكم ممّـا ألمّ بكـم سـواء علـى الأرض اليابسـة، أو في البحـر، أو مـا حـلّ علـيكم مـن ﴿كَرْبٍ﴾، وبعد أن وصلتم الأمان، عدتم إلى شرككم بالله.

وهذا الكلام موجّه إلى أهل العِناد والاستكبار، وقد بـيّن الله أنـه رغـم علمـه بهـم، اسـتجاب لهم حتى يضعهم، ويضع الناس كافة أمام عِنادهم واستكبارهم، ثم لعلّهم - في هـذه المرحلـة أيضاً - ينتبهون إلى ماهم عليه من اعوجاج، فيكون ذلك بمثابـة حـافز إضـافي لهـم للهدايـة، وذلك من رأفة الله بعباده، فيـدَع فرصـة التوبـة مفتوحـة أمـامهم، ويبـيّن لهـم أن لاموضـع للقنوط من رحمته مهما كان الإنسان متمادياً في الذنوب.

فهذه من خصائص العلاقة بين الله وعباده، وهو - جلّ شأنه - ييسّر عليهم جميعاً سـبيل الهداية، ويستجيب لهم رغم أنه يعلم بأنهم يكذبون، ثم يستجيب، ويستجيب، وهـذا بمثابـة الغربلة لأهل الكفر والعصيان، حتى لايلبث سوى الذين بلغوا درجـات العِنـاد القصـوى، وقـد غرقوا في براثن الفساد، ولا يفعلون شيئاً سوى إلحاق الأذى بأنفسهم، وبالناس، حيث اتخـذوا من الطغيان منهجاً لحياتهم، ولاينفكّون عنه رغم كل الفرص الذهبية التي يتيحها الله لهـم، وبأشكال وألوان مختلفة.

﴿٦٥﴾

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

إن كل هذه الفرص التي يتيحها الله لكـم، تـأتي مـن الله القـوي الـذي يمكـن لـه ألاّ يمـنحكم هذه الفرص، ﴿هُوَ﴾ الذي يملك مقدرة ﴿عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مـن السماء مـن رعـود، وبـروق، وفيضـانات، ومـا يشـاء، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ مـن بـراكين، وزلازل، وما يشاء،

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يسلّط ﴿بَعْضَكُم﴾ على ﴿بَعْضٍ﴾ ويفرّق بينكم، فـ ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى﴾ هذا، و﴿الْقَادِرُ عَلَى﴾ ذاك.

﴿انظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيفَ نُصَرِّفُ﴾ نبيّن ﴿الآيَاتِ﴾ الأدلة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ ذلك يجعلهم ﴿يَفْقَهُونَ﴾ يتعلّمون عن تجربة.

﴿٦٦﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

المشركون من قومك يا محمد، يُكذّبون ما تبيّن لهم من آياتنا ﴿وَهُوَ الحَقُّ﴾ الذي يبقى ساطعاً وجارياً، شاؤوا أم أبوا.

﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، لم يرسلني الله كي أكون حفيظاً عليكم، بل لأبلغكم آياته.

﴿٦٧﴾

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

لايبقى الكلام محض كلام، وكل ﴿نَبَإٍ﴾ تبيّنه آيات الله لكم، يتحوّل إلى واقع ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ترون ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ هذه الآيات.

الباب العشرون

الذكرى والإعراض

﴿٦٨﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

الخوض بمعنى الحديث الذي يشوبه استهزاء، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد الخائضين ﴿الَّذِينَ﴾ يتمادون استهزاءً بالخوض ﴿فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. وكلمة ﴿فَأَعْرِضْ﴾، بيّن لهم بأنك مُعَرِضٌ لِما ﴿يَخُوضُونَ﴾ فيه، ثم انصرف عن مُجالَسَتِهم ﴿حَتَّى﴾ يتركوا ذلك، و﴿يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ﴾ آخر ﴿غَيْرِهِ﴾ ﴿آيَاتِنَا﴾.

ولذلك يُريد ﴿الشَّيْطَانُ﴾ أن يستغلّ هذا الوتر، فيُنبّه الله رسوله:﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ نَهيَنا لك عن مُجالسَتِهم. هنا تدرِك بأن الله تعالى ذكره، قد ترك رسوله على

طبيعته الإنسانية، فيجوع، ويبرد، ويتزوّج، ويمشي في الأسواق، ويعمل، ويستطيع الشيطان أن يُنسّيه، وهنا يبيّن الله لرسوله وللناس كافة بأن ﴿الشَّيْطَانُ﴾ يمكن له أن يُنسّي الرسول أمراً جاءه من الله، وهذا يكون بالنسبة لكافة الناس الذين يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن، ولكونه نسيان، بمعنى يكون قد وقع سهواً من ﴿الشَّيْطَانُ﴾، وليس عمداً من النفس، فيتذكّر الإنسان بعد ذلك، وعندها لايُكرّر ما قام به، فيقول الله عزّ شأنه لرسوله: ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾، ﴿فَلاَ﴾ تكرّر القعود بعد أن تذكر أمرنا - الذي أنساكه ﴿الشَّيْطَانُ﴾- ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٦٩﴾

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

واخبر المسلمين يا رسولنا بأن ﴿مَا﴾ عليهم من حِساب الخائضين ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

هنا يأذن الله تعالى أن ينصحَ المسلمُ، الكافرَ، فلعلّه لايعلم، أو لعلّ أحداً قد أعطى له مفهوماً خاطئاً عن جوهر الإسلام، ولعلّ جماعة تخوض في آيات الله، ومعهم أشخاص يعتقدون بصواب ما يخوضون فيه. هنا يُجيز الله - جَلّ شأنه - للمسلم أن يقول الحقيقة، ويُبلّغ آيات الله لهؤلاء، ثم يبيّن لهم بأنه مُعترِض على ما يخوضون فيه، ولا يُجالسهم حتى لايستأنفوا الخوض في آيات الله استهزاءً، فـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بهذه الـ﴿ذِكْرَى﴾.

يبيّن لك الله تعالى بأن حقك هو الـ﴿ذِكْرَى﴾ فحسب أمام شخص، أو أشخاص يستهزؤون بآيات الله، ولا يجوز لك أن تتجاوز هذا الحدّ الذي حدّده الله لك، وأخبرك بأن ﴿مَا﴾عليك وأنت المتقي ﴿مِنْ حِسَابِ﴾المستهزئين ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿وَلَـكِن﴾ اذكر لهم القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. وإن لم يتقوا ما عليك﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فذلك شأن الله مع عباده، يعاقب مَن يشاء، ويغفر لِمَن يشاء، يضل مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء.

وردت التقوى في الآية مرّتين، مرّة: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي أصبحوا في حكم المتقين، وقد شَهِدَ الله تعالى لهم بهذه التقوى. والثانية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهم في حكم غير المتقين، وقد شَهِدَ الله تعالى عليهم بأنهم ليسوا متقين. ولعلّ ﴿ذِكْرَى﴾ المتقين لهم تجعلهم ﴿يَتَّقُونَ﴾. فمهمّة المتقي أن يُذكّر غير المتقي بآيات الله لعلّه يتقي، ويبيّن له بأنه مُعترِضٌ على

استهزائه بآيات الله، ثم ينصرف عنه، ولا يُجالِسه عقِبَ الانتهاء من الـ﴿ذِكْرى﴾. فهذا هو الإرشاد الحكيم الذي بيّنه الله تعالى لِمَن شَهِد لهم بالمتقين، إزاء مَن شَهِد لهم بغير المتقين، والأمل في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾قائم كي يتقوا بالـ﴿ذِكْرى﴾.

﴿٧٠﴾

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

هنا مزيد من التوضيح في العلاقة بين ﴿وَذَرِ﴾وبين ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾، فكيف يـ ﴿ذَرِ﴾ يعرض، وبذات الوقت يـ﴿ذَكِّرْ بِهِ﴾ بالقرآن؟

وفي التحليل: يا محمّد، أعرض عن ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، فهؤلاء ﴿اتَّخَذُواْ﴾ بدلاً عن دين الله الذي هو الإسلام، ديناً هو لَعِبٌ ولهوٌ، واستناداً إلى ذلك، يستهزؤون بآيات الله ﴿وَ﴾ قد ﴿غَرَّتْهُمُ﴾ جعَلَتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ينغرّون بها، ويتبعون أهواءهم في ذلك. وهذا شقّ من توجيه الله لرسوله، لأنّه يعني عدم تبليغ الرسالة لهم، وقد أمره الله بالبلاغ العام دون استثناء، حيث أرسلَه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾الأنبياء١٠٧ . فـ ﴿ذَرِ﴾ تحرم أولئك من البلاغ، وتخرِجهم مِن العالمين، وبذلك لايستحقون العِقاب كون الرسول مُرسلٌ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقد أخرجهم الله من العالمين، فهم ليسوا مَعنيين بالرسالة نظراً لهذا الخروج حتى لو كانوا قد ﴿اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. ولعلّ لِسان حالهم يقول: ربنا لم يصلنا البلاغ، وقد أمرتَ الرسول أن يـ ﴿ذَرِ﴾ ـنا- فكيف نهتدي دون أن تبلغنا الآيات.

هنا، يبيّن لهم النبي صلى الله عليه وسلم الآيات، ويُحذّرهم من مغبّة الاستهزاء بها، ويدعوهم إلى دين الله، مكتفياً بذلك، وتركهم بعد الـ﴿ذِكْرَى﴾. فيكون قد أتاهم لأمر مُحدّد، وفور انتهاء المُراد من الحضور يدعهم وشأنهم.

تستأنف الآية الكريمة:﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كل ﴿نَفْسٌ﴾مرتهنة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾حيث ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ لتلك النفس ﴿مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ فلا أحد سوى الله قادر أن يتولّى أمرهم، ولا أحد سواه يشفع لهم، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ ﴿وَإِن﴾ تفدي ﴿كُلَّ﴾ فدية ﴿لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ لايمكن لأي فدية أن تصبح معادلاً للعِقاب، والكلام هنا في الدنيا، أي يرتكب شخصٌ ما المعاصي، ثم يُنفق مالاً حتى يُصبح مُعادلاً لتلك المعاصي كي لايُحاسِبه الله تعالى عليها. فترى أناساً يستمرّون في الآثام،

وبذات الوقت يُنفقون أموالاً طائلة على الفقراء والمحتاجين، بهدف أن يكون ذلك الإنفاق مُعادلاً لارتكاب الآثام، ويغدون في منأى عن الحِساب.

يبيّن الله بأنهم لو أنفقوا ﴿كُلَّ﴾ ما لديهم ﴿لاَّ يُؤْخَذْ﴾ منهم شيء، لأن نيّة الإنفاق باطلة﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾آل عمران٩١ وعلى نقيض ذلك، فإن الذين يتوبون، وينفقون أموالهم في سبيل الله، يجدون عنده الثواب. فالفرق هنا بين النيّة الحَسَنة، والنيّة السَيّئة، لأن النيّة الحَسَنة تؤدّي بصاحبها إلى الصلاح، والنيّة السيئة تؤدّي بصاحبها إلى الفساد.

فاعلموا يا مَن تكفرون بالله، وتستهزؤون بآياته، وتتخذون من اللعب واللهو ديناً لكم، وقد جريتم خلف مغريات الحياة الدنيا، أن لايمكن له أن يتدخّل في مسألة عِقابكم، ولن يتولّى عِقابكم سوى الله وحده، ولا أحد يجوز له أن يشفع لكم سواه، ولا يقبل الله منكم فدية نظير العذاب.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، كما لو أنك تقول: توَقفَ الشخصُ بما ارتكَبَ مِن جناية، أي هو موقوفٌ على خلفيّة جناية ارتكبها، ويكون له حكمه.

أمّا هنا، فهؤلاء الذين يقفون بين يدَي الله عز وجل، على خلفية ما تبيّن من أفعالهم، فـ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ عقابهم أن ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

﴿لَهُمْ﴾ يتناولون ﴿شَرَابٌ﴾ سائلاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ به سخونة شديدة، ﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

لماذا يلقون كل هذا؟ يلقونه ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، ﴿كَانُواْ﴾ والقرآن ليس موجهاً إلى الـ ﴿كَانُواْ﴾، بل إلى الذين لم يتحوّلوا بعد إلى ﴿كَانُواْ﴾.

على ذلك، فيمكنك استنتاج أن كل هذه الألوان مِن العقاب، لم تقع بعد، لأن الذي يتوجّه إليه هذا الكلام هو حي، و القرآن موجّه إلى الأحياء، وبذلك فالكلام هو بمثابة تحذير من مغبّة ما سيؤولون إليه، ليس لأنهم سخروا من آيات الله، بل إذا استمرّوا في السخرية منها ولم يتوبوا، أي يقول لهم القرآن الكريم: يمكنكم تفادي ذلك.

فإن رأيتَ شخصاً يمضي في طريق وعر نحو الهلاك، فتنصحه كي يتجنب استئناف المسير تفادياً للهلاك المـُحَقق الذي لابدّ أن ينتهي إليه، فلعلّه لايعلم، فينتبه، أو لعلّه يعلم، فيتراجَع، فهو إذن قادر على التراجع إلى صراط مستقيم، وقادر على الاستئناف، ولكنك تكتفي بالتنبيه دون أن تفرض عليه شيئاً بالقوة. فإن رأيتَ به عناداً شديداً واستهزاءً بنصحك، تركته حيث هو، وإن رأيته استجاب، استحسَنتَ تحوّله. ولله المثل الأعلى. فهنا بيان وتنبيه حتى لايتحوّل هؤلاء الذين هم هنا، إلى ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، بل يتحوّل المسار بهم، ويظفروا بالنعيم ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يؤمنون، ويصلحون ويحسنون. فكل ألوان العذاب التي يبيّنها القرآن، هي لأناس يمكن لهم أن يتفادوها، وليس لأناس لا يمكن لهم تفاديها، وإلاّ فالقراءة لم تعد مُجدية.

تعلّمكَ الآية بأن القرآن الكريم مفتوح لهداية كل إنسان كائناً مَن كان، وفاعلاً ما فعل، ولا يوجد إنسان مُستثنى من التعرّض لهذه الهداية، لأن القرآن لم يُنزل لأناس دون أناس، بل للناس كافة.

﴿٧١﴾

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿أَ﴾ تريدون منّا: ﴿نَدْعُو﴾ نعبد أوثاناً﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ ونحن نعلم بأن ذلك ﴿لاَ يَنفَعُنَا﴾ بشيء إن استجبنا ﴿وَلاَ يَضُرُّنَا﴾ بشيء إن لم نستجب. ﴿وَ﴾ - إذا استجبنا لكم

وعبدنا الأوثان- ﴿نُرَدُّ﴾ بذلك ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ نرجع إلى حيث ما كنّا ضالّين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ﴾ إلى الإسلام، فتكون حالنا ﴿كَـ﴾ حال ﴿الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾جعلَته مستهوياً، يتبع الهوى دون الهُدى. فالشيء الذي يستوهيك، يجعلك مائلاً إليه، أي تصبح ﴿كَالَّذِي﴾ يستهوي ما تمليه عليه﴿الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾.

الحيرة، هي حالة من التردّد واللا استقرار، والمَثل الذي يضربه الله عزّ شأنه، بـ ﴿كَـ﴾- أن - ﴿الَّذِي﴾ يستجيب للعودة إلى ما كان عليه ﴿بَعْدَ إِذْ﴾هداه ﴿اللّهُ﴾، يكون مثل شخص ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾. وقع في حيرة من أمره، وشتات ذهني، لأنه قد رأى الهدايةَ ثم ارتدّ، فيكون بين بين دون استقرار، وذلك مِن مفرزات الحيرة التي يكتوي بها المرتدّ، و﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ للتخلّص مِن حيرته قائلين له: ﴿ائْتِنَا﴾، دعك ممّا أنت فيه مِن شتاتِ الحيرةِ، وتعال إلينا حيث سكينة ﴿الْهُدَى﴾. ﴿قُلْ ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ ﴾، وما دون الله هو الهوى، ﴿وَ﴾ قد ﴿أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. جاءت كلمة ﴿لِنُسْلِمَ﴾ مقابل كلمة﴿حَيْرَانَ﴾، فعندما يُسلِم الإنسان ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يكون بذلك قد تخلّص مِن اضطرابات الحِيرة.

﴿٧٢﴾

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

إقامة ﴿الصَّلاةَ﴾ إلى جانب أن تتقوا الله ﴿الَّذِيَ﴾ هو ربكم، و﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة، حيث يتولّى حسابكم.

﴿٧٣﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي﴾ لا إله إلاّ هو ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

مِن هنا تستمدّ كل قوتك، وتتجاوز أي شعور بالحيرة، أو القَلَق، وتمتلئ بطاقاتِ الحيويّةِ، والإشراق الروحي، وهذا يُحفّزك كي تحب الناس، تنتج لهم، تمنحهم مجهود طاقاتك تعبيراً عن شكرك لله الذي أنقذك من ظلمة الضلال إلى نور الإسلام، وكان يمكن لك أن تلبث ضالاً. فإذاً أنتَ تمتلئ ثقة لأنك أسلمتَ أمرك لله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، ولا يملك شيء قط من عدم الاستجابة لأمره عندما يقول له ﴿كُن﴾ ﴿فـ﴾ لامناص له سوى أن يستجيب و ﴿يَكُونُ﴾، ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ما يأتي من الله فهو

عَينُ الحق، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ﴾حيث يتولّى الحِساب ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الذي يعلم ما يغيب عن الخلق ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾، كما يعلم ما يشاهدونه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ المحكم والمتقن ﴿الْخَبِيرُ﴾بكل شيء.

الباب الواحد والعشرون

قدوة الهُدى

﴿٧٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾

في هذا المِحوَر مِن السورة الكريمة، يُعرّف الله تعالى رسوله على شخصية إبراهيم عليه السلام، ويُطلعه على التفاصيل التي كان يعيشها يوماً بيوم، وموقفه من أبيه، ومن قومه.

كيف بدأ ينشأ، ويكبر، وتنمو مُدركاته، يُعرّفه على المراحل التي أخذ وعيُه فيها يتشكّل، وهنا يغدو النبي صلى الله عليه وسلم مطّلِعاً على جوهر خصوصية العِلاقة التي كانت بين إبراهيم عليه السلام، وبين الله عز وجل.

يبدأ المِحوَر من موقفه من أبيه أولاً، فأول حالة استنكار تبدأ من البيت، وفي مواجهة سيّد البيت وكبيره، فيقول له أول ما يقول: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ يا أبي ﴿أَصْنَاماً﴾ باهِتةً لاتملك أن تقدّم أو تؤخر ﴿آلِهَةً﴾ دون الله. ثم يبيّن له موقفه، ويواجهه بالحقيقة التي يؤمن بها: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿إِنِّي﴾ وأنا ابنك ﴿أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ الذين تتبعهم في اتخاذ الأصنام ﴿آلِهَةً﴾دون الله، ﴿فِي ضَلاَلٍ﴾ باطل ﴿مُّبِينٍ﴾ جَلي. وهذا بيان الاستنكار، وبذات الوقت بيان عدم الاعتراف بما هم عليه.

﴿٧٥﴾

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

﴿وَ﴾ اعلم يا رسولنا، أننا أرينا خليلنا إبراهيم ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وهذا إخبار من الله تبارك وتعالى بأنه أطلع إبراهيم عليه السلام على ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

وهذه الرؤية تجعله أكثر ثقة، وأكثر ثباتاً في موقفه في مواجهة الأب والقوم معاً ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بالحق الذي اتبعه في مواجهة الباطل.

﴿٧٦﴾

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾

حينما خيّم على إبراهيم ظلام ﴿اللَّيْلُ﴾، وقع نظره على كوكب، ﴿قَالَ هَـذَا رَبِّي﴾ لعلّه اعتقد أن الله تعالى تبدّا له من خلال هذا الكوكب ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ وقد تبيّن له ما تبيّن جراء فلول الكوكب، ﴿قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾. وهذا بمثابة الإسقاط للمشركين بأن هذه الأوثان التي تعبدونها، سوف تفل عنكم، وعبادتكم لها هباء في هباء.

﴿٧٧﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

ثم أن نظره عندما وقع على ﴿الْقَمَرَ﴾ وقد سطع، حينذاك ﴿قَالَ هَـذَا رَبِّي﴾ تجلّى لي ﴿رَبِّي﴾ من خلال سطوع القمر، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ كما ﴿أَفَلَ﴾ الكوكب من قبل ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ من اتباع الظن ﴿لأَكُونَنَّ﴾ لأصبحن ضالاً وواحداً ﴿مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

وهذا بمثابة إسقاط آخر أمام المشركين، فهم يتبعون الظنون في عبادة الأوثان، ويعتقدون بأنها ستنفعهم.

﴿٧٨﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

ثم أن الشمس حينما بزغت ﴿قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب، ومن القمر الذي رأيت سابقاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ توارت عن نظره ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وهذا بيان من الله تعالى بأن المشركين كانوا إلى جانب الأصنام يعبدون بعض الكواكب، مثل النجوم، والقمر، والشمس. فهنا استنكار واستبراء لِما هم عليه من شرك، والمعنى أن الذي تتبعونه، لوكان حقاً لاتبعته معكم إلى حيث ما تدعوني، وتبيّن لي بأنه باطل، فتعالوا إلى ما أدعوكم إليه، ليتبيّن لكم بأنه حق.

﴿٧٩﴾

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أدرتُ ظهري لكل أشكال الشرك، ويمّمتُ جهة مسيري ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً﴾ خالصاً، ولستُ ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ضلّوا عن سبيل الله، لأنهم لم يوجّهوا وجوههم ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، بل وجّهوها لِمَن لايملك نفعاً ولاضراً، والذي شق بين ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هو الجدير بالعبادة.

﴿٨٠﴾

﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾

الذي يحاج، هو الذي يتقدّم بحججه للآخر، والمحاجةُ تكونُ بين فريقين يؤمنان بعقيدتين مُختلِفتين، فهنا قوم إبراهيم عليه السلام، يُقدّمون له حججهم حتى يثنوه عن وحدانية الله، ويُصبح في عقيدته على مِلّتهم، ولعلّ هذه الحجج هي إتباع لِما رأوا أنفسهم عليه:﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾الزخرف٢٣ ، وكذلك قولهم:﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ص٥ ، وما إلى ذلك من معتقدات راسخة فيهم ويأبون أن يتزحزحوا عنها.

عندذاك ﴿قَالَ ﴾ مجيباً إياهم: ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ ﴿أ﴾ تقدّمون لي الحجج كي تبرّروا ما أنتم عليه مِن شِرك ﴿فِي اللّهِ﴾الذي ﴿هَدَانِ﴾ أخرجني ممّا أنتم فيه من ضلال إلى الهدى.

ويَظهرمن الآيةُ أنّهم لجأوا إلى تهديده بعِقابٍ مِن آلهتهم إن لم يستجب، كقول قوم هود عليه السلام: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ﴾هود٥٤ لكنه يلبث على موقفه مُجيباً إياهم بذات الثقة: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ مهما هددتموني بعِقاب آلهتكم، فإن ذلك لايُسبب لي خوفاً منها، وأن قوة إيماني بوحدانية ﴿رَبِّي﴾ هي الغالبة ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ فحتى لو أصابني أذى، فلن يكون ذلك خارجاً عن مشيئة ﴿رَبِّي﴾الذي تكون له حكمة في ذلك.

يُروى أن إبراهيم عليه السلام عندما أصبح شاباً، غدا أبوه ﴿آزَرَ﴾ الذي كان يصنع الأصنام، يعطيه هذه الأصنام كي يبيعها، فيحملها عليه السلام وينادي بها: (مَن يشتري ما يضره ولا ينفعه). فلايشتري أحد، عندها يذهب إلى النهر ويضرب رؤوس بعضها ببعض وهو يقول: (اشربي). وقد تسرّب ذلك إلى القوم، فهدّدوه بأنه إن عاب على هذه الأصنام، فإنها تمسه بسوء، أو خبل، أو جنون.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. إن ﴿رَبِّي﴾الذي أؤمن به يعلم بكل ما يمكن له أن يصيبني، وما مِن ﴿شَيْءٍ﴾ إلاّ ويخضع لعلمه﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلاَ﴾ تدركون بأن آلهتكم لاتملك أي مقدرة على إلحاق الأذى بي. وقد وردت ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ بخِطابٍ إلى الذاكرة، أي إلى العقل، وفي ذلك دعوتهم إلى إعمال العقل لاستخلاص هذه الحقيقة والإيمان بها.

﴿٨١﴾

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

بعد أن تبيّن لي الحق، بأي عقلٍ، وأية ذاكرةٍ أخاف مِن أصنامكم التي تتخذونها ﴿آلِهَةً﴾، وأنا أعلم بأنها لا تملك من أمرها شيئاً، والأجدر بكم أن تخافوا أنتم وقد ﴿أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾.

السلطان، مِن السلطة، أي لم يملّكها الله تعالى ذكره أي سلطة، وبالتالي فإن تحججكم بها هو باطل:﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾المؤمنون١١٧، ذلك أن لا أساس من الصحة لِما

تدعونني إليه، واستناداً إلى ما أقول، وما تقولون:﴿ فَأيُّ الفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأمْنِ﴾، فريق الموحّدين، أم فريق المشركين.

﴿بالأمْنِ﴾ نظير الخوف، والأمنُ هو أمنٌ مِن الخوف الذي يُهدّدونه به، فهل يتوجّب الخوفُ لي أم لكم، وهل أنا أكون في مأمنٍ من الخوف أم أنتم ﴿إن كُنتُمْ تعلَمُونَ﴾، تميّزون بين الحق الذي أدعوكم إليه، والضلال الذي تدعونني إليه.

فاعلم أن هذه الآيات تعيدكَ إلى الماضي كي تزيدك ثباتاً في الواقع، ذلك أن الله -جَلّ شأنه- لايروي هذه الوقائع الماضية لرسوله كي يُبعده عن واقعه، بل ليزيده رسوخاً في صميم الواقع على خلفية ذاك الماضي بسلبياته وإيجابياته. فأنتَ المقصود من هذا التنزيل الحكيم، كونه لم يُنزل لشخص رسول الله عليه الصلاة والسلام، بل لك من خلاله، وبعد أن أدّى ما أمره الله تعالى به، وبلّغ الرسالة، فقد لبثتْ هذه الرسالة لك، وفي عهدتك، كي تنتفع بها، لأنها بالأصل أُنزلت لرفع الضر عنك، ولتقديم النفع لك.
فأنت تحتاج إلى الماضي، كي تفقه الواقع، وترنو إلى المستقبل، كما أن حامل هذه الرسالة إليك احتاج إلى الماضي كي يفقه الواقع، ويرنو إلى المستقبل.

﴿٨٢﴾
﴿الذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلبسُوا إيمَانَهُم بظلْمٍ أوْلَـئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ﴾

هنا بَيانٌ بَين الأمن، والإيمان: ﴿الذِينَ آمَنُوا﴾ أي أصبحوا في مَأمَنٍ عن عواقِب الشرك سواء في الدنيا، أو الآخرة. فاعلم أن شعور الإنسان بمساحة الأمن، يكون موازياً لدرجات إيمانه، وكلّما رسخ الإنسان في الإيمان، أحسّ بأمنٍ أكثر، فقد ترى مؤمناً مضطرباً، يفزع في الليل، أو يستبدّ به الأرق، أو يرى الكوابيس في نومه، وذلك مردّه إلى ما يُسبّب من أذى للناس، فهو يلقى ما يُسبّبه لغيره.
فإن كان راسخاً في الإيمان، أدرك هذا التنبيه، وسارع إلى إصلاح ما بينه وما بين الناس، ورفع أذاه عنهم، ونظير ذلك يُرفع عنه أذاهم، فهؤلاء قد يكونون ضِعافاً لايجسرون على ردّ أذاه، أو قد لايعلمون به لأنه يُلحِق بهم الأذى بالسر، وما إلى ذلك.

فإن لم يكن راسخاً في إيمانه، تراه يلجأ إلى الأطباء النفسيين، وإلى الأدوية التي تجعله يهدأ بعد الفزع، ويعود إلى نومه، لكن ذلك يكون حلاً مؤقتاً، فيستمر ذلك معه، ومع إطالة أمد

العِلاج، يحتاج إلى الزيادة حتى يتحوّل ذلك إلى أمراض عضوية بسبب كثرة استخدام الأدوية ولفترات طويلة، وهذا بذاته يعكس ردود أفعال على سلوكه وسويته، لأن الجسد يعتاد هذه المهدئات ويدمنها، والجملة العصبية التي تهدأ بقوة المُهدّئات الصناعية، تردُّ على صاحبها بمفرزات ربما تكون أكثر سوءاً، ذلك أنه لايُعالج أمراً طارئاً لفترة محدّدة، بل يتسبب في جلب هذه الأمراض لنفسه، ويواجه العواقب بالمهدئات.

لكن إذا نظرنا إلى حياة هؤلاء، سيجلو لنا بأن هذه المهدئات لاتضع لهم حلولاً، بل تفاقم عليهم مفرزاتها، ولعلّنا إذا نظرنا إلى أكثر دول العالم احتواءً بالملحدين، وهي السويد التي يُطلق عليها(جنة الملحدين) لأنها تحتوي أعلى نسبة في دول الأرض من أعداد الملاحدة، سنرى نظير ذلك أنها تحتوي على أعلى نسبة من المرضى النفسيين الذين يتلقون علاجات نفسية، ويعيشون على المهدئات، وكذلك أعلى نسبة من الانتحار قياساً بجميع دول الأرض.

تبيّن لك الآية بأن كل معضلة يمكن علاجها بشكل سليم عندما تكون على قاعدة إيمانية سليمة، فالذي يُسبّب الاضطرابات لغيره، لايمكن له أن يهنأ بالأمن، مهما بدتْ عليه مظاهر الأمن، فذاك قالب لايمت إلى القلب بصلة، وإن كان في قصرٍ مسوّرٍ يحميه ألفُ حارس. في حين أن الذي يميط الأذى عن طرقات الناس، ويقدّم لهم خدماته بقدر ما يستطيع، ويكون مؤمناً، يستغرق في لفائف نوم هانئ عميق مهما كان سربُه متواضعاً.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الظلم المعني في الآية كما يبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشرك، ففي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: (لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ " لقمان ١٣ .

﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ اقتران الأمن بالهداية.

﴿٨٣﴾

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَتِلْكَ﴾ الأدلّة والبراهين الواردة في الآيات الماضية من: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى:﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. فذاك المبتدأ هو ﴿حُجَّتُنَا﴾ آياتنا، في محل خبر ﴿آتَيْنَاهَا﴾ أرشدنا بها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ في محل صفة لذاك الخبر. هنا أصبح إبراهيم ذاته حجّة الله ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ بما حمله إليهم من براهين وأدلّة، فبعد أن تلقى من الله الحجة ونادى بها، تحوّل هو بما يحمل إلى حجة الله ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾.

ثم أضاف الله جلّ شأنه رافعاً مرتبة إبراهيم بنون العظمة: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ مراتب ﴿مَّن نَّشَاء﴾.

ثم تنتهي الآية بخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد من خلال ما تبيّن ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بمَن يهدي، ومَن يضل.

﴿٨٤﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿وَ﴾بعد أن تقدّم في السن، وأصبحت زوجته سارة في سن اليأس ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ابنه، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ حفيده من ﴿إِسْحَاقَ﴾. وكانت البشارة قد أتتهما من الملائكة، عندما ذهبوا إلى قوم لوط، حينها: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾هود ٧٢، ٧٣ . ليس هذا فحسب، بل كانت البشرى بنبوة هذا الولد أيضاً: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾الصافات١١٢ . وليس هذا فحسب، بل البشارة برؤيتهما لحفيد من هذا الولد: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ هود٧١ .

هنا، قبل أن يولد الابن في ظرف غريب استثنائي كهذا، تكون البشارة بابن لهذا المولود أيضاً، وإخبار بأن عيونهما ستقرّ برؤية الحفيد، كما تقرّ برؤية الولد.

﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ الهداية في هذا المقام بمعنى النبوّة: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾مريم٤٩ . ثم بمزيد من اطلاع الله رسوله الخاتم على مسيرة النبوّة،

يُخبره: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ ولادة إبراهيم، وهدايتنا له. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾، أي من ذرية نوح:

﴿دَاوُودَ﴾ بن أيشا

﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه

﴿وَأَيُّوبَ﴾ بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم

﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم

﴿وَمُوسَى﴾ بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب

﴿وَهَارُونَ﴾ أخو موسى الذي يكبره بسنة.

اختتِمَت الآية بـ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، والمعنى: لقد جزينا المحسنين في الماضي، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أجزيناهم، سوف﴿نَجْزِي﴾ الذين يُحسِنون من بعدهم.

فالكلام موجّه مِن الماضي إلى الحاضر الذي تلقّاه فيه الرسول، ويلبث مفتوحاً لحاضر كل زمان ومكان، فالله يعد بأنه يـ ﴿جزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، ولايستوي المحسن مع المسيء بأي حال من الأحوال، إلاّ أن يقلع المسيُ عن إساءته، ويُصبح محسِناً، و عن النبي صلى الله عليه وسلم"التائب من الذنب كمن لا ذنب له"[٧] .

﴿٨٥﴾

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ بن أذن

﴿وَيَحْيَى﴾ ابنه

﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم بنت عمران، وهنا يتبيّن بأن الذرية لاتقتصر على أبناء الأبناء فقط، بل تشمل أبناء البنات أيضاً، كون نسبته هنا من خلال أمه فحسب

﴿وَإِلْيَاسَ﴾ بن ياسين، من ولد هارون، أخي موسى.

﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ والصلاح أن يُصلِح المرء نفسه أولاً، ثم يسعى إلى إصلاح الآخرين، فكل واحد مِن هؤلاء كان صالحاً في نفسه، وسعى إلى إصلاح الناس.

---

[٧] أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة ، برقم ٤٢٥٠

﴿٨٦﴾

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم

﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب

﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى

﴿وَلُوطاً﴾ بن هاران بن تارخ، ابن أخي إبراهيم

﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

أي جعلهم الله تعالى أفضل من ﴿الْعَالَمِينَ﴾، لكن ذلك ليس شاملاً الماضي الذي سبقهم، والمستقبل الذي يكون بعدهم، بل التفضيل هو على عالمي زمانهم، فكانوا أفضل عالمي زمانهم: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾آل عمران٣٣ ذكر الله ثمانية عشر نبياً، ابتداءً من إبراهيم، وانتهاءً بـ لوط. وقد وضعهم الله عز وجل في مجموعات في هذه الآيات، فترى التقارب بين أنبياء كل مجموعة، ثم أن الله جَلَّ شأنه يُكرم أنبياء كل مجموعة بتكريم خاص بهم، فالبدء مع إبراهيم الذي قال فيه:﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء﴾، ثم ابنه اسحاق، وحفيده يعقوب: ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾، ثم قال: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، فقد هداهما الله كما هدى نوحاً ﴿مِن قَبْلُ﴾- هما- ، فقد شكّل ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾لوحده مجموعة، ومرتبة أنه حجّة الله على قومه.

والمجموعة الثانية: ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿وَنُوحاً﴾. ومرتبتهم الهداية.

ثم المجموعة الثالثة، ذرية نوح، وهم: ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ومرتبتهم أنهم من ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾

ثم المجموعة الرابعة: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾، ومرتبتهم أنهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

ثم المجموعة الخامسة: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً﴾، ومرتبتهم أنهم فُضِلوا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانهم.

﴿٨٧﴾

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

هذه الآية تلحيقية، أي ألحقت مجموعة أخرى إلى المجموعات المذكورة في الآيات الأربع السابقة، والمُلحَقون هم ﴿مِنْ﴾ مجموع وليس المجموع كله. ﴿وَ﴾ ليس كل آباء وذريات وإخوان هؤلاء الأنبياء، بل﴿وَمِنْ﴾ تبعيضاً، أي: ﴿وَمِنْ﴾ بعض ﴿آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ كون المِن الآخر ليس تقياً، ولذلك جاءت كلمة ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ انتقيناهم، انتقينا صالحهم من طالحهم، وأنقذناهم من الضلال ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ولبث المِن الآخر من آباء وذريات وإخوان هؤلاء الأنبياء الثمانية عشر على ﴿صِرَاطٍ﴾ غير ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فأفراد هذه المجموعة مرتبتهم أنهم على ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، واعلم أن هذه المزايا ليست مقتصرة على أفراد كل مجموعة، بل كل هذه المزايا تكون من صفات المؤمنين، وخاصة الأنبياء والرسل منهم، ولكن الله تعالى شاء أن يُكرم أفراد كل مجموعة بميزة يُعرَفوا بها.

﴿٨٨﴾

﴿ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تم ذكره نتيجة ﴿هُدَى اللّهِ﴾الذي ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ بهداه ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وهنا بيان من الله -عز وجل- بأن هدايته تستوعب الناس جميعاً على مختلف مشاربهم ومآربهم، ذلك أن الناس جميعاً هم﴿ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وهذا لايلغي دور العباد، فعليهم أن يؤمنوا، ويصلحوا، ويحسنوا حتى يكونوا أهلاً للهداية، ولذلك بيّن الله تعالى بأن الذين هداهم كانوا صالحين﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حتى لو كانوا أنبياء﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾الزمر٦٥

﴿وَلَوْ ﴾ -على سبيل الافتراض- ﴿أَشْرَكُواْ﴾ بالله، عندها ﴿لَحَبِطَ﴾ لبطل والتغى ﴿عَنْهُم﴾ ما كانوا عليه من صلاح، أي أصبح هناك فصل بينهم وبين ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من صلاحٍ قبل الشرك، كما لو أنهم لم يعملوا صالحاً، ذلك أن الشرك يُحبط أي عمل صالح سبقه.

﴿مَّا كَانُواْ﴾ أي قد تم فصلهم بالكامل، فالآن اختلف الأمر عـ ﴿مَّا كَانُواْ﴾ عليه مِن صلاح، والآن ﴿أَشْرَكُواْ﴾، فالحكم على الآن، وليس على الـ كان، وإذا قلبتَ الأمر ستكون ذات النتيجة، فإن تاب المشرك، وآمن بوحدانية الله، سيكون الحكم على ما هو فيه من الحاضر، وليس على ما كان عليه في الماضي، فكل شرك الماضي، أحبطه إيمان الحاضر.

فإن كان ماضيكَ حَسَناً، وأنتَ الآن غدوتَ سَيئاً، فالحكم عليك بأنك سَيّء، وإن كان ماضيكَ سَيّئاً، وغدوتَ الآن حَسَناً، فالحكم عليك أنك حسَن، وهذه المعادلة يتساوى فيها الناس جميعاً.

﴿٨٩﴾

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾

﴿أُوْلَـئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾مثل: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى. وكل واحد منهم يدعو إلى التشريع الذي تلقاه من الله تعالى.

﴿وَالْحُكْمَ﴾، يتحوّل هذا التشريع إلى حُكم، وبذلك يتحاكم الناس إلى هؤلاء الأنبياء ليحكموا بينهم بالحق، فما أتى به الأنبياء، يكون الأصل في الحُكم بالنسبة للحُكّام والقُضاة، كما أن بعض المذكورين كانوا -إلى جانب النبوة- حُكّاماً وملوكاً. لكن على كل حال، وبالصفة العامة، فالناس جميعاً، يتحاكمون إليهم بكونهم يمثلون كلمة الله.

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾، أي يُنَبِّؤوا الناس، فالأنبياء تكون لديهم الأنباء التي تلقوها من الله، فيُنَبِّؤوا بها الناس.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾المائدة٢٧

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾الأعراف١٧٥.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾يونس٧١.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾الكهف١٣ .

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء﴾ في حال يجحد ﴿بِهَا هَـؤُلاء﴾ وليس ﴿أُوْلَـئِكَ﴾، فقد تحول الماضي إلى الحاضر، والكلام هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه إشارة بأن المعني بـ ﴿هؤلاء﴾ هم أهل مكة في حاضرهم، واستناداً إلى ذلك فإن ﴿بِهَا﴾ تعني آيات القرآن التي أنزلها الله على قلب رسوله في ديار ﴿هؤلاء﴾، فنحن في مرحلة تنزيل قسم من آيات القرآن الكريم، وعندما ينتهي التنزيل فيما بعد في المدينة، يُصبح قرآناً كاملاً.

﴿فَإِن﴾ يجحد ﴿بِهَا﴾ قومك ﴿فَقَدْ﴾في هذه الحال-لأن شرط تحقيق ﴿فَقَدْ﴾ اقترن بتنفيذ ﴿فَإِن﴾-: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾، لايعتقد ﴿هؤلاء﴾ أن كفرهم بهذه الآيات يعني انتهاء كل شيء، وأننا سوف نسحب الرسالة والرسول معاً، بل أن ذلك سيبقى، وسيستمر﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾بآيات هذا القرآن ككل، لأن المكان والزمان سيتغيران مع تنفيذ الكفار لمضمون ﴿فَإِن﴾ التحذيرية، ﴿قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

فلا تظنوا يا أهل مكة بأن نكرانكم لآيات الله، سوف يُطفئ هذه الآيات، بل أن الله فضّل عليكم بأن أنزل في دياركم، وعلى قلب رجل منكم وفيكم آيات رسالته الخاتمة إلى العالمين، كما أنه فضّل عليكم بأن جعل خاتم أنبيائه ورسله من صلبكم. وقد تحققت عبارة ﴿قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ عندما ترك الرسول عليه الصلاة والسلام مكّة، ولقي ترحيباً كبيراً من الأنصار، بذلك حُرِم أهلُ مكّة من استئناف التنزيل الحكيم في ديارهم، لينتقل إلى المدينة، ويتشكّل ممّا أُنزل من آياته المتبقية كِتاب القرآن المتكامل، حيث إقامة رسول الله

الجديـــــدة، في ديـــــار أخـــــرى، وفي ظهرانـــــي قـــــوم ﴿لَيْسُـــوا بِهَـــا بِكَـــافِرِينَ﴾.
فحرمهم الله من تتمّة التنزيل، ومن إقامة رسوله في ظهرانيهم، دون أن يمس المكان الطاهر شيئاً، فقد لبثتْ مكّة في منزلتها لدى عموم المسلمين، وكان العِقاب لأهلها الذين أصرّوا على الشرك.

وعبارة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾، أي أعطيناهم وكالة كي يستأنفوا نشر القرآن بعد الرسول، ويحملوا لواء الإسلام، والوكالة تلبث جارية، ولاتنتهي بموت الأنصار، أو تبقى مقتصرة في المدينة، فقد لبث توكيل الله تعالى سارياً حيث انتشر الإسلام، وتبَيَّن كيف أن:

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، أخذت تستقطب قوميات بأكملها من أرجاء المعمورة قاطبة لتعتنق الإسلام وترفع راية: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. وهي تقدّم علماءها، ومفكريها، وقادتها، وأموالها، وسائر إمكاناتها لخدمة الإسلام، شكراً لله على نِعمة الهداية.

وإذا نظرنا إلى نتائج﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، سيتبيّن لنا أن الدول الإسلامية غير العربية، هي أكثر عدداً من الدول الإسلامية العربية، وأن أعداد المسلمين من غير العرب، تفوق أعدادهم من العرب، كما أنه لاتوجد بلاد في الأرض تخلو من المسلمين، وهـــــــؤلاء جميعـــــــاً مـــــــن مختلـــــــف البقـــــــاع الـــــــتي

يتواجدون فيها، يولّون وجوههم إلى الكعبة في مكّة للصلاة، كما أنهم يقطعون مسافات طويلـــــــــــــــــــــــــــــــــة للحـــــــــــــــــــــــــــــــــج إلى بيت الله.

من جانب آخر يمكنك أن تستنتج درساً من هذه الآية الكريمة، وهو أن التأنّي، في اتخاذ القرارات بالنسبة لبعض الوقائع التي قد تواجهك، فالله تعالى بعزّته وجلاله، ترك وقتاً حتى تستقرّ الأمور في مكة، حيث خرج رسوله منها، وانتقل تنزيل الوحي إلى المدينة، وكان يمكن أن يتمم الله الوحي في مكة، كما كان يمكن أن يُبقي رسوله فيها، لكن مع الزمن تبيّنت حكمة الله في ذلك، حيث ذهب مشركو مكة إلى حيث ما شاء الله، وبقيت مكة موحّدة بأهلها، مستقطبة ومستقبلة ضيوف الرحمن إليها. فاعلم بأن هذه المساحة الزمنية قد رسّخت هذا الاستقرار. فالإنسان يميل إلى العُجالة بطبعه، لكن القرآن يُربّيكَ على مفاصل التأنّي، ويعلّمك كيف تواجه ردّات الفعل، بمساحة الاستيعاب التي يتيحها لك.

﴿٩٠﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

بعد أن تبيّن كل ذلك، يُعيد الله رسوله إلى الماضي للاستئناف، وللمَقصد من هذه الرواية: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فقد هداهم الله، وأصبحوا موضع ثقة، لذلك ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ استفد من الميراث الذي تركوه.

وقد اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، ما أرشده الله إليه، فاجتمعت فيه الخِصال الحميدة التي كانت في الأنبياء من قبله، وقد أهله ذلك كي يسمو ويرتقي في مقامات الفضيلة، وهذه ميزة يتميّز بها النبي عن غيره من أنبياء الله. من هنا، فإن قراءة القرآن تغني عن أي قراءة لأي رسالة سابقة، ذلك أن النفع، كل النفع قد أصبح في القرآن الذي استخلص ما سبقه من الكتب.

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

أخبرهم بأنك لاتطلب منهم نفعاً، بل تحمل إليهم النفع، فكل ما تملكون لايتساوى مع ما أحمله إليكم من النفع ﴿إِنْ﴾ هذا القرآن فيه يقظة واستنارة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ كافة دون استثناء.

الباب الثاني ولعشرون
شكر الله وتعظيمه

﴿٩١﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

التقدير هنا، بمعنى تقديم الشكر للمُعطي تقديراً على عطائه، فأنت عندما تشكره، تظهر له بأنك مقدّر عطاياه لك، وكون الله تعالى هو المعطي هنا، فيُضاف التعظيم إلى الشكر.

لماذا يُضاف التعظيم إلى عطاء الله للإنسان، ولا يُضاف إلى عطاء الإنسان للإنسان، ويُكتفى بالشكر؟

الجواب: لأن عطاء الإنسان للإنسان بالغاً ما بلغ، لايتساوى مع عطاء الله، ثم أن كل ما يمكن للإنسان أن يعطيه للإنسان، فأصله ممّا أنعم به الله تعالى عليه، فهو يُكتفى بالشكر على عطائه، فيمكن له ألاّ يعطي، لكنه يستحق الشكر لأنه أعطى، لكن هذا العطاء هو جزء ممّا أعطاه الله، ولذلك فإن التعظيم يقتصر على الله وحده الذي يَعطي، ولا يُعطى . ثم أن تعظيمك للإنسان يحمل شكلاً من أشكال الشرك، فتعتقد مع هذا التعظيم للشخص بأن ما حلّت عليك من نعمة، إنما جاءت منه، ويمكنه أن يقطعها عنك.

فاعلم بأن الله العظيم قادر أن يُقلّب الموازين، فيجعل هذا الشخص بحاجةٍ إليك، ويجعلك تجزل له العطاء، فتتلقى منه الشكر، بعد أن كنت تقدم إليه الشكر.

اما نقيض التقدير، فهو الجحود، تخبرك الآية بأن هؤلاء: ﴿مَا قَدَرُواْ اللّهَ﴾ على ما أنعم عليهم من عطاء ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾. أي كان عليهم أن يشكروه ويُعظّموه ﴿حَقَّ ﴾ شكره وتعظيمه. وهنا يتبيّن لك أن شكر الله وتعظيمه على عطائه﴿حَقَّ ﴾ له عليك، ثم أنك تتعرّف على عظمة الله، فتعظّمه من خلال تقديرك لِما أنعم به عليك. ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ

حَقَّ قَدْرِهِ﴾ على النِعَم التي أنعم بها عليهم، وهذا الكلام موجّه إلى بعض اليهود الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن، ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾. وهذا نكران كبير لفضل الله عليهم، لأنه يعني أن الله تعالى قد خلق الناس، ثم تخلّى عنهم دون أن يرشدهم إلى الحق، ومَن الذي يمكن له أن يرشد الإنسان إلى الحق إذا تخلّى عنه الله.

﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، فهذا نفي قاطع لكل ما أنزل الله، وهو كلام فيه ازدواجية، واليهود لايؤمنون بمعتقد كهذا، لأن الإيمان ولو بكلمة واحدة من التوراة، يجعل قائل هذا الكلام مُزدَوَجاً، فمَن الذي قال هذا القول، ولماذا تم وصفه بصفة الجمع: ﴿إِذْ قَالُوا﴾؟

بالعودة إلى حيثيات نزول هذه الآية، يتبيّن لنا أن قائل هذا الكلام هو شخص يُدعى(مالك بن الصيف) وكان من أحبار اليهود ورؤسائهم، ويبدو أن حواراً ساخناً نشب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يُروى، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : (" أنشُدُك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجدُ فيها الله يُبغض الحِبرَ السمين؟ فأنت الحِبرُ السمين، قد سمِنْتَ من مالك الذي تطعمُك اليهود" فضحك القومُ فغضبَ ثم التفت إلى عمر رضي الله عنه فقال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾).

ويُروى أن اليهود عاتبوه وقالوا له: (أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فلِمَ قلت: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمد فقلت ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه من الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف).

ما يمكنك أن تستنتجه من هذه الآية، هو الحذر وضبط النفس حتى من قول كلمة طائشة، فتكون ضابطاً لأفعالك، فذاك كلام قاله شخص بشكل مُتسرّع، بل أنه غضب مِن قول الحق الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن جواب الله تعالى يأتي لهذا الشخص ولِمَن يُمثلهم، ويمكن أن نفهم أن تنحية هذا الشخص عن موقعه التمثيلي لهم جاء بشكل اعتذار، فحتى قومه أنكروا عليه ردّ فعله المتسرّع هذا، فقد انتبهوا إلى هذا الاندفاع غير المسؤول الذي بَدَرَ مِن ممثلهم إلى الرسول، فسحبوا منه هذه المسؤولية، وهم بذلك

جنبوا أنفسهم من مسؤولية ما يمكن أن يتسرّع به هذا الشخص، ليقتصر ما يقول على شخصه فحسب.

فالكلمة التي تخرج منك، تسَجّل عليك، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام:" ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنّما الشديدُ الذي يملكُ نفسه عند الغضب "[8] فأن توظّف قوتك في ضبط النفس، لا أن تقول كل ما يأتي إلى لسانك، الذي يكون قد خرج عن سيطرتك، لأن خروجه يعني ضعفك، كما أن ضبطه يعني قوتك.

فاعلم أن الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض، يتمتع بلسان بليغ، يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي.

والإنسان هو لسانه، واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة إنسان يقود لسانه، وثمة آخر ينقاد خلف زلات لسانه.

يُعلّمك القرآن الكريم سبل التعامل مع لسانك، ويبيّن لك حجم مسؤوليتك:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾آل عمران٧٨.

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾النساء٤٦.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾النحل٦٢.

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾النور٢٤.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾الفتح١١.

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾الممتحنة٢.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ق١٨

عن بلال بن الحارث المزني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن

[8] صحيح البخاري ٦١١٤

الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة". أخرجه البخاري.

وكان علقمة يقول: (كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث).

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق ".أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وفي حديث معاذ الطويل، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال معاذ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، ثم قال: "كفَّ عليك هذا" قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال النبي صلى

الله عليه وسلم : "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، إلا حصائد ألسنتهم". أخرجه الترمذي في سننه وقال حسن صحيح، وصححه الألباني.

وفي حديث سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة"[٩].

وفي آخر حديث سفيان بن عبد الله، قال في آخره: قلت يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، وقال: "هذا". أخرجه مسلم.

وممّا يُروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم بينما هو جالس مع أصحابه، جاء رجل وشتم أبا بكر الصديق وآذاه، فسكت أبو بكر، ولم يرُدَّ عليه، فشتمه الرجل مرة ثانية، فسكت أبو بكر، فشتمه مرة ثالثة، فرد عليه أبو بكر، فقام صلى الله عليه وسلم من المجلس وتركهم، فقام خلفه أبو بكر يسأله: هل غضبتَ عليّ يا رسول الله، فقمتَ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "نزل مَلَك من السماء يكذّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ وقع الشيطان فلم أكن لأجلس، إذ وقع الشيطان". رواه أبو داود.

وكانت السيدة عائشة تجلس مع النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبلت عليهما أم المؤمنين السيدة صفية بنت حُيَي، فقالت السيدة عائشة للنبي: حسبك من صفية كذا وكذا -تعني

[٩] أخرجه البخاري

أنها قصيرة- فقال لها النبي: "لقد قلتِ كلمة لو مُزِجتْ بماء البحر لمَزَجَتهُ".أبو داود والترمذي.

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكَفِّر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنا". الترمذي. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه" أحمد. وقال ابن مسعود: (والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان).

كما رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كَثرَة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعدَ الناس عن الله القلبُ القاسي". الترمذي.

وعندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام أفضل؟ قال: "مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده". متفق عليه.

وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال: "أمسك عليك لسانك، ولْيسعك بيتك، وابْكِ على خطيئتك". الترمذي.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾الفرقان٧٢. ويقول صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".متفق عليه.

والغيبة تقع عن طريق اللسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾الحجرات١٢.

وفي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته رضوان الله عليهم: "أتدرون ما الغِيبة " ؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: "ذِكْرُكَ أخاك بما يكره"، فقال أحد الصحابة: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتّه".مسلم.

ويروى أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانتا تغتابان الناس، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال عنهما: "صامتا عما أحل الله، وأفطرتا على ما حرم الله".أحمد.

والغيبة عذابها شديد، وعقابها أليم يوم القيامة، قال النبي: "لما عُرجَ بي، مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس، يخْمِشُون وجوههم وصدورهم، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم".أبوداود.

ذكر الإمام مالك في (الموطأ) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه دخل على أبي بكرٍ الصديق -رضي الله عنه- وهو يجبذ لسانه، فقال عمر: مَه !! غفر الله لك، فقال أبو بكرٍ -رضي الله عنه-: إن هذا أوردني الموارد.

وقال عبد الله بن أبي زكريا: (عَالَجْتُ الصَّمْتَ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَمْ أَقْدِرْ مِنْهُ عَلَى مَا أُرِيدُ) ، وَكَانَ لا يَدَعُ يَغْتَابُ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدٌ، يَقُولُ: (إِنْ ذَكَرْتمُ اللَّهَ أَعَنَّاكُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتمُ النَّاسَ تَرَكْنَاكُم).

وأخرج وكيع في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، من طريق جرير بن حازم، قال: (ذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذلك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته).

وكان عبد الله بن وهب يقول:(نذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يوماً، فأجهدني، فكنت أغتاب وأصوم، أغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة).

قال النووي في الأذكار: (بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال:

هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان).

وقيل للربيع: (ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براضٍ، فأذم الناس؟! إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم).

وقال بكر بن المنير: (سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً).

إن الله تعالى يأمر رسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم إذا كان ذلك صواباً، فـ: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. أورد الحق سبحانه وتعالى: ﴿نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾جواباً على الإنكار، فقد أنعم الله على الناس بأن ﴿أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، لكن الذي حدث أنكم ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ تكتبونه في ﴿قَرَاطِيسَ﴾ دفاتر

﴿تبـدُونَهَا﴾ تظهـرون في هـذه الكِتابـات المـُقَرطَسة مِـن قِـبَلِكم مـا يتوافـق مـع أهـوائكم، ﴿وتخفُون كثيراً﴾ تغفلون ما هو أكثر ممّا تبدون من الحق الوارد في التوراة.

﴿وَعُلِّمتم﴾رغم ذلك فقد بلغكم العِلم الحق من خـلال القـرآن ﴿مـّا لـَمْ تعلَمُـواْ أنـتم ولاَ آبَاؤكُمْ﴾ فما تختلفون فيه هو نتيجة تحريفكم للتوراة، أو الكتمان، أي بعضكم يكتمـه عـن بعض، فينتج بذلك التباس في فهم التوراة من خلال هـذا الخلـل الـذي دسّوه فيـه. فالإبـداء هو لبعضهم البعض، والكتمان هـو عـن بعضهم الـبعض، فبـات الـبعض يعلـم الحقيقـة وهـو مُخفيها، والبعض لايعلمها لأنها أُخفيَت عنه. فكيف الخروج مِن هذه المعضلة؟

يُرشدهم الله عز وجل إلى القـرآن، ويـأمر رسـوله أن يُفصح عـن هـذه الحقيقـة علـى المـلأ حتى يعلمها الجميع، ﴿وَعُلِّمتم﴾ كافة الآن ﴿مَّا لَمْ تعلَمُواْ أنتم ولاَ آبَاؤكُمْ﴾ كافة مِن قبل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ النمل٧٦

ولأن مهمّة النبي تقتصر على الإعلام، فبعد أن عَلِموا بـالحق: ﴿ذَرْهـُمْ﴾ الـذر هنـا بمعنـى الاكتفاء بالإعلام، وعدم تجاوز ذلك، كما أنه لايعني المقاطعة، فيبقى التواصل للتـذكير: ﴿وذكّر به﴾، ولذلك جاءت عِبارة خِتام الآية متصلة: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أي إذا استمرّوا في الجحود بعد أن عَلِموا، لاتتجاوز ذلك، اتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾دون مقاطعة، فيمكن أن يعود إلـيهم بعـد حـين وآخـر، ويُجـدّد تـذكيره لهـم، لأن الإنسان قابل للتغيير، فما لم يتحقق في هذه الموعظة، قـد يتحقـق في موعظـة أخـرى. وهـذا المنهج في الدعوة يلبـث مشـكاة أمـام سـائر الـدعاة دون تجـاوزه، وكـذلك هـو الأصـل بالنسـبة للفتيا، فلا ينبغي للمفتين تجاوزه كونه منهج الله، وهو الأكثر جـدوى، ويـنجم عـن تجـاوزه ما يُلحق الأذى بالمسلمين، فهم يستمدّون قوتهم من الاحتكام إليـه، ويحـل علـيهم الـوهن مـن تجاوزه.

الباب الثالث والعشرون
التبريك والتصديق

﴿٩٢﴾

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

﴿وَ﴾- اعلموا أن- ﴿هـذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ﴾من عند الله﴿أَنزَلْنَاهُ﴾وحياً على قلب محمّد﴿مُبَارَكٌ﴾، باركه الله، فبات يَحملُ خيراً كثيراً ﴿مُّصَدِّقُ﴾ موثق ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يتضمّنه ممّا جاء في الكتب السماوية قبله، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ - يا محمّد ما تتلقّاه مِن الوحي - : ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾، أهل مكّة ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾.

الحَول هنا هو كل موضع جغرافي يمكن للنبي أن يصله مِن أجل إبلاغهم هذا القرآن:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ الأعراف ١٥٨.

ثم مع الزمن ينتقل الحَولُ إلى حولٍ للحَول، وهكذا فيبقى الحَولُ مُتسِعاً كل بقاع الأرض، حيث يتولّى أهلُ القرآن نشره في أصقاع الأرض بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لأن هذا القرآن يحمل بركة الله إلى عِباده كافة حتى يصيبهم منه خيرٌ كثير، وحتى يُزال اللبس الذي وقع في الكتب السماوية التي سبقته، فهو خيرٌ بـ ﴿مُبَارَكٌ﴾، وبيان بـ ﴿مُصَدِّقُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أنهم يُبعثون ﴿بِالآخِرَةِ ﴾ كذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بهذا القرآن،﴿وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

الباب الرابع والعشرون

آفــة التكهّن

﴿٩٣﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

ليس هناك مَن هو أكثر ظلماً مِن الذي ﴿افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾. الافتراء هو أن تنسب قولاً إلى شخص دون أن يقوله، ولا يكون ذلك جهلاً منك، بل تتعمّده فتقوّل الشخص ما لم يقل، وأنت عالمٌ بأنه لم يقله، فذلك افتراء عليه، حينها تكون ظالِماً لأنّك افتريت على شخص. ولكن الذي: ﴿افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾: يكون ﴿أَظْلَمُ﴾ بمعنى أكثر ظلماً، أي يبلغ أقصى درجات الظلم، ولا ظالِم يتجاوزه، فهو ﴿أَظْلَمُ﴾ من جميع الظالِمين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لايوجد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾.

فاعلم أن ذلك يكون بصورة عامّة، ولايقتصر على قولٍ تحريفي قاله قائلٌ، ثم دَسّه في التوراة، أو الإنجيل، أوبعض الادّعاءات التي يَدّعي البعض بأن الله قائلها، بل أنّه يشمل كل مَن يضل الناس بضلالات، ويَدّعي أنها من القرآن.

﴿أَوْ قَالَ﴾ للناس: ﴿أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ كي يتبعوه إلى الباطل ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾مِمّا يدّعي. قال قتادة: (نـزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي، وكان يسجع ويتكهن، فادعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما: "أتشهدان أن مسيلمة نبي" ؟ قالا نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ").

ويُروى أن مسيلمة الكذاب كان يقول: (محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة).

ثم تستأنف الآية: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ﴾ أي يدّعي بأنه قادر أن يأتي بمثل القرآن:

روى حفص بن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة:(أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه عارض القرآن فقال: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً). ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾الأنفال٣١.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾

جاءت كلمة ﴿غَمَرَاتِ﴾ إشارة إلى الشدّة، أي يغمرهم الموت، بمعنى يكونون مثل الغرقى الذين غُمروا بالماء، فحتى عند ﴿الْمَوْتِ﴾ يعاني ﴿الظَّالِمُونَ﴾ بشدّة قبل أن تخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ﴾، البسط بمعنى المدّ، ﴿وَالْمَلآئِكَةُ﴾ مادّوا ﴿أَيْدِيهِمْ﴾، بمعنى لن تستطيعوا أن تنقذوا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾من ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾الذي أعدّ لكم جزاءً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، تتعالون عن الإيمان بها.

﴿٩٤﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

عدتم إلينا أيها المستكبرون﴿فُرَادَى﴾واحداً واحداً كما خرجتم من عندنا عندما ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ واحداً واحداً، فلا أحد معكم، أنتم وأعمالكم، وكل ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ إياه ﴿تَرَكْتُم﴾ - وه - ﴿وَرَاء ظُهُورِكُمْ﴾، فلا مال، ولا جاه، ولا ولد، ولا مؤازر، فكل ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أمره، أصبح ممّا كان ﴿وَ﴾ —الآن-: ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ﴾،غاب عنكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾، وقلتم:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر٣. الآن تحقّق ما أُنذِرتم به، وما كنتم عليه ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ الوصل، فليس بوسع أحد أن يتدخّل في الحِساب العادل الذي يتولاّه الله وحده. ﴿تَّقَطَّعَ﴾ كلمة فيها تفتيت، فليس قُطِعَ، لأن القَطع يمكن له أن يتوصّل، ولكن التقطّع، بمعنى التمزّق، لايجوز معه الوصل، كونه تمزّق، ولم يعد قابلاً للتوصيل، فقد تفتتَ الوصل الذي كان يربطكم ببعض، وتحوّل إلى نِتف، ولم يعد قابلاً للالتحام ببعضه.

ممّا يُروى أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما قرأت: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قالت: يا رسول الله، واسوءتاه! إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض ".

﴿ضَلَّ﴾ توارى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، الزعم هنا بمعنى الادّعاء الباطل، أي تنادي بشيء وتتمسك به، وتدّعي بأنك على صواب، والحقيقة أنك تكون على باطل، وعندما تنبَّه، تستهزئ بالتنبيه، وتصرّ على ما أنت فيه مُعتمِداً على التكهّن.

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾، أي: تكهّنتم، ﴿وَ﴾ الآن توارى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ﴾ تتكهّنون. والزعم هنا متصلّ بالآية ٢٢﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فكل ما تدّعونه، وتتكهّنون به، إنما هو وهم كبير، والآية تنبّهكم كي تستيقظوا من ظلمة هذا الوهم إلى نور الحقيقة. وهذا التنبيه مِن نِعم الله الكبرى على الإنسان، وهو مِن الدلائل الكبرى على رحمة الله بالإنسان، وأن القرآن كله خيرٌ في خير، ونعمةٌ في نعمة، وما دون القرآن، إنّما هو ادّعاءٌ في ادّعاء، وتكهّنٌ في تكهّن، وسرابٌ في سراب، وبالتالي لايخرج عن كونه مجرّد زعم.

﴿٩٥﴾

﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

الفلق، هو الشطر، أي يشطر الحبّة القاسية تحت التراب، فتنبتُ فيها نبتتان، واحدة تزيح عنها التراب لتخرج، والثانية تحفر في التراب لتكون جذراً لهذه النبتة الصاعدة.

أمّا ﴿النَّوَى﴾ فهو كل زرع لايكون أصله حبّاً، مثل: شجرة الخوخ، أو المشمش، أو التمر، وهو مختلف عن حبة القمح، أو الشعير، أو العدس، ﴿وَالنَّوَى﴾ -جمع نواة- هو أكثر قساوة من ﴿الْحَبِّ﴾. فـ ﴿النَّوَى﴾ هو اللّب الكامن في حبة الفاكهة، وحتى تصل إليه، فتحتاج إلى استخراج اللب من حبة الفاكه، ثم استخراج ﴿النَّوَى﴾من اللّب. ولا يكون الأمر سهلاً، فحتى بأسنانك قد لاتستطيع أن تكسر اللب لتخرج منه ﴿النَّوَى﴾، بل تحتاج إلى جسم صلب كي تكسر به اللب. فاعلم: ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ يفلق الحبّة إلى فلقتين تحت الأرض ﴿وَ﴾ يفلق ﴿النَّوَى﴾إلى فلقتين تحت الأرض.

﴿يُخرِج الحَيِّ مِنَ المَيِّتِ﴾، يجوز أن يكون ﴿الحَيِّ﴾ هو النبات، كونه يحتاج إلى عناصر الحياة مثل الماء، والهواء، وما شابه، وهذا النبات الحي قد أخرجه الله من بذرة قاسية ميتة، فبعد أن تصبح هذه البذرة في التراب، وتروى بالماء، ﴿يُخرِج﴾ الله نباتاً حياً من تلك البذرة الميتة.

﴿وَمُخرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ﴾، ثم أن الله عزّ شأنه،﴿مُخرِج﴾ ﴿الحَبِّ وَالنَّوى﴾ مِن النبات الحي، والأمر مشابه لإخراج الدجاجة من البيضة، وإخراج البيضة من الدجاجة. في الأولى قال: ﴿يُخرِجُ الحَيِّ مِنَ المَيِّتِ﴾، أي يجعل حياةً مِن لاحياة، وفي الثانية: ﴿وَمُخرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ﴾، أي يستخرج ميتاً من حي، وهذا المـُخرَج، يُنتفَع به ميتاً، فالخبز يُصنع من قمح يابس، إضافة إلى كونه أصلٌ لكل نبات حي قادم.

﴿ذَلِكُمُ اللهُ فَأنّى تؤفَكُونَ﴾

إن القادر على كل هذا هو ﴿اللهُ﴾وحده ﴿أنّى﴾كيف ﴿تؤفَكُونَ﴾. والإفك هو أمرٌ مرتهنٌ بادّعاء باطل، وبترابط هذه الآية مع الآية الأولى في السورة، يمكنك أن تعلم بأن هذه السورة المباركة، هي سورة الأدلّة الدامغة على وحدانية الله، وهي تبيّن ألوان نِعَم الله على الإنسان.

﴿٩٦﴾

﴿فَالِقُ الإصبَاحِ وَجَعَلَ اللَيلَ سَكَناً وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ حُسبَاناً ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾

كذلك فإن الله عز وجل﴿فَالِقُ الإصبَاحِ﴾، أي يفلق الضوء عن الظلام، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَالِقُ الإصبَاحِ﴾، إشارة بأن الأصل هو الظلام، وهذا متصل بالآية الأولى﴿وَجَعَلَ الظُلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فمن الظلمة، يفلق ﴿الإصبَاحِ﴾، والفلق مِن أسماء الفجر، والله يفلقه عن الظلام، ليحل الضوء على الأرض ، وهذا ممّا لايقدر عليه أحد سوى الله تعالى، كما الأمر بالنسبة لفلق ﴿الحَبِّ وَالنَّوى﴾.

إن الله هنا ينبهك إلى عظمة قدرته، وإلى فضله الكبير عليك، فلو توقف عن فلق ﴿الحَبِّ وَالنَّوى﴾، لأصبح الناس في بؤس شديد، ولو توقف عن فلق﴿الإصبَاحِ﴾، للبث الناس في ظــــلام، وهذا يعني أن أية

مصابيح اصطناعية لايمكن لها أن تزيح شيئاً من العتمة، لأنها تكون عاجزة عن اختراق هذه العتمة التي تكون غير قابلة للاختراق، فهي عتمة دائمة لايفلقها إصباحُ الله ساعة الفجر، كما لايُصدر القمر نوراً، عندئذ لايجسر أي مصباح بشري أن يُبدّد ولو جزءاً يسيراً منها، وهذا من شأنه أن يُبعد احتمال وجود أي مصباح، لأن الإنسان ليس بوسعه أن يقوم بالصناعة، وهو في عتمة أزلية، ثم أن فكرة وجود المصابيح، هي فكرة مُستنبَطة من أشعة الشمس، ونور القمر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾الأعراف٥٤

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً﴾يونس٥

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾يس٤٠

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾نوح١٦ .

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾، حينما يخيّم الظلام، تخفّ الحركة، ويعمّ الهدوء في محراب سكون الليل حتى يخلد الناس إلى الراحة، ويسكنون إلى بعضهم بعضاً. فتكون قد انطوت صفحة جديدة من ضجيج النهار، عندما خرج كلّ إلى موضع عمله، وتفرّقت العائلة عن بعضها البعض، ولذلك جاءت كلمة السكن، لتعبّر عن عودة الأفراد إلى عوائلهم بعد أن خرجوا في مبتدأ ضجيج النهار الذي هو نقيض سكون الليل، فالآن انتهى ضجيج النهار، وقام كل بعمله الذي خرج من أجله، وعاد أفراد العائلات يسكنون إلى بعضهم البعض في مساكنهم:﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يونس ٦٧. السكن يزيد التآلف بين أفراد العائلة، كونه لايقتصر على النوم، بل يجلسون معاً، يتناولون العشاء، يتسامرون ، يروون لبعضهم البعض ما حدث معهم في ساعات النهار. إذن هي فترة الاستئناس والاسترخاء والمسامرة، وتناول ماطاب من طعام، وما لذ من شراب، والاستمتاع بالمشاعر العائلية المشتركة بين أفراد العائلة حتى يتكلل ذلك بمتعة الإيواء إلى الفراش.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾، الحُسبان من الحِساب، فمن خلال القمر تعرف المواقيت، وفي الحديث:" صوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته"[١٠] ومعنى ذلك أنه يكون قد مضى شهر بين الرؤيتين. كذلـــك فإن

[١٠] صحيح البخاري ١٨١٠

الشمس تعلن ولادة يوم، وانتهاء آخر، فمن خلالها يُعرف عدد الأيام، ومن خلال ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ معاً يتم التعرّف على الوقت بالساعة، والتعرّف على اليوم، والأسبوع، والشهر، والسنة.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور إنما هو مقدّر بقدر، ومحسوب بحساب من الله ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. جاء اسم الله ﴿الْعَزِيزِ﴾إشارة بأن الذين يشركون، لاينالون من عزّة الله، بل يذلّون أنفسهم، ومهما ادّعى الإنسان العزّة، فإنّه يذل لعزّة الله الذي ذل لعزّته كل عزيز.

ثم ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي لايفوت علمه شيء.

الباب الخامس والعشرون

الاهتداء والاستيعاب

﴿٩٧﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

اعلموا بأن الله: ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الَّذِي﴾ مَنّ عليكم إذ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ المتلألئة في السماء

﴿لِتَهْتَدُوا﴾ لتسترشدوا ﴿بِهَا﴾إذا ضللتم السبيل، سواء أكنتم تمضون في ﴿الْبَرِّ﴾ أو تمضون في ﴿الْبَحْرِ﴾، وحلّت عليكم ﴿ظُلُمَاتِ﴾. الظلمات هنا إشارة إلى التيه، فـ ﴿النُّجُومَ﴾تمنع العتمة أن تخيّم على كل شيء، وعندما تخيّم عتمةٌ على الإنسان، يبحث عن أي بصيص ضوء كي يهتدي به، وهذا البصيص يمنع عنه - على الأقل- الشعور بالتيه، فالأعمى هو الذي لايرى البتة، وهو منسجم على أنّه لايرى، لكن الذي يرى، وبغتة، ضلّ الطريق، ثم وقع عليه ظلام حالِك، فهو يُدرِك بأنّه ليس أعمى، ولكن حلكة الظلام تمنعه من رؤية شيء، وهنا يبدأ الفَزَع، فيبحث عن أي شيء يمكن له أن يضيء مهما كان صغيراً، لأنّ هذا الضوء الصغير من شأنه أن يُخفّف عنه حالة الفزع.

هنا جعل الله ﴿النُّجُومَ﴾ المتلألئة في السماء ترفع الفزع عن التائهين ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، فمهما كانت الظلمة حالكة عليكم أينما تواجدتم في مساحة ﴿الْبَرِّ﴾، أو مساحة

﴿الْبَحْرِ﴾، ومهما انقطعَتْ عنكم وسائلُ الاسترشاد، فإن الله لم يتركِكم لوحشة التيه، بل ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ مِن تيهكم إلى الموضع الذي تبتغون.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾، فهذه دلالات بيّنها الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ﴾ لأناس يتدارسونها، ويتذاكرونها، وينتفعون بما ﴿يَعْلَمُونَ﴾ منها.

الباب السادس والعشرون

المستقَر والمستودَع

﴿٩٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِيَ أَنشَأَكُم﴾، جعل لكم حضوراً مِن لاحضور، والنشوء بمعنى الإيجاد، أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِيَ﴾ أوجَدَكم من لاوجود، فلولا أن أوجدكم الله، ما كان لكم أي وجود، وما كان بوسع أحد أن يوجدكم. فهذا بيان يضعه الله تعالى بين أيادي الذين يشركون به، أو ينفون وجوده، فمادمتَ موجوداً، لا بدّ مِن واجد أو جدك، فاعلم أن وجود الخالق دليل على وجود المخلوق.

وجود المخلوق دليل على وجود الخالق.

إن الله لا ينكر وجود الإنسان ولذلك ليس للإنسان أن ينكر وجود الله، عندما يؤمن الإنسان بوجود الله، يؤمن بوجود الإنسان.

درجة النكران بوجود الله عند الإنسان هي درجة النكران بوجود الإنسان عند الإنسان، درجة الإيمان بوجود الله عند الإنسان هي درجة الإيمان بوجود الإنسان عند الإنسان.

يكون المخلوق موجوداً بقدر وجود الخالق ويكون الخالق موجوداً بقدر وجود المخلوق، مَنْ لا يؤمن بوجود خالق يضيق عليه أن يؤمن بوجود مخلوق.

إيمان الإنسان بوجوده هو إيمان بوجود الله، إيمان الإنسان بوجود الله هو إيمان بوجوده.

الذي لا خالق له، لا صانع له،لا مبدع له: لا وجود له، لا دليل يثبته، إنه دائم الريب في وجوده، يعيش حالات متأزمة في تقلّبات الفصام.

وجود الشيء هو دليل على وجود مبدع له،

وجود بناء هو دليل على وجود بَنّاء،

وجود كِتاب هو دليل على وجود كاتب،

وجود مولود هو دليل على وجود أب.

إن أعظم ضمانة لمستقبل الإنسان هو وجود خالقٍ عادلٍ له.

الخالق دوماً هو مستقبل المخلوق.

المخلوق دوماً يؤدي إلى خالق.

لا وجود لمخلوق دون خالق.

إن أظلم مستقبل للإنسان أن يكون مستقبله الإنسان، والأ ظلم أن يكون الإنسان بلا مستقبل .

الضياع كل الضياع أن يضيع المبدَع عن مبدعه.

الإيمان قوة، اللا إيمان وهن

الإيمان جمال، اللا إيمان قبح

الإيمان شروق، اللاإيمان كسوف

الإيمان حياة، اللا إيمان موت

الإيمان نجاة، اللا إيمان هلاك

الإيمان استقرار، اللا إيمان شتات

الإيمان معرفة، اللا إيمان جهل

الإيمان مودة، اللا إيمان غل

الخطوط الأولى نحو معرفة المخلوق تبدأ من معرفة الخالق، تكون في عجز عن معرفة نفسك قدر ما أنت في عجز عن معرفة خالقك، كلما ازددت إيماناً بالخالق ازددت إيماناً بنفسك، ما لا تعلمه من أحد عن نفسك تعلمه من خالقك.

مالا يقوله لك أحد عن نفسك، يقوله لك خالقك.

وجود الخالق هو وجود للمخلوق

قوة الخالق هي قوة للمخلوق

جمال الخالق هو جمال للمخلوق.

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم﴾ جميعاً ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾لعله المني الذي يستقر في ظهر الرجل، إبتداءً من آدم عليه السلام،﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾. يجوز أن

يكون رحم المرأة الذي يستودع فيه الرجـــل مَنيّه، فهو: ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ لأنّه يُستودَع، فالـ ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ هو المكان الذي يحتفظ بما

استودِع فيه، فمَني الرجل عندما يتلاقح مع مَني المرأة في رحمها، يلبث مستودَعاً فيه، حتى يتشكّل بذلك كائن بشري جديد، ليفتح عينيه لأول مرة على الوجود، ويستأنف مسيرة نشوء آبائه وأجداده.

وكلمة﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ هي للرحم الذي يحتفظ بمني الرجل، ويكون صالحاً لعملية تشكّل الجَنين، لكن إذا لم يحتفظ هذا الرحم بالمني ويطرحه خارجاً، أي لايكون صالحاً لعملية اللقاح، سواء لوجود عطب في الرحم، أو لبلوغ المرأة سن اليأس، فهو رحم غير﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾. وهذا يأتي بالمقابل على الرجل أيضاً، فليس كل ظهرٍ يكون مُستقَراً للمني الذي يصلح أن يتلاقح مع مني المرأة، فقد يكون المني هو عبارة عن سائل منوي به نسبة ضئيلة من الحيوانات المنوية، بحيث لايغتني بالخواص الكافية التي تجعله مؤهلاً للتلاقح.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. الكلمة الأخيرة من الآية السابقة كانت﴿يَعْلَمُونَ﴾لأن الأمر كان يخص الاهتداء تجنباً من التيه ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وهنا فالكلمة الأخيرة ﴿يَفْقَهُونَ﴾، في ذات الجملة الختامية المكرّرة، باختلاف الكلمتين الأخيرتين. فاعلم أن الخلاف بين العلم والفقه في الآيتين المتتاليتين، هو أن العلم يعني الاهتداء من خلال الأشياء الظاهرة، والفقه هو الاستيعاب من خلال الأشياء الباطنة. والعلم يتكامل بالفقه، كما أن الفقه يتكامل بالعلم، فتعلّمك الآيتان أن تدرك من خلال التعلّم المَظهري، وتفطن من خلال التفقّه الجَوهري، أي تتعلّم ممّا ترى، وتتفقّه ممّا لاترى. فعندما تتوه في مكان، وتسأل شخصاً كي يرشدك، عليك ألآ تمضي معه دون أن تدرك قيمة الاستدلال، وأن تدع الشخص يقودك وكأن الأمر لايعنيك، بل عليك أن تتعلّم من هذا الاستدلال، وتشكر الشخص الذي أدلّك إلى الصواب، فإذن عليك أن تؤمن بأن شخصاً قد أوصلك إلى المكان المُراد، وأن الله هو الذي خلق هذا الشخص، وعلّمه سبيل الاستدلال حتى أدلّك. فلولا أن جعل الله ﴿النُّجُومَ﴾، ما كان لها أي وجود، وبالتالي للبثت تائهاً﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، فإذن لولا خلَقَ الله أصلكم آدم عليه السلام، ما كان لكم أي نشوء أو استكثار.

الباب السابع والعشرون

المُشتبَه والغير مُتشابه

﴿٩٩﴾

﴿وَهوَ الذِيَ أنـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأخرَجنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيءٍ فَأخرَجنَا مِنهُ خَضِراً نُّخرِجُ مِنهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخلِ مِن طَلعِهَا قِنوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أعنَابٍ وَالزَّيتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشتَبِهاً وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أثمَرَ وَيَنعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾

فإن كنتم ترون الأرزاق وافرة بينكم بوفرة الماء، فاعلموا بأن هذا الماء أنزله الله مطراً ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾وأن ﴿نَبَاتَ كُلِّ﴾ صنف، ما كان ليخرج دون أن يُخرجه الله حتى لو جاءه الماء، فالله هو الذي أخرج ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ﴾ أصل ﴿كُلِّ شَيءٍ﴾ ينبت ﴿فَأخرَجنَا﴾بعد ذلك ﴿مِنهُ﴾ من الأصل ﴿خَضِراً نُّخرِجُ مِنهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً﴾. فكما أن الله ﴿أنشَأكُم مِّن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أخرج أصل كل نباتٍ، ومن هذا النبات الأصل أخرج ﴿خَضِراً﴾ ماهو رطب أخضر، ويُخرج من هذا الخضر﴿حَبّاً مُّتَرَاكِباً﴾مثل حبّات السنبلة المتراكبة على بعضها البعض.

﴿وَمِنَ النَّخلِ مِن طَلعِهَا قِنوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

صورة متلألئة بديعة الجمالية:﴿وَمِنَ﴾ شجر ﴿النَّخلِ﴾التمر ﴿مِن طَلعِهَا﴾، الطلعُ مِن الطلوعِ ﴿قِنوَانٌ﴾ جمع قِنوٍ، وهو عنقود النخلة ﴿دَانِيَةٌ﴾. الدنو هو القرب، وتدنو من الشيء، أي تقترب منه، فثمار النخلة قريبة من مُتناول اليد، كما أنها متقاربة إلى بعضها البعض، بحيث يمكن للمرء أحياناً أن يقطفها حتى وهو جالس. وتتميّز النخلة بصِغَرِ حَجمها واكتنازها بالثمَر، ويُعَدّ ثمرها من المصادر الغذائية الهامة التي تمدّ الجسد بالطاقة، كونها غنية بنسبة جيدة من السكر الطبيعي، وهي مُتاحة لفقراء الناس وأغنيائهم، كونها مُتعدّدة الأصناف والجودة، فمِن أصنافها ما هو باهض الثمن، وما هو متوسط، وما هو منخفض، إضافة إلى هذا كله فالنخلة تتمتع بلمسات جمالية، وبطلعة بهية ﴿وَالنَّخلَ

﴿بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ق١٠ ، ولذلك تـزرَع على امتـداد بعض الطرقات في بعض المـدن والمناطق، حتى تضفي لمسات جمالية إلى المظهر العام للمكان.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾.

﴿وَ﴾- كذلك تخرج منه- ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾، ثلاثة أنواع من ثمار الشجر﴿مُشْتَبِهاً﴾، ثمار هذه الأنواع تشبه بعضها البعض إلى درجة قد يشتبه الأمر على المرء إن لم يتفحّصها جيداً، أو يتذوّقها. فحبّة العِنَب الصغيرة تكون متشابهة مع حبّة الزيتون، وحبّة الرمان الكبيرة تتشابه مع حبّتي العِنَب والزيتون إلى درجة قد يلتبس فيها الأمر على المرء. واعلم أن الاشتباه هنا، غير الشَبَه، فالمرء يُصبح في حالة اشتباه من كثر الشبه الظاهري، أمّا الباطني فهو﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾، فلو كنتَ في ظلمة، ومددتَ يدكَ إلى طَبَقٍ يحتوي على الأصناف الثلاثة، فمن خلال الطعم، وكذلك من حيث الخواص والمزايا يكون تمييزها.

ويمكن أن يكون ﴿مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في ذات الصنف من الثمر، فتأتي ببعض الرمان، تكسر واحدة، فتكون حلوة، وتكسر أخرى، فتكون حامضة، وتكسر أخرى، فتكون متوسطة، وواحدة تكون حَبّاتها حمراء، والأخرى بيضاء، والأخرى متوسطة.

والأمر يكون أيضاً للعنب، فقد يكون حلواً، وقد يكون حامضاً، وقد يكون متوسطاً، وكذلك الأمر بالنسبة للزيتون.

ثم أنك لو أتيتَ إلى خواص كل حبة، فقد تطفحُ حبةُ الرمان بما تحتويه من ماء حتى يسيل وأنت تأكلها، وقد تكون رمّانة جافة قليلة الماء، كذلك الأمر بالنسبة لحبة العنب، ويمكن أن تكون حبّة الزيتون مكتنزة بالزيت، ويمكن أن تحتوي على نسبة ضئيلة منه.

وفي كل ذلك يكون الاشتباه، وهذا الاشتباه هو الذي يجعل الناس في حالة اشتباه من بيان ما تحتويه حبات الثمار الثلاث المذكورة في الآية الكريمة، فهي غير متشابهة الطعم كأصناف، وغير متشابهة الطعم حتى بالنسبة للصنف الواحد، ذلك أن الله تعالى قد جعل بها اشتباهاً، وهذا الاشتباه يُغنيها ويبيّن آيات الله فيها كما سيأتي في مختتم الآية.

﴿انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، تأمّلوا الثمر في مراحل نضجه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ الإبداع الإلهي ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل ماديّة في قلب الطبيعة المرئية والملموسة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾،

سواء أكانت لديهم رغبة ونيّة في الإيمان مع شيء من التردّد، فإن مضمون﴿دُلكُم﴾، يُزيح التردّد عن كاهلهم فيؤمنوا، أو كانوا مؤمنين، فيزدادون في درجات الرسوخ في الإيمان.

الباب الثامن والعشرون

الخَرق

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾

جعل المشركون ﴿لِلّهِ شُرَكَاء﴾ من ﴿الْجِنَّ﴾ الذين ﴿خَلَقَهُمْ﴾ الله ﴿وَخَرَقُواْ لَهُ﴾ نسبوا لله ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ افتراءً، مثل قول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول مشركي العرب: الملائكة بنات الله. فالمرء يخرق عندما يقول أشياءً لاتمت بصلة إلى الحقيقة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دون تحقّق. ﴿سُبْحَانَهُ﴾، تنزيه الله من المنسوب إليه،﴿وَتَعَالَى﴾ عظمة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بهذا الافتراء.

﴿١٠١﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

تستأنف السورةُ المباركة تقديم كنوز المعاني الثمينة على أطباقٍ ذهَبيّةٍ من جمالية وبلاغة وفصاحة اللغة: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فإن الله الذي تعبده، وأنتَ قويٌ به، وأنتَ تعقد كل آمالك عليه، هو: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وليس بوسع أحد أن يُغلق معنى ﴿بَدِيعُ﴾ على تعريف واحد، فليس البديع هو مَن أبدع ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾فحسب، بل هو جميل ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فعندما يكون معك، يكون كلُ شيءٍ طَوع أمرك، وعندما يكون عليك، ستكون ذاك الشقي الذي خَسِرَ كل شيء، الخسارة التي لايمكن تعويضها بأي حالٍ من الأحوال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾. إن أي تصوّرٍ، أو تخيّلٍ، أو اعتقاد بوجود شريك له، فإن ذلك يعني أنه غير متفرّد بأنه وحده ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فلا ﴿وَلَدٌ﴾ لديه، لأن الذي يكون له ﴿وَلَدٌ﴾ ، يكون هذا الولد مولوداً له، ولابدّ لهذا المولود من والدة تكون قد ولدته. وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى، يتحوّل- وفق هذا الاعتقاد الشركي- إلى والدٍ للمولود، وإلى زوجٍ لوالِدَته، وهذا ينالُ مِن تفرّده بالألوهية. ولذلك كان مُفتتح الآية، بيان الله تعالى ذكره، للناس بأنه وحده: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أي أنه وحده قد أبدع

﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وهو - عزّ اسمه - وحده جميل ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وبالتالي هو

المتفرّد الذي تكون له العِبادة، وكونه المتفرّد القادر على كل ما لايقدر عليه أحدٌ سواه، فأمام هذه الحقيقة البيانية التي يبيّنها الله تعالى ويُخبر بها الناس، يسقط أي اعتقاد بوجود شريك له وفق أي مقياس من المقاييس. فالحسم في هذه المسألة، أن الله يخلقُ العِباد، ولاينجبُ الأبناء، فهو - تجلّت قدرته - قد خلق آدم عليه السلام، واعتباراً مِن آدم بدأ الناسُ يتكاثرون من خلال الولادة فحسب، كما تقدم معنا في الآية ٩٨، ولايوجد بشرٌ دون آدم قد خُلِقَ دون ولادة، وحتى في الحالة الشديدة الاستثنائية، والوحيدة التي حدثت في تاريخ نشوء الإنسان مع عيسى عليه السلام، فكانت ثمة والدة ولدته، وهي المرة الوحيد التي حدثت فيها ولادة إنسان دون والد، فالله هو خالق النفس الواحدة التي هي أصل النشوء البشري، وكل ما جاء نتيجة هذا الأصل، لايمكن له إلاّ أن يكون مَخلوقاً، وما دامت مريم عليها السلام هي ابنة عمران، فلابدّ لابنها أن يكون حفيداً لعمران، من نسل آدم عليه السلام.

لذلك فإن أي اعتقاد بأن عيسى هو ابن الله، لايخلو من الازدواجية، فكيف يكون الله أباً له، وعمران جداً له، أي يكون عمران جداً لابن الله. فتأمّل قول الله لأصحاب هذا الاعتقاد: ﴿أنّى﴾ كيف ﴿يكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ﴾زوجة، والله - جَلّ شأنه - يصف الزوجة بالصاحبة كما في قوله:﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾عبس٣٦ . فكيف يستوي أن يكون الله سبحانه وتعالى، زوجاً للأم، وأباً للابن، وبذات الوقت رباً لهما. ولذلك تضع الآية أصحاب هذا الاعتقاد الضال في صلب هذه الحقيقة، وتدعوهم إلى التفكّر فيها، أي: فكّروا ﴿أنّى﴾كيف﴿يكُونُ﴾ لله ﴿وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ﴾. عندها ستعلمون أن الذي لاصاحبة ﴿لَهُ﴾، لا﴿يكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾.

على ما تبيّن، فإن كل إنسان، اعتباراً من آدم، لايمكن له أن يخرج عن عبودية الله الذي ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ولاشيء على الاطلاق- بموجب شمولية قوله تعالى ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ - إلاّ ويكون مِن خَلق الله، وعلى هذا، فإن الله وحده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لاشيء بوسعه أن يخرج عن محيط علمه.

﴿١٠٢﴾

﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

هذا هو﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي هو﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فارتقوا إلى هذا الإيمان الذي تستمدّون منه قوتكم، وتوازنكم، ونقاء الإنسان في داخلكم. فالرب لا يعلوه أحد، والأب هو دون الرب وهو عبدٌ للرب، وما يقدر عليه الرب، لا يقدر عليه الأب. والإنسان يكون قوياً، وجميلاً، ومتوازناً بربّه، أكثر ممّا يكون بأبيه.

فالإنسان هو خلقٌ أبدعه الله، والإبداع أعلى من الإنجاب، وعاطفة الأبوة مهما علَتْ فإنها لن تبلغ مبلغ الإبداع. ولذلك فإن الإنسان هو أقرب إلى الله من أبيه وأمه، ومَنْ يحبه، وكذلك فإن الإبداع هو أسمى من الإنجاب وأقوى من أي علاقة ما بين البشر والبشر، فلا يكون من حق الإنسان أن يفتخر بأنه ابن فلان، بقدر ما يكون من حقه أن يفتخر ويسمو لأنه إبداع الله، وكل إنسان هو إبداع الله، وعلى هذا الشكل العادل فإن الناس جميعاً يشتركون في هذه الميزة الإلهية.

والإنسان بعد ذلك يكون حراً في أن يسمو بنفسه فيكون مقرّباً من مبدِعه، فقد ورد أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، وكذلك هو حر في أن يذل نفسه فيبتعد عن مبدِعه إلى أن يجرّد نفسه من كل خُلقٍ طيب.

المنجب يفرح عندما يرى أعمال ولده الصالحة، فكيف بالله المبدِع وهو يرى أعمال مبدَعه الصالحة، والله يبيّن للإنسان سبل الخير ليعمل صالحاً ويرشده إلى سواء السبيل، وهو الذي خلق الناس جميعاً، وهم الذين يقتربون من الله أو يبتعدون عنه. روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة قال: (حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: "يا أيها الناس ألا إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى، أبلغت"؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم)[11] .

لقد شاء الله أن يخلق الإنسان ويملكه الأرض وما عليها، والخلق أعلى درجات الرحمة من أي علاقة أخرى، وأمام هذه العلاقة السامية الكبرى مع الله، يمكن للإنسان أن يراجع وقائع أعماله في مناسبات شتى ويرتقي بها ليقدّم لله أنه على قدر مسؤولية الحياة

---

[11] المسند ٢٣٤٨٩

الكبرى التي شاء الله أن ينعم بها عليه، ومسؤولية الأخوة الإنسانية التي أنعم بها عليه ليكون أخاً للأنبياء والرسل والصالحين، وليكون عنصراً في سلسلة الأخوة الإنسانية، ويشكل تاريخاً كاملاً وسجلاً إنسانياً خاصاً به.

﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ إن الله ﴿هُوَ﴾ وحده المتفرّد بقدرته، ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾، كل ما دون الله هو مخلوق له، فاعبدوا الخالق، ولاتعبدوا المخلوق، ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، الحافظ لكل شيء، فليكن اتكالكم على الله، لا على غيره.

الباب التاسع والعشرون

المُدرِك اللامُدرَك

﴿١٠٣﴾

﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

إن الله الذي هو ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لاتستطيع الأبصار أن تراه إلاّ إذا شاء هو أن يتراءى لها، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ شاءت ذلك أم أبت. والله تعالى يأذن للمؤمنين أن يروه يوم القيامة:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢، ٢٣.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم:" سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته "[١٢] ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بما يسرّون وما يعلنون.

﴿١٠٤﴾

﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

[١٢] متفق عليه

ما تم ذكره وبيانه وتفصيله، فيه: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، وهو نورٌ في القلب يستبصر به الإنسان بقلبه، وهو ليس كنور البصر الذي يبصر به بعينيه، فالبَصيرة تفعيلٌ للمشاعر والمدركات، فما بيّنه لكم القرآن، فيه:﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

فتعلم هنا بأن آيات الله فيها ﴿بَصَآئِرُ﴾ القلوب، وهذه الـ﴿بَصَآئِرُ﴾، تحرّك المشاعر والمدركات حتى تتفاعل وتستجيب لها: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ استجاب وتفاعل، ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ لأنه ينفع نفسه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾، لم يتفاعل مع هذه الـ﴿بَصَآئِرُ﴾، ولم تتحرّك مشاعره إزاءها، ﴿فَ﴾- يكون بذلك قد جنى -﴿عَلَيْهَا﴾.

﴿وَ﴾ قل لهم يا محمّد: ﴿مَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾. إن الله هو الحفيظ الذي يحفظ الأعمال، ويفعل ما يشاء، إنما أنا أبلغكم الرسالة.

﴿١٠٥﴾

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ وفقما نشاء﴿نُصَرِّفُ﴾ نبيّن ﴿الآيَاتِ﴾، الأدلّة الملموسة، والمحسوسة ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾، وليدّعي المشركون بأنها ﴿دَرَسْتَ﴾، أي تدارسها الرسول، ونقلها ممّا كان الناس يتداولونه في الماضي. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ نظهره ونعلّمه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾قيمة هذه ﴿الآيَاتِ﴾، فيتخذوا منها العبرة، ويزدادوا بها إيماناً وعِلماً، وبالمقابل لتبقى مدروسة بالنسبة للذين لايعلمون قيمة هذه ﴿الآيَاتِ﴾، ولايتخذوا منها العبرة، فيلبثون في جهلهم الأعمى.

الباب الثلاثون

حدود البلاغ

﴿١٠٦﴾

﴿اتبِعْ مَا أوحِيَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

لاشأن لـك باللـذين يقولـون بـأن هـذه ﴿الآيَـاتِ﴾، ﴿دَرَسْتَ﴾، فمهمّتـك أن تــ ﴿تبـعْ﴾ تستأنف نشر﴿مَـا أوحِيَ إلَيْكَ مِـن رَّبِّكَ﴾، الواحـد الأحـد الـذي ﴿لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ﴾، وأن تــ ﴿عرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. تتجنب التأثر بما يقوله المشركون، وتكتفي بإبلاغهم﴿مَا أوحِيَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

﴿١٠٧﴾

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

اعلم يارسولنا بأن هؤلاء لايشركون رغماً عن مشيئة الله، ﴿وَلَوْ شَـاء اللّـهُ﴾ ألاّ يشـركوا لما كان بوسعهم يشركوا و﴿مَا أَشْرَكُواْ﴾لحظة واحدة ولو في أنفسهم، ومـا كـان ليخطـر لهـم أن يشركوا.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ﴾،﴿وَمَا﴾ أرسلناك ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾لأعمالهم وأقوالهم. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، فلستَ وكيلـهم عنـد الله، لاتمثلهم، ولا تتحمّـل مسؤولية شـركهم، لأن مسـؤوليتك تقتصر على البلاغ.

﴿١٠٨﴾

﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

نهى الله تعالى أن يسبّ المسلمون، أوثان المشركين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِـن دُونِ اللّـهِ﴾ لأن ذلك من شأنه أن يجعلهم يردّوا السَبَّ بالسَبِّ كَردِ فعل ﴿فَيَسُبُّواْ اللّـهَ عَـدْواً﴾ بغـير علـم وهـم يعتقدون بأنهم يردّون بالمثل استناداً إلى جهلهم.

تضعنا الآية في قلب الحدث، حيث أن المشركين يَدّعون بأن الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، أخذ هذه الآيات تدارساً عن كلام الناس، ولعَلّ ذلك يجعل المسلمين يَـردّوا علـى هـذا الادّعـاء بتوجيه السِباب إلى أوثانهم.

وقد بيّن الله في الآية ١٠٥ إذ قال جلّ شأنه: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾، فإن قولهم هو محض افتراء، ثم أنهم يبدون واهنين أمام قوة الحقيقة الساطعة في القرآن، ومَن لم يتعظ فإن الله لم يجعل رسوله ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾، كما أنه ليس ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

تعلّمك الآية كذلك ألاّ توجه الإهانة إلى معتقدات الناس في مشاربهم ومآربهم، وكما أنك اهتديت ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾النحل ١٢٥، ولم تهتد بقوة السيف، فعليك أن تمنح هذا الحق للناس جميعاً، لأن السيف ليس بوسعه أن يبث الإيمان في القلب، بل بوسعه أن يبث الرعب والخوف، فيعلن المرء إيمانه خوفاً من السيف، وتفادياً لأذى السيف، وليس إيماناً بالله، بل لعلّه يزداد عِناداً في كفره، لأن الله سلّط حامل السيف هذا عليه كي يُخرجه من معتقده بالقوة.

فليس من قِيَم الدعوة الإسلامية الراقية أن تجيز لنفسك، وتقود الناس رغماً عنهم إلى المسجد، وأنت تحمل السيف على رقابهم، وأنت تقول: صلّوا وإلاّ قتلتكم. ومَن يرفض تقدم على قتله.

فإن ابتغيتَ الإسلام، فعليك أن تأتسي برسول الإسلام الذي لم يجعله الله ﴿حَفِيظاً﴾ على ناكري الإسلام، ولم يجعله ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وفي استئناف الآية ضمن هذا المسار الدَعَوي القِيَمي، الأخلاقي، الإنساني: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا﴾، ونستطيع ألاّ نُزيّن، فنحنُ الذين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فهو الذي يعاقب ويثيب، ولستم أنتم. ﴿وَ﴾ على ما تبيّن: ﴿لاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، أي لا توجهوا إليهم حتى كلمة بذيئة، ولتكن دعوتكم إليهم بالكَلِم الطيّب.

﴿١٠٩﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

فاعلم أنه لايُقسِم بالله إلاّ المؤمن به، فالمُشرك هو مؤمن بالله، والدليل أنّه يُشرك به، وإلاّ لنفى وجود الله، وبالتالي ما كان في مُعتقَدِهِ سوى الأوثان، لكن الشرك يكمن في اعتقاده بأن هذه الأوثان من شأنها أن

تقرّبه:﴿ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾الزمر٣ ، أي تكون شفيعة له عند الله الذي يؤمن به، وقد تقدّم في الآية ٩٤:﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

فقد أقسم مشركو مكّة للنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي يؤمنون به شِركاً ﴿جَهْدَ﴾ الجهد من المشقّة، و: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أشدّ ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾، ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾، إذا استجاب لمطلبهم ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، أي يؤمنون بوحدانية الله الذي لاشريك له، لا أن يؤمنوا بأنها من عند الله، ويلبثوا في شركهم.

أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: (كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قريشاً فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدّقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أي شيء تحبون أن آتيكم به"؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: "فإن فعلت تصدقوني"؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال: "بل يتوب تائبهم"، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾).

يوجّه ربُ العزّة رسوله كي يرد عليهم:﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، بمعنى ليس لكم أن تشترطوا شروطاً على الله حتى تؤمنوا ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، لعلّ الكلام هنا موجه للنبي وللمسلمين معاً، لأن بعض الروايات تذكر أن بعض المسلمين أيضاً أرادوا من النبي أن يسأل الله الاستجابة لمطالب هؤلاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يا مَن تريدون الاستجابة لهذه الشروط، أن هذه الآيات ﴿إِذَا﴾ أنزلها الله، استجابة لمطلبهم، وسؤالكم بالاستجابة:﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾بها. فقسمهم ﴿جَهْدَ﴾الأيمان ليس موضع ثقة بأنهم سيؤمنون حقاً، وعند ذاك سيحل عِقابُ الله عليهم جراء نقض ما﴿أَقْسَمُوا﴾. ولأن الله تعالى يعلم بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه لايستجيب رحمة بهم، وإمهالاً لهم حتى تبقى الفُرَص سانحة أمام مَن يؤمن منهم مع الزمن.

﴿١١٠﴾

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

أمّا الذين يصرّون على الاستكبار، وإملاء الشروط، ويلبثون في عنادهم، فإن الله تعالى يحرمهم من الانتفاع بالحق الذي جاء في القرآن، فيجازيهم على عدم إيمانهم بأن لايهديهم ويدعهم في متاهة ضلالهم يتشتتون.

﴿١١١﴾

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

لايظنن هؤلاء، ولايظن أحدٌ غيرهم أن عدم إيمانهم بك أيها الرسول، هو خارج عن مشيئة الله، بل لو شاء الله، لآمنوا، ولما اشترطوا شروطاً. ﴿وَ﴾ اعلموا جميعاً بأننا لو استجبنا لهؤلاء ما يشترطون و ﴿نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ﴾فيخبروهم بأنك حقاً رسول الله، وأحيينا لهم ﴿الْمَوْتَى﴾ حتى يكلمونهم كما يطلبون.

وهنا يزيد الله إلى ما لعلّه لم يخطر لهم أن يطلبوه، ذلك بأنه لو جمع ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾- جمع قبيل - أي صفاً صفاً. وإن كانت الاستجابة لِما يشترطون قد تجعلهم يطلبون المزيد، فإن الله يُغلق لهم هذا الباب، فيقول- سبحانه وتعالى -: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾، وذلك من شأنه أن يجعلهم يؤمنوا حقاً، لأنه لم يعد هناك شيء كي يتذرّعوا به.

هنا يبيّن الله بأنهم عندذاك إذا أرادوا أن يؤمنوا حقاً، فإن ذلك لن يكون لهم ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ﴾ كي يؤمنوا، وسيلبثون على ما هم عليه﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فحتى عند ذاك لن يكون بوسعهم أن يؤمنوا ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ هذه الحقيقة، ويلبثون في عنادهم وعصيانهم، وقليلٌ منهم يعلمونها، ويمكن لهم أن يؤمنوا بها مع مرور الوقت.

نستخلص من هذه الآية الكريمة أن الإيمان منّة من الله على الإنسان، ولذلك عليه أن يسأل الله الإيمان، ويفعل العمل الصالح، ويطيع الله حتى يستقرّ الإيمان في قلبه بمشيئة الله، لا أن يشترط شروطاً، ويدّعي

ادّعاءات. فالله قادرٌ أن يُقنعه بمسببات الإيمان، ولكنـه عنـد اللحظة الـتي يريـد أن يـؤمن بها، لن يشاء الله له ذلك، فيلبث محروماً من الإيمان رغم أنـه ممتلئ بالثبوتيـات، ويكـون في حالة احتقان دون أن يمنّ الله عليه بنعمة الإيمان، ويُفرّج عن احتقانه.

المـَقصَد الآخـر مـن هـذه الآيـة الكريمـة، هـو أن يتخلّـى الإنسانُ عـن عِنـاده واسـتكباره في حضرة آيات الله، سواء أكانت في القرآن، أو في الطبيعة.

الباب الواحد والثلاثون

شيطان وشياطين

﴿١١٢﴾

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

﴿وَ﴾ إضافة إلى كل ما ذُكر بـ ﴿وَ﴾ في الآيات الست المتتالية التي استهلّت بـ ﴿وَ﴾، وهذا المُضاف هو مُضاف إلى كل ما تم ذكره بـ ﴿وَ﴾ حتى هذه الآية من السورة، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إضافة إلى ذلك المذكور﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾. العدو هو الذي يعادي، أي خرجت عنه أقوال وأفعال العداء تجاه الذي يعاديه.

﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى شئنا، فنحن نستأنف بيان التعرّف على مشيئة الله، فكل ما سبق، لم يكن له ليحدث لولا مشيئة الله، والمشيئة لا تعني الأمر بفعل ذلك، بل الموافقة عليه، لأن الفعل لا يقع دون أن يأذن الله له أن يقع، والسماح له كي يتفاعل، فعندما يرتكب الإنسان إثماً، لا يدفعه الله إلى هذا الإثم، بل ينهاه عنه، لكن مع إصراره وعِناده، فإن الله يأذن لفِعل الإثم أن يقع من هذا الإنسان الذي أصرّ أن يأثم. وهنا تكمن مسؤولية الإنسان تجاه ارتكاب هذه الآثام، وكذلك من لب هذه المسؤولية، يثيبه الله إذا امتثل لأمر النهي، لأنّه يكون

ممتلكاً حرية اللانهي، بل بيّن له السَبيلَين، وعاقِبة السَبيلَين، فاختار سبيل الصلاح على سبيل الفساد. فقد شاء الله تعالى أن يجعل ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾من أنبيائه ﴿عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، والأنبياء يتصدّون لهؤلاء الأعداء بكل وسائل المواجهة، لأن هؤلاء الأعداء يُصبحون قَزمين أمام قوة الإيمان، كما أنهم يُصبحون أقوياء إزاء ضعف الإيمان. ولكن لماذا ذكر الله الأنبياء دون غيرهم؟

الجواب: أن عداء ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، لايكون لأشخاص الأنبياء، بل لِما يحمله هؤلاء الأنبياء مِن آيات الله إلى الناس، وهذه الآيات تبقى سارية بعد الأنبياء، حيث يحملها أتباع الأنبياء، وبذلك فإن عداء ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، ينتقل إلى حاملي هذه الآيات بعد الأنبياء، لأنهم يرمون إلى خفض صوت الحق، وإعلاء صوت الباطل، خفض صوت الخير، وإعلاء صوت الشر، ولم يخف الشيطان احتقانه وعداءه للإنسان، فبعد أن تلقى اللعنة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾الحجر٣٩، ٤٠، ولكن الله هو القوة العظمى، ولاقوة يمكن لها أن تملي عليه

شروطاً: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ* إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾الحجر٤١، ٤٢. فنحن الذين ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، ونمتلك ألاّ نجعل ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

ولكن مَن هم ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾؟

اعلم أولاً أن كلمة الشيطان، أُطلِقَت على إبليس الذي: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾الكهف٥٠، وأنه قبل ذلك لم يكن شيطاناً، بل كان أحد الملائكة، والملاك لايكون شيطاناً. ولكن الفسوق عن أمر الله يجعل حتى مِن الملاك شيطاناً، فإن الكلمة تطلَق على الفعل، ولاتقتصرُ على شخص الفاعل بحدّ ذاته، أي يمكن لأي مخلوقٍ أن يُصبح بفعله شيطاناً، إذا اتبَعَ نهج الشيطان، ولذلك جاء الجمعُ بـ ﴿شَيَاطِينَ﴾، رغم أن إبليس هو واحد، وبالتالي لايجوز جمع الاسم إلى أبالسة، لنفي وجود الجَمع.

لكن صفة الشيطان التي أُطلِقَت لأول مرة على إبليس، وهو المُمتاز بها، الرجيم بها، يُمكِن أن تطلَق على كل مَن ينتهج مَنهَج إبليس، فيُصبح مثله شيطاناً، لكن لايكون رجيماً، وبذلك يمكنه العودة إلى الصراط المستقيم، والتوبة إلى الله، فلا أحد لايكون قابلاً للتوبة، بالِغاً ما بَلَغت ذنوبه، لأنّه مهما تشيطَن، فإنه لايكون رجيماً، فالرجيم مقتصرٌ على فعل الشيطان وذاته معاً.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾الحجر٣٤،أي أخرِج من الجنة رجيماً.

أمّا الجمع، فيكون لجماعة فسقت عن أمر الله، واتبَعَت إبليساً في فسوقه، وكما أن الفعل الشيطاني هو الذي يجعل من الفاعل شيطاناً حتى لو كان ملاكاً، فهو ذاته يجعل أيضاً من الفاعل الإنسي شيطاناً، وكذلك يجعل من الفاعل الجني.

فأصبحنا أمام مجموع﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، وهؤلاء جميعاً ينتمون في منهجهم إلى الشيطان الأول الذي هو إبليس، وهم جنوده الذين يتبعون ما يمليه عليهم، ويعيثون فساداً في الأرض، ولعلّهم يقدرون على ما لايقدر عليه إبليس، فهو لايملك سوى الوسوسة، أي يقتصر شرّه على بث الوسوسة في النفوس، ولكن شيطان﴿الإِنسِ﴾ يمتلك قوة التأثير بشكل مباشر، لأنه يمشي في الناس، ويجالسهم في مجالسهم، ويتحدّث معهم، فهو صوت إبليس إليهم، أي أنه حضور إبليس اللا مباشَر فيهم متوافقاً مع وسوسته المباشَرة إليهم.

ولذلك حذّر النبي صلى الله عليه وسلم بأن شياطين الإنس يكونون أشدّ شراً كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فقد رُوي عن أبي ذر قال: (قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس " ؟ فقلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: " نعم، هم شر من شياطين الجن").

وكان مالك بن دينار يقول: (إن شياطين الإنس أشد عليّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً).

ذلك أن ما يمكن للإنسان أن يلحقه من ضرر بالإنسان قد يفوق ما يلحقه به إبليس ذاته فالإنسان الشيطاني يستدرج الناس إلى بؤر الفساد ويسعى إلى توسيع رقعة الفساد في البلاد والعباد، ولذلك يكون التحذير أكثر ما يكون، من رفقة السوء، ليس بالنسبة للصغار، أو الشبان فقط، بل حتى للكِبار، فـ ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾ يمتلكون مَلِكات التأثير على الناس، ولذلك تراهم ينجحون في استدراج بعض الشبّان، ويقنعونهم حتى بقتل أنفسهم، وقتل الناس، فيفخّخون أنفسهم ليحرقوا بيوت الله، ومَن يُصلّون فيها، بل ويختارون شهر رمضان، وأيام الجُمَع، لأن أعداد المـُصلّين من الرجال والنساء والأطفال، تكون أكثر.

وأي شيطان يمكن له أن يزرع هذه النزعة العدوانية في قلبِ هذا الشاب المـُقبل على الحياة للتو، ويُقنِعه بارتكاب هذه الجريمة سوى شيطان إنسي، يقعد إليه ولا ينهض حتى يجعله يوافق على هذه العملية، بل ويتحمّس لها. عندها يتم وضعه في حالة انتظار حتى

يأتيه الدَور، ضمن فوجٍ مِن الشبّان ينتظر كلّ دَوره فيه، حين تصدر الأوامر، ويتم تحديد الموضع المُناسِب له، ولعلّ إبليس ذاته يعجز أن يُزيّن له بأن ما يفعله هو في سبيل إرضاء الله.

وقد وصف الله عز وجل ما يجري بين هؤلاء بقوله:﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾. والوحيُ هو وحيٌ واحد، يتلقاه الأنبياء والرسل مِن الله تبارك وتعالى، ولكن جاء ذكر الوحي هنا كدلالة بأن هؤلاء الشياطين يوهمون ﴿**بَعْضُهُمْ**﴾ الـ ﴿**بَعْضٍ**﴾، كما يوهمون الذين يستدرجونهم بأنّهم على صواب، وأن ما يفعلون، إنما هو بوحي حسّي من الله، فيدّعي أحدهم بأنه يُحسّ بأن الله يوحي إليه ذلك، فيزخرف ما يقول ﴿**غُرُوراً**﴾، وقد امتلأ بمشاعر الغرور، فهو شخصٌ يُوحى إليه حِسّياً.

ولذلك يتوارى عن الأنظار، ولا يتحدّث مع الناس، وإن تحدّث كان ذلك بشكل مُختصَر، لأنه لايعلم في أي لحظة يأتيه الوحي الحسّي، فلا بدّ له أن يكون في عزلة مختلياً بنفسه، فهو شخصٌ قد خصّه الله بإصدار أوامر القتل.

إنهم يستدرجون الناس إلى منحدرات هذه الأجواء السوداوية الموبوءة، ويجرّدونهم من كل المشاعر الإنسانية، ويستبدلونها بمشاعر عدوانية. ولعلّ البعض يذكر آية قرآنية، يكون قد اجتزأها مِن سِياق موضوعها، ومن سياق ما ورد قبلها، وما ورد بعدها، ويقول بأنه يستنِد إلى هذه الآية، وهو يقرأها بشكلها الظاهري المُجتزَأ، وهو ذاته لايقبل أن تجتزأ جملة من كلامه، ضمن سياق الموضوع الذي يتحدّث فيه، ويُنسَب إليه أمرٌ استناداً إلى هذه الجملة، فلابدّ من ذكر ما ورد قبل هذه الجملة، وما ورد بعدها.

فاعلم أن القرآن كله متصلٌ ببعضه البعض، ومُتكاملٌ مع بعضه البعض، وأن الأحكام تستخرَج بما يتوافق مع عموم القرآن، ولا يتعارض مع شيء منه، وكل ما لايتوافق مع عموم القرآن، أو يتعارَض مع شيء منه، فهو مُجتزَأ ظاهري، غير متكامل، وهو ممّا يُزخرفه الشيطان في قلوب جنوده، فيزخرفونه فيما بينهم.

إن جنود الشيطان، يُروّجون لكل ما هو شيطاني، وكل ما مِن شأنه أن يُلحِق الأذى بهم أولاً، ثم باللذين يتمكّنون منهم، بل أن أناساً في بعض الديار الإسلامية جعلوا من أنفسهم (عبدة الشيطان) وأشهروا في العلَن بأنهم جماعة (عبدة الشيطان).

ولعلّ أصدق ما في هؤلاء هو أنهم يرسمون في مخيّلاتهم صورة للشيطان، ثم يُحاولون أن يكونوا مثل هذه الصورة، فيتمثلون بها في أشكالهم، حتى ترى أن أحدهم بات يفتقد نور الإنسان في مظهره، فيحلق شعره ولحاه بطريقة يرى بأنها شيطانية، ويرتدي ثياباً يرى بأنها تخرجه من هيأة الإنسان الطبيعي. وهؤلاء يجتمعون في طقوس يرون بأنها أقرب ما تكون للشيطان، فلا مُحرّمات، ولا تابوات في معتقدهم، فكل شيء في عرفهم مُباح، في حالةِ اتباعٍ امتيازيٍ للأهواء.

فإذا نظرتَ إلى خلفيات هؤلاء، سيجلو لك بأنهم ينتمون إلى شريحتين مُتناقِضَتين في المجتمع، فم إمّا من عائلات فاحِشة الغِنى المستثري، أو مِن عائلات فاحِشة الفقر المدقع، والكن المنهج الشيطاني هو الذي جمع بعضهم ببعض، هذا المنهج الذي نتج من صلب عاملٍ مشتركٍ كذلك، هو أنهم لم يتلقوا عناية تربوية وجيهة، كذلك فإن سبب هذا الإهمال هو سبب مشترك بين هاتين الشريحتين وهو الهمّ. فأما الأغنياء، فقد شغلهم همّ الغنى عن أبنائهم، وأما الفقراء فقد شغلهم همّ الفقر عن أبنائهم.

إذن نحن مع نمطٍ منحرفٍ من مفهوم الحياة بالنسبة لمُعيلَي هاتين الشريحتين، ممّا أدى إلى أبناء مُنحرفين، فالغني إن أدرك أن غناه الحقيقي يكمن في حسن تربيته لأبنائه، لما سمح لهمّ الغنى أن يجعله مقصرّاً تجاه تربية أبنائه، كذلك فالفقير إن أدرك أن غناه يكمن في حسن تربيته لأبنائه، لما سمح لهمّ الفقر أن يجعله مقصرّاً تجاه تربية أبنائه.

عندذاك يكتشف الآباء تلك الحقيقة المرّة، بأنه لايوجد أب سعيد، وهو يرى ابنه منحرفاً عن القيم الإنسانية، وكل أب لابدّ أن يكون سعيداً وهو يرى ابنه متمثلاً للقيم الإنسانية. فالبطولة الحقيقية تكون للأبوَين اللذَين لم يتركا لشيء قط أن يجعلهما يتخلّيا عن مسؤوليتهما الأبوية التربوية تجاه أبنائهما، ولايمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الأبَوان سَعيدَين، أو ناجحَين في حالة مربكة من التفكّك العائلي، ولكنهما سيكونان سَعيدَين وناجحَين، وهما ينجحان في تكوين عائلة متماسكة.

فاعلم أن الشيطان الأصل يقف بالمرصاد كي يرى أي منفذ أو باب ليُسرّب إليك وباء الوسوسة وأن جنوده من ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾ يقفون بالمرصاد كي يروا أي منفذ أو باب للدخول إلى عائلتك، وإلحاق التفكّك بها.

فالشيطان الأصل عندما يعجز عن الإيقاع بشخص من خلال الوسوسة، فإنه يلجأ إلى جنوده من ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾ للاستعانة بهم. فهو يُزيّن لامرأة ضعيفة الإيمان كي ترتدي

ثياباً مغرية، وتبدي نظرات وحركات مغرية حتى تستدرج رجلاً، فهي مرتدية ، بيد أن هذه الثياب شبيهة بالعري، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم" كاسيات عاريات "[١٣] فهي تتعمّد أن ترتدي ما يُلفت النظر أول ما يقع عليه، مثل ارتداء قماش ملاصق بالساقين، أو الصدر، ويكون بلون البشرة، وهي إن لم تستدرج رجلاً بالكلام، إلاّ أنها تستدرجه بنظراتها وحركاتها. وهنا تكون مهمة الشيطان بأن يوسوس لذاك الشخص، حتى تتحرّك فيه بعض الغرائز، وقد يكون هذا الشخص عازباً، وقد يكون متاهلاً، قد يكون شاباً، وقد يكون شيخاً.

لكن الذي من شأنه أن يفصل في الأمر ويحسمه في أوج تلك الوساوس الحسّية، والمغريات البَصَرية، هو الإيمان القوي الذي يجعل من المؤمن يخجل من الله في تلك اللحظات، فيغض بصره، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وخجله من الله يكون الرادع الأقوى له في حسم هذا الأمر.

فهو لايرضى لنفسه أن يكون فاحشاً وهو في قوة علاقته الإيمانية بالله، لأن ذلك من شأنه أن يزحزح هذه العلاقة التي بينه وبين الله.

وعندذاك يدرك الشيطان بأنه أمام إنسان صالح، لاسلطان لوسوسته عليه، وتدرك المرأة بأنها أمام إنسان صالح، لاسلطان لمغريات جسدها عليه، فيتركه الشيطان، وتتركه المرأة إلى حيث شخص ضعيف الإيمان يمكن له أن يتبع الهوى. فالشيطان يجعل من المرأة وسيلة إلى الرجل، وكذلك لإيقاع المرأة، لأن المرأة تكون قادرة على استدراج المرأة خاصة في مجتمعات محافظة لاتسمح بالاختلاط، فلن يبقى أمام الشيطان أن يوقع النساء إلاّ بالنساء، فيدسّ طالحاتهن بين صالحاتهن، وكم من امرأة صالحة، استدرجتها امرأة فاسدة إلى بؤرة الانحراف، وكم من طالبة صالحة في دراستها، استدرجتها طالبة فاسدة إلى بؤرة الانحراف. و(الصاحب ساحِب) كما يقول المثل، وعليه فإن الصاحبة ساحِبة أيضاً، ولذلك عندما يرى الناس تصرّفاً سلوكياً مُريباً على أحد الجوار، فإنهم يتحاشونه، ولا يدخلون بيته، ولا يأذنون له كي يدخل بيوتهم.

---

[١٣] نص الحديث:" صنفان من أهل النار لم أرهما رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها" رواه مسلم في صحيحه.

وفي بعض الأحياء الشعبية المحافظة، إذا جاءهم جار جديد يشتبهون بأخلاقه، فإنهم يسعون إلى إخراجه من الحي، لأن ذلك البيت يكون مصدراً للفساد في حيّهم، والصالح الذي يريد أن يشتري بيتاً، فإنه أول ما يسأل، عن الجوار، لأن جار السوء، قد يكون أكثر أذى من رفقة السوء، فرفيق السوء يمكنك أن تقاطعه فلا تراه ثانية، ولكن جار السوء يبقى بالقرب منك وأمام عينيك مهما تجتبت أذاه، فترى البعض يهجر حيّه الذي سكنه تجنباً لأذى جار سوء.

تبيّن لك الآية بأن هؤلاء جميعاً لايجسرون على فعل ما يفعلون دون أن يشاء الله ذلك، وهذا من شأنه أن يفصح بأن الله قادر على كف أذاهم عنك. فيمكنك أن تجد ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾، في الطريق، في السوق، في العمل، في المسجد، وهم يترصدّونك، يترصدون أولادك، يترصدون امرأتك. فهنا يزداد المؤمن حصانة، ومناعة، ويقظة، فيحمي نفسه، ويحمي عائلته، يقوم بتربية أولاده بشكل سليم، يعظ امرأته، حتى لايُغرَّر بهم بـ ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾، فتكون قد حصّنتهم، وأنبهتهم، وأرشدتهم، وهذا عمل صالح تقوم به.

فإذن هذا يجنّبك الخمول واللامبالاة، ثم يجعلك تزداد نضجاً على نضج، وتمتلئ بالحياة والحكمة، فتكون متمكّناً من مفاتيح نفسك، وقادراً على ضبط نفسك من الانفعال، أو ردّات الفعل المتسرّعة. هذه الانفعالات التي قد تتسبب لك ببعض الأمراض التي تنشأ عن توتر عصبي، أو اضطراب نفسي.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، أي ما أقدموا على هذا الفعل الشيطاني:﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، دعهم فيما هم عليه، لأن الذي يريد أن يكون شيطاناً، فليكن له ذلك، فحتى إبليس الذي كان ملاكاً، عندما ابتغى أن يكون شيطاناً، كان له ذلك. وكلمة ﴿فَذَرْهُمْ﴾، تطمئنك بأنهم لايستطيعون أن ينالوا منك ما دمتَ تتحصّن بقوة الإيمان. فإذن هؤلاء سَيُمنَون بالهزيمة أمام ما تتمتع به من إشراقة قوة الإيمان، سواء أكانوا في العمل، أو المسجد، أو الجوار، أو يتزيّون بزي الأصدقاء، أو يكيدون لك في الدوائر﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾التوبة٩٨ ، فاعلم أن سوءهم سوف يدور عليهم. لكن عليك ألاّ تستسهل الأمر وأنت تـ ﴿ذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فتكون يقظاً وحذراً، وتحصّن عائلتك، وترشدها الإرشاد السليم الذي بيَّنَته لك القراءة السليمة للقرآن. لأن القراءة غير الناضجة من شأنها أن تشوّش عليك آفاق القراءة المزدهرة السليمة، فتكون قراءتك ضبابية مغلقة، أي قراءة مَظهرية، للقراءة فحسب، لاقراءة جَوهرية للتعقل والتعلم.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، هذا الكلام موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي دع الذين جعلناهم لك أعداء من ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾ يتخبطون فيما هم فيه من سوء أفعالهم التي هي افتراءات.

فلا يخيفتك يا رسولنا ﴿مَا يَفْتَرُونَ﴾. ولا يخيفتكم يا أمة الإسلام ﴿ذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، ذروهم فإنهم في أفضل الأحوال ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ونور الحقيقة يلبث ساطعاً على ظلمة الافتراء.

﴿١١٣﴾

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

عندما ترى شخصاً يميل بسَمعِه إلى صوتٍ يترامى إليه، فإنه يكون في حالة إصغاء، والوصف هنا للأفئدة ، أي ولتميل إلى ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ ﴿أَفْئِدَةُ﴾، وهي هنا كل ما يتفاعل ويستجيب لقول المُزَخرَف، ومن ذلك: السمع، والقلب، والمشاعر، والدماغ، والبصر، والبصيرة. فهذه الأفئدة تميل وتستجيب لِما يُزَخرف من القول، وهي ليست ﴿أَفْئِدَةُ﴾ المؤمنين ﴿بِالآخِرَةِ﴾، بل هي ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾، لأن الذي يؤمن ﴿بِالآخِرَةِ﴾ ، لايُستدرَج بقول مُزَخرَف إلى أفعال مشينة، مهما زيّنها له الشيطان، ولكن الذي يؤمن بالدنيا فحسب، يُستدرَج خلف ملذاته وأهوائه، فلا يعنيه من الحياة، سوى مظاهرها، لأنه غير

مؤمن ﴿بِالآخِرَةِ﴾التي تعقب الحياة، فهو يبيح لنفسه كل ما يتمكّن منه دون التوقف أمام الحلال والحرام. واعلم أن المؤمن أيضاً يمكن له أن يُستدرَج في لحظة غفلة، لكنه سرعان ما يتوب، بمعنى أن أفئدته لاتصغى، بل تكره أن تصغى إلى زخرف قولهم، فتراه يبتعد عنهم ما أمكنه، وهو الذي وقع تحت تأثير ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾، لكنه آب إلى الصراط المستقيم، ولم يصبح جنداً من جنود الشيطان. إذا خلا قلب الإنسان من الإيمان، خلا من كل خصلة طيبة، وانطفأ فيه نور النزوع إلى كل أمر معروف، فكان الحب هو الواجهة الإنسانية الكبرى، والعنوان الأول للإنسان. لا يدخل الإيمان قلبا لا يسكنه حب الله، وحب رسول الله، وحب الناس أجمعين في مشاعر إنسانية أخوية عامة تقرّب الإنسان من بعضه ضمن حميمية عائلية البشرية المشتركة التي تنظر إلى رب رحيم واحد. يبقى المؤمن الحق يضيء

حباً وتسامحاً وتضحيةً حتى ليغدو شجرة حب تمشي على الأرض، فكان شرح النبي حاسِماً: " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا"[١٤] ثم يصف حال المؤمن في عناية ذو الجلال والإكرام: "عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين، إن أصابته سرّاء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له"[١٥].

﴿وَلِتَصغَى إِلَيهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فشخص كهذا يكون قد بلغ أقصى مراحل الفساد، فتراه يميل إلى كل ألون الأذى سواء بنفسه، أو بالآخرين. وهذا النمط من الحياة تعيشه الحيوانات في الغابات، فكل حيوان يفترس الأضعف الذي يتمكّن منه. من أعظم فضائل الله على الإنسان بأن أنعم عليه بالدِين، هذا الدِين الذي يبيّن له بأنه ليس حيواناً ينتمي إلى قطيع في غابة، بل هو كائن اجتماعي ينتمي إلى البشر في مجتمع.

﴿وَلِيَرضَوهُ﴾، ليرضوا العمل بـ ﴿زُخرُفَ القَولِ﴾ لأنفسهم، ﴿وَلِيَقتَرِفُوا﴾، الاقتراف هنا هو الاكتساب السلبي نظير الاكتساب الإيجابي في قوله تعالى:﴿وَمَن يَقتَرِف حَسَنَةً﴾ الشورى٢٣ .

﴿وَلِيَقتَرِفُوا مَا هُم مُقتَرِفُونَ﴾ ما استطاعوا أن يقترفوا من الذنوب ما داموا قد ارتضوا هذا السبيل لأنفسهم.

ونهاية هذه الآية، تعزيز لنهاية الآية السابقة: ﴿فَذَرهُم وَمَا يَفتَرُونَ﴾حتى يقترفوا﴿مَا هُم مُقتَرِفُونَ﴾. أي يُظهروا ما أرادوا من فساد، نظير الذين يُظهرون كل ما أرادوا من صلاح.

واعلم أن الله تعالى قد ترك أصل هؤلاء الشياطين ليفعل كل ما باستطاعته أن يفعل، أي يُظهر كل ما يكنّه من غل، فهذا هو الشيطان بكل ما كان يخفيه من حقد أعمى، هذه هي حقيقته التي أراها الله عز وجل لخلقه، ولذلك لم يكن أهلاً كي يبقى ملاكاً، بل ليكون شيطاناً رجيماً، فهذا هو الشيطان، وهذا هو تاريخه المشين.

على هذا النحو يعلّمك الله أن تترك هذا الشيطان الإنسي الذي يتعرّض لك، حتى يُظهر كل ما لديه من غل وفساد، أي يكشف معدنه بنفسه، وأنت تنظر إليه، وبذات الوقت تكون على حذر منه، ولاتجعله يقربك بأذاه، فتتفرّج عليه، وتتخذ من نهايته المشينة عبرة.

---

[١٤] رواه مسلم وأحمد والترمذي

[١٥] رواه أحمد ومسلم

فهؤلاء يهينون كل خصلة طيبة من خِصال الإنسان في أنفسهم، يهينون حتى أجسادهم عندما يضعونها في أوكار الرذيلة. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، فهم أهل لهذا الانحطاط الذي رضوه لأنفسهم.

الباب الثاني والثلاثون

الحكَمُ الحَق

﴿١١٤﴾

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

﴿أَفَغَيْرَ﴾،كلمة مكتنزة بتقديرات عديدة، والحرف الأول﴿أَ﴾ استفهام وإنكار.

﴿أَ﴾ تريدون مني أن أصدّقكم، ﴿فَ﴾- بعطف على هذا التقدير- : ﴿غَيْرَ﴾دون﴿اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾، يحكم بين ما أدعوكم إليه من توحيد الله، وبين ما تشركون به.

﴿وَهُوَ﴾ الله الذي أدعوكم إلى توحيده ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ حَكَماً بيني وبينكم، يغني عن أي حَكَمٍ دونه.

﴿مُفَصَّلاً﴾ فيه الحكم، فلماذا نتجنب المـُفَصَّل إلى ما هو دونه. فبعد أن يُرشده الله إلى ذلك، يُخاطبه، ويجوز أن يكون الخطاب للناس أيضاً، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، فهؤلاء الذين تقول لهم ما نمليه عليك:﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي يثقون بحكمه، لكنهم يأبون الاعتراف

بما :﴿يَعْلَمُونَ﴾،﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، الشاكّين بهذه الحقيقة. فمهما قالوا، لايتسرّب إليك شك، لأنهم هم أنفسهم يعلمون بأنهم يخفون عنك الحقيقة حتى يرموا الشك إلى قلبك.

فهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الحقيقة لأن الله ﴿أَنْزَلَ﴾ إليهم ﴿الْكِتَابَ﴾، وهو ليس بلسان محمّد صلى الله عليه وسلم، فما يقوله هؤلاء له، هو مُترجَمٌ إلى العربية لنبي أمّي، ويطلبون حَكَماً يحكم بينهم، وذلك حتى يُقنِع النبي بما يدّعون.

فهنا بيَد النبي الدليل الأكثر قوة الذي يواجههم به، وهو القرآن المـُنزَل عليه، والذي يَخبَره حرفاً حرفاً. فالآية توجّهه إلى ما يقول لهم، ثم تتجه إليه فتخاطب شخصه الكريم، وتحذّره من مجرّد الشك بما يدّعي هؤلاء.

﴿١١٥﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

تمام وكمال القرآن كَمنا في ما يحتويه من الصدق والعدل، ولا أحد بمقدوره أن يُبدّل، أو يُحرّف شيئاً من القرآن، لأن لاكتاب سيأتي لتصحيحه. أمّا التحريف الذي وقع في التوراة والإنجيل، فهذا كتاب تصحيحي لهما، فهو بالتالي تمام وكمال صحيح كلام الله. ولايشاء الله لأحد أن يُبدّل أو يُحرّف هذا الصحيح المتكامل﴿صِدْقاً وَعَدْلاً﴾، ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما يُقال عن كلمته الخاتمة هذه، ﴿الْعَلِيمُ﴾بكل مَن يسعى إلى تبديل أو تحريف القرآن، فلا يأذن له بذلك، فيبقى القرآن سليماً كما أنزله الله.﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾الحجر٩ ، فتلك عناية الله الخاصة برسالته الخاتمة.

﴿١١٦﴾

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾

لعل الأرض هنا، أرض مكّة، و﴿أَكْثَرَ﴾ هم كفّار مكّة الذين كانوا أكثرية سكّانها،﴿وَإِن تُطِعْ﴾ أيها الرسول ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ كفار مكّة الذين تعيش معهم على أرضها ﴿يُضِلُّوكَ﴾، يُحَرّفوك ﴿عَن﴾ سواء ﴿سَبِيلِ﴾ طريق ﴿اللّهِ﴾. فهؤلاء: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾حيث يظنون أنهم على صواب في معتقداتهم بعبادة الأوثان، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وما إلى هنالك من أشكال الضلال الذي يَتبعونه. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، الذي يخرص، هو الذي ينسب شيئاً إلى الله كَذِباً، وذلك أقبح أشكال الكَذِب.

فنحن ما نزال ضمن المسار الرئيسي لِمِحوَر السورة، وهذه الآية هي استئناف للفكرة المتفرّعة عن المحور، وهي عدم أهلية هؤلاء كي تتخذ منهم حَكَماً. وقد تجلّت هذه الحقيقة في ديار المسلمين خاصة خلال ربع قرن مضى، فتبيّن أن مجرّد الاستعانة بدخول غير المسلمين إلى ديار المسلمين كي يرفعوا ظلماً، ويحققوا حقاً، هي فكرة غيرة صائبة، وبالتالي تفاقِم الظلمَ بدل أن تزيحه، والحل أن يتخذ المسـلمون من ظهرانيهم حَكَماً

يحكم بصدق وعدل القرآن الكريم، فيتفقوا جميعاً على هذا الحكَم، لا أن يتم تعيين هذا الحكَم مِن قبل غير المسلمين، ولِحكَمٍ غير مسلم، لايجيد حتى قراءة القرآن، ولا يخبر شيئاً عن بُنية المجتمع الإسلامي، فهو الذي يتخذ القرارات، ويقترح المقترحات بشأن المسلمين. لذلك يدفع المسلمون ثمن تلك الخطيئة الكبرى التي اقترفوها. وفقط عندما يتحاكم المسلمون في خلافاتهم إلى بعضهم البعض، يكون الحل ممكناً،و:﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ الرعد ١١.

﴿١١٧﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

الأعلم، هو الأكثر علماً من جميع مَن يعلم، والأعلم هو ذروة العلم، وهو الاحاطة الكاملة بكل شيء، سواء أكان ظاهراً، أو خافياً. فلا شيء البتة يكون خارج إحاطة علمه، فكل ما يعلمه الخلق جميعاً، يعلمه الله، ويعلم ما لايعلمون. فأصل العلم عند الله، وعلى هذا فإن الإنسان ليس بوسعه أن يحقق منجزاً علمياً إلاّ بمشيئة الله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ يا مُحمّد ﴿**هُوَ أَعْلَمُ**﴾ بالضالين ﴿**عَن سَبِيلِهِ**﴾ مهما تظاهروا بأنهم على حق، ﴿**وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ الذين يتبعون الحق.

الباب الثالث والثلاثون

اســم اللـه

الباب الثالث والثلاثون

اســم اللـه

﴿١١٨﴾

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

عندما يُذكى على الحيوان الذي يريد المرء أن يذبحه، أي يقول: بسم الله. فذلك يجعله حلالاً، كون قد ﴿ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ﴾، وذلك من الإيمان بآيات الله، وهذا يعني عدم أكل ما لم يُذكر ﴿اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ﴾ والأكل يكون للمذكاة.

﴿١١٩﴾

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾

كلوا ما ﴿ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾، فهو حلال، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بيّن الله ﴿لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ما لايجوز أكله. ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ما وجدتم أنفسكم مضطرّين إلى تناوله من غير المُجاز، في أمرٍ طارئ وإنقاذاً مِن الهلاك. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾، كثير مِن الناس يتبعون أهواءهم في التحليل والتحريم﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عن جهالةٍ. فالله هو الذي يُحلّ، وهو الذي يُحرّم، وحلال الله فيه نفعٌ للإنسان، وحرامُه فيه ضرٌ له. أمّا الذين يتبعون أهواءهم، فلايعلمون النفع مِن الضر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، الذين يتجاوزن شرع الله.

﴿١٢٠﴾

﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾

اتركوا ارتكاب﴿الإِثْم﴾سواء عَلَناً، أوسراً، والفرق بين المُرتكِبَين، أنّ الأول يُعلن ارتكاب﴿الإِثْم﴾، الذي يعلمه الله، فيعلمه الناس، والثاني يواري ارتكاب ﴿الإِثْم﴾الذي يعلمه الله، فلا يعلمه الناس، لكن فِعل

﴿الإِثْم﴾هو واحدٌ بالنِسبة إلى الاثنين:﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأعراف٣٣ . فالأولويّة للخشية من الله، لا مِن الناس، و﴿الإِثْم﴾ هو جناية يرتكبها الإنسان بحق نفسه، وبحق الآخرين، وهو كل عملٍ سيّءٍ يمكن للمرء أن يأتيه مُتجاوزاً نهي الله. ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ﴾ امتنعوا عَن ارتكابه جهراً، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿بَاطِنَهُ﴾ خفيةً.

لماذا؟ الجواب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾. كما أن المرء يكسب بالحلال فيزداد رصيد الحلال لَديه، كذلك يكسب بالحرام فيزداد رصيد الحرام لَديه. فرجلٌ خرَجَ إلى عمَلِه، وآخرٌ خرَجَ إلى مائِدَةِ قمار، وفي المساء عاد الاثنان وقد كَسَبا. فأمّا كسب الأول فهو حلالٌ لأنه نَتجَ عن عمل مشروع، وأمّا كَسبُ الثاني فهو حرامٌ لأنه نَتجَ عن عمل غير مشروع.

وأمّا كيف أن الله يُشرّع للناس ما ينتفعون به، وبذات الوقت يرفع عنهم الضر، فالأول أخذ مالاً وقدّم نفعاً لشخصٍ نظير هذا الأخذ، أي انتفع الاثنان معاً. أمّا الثاني فكما لو أنه اغتصب مال الآخر، فقد أخذه منه دون أن يعطيه شيئاً، فانتفع هو، وأذى الآخر.

فشرع الله ينتفع به الاثنان، ونهيه يُجنّب نفع أحدهما على حِساب أذى الآخر. ولذلك لم يقتصر هذا على القمار فحسب، بل يشمل كل ربحٍ يُلحقُ الأذى بالناس عن قصد، أي تعلم بأن عملك هذا لاينتفع به الناس، بل يصيبهم بالأذى، ورغم ذلك تستمرّ به لأنه يدر عليك نفعاً مادياً، وهذا هو الجَشَع.

ولا يقتصر على فئة من الناس، بل يشمل سائر الفئات، فترى طبيباً، حتى لايستخدم بعض المستلزمات الجديدة، مثل الحقن، أو بعض المواد المـُعقّمة الأصلية، وما شابه، خاصة بعض أطباء الأسنان، والجراحة، يستخدمها لأكثر من شخص، وحتى التعقيم قد لايكون فعّالاً، أو ضعيف الفعّالية، أو انتهت صلاحيته، بما يكون منخفض الثمن، فينتج عن ذلك أن شخصاً كان يعاني من ألم بسبب سن، فيقلع له الطبيب هذا السن، ويتوقف الألم، لكن بذات الوقت يكون قد قضى على حياته بأكملها بسبب فيروس أصابه جراء جشع الطبيب الذي استخدم ذات الحقنة، أو الأداة في علاج شخص كان به ذات الداء، ولعلّ المريض كان يعلم، أولا يعلم، فانتقل إلى هذا الشخص، وإلى كثيرين مع التكرار، فترى أن حصيلة كسب هذا الطبيب، أنّه كسب أموالاً طائلة خلال مهنته، وكذلك كسب دماء مئات الناس، لأنه هو الذي قتلهم عن عَمد حتى يوفّر المال، وهم قد دفعوا له أجر كل شيء جديد، ولكنه هو الذي لم يستخدم الجديد الذي قبض ثمنه منهم.

وإذا نظرت، سترى أن المصائب تقع على هذه الفئة من الأطباء، واحدة تلو أخرى، وهذا تحذير من الله لهم، كي يرتدعوا، ولكنهم يستمرون في ذلك حتى ينتهون نهاية مخزية، ذلك أن تلك الأيدي التي أكرمهم الله بها لعلاج الناس، باتوا يستخدمونها لإلحاق أفدح الضرر بالناس:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾. وجاءت كلمة الاقتراف لتشير إلى تجاوزهم حدود الله، وكل متجاوز لحدود الله إنّما هو مُقترفٌ أثيم، وكل مقترف لابد أن يلقى الجزاء، فهذه الآية الكريمة بمثابة التحذير حتى تقي نفسك جزاء هذا الاقتراف.

﴿١٢١﴾

﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

لعلّ المعنى في مبتدأ الآية: النيّة. فلعلّ شخصاً نسي أن ينوي على الصيام، وهو عاقد النيّة على الصوم مسبقاً، فيكون قد نسي، لأنّه ليس في نيّته ألاّ يصوم، بل في نيّته أن يصوم. كذلك نرى إذا ذبح المرء ذبيحةً، ونسي أن يُذكّيها سهواً، وهو مؤمنٌ بأن هذه الذبيحة لابدّ أن تذكّى باسم الله، لكن الذي حصل أنه في تلك اللحظات العاجلة، فاته سهواً أن يذكر اسم الله عليها. وبعد أن أتم، تذكّر بغتة، وعبّر عن ندمه في ذلك النسيان، فنرى ألآيرمي المذبوح الذي ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ سهواً، بل يأكله، والله أعلم. وحتى في حالة الصيد فإن اسم الله يحل ما يُصطاد. وفي الحديث:" إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك".

الأمر الآخر، فيمكن الاستنتاج من ظاهر الآية أن ذلك يكون للميتة، وكذلك عندما يتعمّد المرء عدم ذكر ﴿اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ لأنه كافر. لذلك فقد أجاز الله تعالى تناول طعام أهل الكتاب، لكن الكافر الذي لايؤمن بالله، ويتعمّد عدم ذكر اسم الله على الذبيحة، فإن ذبيحته لاتحل، ذلك أن الذي ذبحها إنما هو كافر لايؤمن بالذي أحل ذبح هذه الذبيحة. بل نرى أنه حتى لو نزل هذا الكافر عليك ضيفاً، فإن القِيَم الإسلامية تدعوك إلى القيام بواجب ضيافته سواء أكنتَ على معرفة شخصية به، أو لم تكن.

ثم بيّن عز شأنه:﴿وَإِنَّهُ﴾ المذبوح الذي —﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ — ﴿لَفِسْقٌ﴾كون الذابح غير مؤهَل شرعاً للذبح.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾. يبث إبليس الوساوس إلى الذين يوالونه كي يجعلوا منها مادّة للجَدَل بينكم وبينهم، ومن ذلك قول بعض المشركين للمسلمين:(ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه، وما يقتله الله فلا تأكلونه).

يقول الله جل شأنه في ختام الآية:﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. فإذا استطاعوا أن يؤثروا عليكم بما وسوَسَ إليهم إبليس واستجبتم لهم، فذلك يعني أنّكم أصبحتم مشركين مثلهم.

﴿١٢٢﴾

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

الكافر هو كائن ميت القلب والحواس، وهو كائن سوداوي مظلم يعيش ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وإشراقة الحياة تكمن في الإيمان الذي يُنير ويحيي كل شيء فيه، ويُخرجه من قِعر ظلمات الغي والجهل والعصيان، إلى نور الحياة، ومن سوداويته إلى الإشراق الروحي. قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾. فقد غدا كائناً مُستنيراً بنور الإيمان وصلاح العمل، يستأنس إليه المجتمع.

﴿أَوَ مَن﴾ فهل يكون هذا مثل الذي يلبث ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾. على هذا النحو:﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فيلبثون بمقتضى زينة الشيطان هذه لهم، في ظلمات الحياة، وظلمات أنفسهم دون أن يخرجوا منها.

أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في الآية قال: (نزلت في عمر بن الخطاب، وأبي جهل بن هشام، كانا ميتين في ضلالتهما، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه، وأقرّ أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا فقال: "اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب".

الباب الرابع والثلاثون

مَكرُ الأكابــر

﴿١٢٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

كما ﴿جَعَلْنَا فِي﴾ مكّة ﴿أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، ﴿وَكَذَلِكَ﴾

- بكاف التشبيه-: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

الجعل في هذا المقام بمثابة المشيئة، كما في قوله في الآية ١١٢: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً﴾.

فهنا، تركنا ﴿أَكَابِرَ﴾ رؤوس مجرمي ﴿كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وجاءت ﴿كُلِّ﴾ شاملة، أي ﴿كُلِّ﴾موضع سكّاني يعيش فيه الناس. و﴿أَكَابِرَ﴾ هنا تتفاوت مِن مَوضع إلى آخر، فيمكن لـ ﴿أَكَابِرَ﴾ — جمع أكبر- المجرمين أن يتحكّموا بزِمام بلادٍ بأكملِها، فيكون مكرهم على سائر البلاد. وقد يتحكّموا بزِمامِ مدينة، أو منطقة، فالمكر يطال حدود إمكانات رؤوس المجرمين. وليس بالضرورة أن يعلم الناس جميعاً بـ ﴿أَكَابِرَ﴾المجرمين الذين يعيشون فيهم، فقد يموّهون أنفسهم، ويمكرون في السر، وقد يُظهرون أنفسهم، فيمكرون في العلن.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، عندما يمارس الإنسان سلوك المكر، فإنه يُصبح ماكِراً، وسلوك الإنسان يعكس على نفسه أولاً، فالماكر يعجز أن يعيش سَكينة الإنسان المستقيم، لايعاني اضطرابات الإنسان الماكر. يبيّن الله تعالى بأنهم يستمرّون في المكر دون أن يشعروا بأنّ مكرهم إنّما يقع عليهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾فاطر٤٣.

﴿١٢٤﴾

﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾

وهذا من مفرزات وباء الاستكبار، فيعتقد المُستكبر أنه قادر على إملاء الشروط حتى يتنازل عن استكباره ويؤمن، غير مُدرك بأن الله رحمه بهذا الإيمان حتى يُخرجه من الضلال إلى الهدى، مَنّ عليه بأن بيَّن له الرشد من الغي:﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً**﴾المدثر٥٢.

ذهب بهم الاستعلاء عن الحق حدوداً صوّرت لهم فيها مُخيّلا تهم المريضة أن الله تعالى لايعلم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وأنهم يعلمون ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وهذا هو فحوى كلامهم وموقفهم.

﴿وَإِذَا﴾ جاءت كفّار مكّة ﴿آيَةٌ﴾ من عند الله، فبدل أن يشكروا الله ويؤمنوا: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى﴾ من عند الله ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ محمد، ومَن قبله ﴿رُسُلُ اللّهِ﴾.

فقال الله بشكل حاسم:﴿اللّهُ أَعْلَمُ﴾. أي ﴿أَعْلَمُ﴾ من كل عليم، فله العلم كله، وهو ﴿أَعْلَمُ﴾ الأعلمين، وعلمه حق لايبلغه حق ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ثم قال عز من قائل: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ﴾. هذا الشطر من الآية الكريمة، يُظهر حجم استصغار هؤلاء أمام عظمة البارئ المصوّر.

وعلينا أن نتأمل في دلالات هذا الشطر المفتوح: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ﴾. وقول الله حقّ، فلا مناص من إنزال الصغار بهؤلاء﴿الَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾.

و﴿صَغَارٌ﴾ هنا، هي نقيض ﴿أَكَابِرَ﴾ في الآية السابقة، وقد تكرّر وصف الله تعالى لهم بالإجرام في الآيتين المُتتاليتين، فهناك: ﴿أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا﴾، وهنا: ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾.

فإذا تأملت الذين استعلوا واستكبروا ممَّن عرفتهم، أو سَمعتَ عنهم، سيجلو لك أنه قد أصابهم﴿صَغَارٌ﴾.

بمعنى أصابهم ما يجعلهم يستصغروا ويذلّوا، فالذي كان في عزّه، ينفش نفسه، ويتبختر في مشيه، ويتعالى، انتهى إلى الخنوع، والذل، والهوان. فهذا الذي انتهى هذه النهاية المُخزية، كان

ذات يوم عزيز قومه، لكنه لم يُقدّر تكريم الله له، بل استكبر على الذين جعله الله تعالى عزيزهم، ونظير ذلك فقد أخذ منه هذا العز، وجعله ذليلهم.

ويمكنك أن تقيس ذلك على كل مقاييس ودرجات العز، سواء أكان الشخص زعيماً، أو كان والياً، أو مدير مؤسسة، أو يدير مكتباً لشؤون الناس في دائرة، وما شابه. فالذي يتواضع لله، ثم للناس، يخشى الله، وييسّر أمور الناس، لايوجد فيه موضع كِبر حتى يصيبه ﴿صَغَارٌ﴾. ولكن الذي لايتواضع لله، ثم لايتواضع للناس، ولا يخشى الله، ثم يعسّر أمور الناس، فينتهي نهاية ذليلة. فكم من زعيمٍ كان متربعاً على عرش بلادٍ بأكملها، انتهى إلى السجن أو التنكيل، أو الحدّ أمام أنظار العالم. فقد تبيّن أنه كان ﴿أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا﴾ فتحقق وعد الله به: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾.

فعندما يحيج الله شخصاً إليك، ويُقدّرك على الاستجابة لحاجته، فاعلم بأن ذلك تكريم من الله لك، فعليك أن تقدّر هذا التكريم حتى يديمه عليك، وإن شاء زادك، ورفع منزلتك لأنّك أهل لذلك، لكن إذا بطرت بالنعمة، فـ ﴿صَغَارٌ﴾.

واعلم أن للصِغارِ أشكاله ومستوياته وتفرّعاته، فقد يصيب المستكبر ﴿صَغَارٌ﴾ ولايعلم به أحد سوى ضمن نطاق محدود، فهذا وعد الله الذي لامهرب لأي مُستكبرٍ منه. إضافة إلى ذلك: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. فبعد أن يخرجوا من الحياة مخرج سوء وذل، يلقون عذاب الآخرة الشديد، والشديد من الشدّة، ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾أي بقدر ما كانوا عليه من مكر. وإذا تأمّلت الشطر الأخير من الآية: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ سيجلو لك أن مكرهم كان شديداً، فيلقوا ذات الشدة في العذاب ﴿بِمَا﴾ وفقما ﴿كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

الباب الخامس والثلاثون

الشـرح والضيـق

﴿١٢٥﴾

﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

فالهداية مِن الله، والإسلام مِنة الله على الإنسان، والله هو الذي يمنّ، وليس للإنسان أن يضع شروطاً كي يؤمن، بل عليه أن يُحسن النيّة، ويسأل الله الهداية، وإذا منَ الله تعالى عليه بنعمة الهداية، وهي من أكبر وأعظم نِعَم الله على الإنسان، فعليه أن يقدّم شكره لله، ويسأله أن يثبّته على الدِين، فيطيع الله، ويعمل صالِحاً لأن الله تعالى يمكن أن يحرمه هذه النعمة إن لم يُقدّرها، ويكون أهلاً لها، فتراه ينحرف عن الصراط المستقيم، فيمسي في الظاهر مسلماً، وفي الباطن كافراً، أو لعلّه يتمادى فيشهر كفره أيضاً، كأن ينكر وجود الله، وينكر فرائض الإسلام، أو يستهزئ بالشرع. فذلك لم يُقدّر نعمة الإسلام، فحرمه الله من النور، وتركه في حلكة الظلمات: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾. يُحبّب إليه الإسلام، فترى شخصاً كافراً، بغتة يُشهر إسلامه، ويقيم شعائر الإسلام، فيتحوّل من إنسان كافر إلى إنسان مؤمن، من إنسان مظلم إلى إنسان مُستنير.

فاعلم أن هذا الإنسان قد مَنّ عليه الله وشرح ﴿صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾، نظير ذاك المسلم الذي استهزأ بالإسلام، فحرمه الله النِعمة التي كان بها، وجعل ﴿صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾. فقد لحق بركب الضالّين حتى هلك، كما أن ذاك الذي كان ضالاً، لحق بركب المؤمنين حتى نجا.

﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾، وهذا يعني أنه قد يكون مسلِماً، ولكن قلبه غير منشرح للإسلام، فهو مسلم بحكم أنه ولد في عائلة مسلمة لأبَوَين مُسلِمَين، ولكنه عنيد، مستكبر، فهو مسلم لكنه غير مُنشَرح الصدر ﴿لِلإِسْلاَمِ﴾. أي هو مُسلِمٌ في الظاهر، لكنه في الباطن نقيض ذلك، ولعلّه يُعلن هذا النقيض، ولعلّه يكتمه. فهذا قد جعل الله تعالى ﴿صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾، وذلك جزاءً لعِناده واستكباره. أُضيف الحرجُ إلى الضيقِ، الحَرَجُ هو عِبارة عن وخزات نفسية يوخز بها المُحرَج، فيحتقن وجهه، وتتقطّع أنفاسه، وتمسي جملته العصبية في توتر واضطراب، تحت سطوة الشعور بالاستصغار والذل. فالحَرَج هو أعلى درجات الضيق والخَجَل، حيث يكون المرء موضع استهزاء أمام نفسه، وأمام الناس، كَمَن

اقترف فعلاً شائناً وكُشِفَ أمره. فقد يكون المرء ضائق الصدر لأمرٍ ما، لكنه يكون بمعنويات عالية دون حرَج، لكنه عندما يكون ﴿حَرَجاً﴾، فذلك يعني أن معنوياته كلها انهارت، وبات ذليلاً خانِعاً لايريد أن يراه أحد، ولا أن يرى أحداً، فأصبحنا بذلك أمام ألَمَين، أحدهما بَدَني، والآخر نفسي، فأمّا الأول، فضيق الصدر الذي يجعله يتألّم وهو يتنفّس بالكاد من كثر الضيق الذي كتم على صدره، وأمّا الثاني، فهو ألم الحرج الذي يجعله مُتخَبّطاً فاقداً لتوازنه، وقد استبدّت به مشاعر الخنوع والاستصغار التي استسلم لبراثنها يائساً مُنهَزماً أمام نفسه وأمام الآخرين. وهذا مِن شأنه أن يُضاعف عليه حِدّة الوجع النفسي، فقال جل شأنه: ﴿كَأَنَّمَا﴾ - يُتخيّل له أنه-﴿يَصَّعَّدُ﴾ — يرتفع عن الأرض رويداً رويداً، وليس إلى السماء، بل ﴿فِي السَّمَاءِ﴾. لأن بدء الحرَج جعله يفقد توازنه فلا يشعر بثباته على الأرض، وفي هذه المرحلة يشعر بأنه ﴿كَأَنَّمَا﴾كما لو أنه ﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فيكون قد فقد توازنه وانضباطه النفسي.

تعلّمك الآية بأن الكافر هو إنسان غير مستقر، يعيش حالة من الكوابيس، والهَذَيان، والفَزَع، ويعاني منغّصات الألم العضوي، إلى جانب منغّصات الألم النفسي. يعيش في دوّامة حرج، وهو كائن لايتذوّق لذة انشراح الصدر، وصفاء الذهن، وسَكينة النفس. لذلك تراه يتظاهر بهذه المزايا، أو يتصنعها لنفسه، خاصة إذا كان ميسور الحال، أو يتمتع بنفوذ، فيُظهر أشكال الترَف والبذخ، ولكنه في أعماقه يُدرك أنه يتهرب ممّا يعانيه بدنياً، ونفسياً. فمهما ضحك، فإنه لايستمتع بضحكة حقيقية، ومهما ارتدى من ثياب أنيقة، فإن قلبه يلبث منطفئاً، مهما أتى بأصناف الطعام والشراب إلى مائدته، فإنه لايستلذ بحقيقة نكهة الطعام والشراب. فقبل كل شيء على الإنسان أن يكون طبيعياً حتى يتلقى الأشياء على طبيعتها، وأن يقوم بأفعال طبيعية، حتى يتلقى نتائج طبيعية، ويستمتع بها بشكل طبيعي. يبيّن الله تعالى أن لاطبيعية هذا الشخص نتجت عن سلوكه اللاطبيعي مع نفسه ممّا أدّى إلى تلك المفرزات عليه بدنياً ونفسياً، ذلك أن الله تعالى قد جعل ﴿الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وهذا قد رفض الإيمان، وبذلك فقد استحق ﴿الرِّجْسَ﴾ والإنسان الذي يصيبه ﴿الرِّجْسَ﴾، يُحرَم مِن مزايا كثيرة يتمتع بها الإنسان المؤمن الذي لايقربه هذا ﴿الرِّجْسَ﴾.

فكل شيء يحافظ على خواصه من طعام، أو شراب، أو ثياب، أو ما شابه، لكن هذه النِعَم لاتمنح نكهتها الحقيقية إلاّ لِمَن يبرأ مِن ﴿الرِّجْسَ﴾.

فالمؤمن يضحك ضحكاً حقيقياً طلقاً، يشعر بحالةٍ مِن التجدّد وهو يرتدي ثياباً جديدة، يستلذ بما يأكل وما يشرب، ذلك أن صدره مُنشرح بنور الإيمان، وهذا يجعل من حواسه درّاكة ومتفاعلة.

ثمة قصيدة للمتنبي يقول فيها:

ومَن يك ذا فم مر مريض   يجد مرّاً به الماء الزلالا

فالعيب ليس في الماء، بل في المريض، والمريض في الآية مُصاب بداء العَظَمة، وعقدة الخواجة. لكن إذا تأمّلت في هذا العِقاب الدنيَوي، سترى فيه عظمة الله، ففي الوجه الآخر، يكون ذلك بمثابة العِلاج لِداء الكِبر الذي يُعانيه، فكل هذه الأشكال تكون بمثابة التنبيه حتى يستيقظ على الحقيقة، فما الذي يجعله يضع نفسه في كل هذه المآزق، والمؤاخذات، ويتلقى ما يتلقى نتيجة عناده. فانظر إلى المفردات: ﴿صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾، ﴿حَرَجاً﴾، ﴿كَأَنَّمَا﴾، ﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾، ﴿الرِّجْسَ﴾. فهؤلاء ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾أصابهم ﴿صَغَارٌ﴾كما في الآية السابقة، لأنهم اعتقدوا أن بوسعهم أن يملوا شروطاً على الله نظير أن يؤمِنوا، كما في الآية التي تقدّمتها.

واعلم أن إرادة الله في هذه الآية، كالمشيئة، فهي لاتلغي إرادة الإنسان، فالأصل هي إرادة الإنسان في الإيمان، أو عدم الإيمان، لأن الله تعالى ذكره، لو فرض على فلان أن يؤمن رغماً عنه، وعلى فلان ألا يؤمن رغماً عنه، فما كان الإنسان بحاجة إلى الأنبياء والرسل، لأنّهم لم يكونوا ليغيّروا في الأمر شيئاً، فالإنسان يتمتع بحرية المُعتقَد، بل حتى إبليس عندما أراد أن يعصى، كانت له تلك الإرادة، ولو لم يرد ذلك، نرى أن الله تعالى ما كان ليفرض عليه العصيان، أو يُعاقِبه بشيء فرضه هو عليه رغماً عنه. بل تحاور الله تبارك وتعالى معه حتى يطيع، ولكنه هو الذي أبى واستنكر وفق تمتعه بحرية الإرادة، كما الأمر بالنسبة لغيره من الملائكة الذين تحاوروا مع الله بهذا الشأن، لكنهم انتهوا إلى الطاعة. لكن إرادة الله تكون مفروضة بالنسبة لاستجابة العاصي للعِقاب، فلم يكن بوسع الشيطان بعد أن عصى أن يتمتع بحرية الخروج أو اللاخروج من الجنة، أو رفض لعنة الله. فالعِقاب يتلقاه العاصي رغماً عنه، شاء ذلك أم أبى.

فالإسلام كله خير، والله يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام، ويحذّرهم من الضلال، ويرسل إليهم الرسل، والكتب السماوية. فالذي يريد، فإن الله يريد له أن يريد، ومَن لم يرد، كذلك فإن الله يريد له ألاّ يريد.

وإرادة الله بالإسلام، ترجح على إرادته بالكفر، لأنه يدعو إلى الإسلام، ويعد المؤمنين بالثواب في الدنيا والآخرة، نظير أنه يحذّرهم مِن الكفر، ويعد الكافرين بالعِقاب في الدنيا والآخرة. فالمؤمن هو إنسان مستكين مُنشرح الصدر، كائناً ما كان وضعه المعاشي في الدنيا، لأنه يمضي بنور الله وهدايته، والكافر هو إنسان مشتت ضيّق الصدر، كائناً ما كان وضعه المعاشي في الدنيا، لأنه يمضي في ظلمة الشيطان وضلاله. ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ﴾ هم بمحض إرادتهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، والله يدعوهم إلى الإيمان، لكنهم يأبون الإيمان، فـ ﴿يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ عليهم.

﴿١٢٦﴾

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

﴿صِرَاطُ﴾ الله مستقيمٌ، لا عِوَج فيه، والإنسان يستقيم، ويستقيم وضعه عندما يكون على صراط مستقيم، والإسلام هو: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾، و ﴿الآيَاتِ﴾ التي تدعو الناس إلى الإسلام، مُفصّلة جليّة ﴿لِقَوْمٍ﴾ لأناسٍ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾يقرأون هذه ﴿الآيَاتِ﴾، ويتأثرون بها ويستجيبون لها.

﴿١٢٧﴾

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

لأولئك القوم الذين ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، ﴿دَارُ السَّلاَمِ﴾، و﴿السَّلاَمِ﴾ من أسماء الله الحسنى، أي دار الله، فيجعل الله تعالى داره لهم. فالله هو مالك الملك، وفي الدنيا يعطي ما يشاء لِمَن يشاء مِن ملكه، وكذلك في الآخرة، فإنه يعطي﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ﴾. و﴿السَّلاَمِ﴾ مِن السِلم، أي يكونوا في سلامٍ يسلموا مِن كل آفة، أوداء، أو اضطراب، في ﴿دَارُ السَّلاَمِ﴾ التي أعدّها الله

﴿لَهُمْ﴾، ليكونوا عنده سالمين، ليس بوسع أي أذى أن يقربهم، وقد سُميت الجنة بـ ﴿دَارُ السَّلاَمِ﴾ لأنها تحقق ﴿السَّلاَمِ﴾ الكامل غير المنقوص قيد شعرة، لِمَن يدخلها.

﴿وَهُوَ﴾ الله الذي أعدّ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ﴾، ﴿وَلِيُّهُمْ﴾، وذلك ثواباً منه ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾في الدنيا من أعمال صالحة.

﴿١٢٨﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة يبعثهم الله تعالى ﴿جَمِيعاً﴾إلى الحِساب: ﴿يَا مَعْشَرَ﴾ شياطين ﴿الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم﴾ أضللتم كثيراً ﴿مِّنَ الإِنسِ﴾. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ المُضلَّون ﴿مِّنَ الإِنسِ﴾الذين استجابوا لشياطين ﴿الْجِنِّ﴾: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾. أي نال كلُ واحد منا حاجته من الآخر، فعندما يستجيب الإنسان لشيطان﴿الْجِنِّ﴾، يشعر بأنه نجح في استدراجه وإغوائه، فذلك تحقيق متعة للجن. أمّا استمتاع الإنسان، فيكون عندما يتبع ما يزيّنه له شيطان الجن من ارتكاب المعاصي، وكذلك عندما يستعين بهم في تلقي الأراجيف، والكهانة، والسحر.

ثم يقولون: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا﴾. أصبحنا أمام الحقيقة التي وعدتنا بها، وخالفناك، واتبعنا المعاصي. ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ مستقرّكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾، الاستثناء هنا يُبقي المشيئة، لأن مشيئة الله تبقى مفتوحة في جميع الأحوال، وهو جلّت قدرته، وتعاظم شأنه، يشاء ما يشاء في الوقت الذي يشاء. فـ ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾، أي ﴿إِلاَّ﴾ إذا ﴿شَاء اللّهُ﴾لهم ﴿مَا شَاء﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ بفعل ما يشاء، ﴿عَلِيمٌ﴾، بِمَن يستحق الاستثناء، فيستثنيه الله في الوقت الذي يشاء.

﴿١٢٩﴾

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

تبيّن الآية هنا أن الظالمين يستمرّون من خلال بعضهم البعض، فكما أن العادلين يتواصلون ويتعاضدون مع بعضهم البعض، فينتفعون من خلال هذه العلاقة، فكذلك يلحق الظالمون الخسارة ببعضهم البعض نتيجة العلاقة بينهم. فالعادل يجد العادل الذي يتواصل معه، والظالم يجد الظالم الذي يتواصل معه. الأمر الآخر أن الذي يظلم، يولّي الله عليه مَن يظلمه من الناس، فيلقى هذا الظالم ما كان يسببه للناس من ظلم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ وفق هذه المعادلة ﴿نُوَلِّي﴾ نمكّن ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾على بعض، فيظلم بعضهم ﴿بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ﴿بِمَا كَانُوا﴾ يظلمون الأبرياء.

﴿١٣٠﴾

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾

خطاب الله إلى الثقلَين:﴿أَلَمْ﴾ يرسل الله رسله ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من مجموعكم، لأن الرسل هم من ﴿الإِنسِ﴾. وهذا شبيه بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾الرحمن٢٢. فليس منهما معاً، بل من أحدهما المالح، دون الحلو. فالجن يعلمون الآيات التي يأتي بها الرسل:﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ*قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾الأحقاف٢٩- ٣٢.

وحمَلُ رسالة الله تقتصر على الإنسان فقط وفق إخبار الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾يوسف١٠٩ .

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾يُبَيّنون لكم الحق من الباطل من خلالها. و﴿يَقُصُّونَ﴾أي تحتوي هذه الآيات التي ﴿يقُصُّون﴾-ها- ﴿عليْكُمْ﴾، على وقائع وقعت مع الناس، وفيها العِبَر. فمِن القرآن ما هو مباشر، مثل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾النساء٢٣. ومنه ما هو غير مباشر، مثل قوله:﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾يوسف٤.

وليست الغاية من القص، لمجرّد القص، بل للإنذار من العصيان﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ يحذرونكم من عاقبة العصيان ﴿لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا﴾، وأنتم تلتقون بعضكم البعض.

﴿قَالُواْ﴾ أجابوا: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾، اعترفنا بذنوبنا، وشهد كل منا على نفسه وعلى الآخر.

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ انغرّوا بمباهج ومغريات ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾وتجاوزوا حدود الله ﴿وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾اعترفوا ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾.

﴿١٣١﴾
﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

لايعاقب الله أحداً قبل أن يصله الحق، ثم يعصى، فهو تعالى شأنه، لايعاقب الناس ﴿بظُلْمٍ﴾ قبل أن يبيّن لهم الحق، وينهاهم عن الباطل. فعندما يتجاوزن، يُصبحون بذلك أهلاً للعقاب﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾الإسراء١٥.

وكلمة ﴿غَافِلُونَ﴾، أي لايُغافلون بوقوع الهلاك عليهم دون أن يعلموا السبب، ودون أن يتلقوا الإنذار، ودون أن يبيّن الله لهم الحق. فدون بيان الله عز وجل، لا يعلم الإنسان

الصواب من الخطأ، أو الحق من الباطل. ولذلك فإن الدِين، هو رحمة كبرى من الله للإنسان، لأنه يُمَنهج للإنسان حياته، فيجعله منضبطاً.

﴿١٣٢﴾

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

درجات الجنة تكون ﴿مِّمَّا﴾ قدّمتم من عمل صالح في الدنيا، ولا يغفل الله عن أي عمل يبدر منكم مهما كان كبيراً أو صغيراً.

الباب السادس والثلاثون

غِنى اللـه

﴿١٣٣﴾

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾

إن الله -جَلّ شأنه- كامل وتمام الغنى، وكل غنى ما دونه، فهو منه، ومهما أغنى، فإن غناه لا ينقص، وكما أنه يغني، فإنه يمكن أن يستغني، لأنه مهما استغنى، فإن هذا الاستغناء لا ينال شيئاً من غناه، ودوماً فإن الله لديه المزيد. فالغني هو الذي يُغني، والله غني لأنه يُغني. وحتى بالنسبة للإنسان، فالغني لا يكون غنياً بما لديه، بل بما يُغني، أي بما ينتفع الناس من غناه. وإن لم يعط للناس ممّا أغناه به الله تعالى، لا يكون غنياً، لأن لا نفع في غناه. فالله ﴿الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، و﴿الرَّحْمَةِ﴾ أعلا درجات الجود والكرم، والله رحيم بالإنسان، فيجود ويكرم عليه رحمة به، لأنه لولا الرحمة، لا يستحق العطاء، بسبب ما يرتكب من ذنوب، ولكنه يستحقها بمقتضى رحمة الله. فكم من نعمة بك، تدرك أنك ما كنت لتنالها لولا رحمة الله، وكم من مأزق وضعتَ نفسك فيه، ولكن الله أخرجك منه برحمته، ولولا ذلك لكان قد أصابك ما أصابك نتيجة ظلمك لنفسك. كم من معصية ارتكبتها، ولكن الله سترك، حتى تتوب وتصلح من شأنك رأفة ورحمة منه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**

﴾البقـرة١٤٣، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ★ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ★ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾فاطر ١٥-١٧، فمهما كنت غنياً لا تستغني عن الافتقار إلى غناه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، وهو قادرٌ أن يقطع تكاثركم، ولا يترك منكم أحداً على وجه الأرض ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾. أي تصبحون شيئاً من الماضي السحيق، وتخلفون الأرض لِمَن يستبدلهم الله بكم:﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾محمد٣٨. ﴿إِن يَشَأْ﴾، قادر أن ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، ويخلق ﴿مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾، وتكون لهم ذرية، ويتكاثروا في الأرض كما تكاثرتم.

﴿١٣٤﴾
﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾

﴿إِنَّ﴾ كل ما يَتبيَّن لكم في القرآن﴿لَآتٍ﴾لحقق لامحالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بقادرين على تجاوز مضمون ﴿لَآتٍ﴾.

﴿١٣٥﴾
﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

ليشتغل كل إنسان ﴿عَلَى﴾ مكانته في الآخرة من خلال عمله في الدنيا، ﴿إِنِّي﴾ رسول الله إليكم ﴿عَامِلٌ﴾ على مكانتي في الآخرة من خلال عملي في الدنيا، ﴿فَسَوْفَ﴾ بتأكيد من الله ﴿تَعْلَمُونَ﴾ تعرفون وترون ﴿مَن﴾ مِن الناس ﴿تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ﴾، أي دار الله، تواصلاً مع ما جاء في الآية١٢٧ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ﴾.
﴿فَسَوْفَ﴾ التأكيدية الإلهية، موجهة إلى الناس جميعاً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ جميعكم ﴿مَن﴾ مِنكم يفوز يوم الحساب بـ ﴿الدِّارِ﴾ يوم الفوز العظيم، ويوم الخسارة العظيمة. فاعلموا

واعتبروا قبل أن تروا ذاك اليوم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فلا تكونوا من الظالمين الذين لايفلحون، وكونوا من المؤمنين الذين يفلحون.

الباب السابع والثلاثون
حلال الله وحرامه

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾

فهذه هي عقيدة الشرك تدخل ضمن نسيج سيرورة وقائع الحياة اليومية بالنسبة للمشرك، فتمضي حياته برمتها وفق منهج شركي. فالمشرك لا يكتفي بقول، أو بمعتقد أنه مشرك، بل يُفعّل قوله ومعتقده إلى عمل. كما الأمر بالنسبة للمؤمن الذي لا يُشرك بالله شيئاً، فهو يمارس فِعلَ ما يقوله، وما يؤمن به. فهؤلاء كما أنهم يؤمنون بالله إيماناً شركياً، فكذلك يجعلون قسماً من أموالهم، يُنفقونه إنفاقاً شركياً.

تبيّن الآية الكريمة هذه التفاصيل التي يَتبعها مشركو مكّة: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ خصّصوا ﴿لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ﴾، وكلمة ﴿ذَرَأَ﴾ تبيّن مدى الازدواجية التي يَتبعونها. و﴿ذَرَأَ﴾ بمعنى: خلَقَ، ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ المؤمنون٧٩.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾أي بمُقتضى مُعتقَدِهم الشركي. ﴿وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، فما يُنفَق على الضيوف والمساكين، يكون ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ من نصيب الله. ونصيب الشركاء، يُخصّص لمصاريف سدنة الأوثان، وللذين يقومون بخدمتها. لكن حتى في ذلك، فإنهم كانوا يرجّحون ما يجعلوه للأوثان على ما يجعلوه لله تعاظمَ شأنه، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ﴾. وممّا يُقال: (أنهم إذا ذبحوا ما جعلوه لله، ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم، لم يذكروا عليه اسم الله). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: (جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءاً، ولشركائهم جزءاً، فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. والأنعام التي سموا لله: البحيرة والسائبة).

تأتي خاتمة الآية بقوله:﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾، وهذا متصلٌ بقوله جلّ وعلا في مبتدأ الآية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ﴾. فالذي خلق هو وحده الذي يستحق أن يُنفَق في سبيله، فـ ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾، تبيّن حجـــم

السفه الذي كانوا فيه. فالله هو الذي خلق ﴿الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾جميعاً، وهو الذي رَزَقكم، وقادرٌ ألاّ يرزقكم.

وعندها لاتستطيع آلهتكم أن تقدّم لكم شيئاً، فحتى ما تنفقونه على آلهتكم، فهو﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ الله، و﴿مِمَّا﴾رزقكم، فبئس الحكم الذي ﴿يَحْكُمُونَ﴾.

﴿١٣٧﴾

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

﴿وَ﴾ — بعطف على ما جاء في الآية السابقة- ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ﴾ الشيطان ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ﴾. أي يجعلهم يقتنعون بفكرة القتل، فيقدموا على ذلك برغبة، والقتل يشمل الذكور والإناث، فكانوا يئدون البنات رفضاً لهن، ويذبحون بعض الأبناء خشية الإملاق، أوقرباناً للآلهة. وكان عبد المطلب، جد النبي صلى الله عليه وسلم قد نذر أنه سينحر أحد أولاده أمام الكعبة لله إذا ولد له عشرة أولاد من الذكور. فوهبه الله بــ: العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبي طالب (عبد مناف)، والزبير، والحارث، وحجلا، والمقوّم، وضرار، وأبي لهب (عبد العُزّى). وكذلك ست بنات: صفية، وأم حَكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبَـرَّة. وهو في ذروة الفرح بهذه الذرية يتراود إليه نذره السابق، فيجمع هؤلاء ويخبرهم بأمر نذره الذي نذر فيبدون استعدادهم لِما يراه. يقول لهم: ليأخذ كلّ رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني.

يفعل الأبناء ذلك ، فيدخل على (هُبَل) في جوف الكعبة ليرى على مَنْ من أولاده سيقع النذر ويقول له: اضربْ على بني هؤلاء بقداحهم هذه. ثم يخبره بالنذر، فيتقدم الأخوة كل واحد يقدّم القِدح الذي فيه اسمه، بينما يبتهل الأب ألاّ يقع النذر على أقرب وأحب أولاده إليه عبد الله. فتناول القادح القِداح وضرب، فخرج على عبد الله.

لم يبق أمام الأب إلاّ أن يرضى بهذا فتناول السكين وراح به إلى إساف ونائلة ليذبحه. فلما بلغ الخبر قريشاً أتته قائلة: ماذا تريد يا عبد المطلب؟

أجابهم: أذبحه.

تقول قريش: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذرْ فيه، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا. وكان الخوف أن يغدو ذبح الذكور عادة كما الحال في وأد الإناث لدى طائفة من الناس. فأجمعوا أن يفدوه بأموالهم، ثم انتهى الأمر إلى قول قريش: انطلق به إلى الحجاز، فإن به عرّافةً لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرَج قبلته.

اقتنع الأب بهذا الاقتراح الأخير لعلّه يجد مخرجاً من هذه الشدّة التي وضع نفسه بها، فأتى إلى العرّافة وأخبرها بأمره ولكنها قالت له: ارجعوا عنّي اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله . فعادوا إليها حيث رأت، وعبد المطلب يسأل مخرجاً مهما كلّفه ذلك من ثمن. عندها قالت العرافة: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم ؟

قالوا: عشرٌ من الإبل.

قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقِداحِ، فإن خرجتْ على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجتْ على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

لقد كان في الأمر بعض الفرج، أو بعض التأجيل في ذبح هذا الفتى الذي لا ذنب له سوى أنه يطيع والده، ولكن لبث الأب قلِقاً لأن القِدح إذا تكرر على الفتى فهذا يعني إضافة المزيد من الإبل في كل مرة، وإن لم يقف هذا التكرار عن حدّه، يتوقف الأب فيؤثر ذبح الولد.

لم يتردد هذا الأب لدى عودته من اللجوء إلى هُبَل وهو يدعو الله نجاة ابنه، وثم وضع عبد الله وعشراً من الإبل، وضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله، فزادوا عشراً إلى العشر السابقة، وعبد المطلب يدعو الله النجاة، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله، فزادوا عشراً إلى العشرين، وعبد المطلب يدعو الله أن يخرج القدح على الإبل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، ولم يترددوا من إضافة عشر إلى الثلاثين، وعبد المطلب يسأل الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله.

أضافوا عشراً إلى الأربعين، وعبد المطلب يدعو الله نجاة فلذة كبده، فضربوا القِدح وخرج على عبد الله، وزادوا عشراً على الخمسين، وضربوا فخرج القدح على عبد الله، ثم زادوا عشراً على الستين، وعبد المطلب لديه أمل في فرج الله، ثم ضربوا فخرج القدح على ابنه، وزادوا عشراً على السبعين، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله ، فزادوا عشراً على الثمانين، وعبد المطلب ما يزال يتمسك ببعض أمل، فعادوا وضربوا القدح فوقع

على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل على التسعين وعبد المطلب منهمك في دعائه، وضربوا فبقيت الإبل المائة بعيدة عن القدح الذي عاد إلى عبد الله.

هنا فقد الجميع الأمل وحتى قريش ذاتها التي كانت تمانع قالت لأبيه: قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب. لكن الأبوة أبقت شيئاً من بقايا أمل في قلبه فطلب فرصة أخيرة قبل أن يذبح ابنه وهي أن يجرّبوا ثلاث مرات إضافية أخيرة. فكان له ذلك، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وعاد القدح إلى عبد الله، أعادوا الثانية، فعادت إلى عبد الله، لبثت الضربة الأخيرة ، فقاموا وضربوها فخرج القدح على الإبل.

كان هذا بمثابة عرس لقريش كلها، واحتفالاً بذلك نُحرتْ الإبل لكل مَنْ يريد لحماً.

يمسك الأب بيد ابنه ويمضيان، فتراه امرأة من بني أسد، (رقية) أخت ورقة بن نوفل.

قالت له: أين تذهب يا عبد الله ؟

أجاب: مع أبي.

قالت: لك مثل الإبل التي نُحِرَتْ عنك وَقَع عليَّ الآن.

أجاب: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

وعند ذاك ذهب به الأب إلى وهب بن عبد مناف سيّد بني زهره نسباً وشرفاً فزوّجه ابنته آمنة، فدخل عليها عبد الله.

ولم يكن هذا الرجل الذي نجا من الذبح يحمل في ظهره سوى مَنْ سوف تحمل به هذه المرأة، وعندما ينتقل إلى حمل آمنة يعود عبد الله هذه المرة بدونه إلى (رقية) قائلاً لها: ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمس؟

فتقول له: فارقك النور الذي كان بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة .

ثم أنه لعل عبدالله كان يعمل في طين فمر على امرأة له دون آمنة ولما دعته، أبى واتجه إلى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك عاد إلى امرأته الأولى قائلاً: هل لكِ ؟

قالت: لا، مررتَ بي وبين عينيك غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت عليّ ودخلتَ على آمنة فذَهبتْ بها.

تقول: فدعوته رجاء أن تكون بي - غُرّة مثل غُرّة الفَرس - فأبى علي ودخل على آمنة فأصابها فحملتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعندما حملت آمنة، خرج منها نورٌ رأتْ به قصور بُصرى من أرض الشام. لقد كان العالم كله في انتظار ما ستقدّمه آمنة بنت وهب يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، عام الفيل، ولسوف يغيب عبد الله بعد أن يضع هذا النبي في بطن آمنة وأنه لن يحظى برؤيته، ولكن آمنة سوف تبعث إلى جدّه: قد وُلد لك غلام، فأته فانظر إليه. فيحضر الجد وينظر إلى الحفيد اليتيم ويدخل به الكعبة شكراً لله، ثم يبحث عمن ترضعه.

وكما حُظيتْ امرأة بحمله، ستحظى امرأة بإرضاعه لتجعل من أبنائها: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذاقة بنت الحارث التي تعرف بـ الشيماء، أخوة لآخر أنبياء الله. وهي ذاتها ستروي فيما بعد: (في سنة شهباء لم تبقِ لنا شيئاً، خرجتُ على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا نرجو الغيث والفرج، فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أدمْتُ بالرَّكب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منّا امرأة إلاّ وقد عُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذ قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك. فما بقيتْ امرأة قدمتْ معي إلاّ أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنّه.

قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلَب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً فبتنا بخير ليلة.

قال صاحبي: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

قلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالرَّكب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إنّ صواحبي ليقلن لي: يا بنة أبي ذؤيب، ويحكِ اربعي علينا، أليستْ هذه التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي. فيقلن: والله إن لها لشأناً.

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانتْ غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة من لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبّناً. فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير حتى مضتْ سنتاه وَفصَلْتهُ ، وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً. فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمه وقلتُ لها: لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يغلُظَ، فإني أخشى عليه وباءَ مكة. فلم نزل بها حتى ردّته معنا. فرجعنا به، فو الله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يَشتدُّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهما يسوطانه. فخرجتُ أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه. فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟

قال: "جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو".

قال أبوه: يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أُصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمكِ به يا ظِئر وقد كنتِ حريصة عليه، وعلى مكثه عندك. فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: إن لبنيَّ لشأناً، رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام.

تستأنف الآية الكريمة: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ من الحق إلى الضلال ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، أي ليبثوا إليهم الشكوك، ويجعلوهم في حالة التباس في﴿دِينَهُمْ﴾. وكلمة ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ تعني الردّة، أي ما كان المرء عليه من الحق، ثم ارتدّ إلى الضلال. فهؤلاء كانوا على دين اسماعيل عليه السلام، فردّوا عن ﴿دِينَهُمْ﴾ بإغواء الشيطان. فإضافة إلى ما ذُكِر في الآية السابقة، وهو امتداد لِما سبق ذكره من مفرزات الارتداد عن الحق، أصبحوا الآن يستبيحون ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾. أي لَما جعلهم يستجيبوا للبس الشيطان. ولكن ضعف الإيمان لديهم، جعلهم يرضخوا لِما أملاه عليهم الشيطان، وغرّر بهم، ولبس ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾. فكل إمكانات الشيطان تنشل وتتعطل أمام قوة إيمان المؤمن، نظراً لأنها ستصبح مشلولة ومعطلة إذا أمر الله بذلك.

وهو بالأصل لم يكن له ليفعل شيئاً لولا أن طلب من الله أن يمهله، فشاء لـه الله ذلـك، وقـد بيّن الله تعالى أن حـدود نفوذه تقتصـر علـى ضعفاء الإيمان، ولا سـلطان لـه علـى المؤمنين المخلصـين. والأمـر الآخـر، فحتـى ضـعفاء الإيمـان الـذين اسـتجابوا لـه، تبقـى أبـواب التوبـة مفتوحة أمامهم، ويبقى القرآن رشيداً لهـم إلى الحق. فمهمـا أسـرفوا علـى أنفسهم، يـأمرهم الله بألاّ يقنطوا من رحمته مهما بلغ بهم الإسـراف، ومهمـا تقـدّمت بهـم الأعمـار. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَـرُونَ﴾، فمـنهم مَـن يجـنح إلى الحق بعـد ضلاله، فيهديـه الله، ومـنهم مَـن يلبـث في عناده، فيتركه الله في الضلال.

﴿١٣٨﴾

﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

ما نـزال نتعرّف على تفاصيل حياة المشركين اليومية﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾، الحجـر مِـن الحجـرة، فأنـت تضـع أشـياءك في حجرتـك، أي تحجـر عليهـا. لـماذا حجـروا علـى ﴿هَـذِهِ﴾ أي بعض الأنعام والحرث؟ كي: ﴿لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء﴾، يقتصـر إطعامها علـى مَن يشاؤون، أي تكون حلالاً على البعض، وحراماً على البعض. فقال الله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾. هـذا محض زعم منهم، وليس مِن الله، ولايحق لهم أن يحلّوا، أو يحرّموا، والله تعالى هو الـذي يبـيّن للناس الحلال من الحرام، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله. فهؤلاء زعمـوا أن هـذه الـ ﴿حِجْرٌ﴾ لاينتفع بها سوى خدَمة الأوثان مـن الرجـال دون النسـاء، وكـانوا يقولـون:(إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيباً، وإن شئنا لم نجعل).

﴿وَأَنْعَـامٌ حُرِّمَـتْ ظُهُورُهَـا﴾ يُحَرّمـون الركـوب، أو حَمـلَ أي شـيء عليهـا، ويـدّعون بـأنهم يحمون ﴿ظُهُورُهَا﴾ ويسمّونها (الحامي). وبذلك يُحرم الناس مِمّا أباحه الله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَـرُونَ﴾يونس٥٩ .

﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا﴾ في الـذبح ﴿افْتِـرَاء عَلَيْـهِ﴾، وقـد أجـازوا لأنفسهم الاعتداء على حدود الله﴿سَيَجْزِيهِم﴾سيلقون عقاب الله ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿١٣٩﴾

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك:﴿قَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ﴾- البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام- مِن الأجنة التي تكون حية، فهي ﴿خَالِصَةٌ﴾وجاءت بكلمة مركّزة في التخليص، أي قاموا باستخلاصها، وتخصيصها، وتحليلها فقط:﴿لِّذُكُورِنَا﴾. ثم أكّدوا على التركيز بأن أضافوا:﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾، نسائنا. ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء﴾، أمّا إذا كانت الأجنة ﴿مَّيْتَةً﴾، فيأكلونها رجالاً وساءً. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، سيعاقبهم الله على تشريعهم ذلك لأنفسهم، ﴿إِنَّهُ﴾ الله ﴿حِكِيمٌ﴾، في تشريع الحلال والحرام ﴿عَلِيمٌ﴾، بمصالح عباده.

﴿١٤٠﴾

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾

مُني أولئك بالخسارة الجسيمة جراء الاعتداء على ﴿أَوْلاَدَهُمْ﴾ بالقتل ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وجاءت﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ توضيحاً للسفه. فالسَفيه هو الذي يقدم على عملٍ عن جهالةٍ، ودون أن يتحقق إن كان على صواب أم خطأ، فلمجرّد أنه رأى القوم يفعلون ذلك، اتبعهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ولذلك فمِن أولى شروط الإسلام: الإيمان. ولايكون الإيمان إلاّ عن علم، أي أن تبلغ قناعة بأن الإيمان حق، فتؤمن عن قناعة، وهذا يكون في القلب، فيصدقه اللسان. أمّا إذا كان على اللسان دون أن يكون في القلب، فهي محض كلمات تصدر عن قلب غير مؤمن.

فالإيمان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، هو كالكفر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وعلى هذا، فإن أطفال المؤمنين وأطفال الكفار هم سواء في البراءة، ولكنهم عندما يبلغون الرشد، يتحمّلون مسؤولية العقيدة.

فإذن هؤلاء ﴿الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كانوا راشدين، وكان يمكن لهم أن يعلموا الحق، ولكنهم اختاروا سبيل اللاعلم ﴿سَفَهًا﴾، ثم تمادوا ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ﴾ فهؤلاء ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ عن الحق ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾إليه.

﴿١٤١﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

إن الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ممدودات مثل البطيخ. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات كالأشجار ﴿وَالنَّخْلَ﴾ التمر ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾أي في كل زرع منافعه وخواصه ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ في ورقه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في مذاقه ومنافعه. ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ تمتعوا بأكله عندما يستوي للأكل، ﴿وَآتُواْ حَقَّهُ﴾، زكّوا هذه النِعَم بإخراج الزكاة للفقراء والمساكين، فعندما تأكلوا تذكّروا أن هناك مَن لايملك أن يأكل، فلا تنسوا إخوانكم، وأعطوهم ممّا أعطاكم الله ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾. لاتتأخروا، فعندما يعطيكم الله، أعطوا المحتاجين، فكما أن الله أعطاكم، أعطوا حق الله لعباده المحتاجين عندما تحصدون هذه النِعَم، ولا تنسوا بأنكم محتاجون إلى الله فأعطاكم، وأن الفقراء ليسوا محتاجين إليكم، بل أيضاً إلى الله، ولكنه فضّل عليكم بأن وضع رزقهم في أياديكم، وكان يمكن أن يضع رزقكم في أياديهم، فلا تظنوا بأنكم تتمتنون عليهم بأموالكم، بل هذا حقهم جعله الله أمانة لديكم، ولا تتأخروا بإيصال هذه الأمانة، فقد حان وقتها، وهكذا تكون الفرحة عامة بين الأغنياء والفقراء. أمّا إذا تأخر إخراج الزكاة، فتكون عيون الفقراء مرتقبة، ويلبثون في انتظار، فلعلّ البعض يكون قد ألمّ به داء، وهو عاجز عن العمل، أو لعلّه يحتاج إلى شراء مستلزمات ضرورية لمعيشته، وهو يعلم أن الوقت قد حان، ولكنك تتقصّد التأخّر. فتفرح أنت وعيالك، وتدعه في انتظار هو وعياله، وقد يؤدّي هذا التأخّر إلى نقص في هذه النِعَم، أو يؤدّي إلى نفاذها جميعاً نتيجة وقوع أمر طارئ. وبذلك يبقى حق الله لديك، وما ذنب الفقير صاحب هذا الاستحقاق، وقد حصل ذلك جراء تماطلك. فكلمة ﴿حَقَّهُ﴾ تنبيهية وتحذيرية في آن

معاً، فهذا الحق قد وضعه الله في هذا الرزق، وهو ليس لك. ولذلك ترى أن بعض الفقراء والمساكين، يذهبون بأنفسهم إلى الحقول عند الحصاد حتى يأخذوا حقوقهم، فالكلمة تنبهك وتحذّرك بالاّ تتعامل معهم باستياء، أو تتمتن عليهم. فهؤلاء جاؤوا حتى تعطيهم رزقهم الذي جعله الله تعالى وديعة لديك، فإعطاءك لهم باستياء، هو إعطاء لله باستياء، وإعطاءك لهم بطيب، هو إعطاء لله بطيب. فشخص قدّم لك نفعاً من خلال عمل، فإنك تعطيه حقه، أمّا هذا فهو حق الله الذي أنعم عليك بكل ما أنت به من خير. ونرى أن يذهب المُنعَم عليه بنفسه إلى وكلاء الله هؤلاء، ويقدّم لهم حق الله عند استلامه المحصول، لأنه يزكّي ماله في وقته دون أن يترك هذا المال في حوزته دون زكاة.

﴿وَلاَ تسرفُواْ إِنّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾، فلعلّ الخير يكون كثيراً فيميل الإنسان إلى الإسراف ظناً منه أن ذلك لايؤثر على الرزق الذي أصابه، خاصة في الأيام الأولى من استلامه لهذا الخير. فيأمر الله أن يتجنب الإنسان الإسراف، ويتمتع بهذا المال وفق حاجته، وألا يبذر ما رزقه الله من خير ﴿إِنّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾، فإن خرجتَ عن الامتثال لهذا الأمر، خرجتَ عن حب الله لك، وإن أردت أن يحبك الله، فلا تكن من ﴿المُسْرِفِينَ﴾.

﴿١٤٢﴾

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

﴿حَمُولَةً﴾، أي مهيأة للحمل، ومستعدّة أن تحمل على ظهرها سواء لمسافات قصيرة أو طويلة، في طرق سالكة، أو وعرة. فقد أعدّها الله كي تكون﴿حَمُولَةً﴾، وبذات الوقت صالحة للأكل، والانتفاع بما تنتج. وذلك من مزايا الإبل، فما يركبه المرء من الخيل والبغال والحمير، غير قادرة على تأدية ما تؤدّيه الإبل، كما أنها لاتدر من النفع ما تدره الإبل، فهي لاتؤكل، كما لايؤكل ما تنتج؛ وهي غير قادرة إلى حمل ما تحمله الإبل، ولاتتمتع بما تتمتع به الإبل من مقاومة على العطش، أو سلك طرق وعرة طويلة. فقد خصّها الله تعالى بأن جعلها﴿حَمُولَةً﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿فَرْشاً﴾، ما يُفترَش على الأرض، وهذا يقيكم البرد، فيصنع

الإنسان من صوف الأنعام فراشاً دافئاً خاصة الغنم منها. ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ إضافة إلى كل هذه المنافع، تمَتعوا بأكل لحمها، فقد أحلّه الله لكم.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ﴾ لاتسلكوا ﴿خُطُوَاتِ﴾ طريق الضلال الذي يخطّه لكم ﴿الشَّيْطَانِ﴾، فهو يحرمكم ممّا رزقكم به الله، كما ورد في الآيات ١٣٧-١٣٩.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يحمل الشيطان ﴿لَكُمْ﴾ عداءً مبيناً. وقد أفصح عن هذا العداء، واستكبر على الإنسان، وقال بأنه سيفعل كل ما باستطاعته كي يضله، فلا تمضوا خلف ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، وهو الذي قال لله عن آدم:﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾الإسراء٦٢ .

﴿١٤٣﴾

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ، وليس ثمانية أصول، فهي أربعة أصول، وكل واحد هو زوج للآخر، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾النجم٤٥.

﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾، جمع ضائن، وتؤنّث ضائنة، وجمعها ضوائن، أي من الغنم خروف ونعجة.

﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، يتميّز ﴿الْمَعْزِ﴾ بالشَعر، كما يتميّز﴿الضَّأْنِ﴾ بالصوف، فهنا تيس وعنز.

﴿قُلْ﴾ لهم يارسولنا: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ الخروف والتيس ﴿حَرَّمَ ﴾ الله كما تزعمون ﴿أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز. رَداً عليهم في الآية ١٣٨:﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ﴾.

﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾، ما حملت الأنثيان، رَدًا عليهم في الآية ١٣٩:﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾. فالمُحَرّم من هذه الأجنّة هل هو الذكر أم الأنثى. ﴿نَبِّؤُونِي﴾ أخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ يقين موثوق مُستند إلى كتاب سماوي، أو قول لنبي ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في التحريم الذي ادّعيتموه.

﴿١٤٤﴾

﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى. ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾. وهذا معطوف على ﴿الضَّأْنِ﴾ و﴿الْمَعْزِ﴾ في الآية السابقة، لتصبح بذلك أمام ثمانية أزواج. فلا جواب لديهم، عندها ﴿قُلْ﴾ لهم يارسولنا: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا﴾، فلم يبق سوى أنكم شهدتم هذا التحريم الذي تدّعون أنه من الله، أو قد ﴿وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا﴾ بشكل خاص كي تقولوه للناس. فلا هذا، ولا ذاك، وعليه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾. وفي ذلك تحذير شديد من عاقبة هذا الزعم، أي يزعم الإنسان أمراً، فيقول بأنه من الله﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ويجوز أن يشمل ذلك كل ما ينسبه المرء إلى الله، فيقول بأن الله يأمر بهذا، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فيلبثون يتخبّطون في شتات ضلالهم.

﴿١٤٥﴾

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أوضح لهم يا رسولنا و﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾، فأنا رسول الله، وقد تلقّيتُ منه الوحي: ﴿لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾ كما تزعمون ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ باستثناء ﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ فقد أُوحي إلي بأنه﴿رِجْسٌ﴾ وأوحي إلي أن ما﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾ فهو فسق، لكن في حال الضرورة يُباح هذا المُحرّم لِمَن ﴿اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ﴾ ربّي ﴿غَفُورٌ﴾ لمُضطر ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالناس رحمة بهم مِن الهلاك.

﴿١٤٦﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

الآن يبيّن الله تعالى الذين خصّهم بتحريم الحلال، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾، كذلك:﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ دون اللحم، وليست الشحوم بشكل عام، بل شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليتين، وفي ذلك قال تبارك وتعالى:﴿إِلاَّ﴾ باستثناء ﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ فهو حلال ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾. لعلّها شحوم المصارين، تكون على شكل حبيبات، فهي مستثناة من التحريم.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، كذلك الشحوم التي اختلطت ﴿بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾، فذلك الحلال على الناس جميعاً، والحرام على اليهود، هو جزاء الله ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾،﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً﴾النساء١٦٠ .

فأولئك كما جاء في خاتمة الآية ١٤٣ ، غير صادقين بادّعاء التحريم، وبعد البيان، يختتم الله تعالى قوله في هذه الآية: ﴿وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، هذا هو الصدق في التحليل والتحريم.

﴿١٤٧﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿فَ﴾ رغم كل هذا البيان الذي يبيّنه الله من الحق﴿إِن كَذَّبُوكَ﴾ ولبثوا مصرّين على ما هم عليه من افتراء على الله، لا تصدّهم، بل قل لهم كلاماً طيباً ﴿فَقُل﴾ لهم يا محمد: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾. رحمة الله تتسع ذنوبكم لتغفرها بالغة ما بلَغت، حتى لو كانت

كزبد البحر، ولا ذنب تضيق به رحمة الله الواسعة، ما دام المذنب يتوب إلى ربه، ويندم على ما قدر بَدَرَ منه، ويبقى باب التوبة مفتوحاً أمامكم وأمام ذرياتكم.

فلم يقل هنا، ربك، بل ﴿رَّبُّكُمْ﴾، لأن الخطاب موجّه إليهم، فكما أن الله هو ربك، فهو ربهم، ورب العالمين جميعاً. ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وما عليكم سوى أن تتوقفوا عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، وتأتوا إلى صراط الله المستقيم. فمهما ارتكبتم من ذنوب، لا يُخرجكم ذلك من كونكم عباد الله؛ وأن باب التوبة مفتوح أمامكم. ولكن إذا أصررتم على عنادكم وفسادكم البلاد والعباد، فاعلموا أن بأس الله ﴿لاَ يُرَدُّ﴾ ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وجاءت ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، ذلك أن المجرم يَتعَمّد الجريمة، ويُخطّط لها حتى يُنفّذها، فعند ذاك اعلموا أن بأس الله يصيب ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، فذلك إمهال لكم من ﴿رَّبُّكُمْ﴾ حتى تتوبوا، وليس إهمالاً منه.

﴿١٤٨﴾

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾

عندما يَتبيّن لهم الحق يا محمد، سيتهرّبون منه ويتذرّعون قائلين:﴿لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مِمّا ﴿حَرَّمْنَا﴾.

يخبر الله رسوله:﴿كَذَلِكَ﴾كما يكذبون عليك الآن ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾. عندما تذوق شيئاً، فإن حواسك كلها تتفاعل معه، فجاءت ﴿ذَاقُواْ﴾. أي بلغ العذاب كل ذرة فيهم، وهذا تحقيق لقوله في الآية السابقة: ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. لكن يبقى منهج الكلمة الطيبة مستمراً حتى وقد بلغوا هذه المرحلة المتقدمة من العصيان والإنكار، وذلك تفادياً من أن يلحقوا بأولئك الذين ﴿ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾. فيوجّه الله رسوله بأن يقول لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾، ﴿هَلْ﴾ توجد وثيقة بحوزتكم تظهروها، حتى نتطّلع عليها؟ ولأنهم يصرّون على ما هم عليه من ضلال دون مُستندٍ يَستندون إليه، ﴿قُلْ﴾ لهم يامُحَمّد: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾دون أن تتحقّقوا، ﴿وَ﴾ بذلك ﴿إِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾، تنسبون إلى الله ظنونكم كَذِباً.

﴿١٤٩﴾
﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فما تدّعونه ليس حُجّة لكم، ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وقد بيّن لكم الحق وأرشدكم إليه، وترك باب التوبة مفتوحاً، لكنكم لبثتم في اتباع الأوهام. والجملة الثانية من هذه الآية القصيرة المؤلّفة من جملتين، هي مزيدٌ من دعوتهم إلى التوبة: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. هنا لفتُ الانتباه مُجدّداً كي يتبعوا الحق، فلعل الله يشاء ويهديهم، ثم أن ما هم عليه من ضلال ليس خارجاً عن مشيئة الله. فكما أنهم أرادوا الضلال، فشاء الله لهم ذلك، فإن ندموا وتابوا، لعل الله يشاء لهم الهداية بعد ضلالهم.

﴿١٥٠﴾
﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

ما تزال المُناظرة قائمة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المُفترين على الله كَذِباً، والله سبحانه وتعالى يوجه رسوله مِن محوَر إلى آخر، وهو يُحاورهم، وقد بدأت المُناظرة في مبتدأ الآية ١٣٨، عندما: ﴿قَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ

وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾. فالآن ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿هَلُمَّ﴾ هاتوا ﴿شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾الذي نسبتم تحريمه إلى الله افتراءً. فإن أحضروا أشخاصاً، و﴿شَهِدُوا﴾ لهم، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾. لاتصدّق، ولا تؤيّد شهادتهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ويريدون من خلال إحضار هؤلاء الشهداء الذين يشهدون بالباطل أن ﴿تَتَّبِعْ﴾ أهواءهم. وهنا تنبيه للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن هؤلاء هم أنفسهم﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي أوحينا بها إليك. إذن، لا تتبع فئتين، الأولى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾. والثانية:﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. إضافة إلى ذلك: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. يجعلون غير الله عدلاً به، والله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لاشريك له، لايُعادله شيء.

﴿١٥١﴾

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ أقرأ لكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، فقد أوحى إلي: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾. وقد بيّنت السورة بعض أشكال الشرك مثلما جاء في الآية ٧٤﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾. كذلك عبدة الكواكب في الآية٧٦ عندما قال إبراهيم: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾. كذلك الآية ١٠٠ في قول الله: ﴿وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾، وفي ذات الآية: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾. والآن: ﴿عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾. فلا شيء البتة يمكن له أن يكون عدلاً مع الله، لأن كل شيء إنما هو خالقه، وقد جاء الشرك أولاً لأنه أكبر الكبائر:﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾النساء١١٦.

بعد النهي عن الشرك الذي جاء في المرتبة الأولى، أوصى الله تبارك وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾. وصية الله عز وجل، الأبناء بأن يُحسنوا إلى والديهم.: ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾، وليس بالأبَوين. فالكلمة تذكّرك بالولادة، فأنت ولدهما، ووليدهما، وقد ولدتَ منهما نتيجة تلاقح مَني هذا الرجل، بمَني هذه المرأة.

فأنت نتيجة تلاقح مَنيهما، ولذلك هو والدك، لأنك لم تكن لتلد لولاه، ثم هي والدتك، لأنك لم تكن لتلد لولا أنها ولدتك.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾، بمعنى أن هذه العملية المجرّدة لوحدها قد جعلتهما والِدَين لك، أي بمجرّد أنك ولدت، وحتى لو انقطعت العلاقة بينك وبينهما منذ اليوم الأول، وتولّى غيرهما تربيتك، فذلك لايُسقط أنك ولدهما، وعندما تكبر قد تقول للرجل الذي ربّاك: أبي، وتقول للمرأة التي ربّتك: أمي. ولكن لاتقول له: والدي، ولا تقولها: والِدَتي. لأنهما ربياك فقط، ولم يولداك. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، ومعنى الإحسان، أن يكسبان منك الحَسَنات، أي تفعل ما باستطاعتك حتى تحسن إليهما، وتوصل إليهما الحَسَنات، عرفاناً منك بفضلهما عليك، سواء في الولادة والتربية معاً، أو في الولادة دون التربية، لأن المولود قد لايرى والِدَيه،

أو لايرى أحدهما. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير والده، لكنه: محمّد عبد الله، كما أن ابنته فاطمة، هي: فاطمة محمّد عبد الله.

فعليك أن تكون مؤدّباً مع والِدَيك في الظروف جميعاً، ألاّ ترفع صوتك عليهما مهما رأيتَ منهما.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، لايكفي ألاّ تكون سيئاً بهما، بل عليك أن تكون حَسَناً بهما، حتى لو كانت ثمة مؤاخذات عليهما.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾. وإذا كانت هناك:﴿وَبِا﴾ للتوصية الإلهية للأبناء بالآباء، فهنا: ﴿وَلَا﴾، للنهي الإلهي للآباء بحق الأبناء، فلا ترتكبوا هذه الجناية بحق ﴿أَوْلَادَكُم﴾ تحت ذريعة الفقر، أو ضيق المعيشة. ﴿نَّحْنُ﴾- بنون العظمة المكرّرة في الكلمتين المتتاليتين-: ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾ نمدّكم بالأرزاق ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾، ونمدّهم أيضاً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة، وهي كل ما يجعل من مرتكبها فاحشاً، ومن ذلك الزنى، فالزاني هو فاحشٌ بزناه، والزانية هي فاحشةٌ بزناها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ أي دعوكم بعيدين عن ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. فمِنَ ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ ما تكون ظاهرية، فيمارسها المرء في العلَن، ومنها ما تكون مُبَطَّنة في السر، فذاك موضع لارتكاب ﴿الْفَوَاحِشَ﴾، ورغم ذلك يذهب بعض الناس إليه جهاراً نهاراً، وتلك فاحشة يرتكبها رجل وامرأة بسرّية تامة، وأخذ حيطة من أي شبهة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ جملة، سواء﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلى العلَن،﴿وَمَا بَطَنَ﴾، كان في خفاء.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. باستثناء إقامة حدود الله، وهذا يكون من شأن القضاء الذي يبث هذه الأحكام بعد الثبات والتحقق، وذلك إقامة لحدود الله في الجُناة من الناس.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾المُبيَّن، المُفصَّل ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ الله﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، في رشاد أمركم، فتفعلون ما يُعقَل، لا ما لايُعقَل.

﴿١٥٢﴾

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

ينهاكم الله أن تمدّوا أياديكم إلى ﴿مَالَ الْيَتِيمِ﴾لأخذه ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي تمدّ يدك لتحسن إلى هذا المال، لا أن تأخذه وتنتفع باستثماره، ثم تعيده كما أخذته إلى ﴿الْيَتِيمِ﴾، فتمدّ يدك إلى هذا المال كي تستثمره لليتيم في تجارة مشروعة، إذا رأيت أن بقاء هذا المال جامداً، يُنقص من قيمته الشرائية، فتضعه في عقار مثلاً، فيدر ذلك دخلاً شهرياً، يكون لليتيم، ثم قد يرتفع سعر العقار فيما بعد، فذلك فيه نفعٌ لليتيم، ففي هذه الحالة المستثناة، يجوز أن تمدّ يدك إلى هذا المال، وتتصرّف به من باب المنفعة، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. من الشدّة، أي يشتدّ عوده، ويغدو قادراً على التصرّف بماله. ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾النساء٦ ،حينها تعطيه حقوقه، وتصبح بريء الذمة تجاه ماله أمام الله.

﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. الوفاء، هو عطاء تمام الحق إلى المُستحق، فالذي يوفي، هو الذي يعطي كامل الحق لصاحبه. يأمر الله تعالى القائمين على شؤون ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾أن يكونوا مقسطين في كيلهم وميزانهم، فيعطوا للناس حقوقهم. ذلك أن القائم على هذا الشأن يمكن له يتلاعب في الوحدات الميزانية، وفي وقتنا، مع ظهور أشكال جديدة بـ ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ الكترونياً، أو كهربائياً، فيمكن التلاعب في ذلك، كما يمكن أن يحدث عطلٌ، في هذه الوسائل، فعلى القائم على شأنها، أن يتوقف عن استخدامها لدى اكتشاف ذلك، حتى يُصلحها. ونرى أن يتحقق القائم على هذا الشأن بين حين وآخر

من صحة هذه الوسائل، وذلك أن يزن وزناً، ثم يختبره في أكثر من ميزان، حتى يتحقق من سلامة ميزانه. فتلك هي أمانات الناس، وأنتَ أمينٌ على هذا الميزان الذي تزن به حاجاتهم، وتعطي لكل ذي حق حقه. ويجوز أن يكون القسط هنا بمعنى التساوي، أي عليك أن تساوي الناس بنفسك في هذا الميزان، فكما لو أنك تبيع من بضاعة شخص ما إلى نفسك، فلا تبخس الناس حقوقهم في ذلك، كما أنك لاتريد أن يُبخس حقّك.

﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾. ومعنى ذلك - والله أعلم - : لانُحمّل نفساً ﴿إِلاَّ﴾ ما بـ ﴿وُسْعَهَا﴾ ، فكل ما يأمر به الله تعالى، يستطيع الإنسان أن يعمل به، دون أن يهلك نفسه

بذلك، وكل ما ينهى عنه، يستطيع أن ينتهي منه دون أن يهلك نفسه بذلك. فالتكاليف على قدر استطاعة النفس، واعلم أن الاستطاعة ليست ثابتة، فما تستطيعه اليوم، قد لا تستطيعه غداً، ولذلك تكون السعة أيضاً مُتحَوّلة وغير ثابتة، فسعة الأمس بالنسبة لصحتك، اختلفت عن سعة اليوم بسبب ما طرأ. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم "[16]

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. لاتميّزوا بين شخص وآخر في النطق بالحق، وساووا في قولكم بين الناس جميعاً، حتى ﴿لَوْ كَانَ﴾ الذي عليه الحق ﴿ذَا قُرْبَى﴾.

﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ﴾. كونوا أوفياء لمُعاهدة الإيمان التي عاهدتموها مع الله عندما انتسبتم إلى الإسلام، وسألتم الله أن يقبل إسلامكم . فلتلك المُعاهدة بنودها، عليكم أن تكونوا أوفياء بها، وألاّ تخلوا بتلك البنود، فبموجبها سألتم الله قبول إسلامكم، وبموجبها قَبِلَ الله إسلامكم، ﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ﴾ لاتخلّوا. ﴿ذَلِكُمْ﴾ ما تقدّم ذكره: ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾. فالتزموا وصية الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون.

﴿١٥٣﴾

﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

﴿وَأَنَّ هَـذَا﴾ الذي أبيّنه لكم إنّما هو ﴿صِرَاطِي﴾ طريق الإسلام ﴿مُسْتَقِيماً﴾، لاعوج فيه، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، تستقيموا باتباعه. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ﴾ الطرق المعوَجّة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، تشتتكم عن بعضكم البعض، وتجعلكم في اعوجاج ﴿عَن﴾ سبيل الله المستقيم.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عواقب اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

وقد جاءت وصية الله في الآيتين المتتاليتين، في الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، تتعظون بهذا البيان. وفي الثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عواقب السبل المعوجّة. ولا يوصيك إلا مَن يريد بك خيراً، وعندما يوصيك الله باتخاذ الطريق المستقيم، فإنه بذات الوقت يوصيك بعدم اتخاذ

[16] رواه البخاري٧٢٨٨

الطرق المعوَجّة. وقوله تبارك وتعالى في الآيتين المتتاليتين: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، أي وصاكم باتباع الاستقامة، وبعدم اتباع الاعوجاج.

أخرج الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث"؟ ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ إلى ثلاث آيات، ثم قال: "فمن وفّى بهنّ فأجره على الله ومن انتقص منهنّ شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه".

الباب الثامن والثلاثون

الترتيب الإلهي

﴿١٥٤﴾

﴿ثمّ آتينا موسَى الكِتابَ تمَاماً علَى الذِيَ أحسَنَ وَتفصِيلاً لكُلّ شيَء وَهدَى وَرَحمَةً لعَلهُم بِلقاء رَبهِمْ يؤمِنون﴾

﴿ثمّ﴾، أي بمقتضى تريب الله: ﴿آتينا﴾ أنزلنا على ﴿موسَى الكِتابَ﴾ التوراة ﴿تمَاماً﴾. فمِن نِعَم الله وفق الترتيب أنه أنزل التوراة على﴿موسَى﴾، وفيها تمام الخير ﴿علَى الذِيَ أحسَنَ﴾، تلقي الخير فيها في ذاك الزمان، أي الذي كان على التوراة، في ذاك الوقت، ولعلّ التمام هنا، يفيد بالتوراة غير المـحرّفة. فالتحريف ينال من التمام، فالذي يأخذ بما تم تحريفه، لا يكون قد

﴿أحسَنَ﴾ العمل بما أنزل الله ﴿تفصِيلاً﴾ بياناً ﴿لكُلّ شيَء﴾ يختلفون فيه بعد التحريف.

﴿وَهدَى﴾ يهدي إلى الحق ﴿وَرَحمَةً﴾ من الله ﴿لعَلهُم﴾ أهل التوراة ﴿بِلقاء رَبهِمْ يؤمِنون﴾، فيعملون بمقتضى هذا الإيمان.

﴿١٥٥﴾

﴿وَهذا كِتابٌ أنزَلنَاهُ مُبَارَكٌ فاتبِعُوهُ وَاتقوا لعَلكُمْ ترْحَمُونَ﴾

مبتدأ، وخبر، ﴿وَهذا﴾ اسم الإشارة، وخبره: ﴿كِتابٌ﴾، القرآن﴿أنزَلنَاهُ﴾، صفة للقرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾، وصف الصفة بصفة أخرى. ﴿فاتبِعُوهُ﴾، اتبعوا القرآن المـبارَك ﴿وَاتقوا﴾، تزَوّدوا منه بالتقوى،﴿لعَلكُمْ ترْحَمُونَ﴾، وأنتم تتبعوه، وتتقوا.

﴿١٥٦﴾

﴿أن تقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾

وهذا انقطاع للعذر بالنسبة للذي يقول: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾، التوراة والإنجيل ﴿عَلَى طَآئِفَتَيْنِ ﴾، اليهود والنصارى ﴿مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾، بما جاء في التوراة والإنجيل ﴿لَغَافِلِينَ﴾، كونهما لو يكونا بلساننا.

وهذا يفيد بأن كل رسول جاء إلى قومه بلسانهم، وكل واحد منهم كان يكمل مَن يأتي بعده، وهذا ترتيب حكيم. ثم شاء الله جلّت قدرته أن يرسل مَن لا رسول بعده، فيختتم به رسله، ويكون حاملاً آخر رسالاته. وشاء وقدّر أن تكون هذه اللغة هي العربية، وأن تكون هذه الرسالة هي خلاصة رسائل الله تعالى إلى الناس على امتداد التاريخ الإنساني برمته؛ وبذلك فيكون القرآن الكريم لعموم الناس بمختلف لغاتهم، كونه تميز بالخاتمية، وما أنزِل قبله، كان يتكامل بعضه ببعض، حتى تم التكامل في القرآن، فأصبح المرجعية الإلهية الأحدث، والأكمل، والأتم للعالمين.

﴿١٥٧﴾

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾

فإن لم ينزل الله تعالى القرآن، لعلكم قلتم: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾، فهؤلاء قد خاطبهم الله وشرّع لهم في كتاب، ونحن لانفقه شيئاً من ذاك الكتاب، فلو كان ذلك لنا: ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾، وتمسّكنا بما آتانا الله من الحق أكثر ﴿مِنْهُمْ﴾.

الآن: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.الـ﴿بَيِّنَةٌ﴾ هي التي تبيّن ما لم يكن مُبَيَّناً، فيكون المرء بها على بيّنةٍ من أمره.

﴿وَهُدًى﴾ أن هذه البيّنة تهدي إلى سواء السبيل، فمَن أراد الهدى، فليتبع ما جاء في القرآن الذي فيه بيّنة الله في الحلال والحرام، والأوامر، والنواهي.

ثم قال جل شأنه:﴿وَرَحْمَةٌ﴾. وهي رحمة الله التي وسعت كل شيء، ففي القرآن تتعرّفون على رحمة الله، هذه الرحمة التي بها تغفَر لكم ذنوبكم.

فإذن، ما جاء في القرآن، يعلمه أهل الكتاب، لأنّه امتداد للتوراة والإنجيل، وكثير مِمّا ورد في القرآن الكريم، ورد فيهما. فما يتعرّف عليه المسلمون الآن، يعرفه أهل الكتاب من قبلهم، ولكن الإشكال الذي وقع، هو الصدق التام الذي جاء به القرآن، هذا الصدق الذي أظهر تحريفهم للتوراة والإنجيل، فكان عليهم أن يؤمنوا بهذا الصدق.

والبعض يستجيب لهذه الحقيقة، وينكر التحريف، ويعتنق الإسلام، من جملة الذين يُصرّون على التحريف.

وفي الوجه الآخر فإن المسلمين أصبحوا على اطلاع على ما جاء في التوراة والإنجيل من خلال القرآن الذي أصبح بمثابة الترجمة العربية لهم. فهذه مِن النِعَم الكبرى على أمة العرب، فقد أخرجهم التنزيل المبارك من الظلمات إلى النور، من التهميش إلى الحضور.

وكان من أعظم نِعَم الله على الإنسانية جمعاء بأن جعله للعالم كله، وبذلك فقد انهالت عليه الأقوام من مشارق الأرض ومغاربها لتتدارسه وتؤمن به.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾. فبعد الذي بيّنه القرآن، ليس هناك من هو أكثر ظلماً، مِن الذي يُكذّب هذا البيان الإلهي وينصرف عنه.

﴿سَنَجْزِي ﴾ سنعاقب ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ ينصرفون﴿ عَنْ﴾ اتباع ﴿آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ يجحدون.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

﴿هَلْ﴾ ينتظر ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ﴾ آيات الله ﴿أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾رسلاً من الله إليهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ﴾ أمر ﴿رَبُّكَ﴾ بإهلاكهم.﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدلائل التي تشير إلى قرب قدوم الساعة.

عن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: (كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما تذاكرون"؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: "إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وناراً تخرج من عدن".

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ عندها ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾. وهنا يجب أن يتفعّل الإيمان بالعمل الصالح، أي يعمل الإنسان صالح العمل حتى يكسب في إيمانه الخير.﴿قُلِ﴾ لهم يامحمد: ﴿انتَظِرُواْ﴾ وعد الله﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

﴿١٥٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

لم يأخذوا الدين بأكمله، بل أخذوا منه أشياء، وانصرفوا عن أشياء،﴿ وَكَانُواْ﴾بهذا التفريق في الدين﴿شِيَعاً﴾ فِرَقاً، كل فرقة تأخذ بما فرّقته، هؤلاء يا محمّد:﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. بمعنى لست مسؤولاً﴿فِي شَيْءٍ﴾ عمّا يفعلون، فمهمّتك إبلاغ الحق.﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ﴾ الذي يتولى الحساب، ﴿ثُمَّ ﴾ هو الذي ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿١٦٠﴾

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾

الذي يفعل الحسنة، يجازيه الله تعالى بـ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾من الحسنات، ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ﴾ونظير ذلك إذا ارتكب سيئة،﴿فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾. أي يلقى جزاء السيئة التي ارتكبها﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ . فرحمة الله زادت أجر الحسنة، وعدله لم يزد جزاء السيئة، وليس من أحد يُظلَم عند الله.

﴿١٦١﴾

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بأن هدايتي ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هي من ﴿رَبِّي﴾، وأن ما أنا عليه من دين قيّم، هو اتباع لـ ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الذي كان من الموحّدين، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿١٦٢﴾

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

النسك، هي التي تجعل من الإنسان ناسكاً، أي يفعل ما يقرّبه إلى الله،﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، كل ذلك ﴿لِلّهِ﴾ وحده الذي هو﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٦٣﴾

﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

إن الله الذي أؤمن به هو إله واحد ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾، وأتبع ما أمرني به،﴿ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، من أمتي.

﴿١٦٤﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

فكيف بعد ذلك تطلبون مني أن أشرك بربي، و﴿أبغي﴾ غيره﴿رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومِن ضمنها الأشياء التي تعبدونها، وتعدلون بها الله الذي خلقها.﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾، فلا أحد يُحاسَب بذنب أحد، و﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تحاسب بما ﴿عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

الوزر هنا هو الذنب، وقد تقدّم في الآية ٣١:﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾. أي لا أحد يحمل وزر أحد.﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. إن الله الذي إليه ترجعون، هو الذي يخبركم بالذي﴿فِيهِ﴾ اختلفتم.

﴿١٦٥﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿جَعَلَكُمْ﴾ الله تخلفون بعضكم بعضاً في ﴿الأَرْضِ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الخَلق، والقوة، والعلم، والجاه، والمال. وليس ذلك لأنه غير قادر أن يجعلكم جميعاً في مرتبة واحدة، بل: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من تلك الدرجات المتفاوتة. فمن خلال هذا الاختبار تبلغون الدرجات المتقدّمة عند الله، فلعلّ غنياً بالغ الغنى، لا يكون في درجة متقدّمة يبلغها فقير بالغ الفقر عند الله، ولعلّ خادماً يكون مقرّباً من الله أكثر من ولي الأمر. فتنفرز درجات القرب إلى الله، من اختبار درجات الدنيا. فرفع البعض فوق البعض في درجات الدنيا ليس مقياساً لدرجات القرب من الله، أو البعد عنه، كون الغاية هي الاختبار، وبعد ذلك تنفرز الدرجات الحقيقية للناس جميعاً عند الله، وفق نتائج هذا الاختبار.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أي يشعر المُعاقب بسرعة وقوع ﴿الْعِقَابِ﴾عليه. ولم تنته الآية والسورة معاً عند ذلك، فكيف يعمل الضال بهذا التحذير، وقد اقترف ما اقترف من الذنوب: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾، يغفر عمّا قد سلف من الذنوب جملة واحدة، كما لو أنها لم تكن ذلك أن الله ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعباد.

رحلة اطلاعية غنية يقوم بها قارئ هذه السورة، فهو مع كل آية يستكشف ويطّلع على نماذج مِمّا أنعم الله تعالى به عليه. فهي بذلك سورة تعرّفك بالله أكثر من خلال أشكال وألوان النِعَم التي خلقها، وهذه إتاحةٌ أمام المخيّلة كي تتأمّل التفاصيل الدقيقة في خلق هذه النِعَم حتى تصل الإنسان ناضجة مكتملة. والأمر الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو مدى قابلية الإنسان للاستمتاع بهذه النِعَم.

فتبيّن السورة عبر آياتها كيف أن الإنسان المؤمن يستمتع بدرجات أعلى من غير المؤمن بنكهة وقيمة هذه النِعَم، فيجعله ذلك أكثر اكتشافاً لعظمة الله، وأكثر إيماناً به.

في حين أن غير المؤمن لا يبلغ هذه الدرجات المتقدّمة في القابلية لاكتشاف ذلك، والاستمتاع بهذه النِعَم. وبالتالي تبقى حياته باردة من كل شيء، مقارنة بالدفء الذي يعيشه المؤمن في مقوّمات حياته.

فهذه السورة هي سورة العلاقة بين الإنسان وبين المقوّمات التي تقوم عليها حياته، فتبيّن كيف أن هذا الإنسان يكون في حالة من الاعتدال، والاستقرار، نظير اللامؤمن الذي يفتقد هذه المزية الأساسية، فتكون حياته عبارة عن صراعات مُزدَوَجة على كافة الصعد. فهو كائن مفتقد للطمأنينة، هذه الطمأنينة التي لا تدخل قلباً قبل أن يدخله الإيمان.

سورة الأعراف

استهلال

الأعـرافُ مِـن المـَعرفة، وهـي جمـع عـُرف، أي هـي أساسـيّات وثبوتيّـات ومقوّمـات، والنـاس يتواصلون فيما بينهم على ثوابت يَتعارَفون عليها، والمجتمعـات البشـرية لهـا أعرافهـا العامـة التي تشمل الناس جميعاً دون استثناء، ومِن ثنايا ذلـك تتفـرّع أعـرافٌ خاصـة لكـل مُجتمَعٍ من المجتمعات البشرية، فكل مجتمع يمتاز بأعرافه الخاصة به، وقد تختلـف أو تتنـاقض مـع أعـــراف مجتمَـــع آخـــر، بـــل أن لكـــل بيـــت أعرافـــه، ولكـــل شـــخص أعرافـــه. ولا يكفي أن تعرف هذه الأعـراف، بـل عليـك أن تلتـزم بهـا وتراعيهـا في علاقاتـك سـواء مـع المجتمعات، أو العوائل، أو الأفراد، وإلاّ فإنك تلقى الرفض، وتلبث منعزلاً منبـوذاً، لأن الـذي لا

يراعي، ولا يحترم أعـراف الآخـرين، فـإنهم لا يقبلـوه في مجتمعـاتهم، أو في بيـوتهم، بـل أنـك عندما تدخل دولة، ولا تأخذ أعرافها بعين الاعتبار، فإنها تطردك من أراضيها.

وأي بيت تدخله دون أن تراعي أعرافه، فلا يكون مرغوباً بـك فيـه حتـى لـو كـان بيـت قريب لك، وأي شخص لاتحترم أعرافه، فإنه يتحاشـاك، بـل أن الإنسـان يلقـى الانتقـاد حتـى من أهل بيته إذا رأوه يتجاوز أعراف المجتمع، فيمكن للزوجة أن توجّه انتقادات لزوجها، إذا رأته مستهتراً بالأعراف، ويمكن للزوج أن ينتقد زوجته إذا رآهـا مسـتهترة بـالأعراف، ويمكـن للأبوَين أن ينبهـا أولادهمـا إذا رأوهـم ينحرفـون عـن قاعـدة الأعـراف الاجتماعيـة حتـى لـو كانوا متزوجين ويقيمون في بيوت خاصة بهم.

فالأعراف هي منظومة إنسانية واجتماعية تضبط وتنظّم للإنسان وللمجتمـع سـلوكياته، بمعنى أنهـا حـدود اجتماعيـة وإنسـانية لاينبغي للإنسان تجاوزهـا. وإذا انتهـك كـل شـخص أعراف الآخر، عمّت الفوضى العارمة، ومـا عـاد أحـدٌ يقـيم لأحـد عُرفـاً، فكـل شـيء سـيكون مُباحاً، وسيخرج الإنسان من منظومة المجتمع الإنساني، إلى منظومة القَطيع الحيـواني، كمـا الحال بالنسبة لبعض النماذج الشاذة من الناس، وهـؤلاء يفشـلون في الحفـاظ علـى كـل الـنِعَم التي أنعَم بها الله تعالى على الإنسان، وخص بهـا الإنسـان، فيكـون هـذا الشـخص المنحـرف قـد حُرِم من تكوين عائلة، حُرِم من عَقـد صـداقات حقيقيـة حميمـة، حُـرِم مـن صِـلة الـرَحم، حُـرم مـن الثقـة، حُـرِم مـن العلاقـات الاجتماعيـة الطيبـة، حتـى أنـه لم يـنجح في العنايـة بصحته، ولم يستقرّ في فكره، فيعاني آلاماً بدنيـة إلى جانـب الآلام والـوخزات النفسـية، فهـو شخص مُنكّس الرأس والنفس معــاً في

المجتمع، وكل ما فيه أذى في أذى سواء لنفسه، أو لأقربائه، أو لجواره، أو لسائر الناس.

فهذا شخص هو عدو نفسه بالدرجة الأولى، فقد أخسرها كل شيء، ولم يُربحها شيئاً ، قدّم لها الأذى في كل شيء، ولم ينفعها في شيء، فقد شوّه سمعته، ونال من قِيَمه الإنسـانية، وأسـاء إلى جسده، وإن كان متزوجاً، يكون قد أساء إلى نقاء العلاقـة الزوجيـة بـين الـزوج وزوجتـه، ويكون قد أساء تربية أولاده، وبطبيعة الحال إن لم تكـن الزوجـة ناضـجة، فإنـه يتسـبّب في فشلها.

واعلم هنا أن الإنسان يمكن له أن ينحرف عـن الطريـق في أي مرحلـة مـن العمـر، كمـا أنـه يمكن أن يعود إلى الصواب في أي مرحلة من العمـر، فـلا مقـاييس للثوابـت هنـا، فقـد يمضـي

شخص ما سنوات طويلة في الانحراف، لكن الله يهديه، فتراه يصلح من شأنه، وينقلب من إنسان سلبي إلى آخر إيجابي، ونظير ذلك، يمكن لإنسان ما أن يفسد وينحرف بعد سنوات من الصلاح، فيرتكب موبقات ما ارتكبها سابقاً قط، فيتفاجأ الناس بتصرفاته الغريبة التي ما ألفوه عليها قط، فيتحوّل هذا الإنسان بين ليلة وضحاها من إنسان إيجابي إلى إنسان سلبي.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مثل هذه النماذج عندما بيّن بأن الإنسان يمكن له أن يعمل بعمل أهل الجنة، لكنه في النهاية ينقلب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، ويمكن له يعمل بعمل أهل النار، لكنه في النهاية ينقلب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها "[١٧] .

هنا عليك ألاّ تحكم على الإنسان إلاّ في اليوم الذي هو فيه، دون أن تحكم عليه الصلاح الدائم، أو الفساد الدائم، فكل شيء يُحتمَل أن ينقلب إلى ضده في وقت ما، فشخص يكون قد أمضى عمره في الصلاح حتى أصبح شيخاً طاعناً في السن، وعند ذاك يزني لأول مرة في حياته، أو يسرق، أو يكذب، أو يثير الفتن في الناس وما شابه، وقد تحدّث النبي صلى الله عليه وسلم عن (الشيخ الزاني)، وليس بالضرورة أن يكون هذا الشيخ زانياً منذ شبابه، بل لعلّه يقدم على الزنا بعد أن يُصبح شيخاً.

الأمر الدقيق الذي عليك أن تستخلصه هنا هو ألاّ تغترّ بنفسك إذا رأيتك مستقيماً، وأن تكون دائم الحذر من الانزلاق وتكون على يقين بأنك قابل للانزلاق في أي لحظة متوَقّعة أو غير متوَقّعة مهما ارتفعت بك درجات الاستقامة.

والأمر الموازي لذلك هو ألاّ تحكم على نفسك بأنك ستبقى فاسداً، إذا رأيتك في فساد، وأن تكون دائم التوقع بالصلاح في أي لحظة متوَقّعة أو غير متوقّعة مهما هَوَت بك درجات الفساد.

---

[١٧] رواه البخاري ومسلم

وكما أنك في الأولى، يمكن لخطيئة أن تستدرجك إلى عالم من الفساد، فإنك في الثانية، يمكن لعمل صالح واحد أن يستدرجك إلى عالم من الصلاح.

وفي الأولى كن حذراً من الغفلة، ولاتكن واثقاً من نفسك كل الثقة، وفي الثانية أقدم على أي موقف إصلاح مهما كنتَ غائراً في يَم الفساد، فلعل ذلك بداية متدرجة للنجاة، فلا تفقد الأمل من نفسك كل الفقد، وبالله التوفيق.

فهذا تمهيد أردنا أن نمهّد به للدخول إلى عالم هذه السورة المباركة، وأخذ العظة من كل آية من آياتها، و(الأعراف) في هذه السورة، هي سور ضخم يضعه الله تعالى ليكون فاصلاً بين الجنة والنار، وهو يكون مانعاً أمام خروج أهل النار للدخول إلى الجنة.

إذن هو سور طويل على امتداد الجنة والنار، ومرتفع بحيث لايستطيع أحد تسلّقه، كما أن به من السُمك بما لايجسر أحد على ثقبه. وعلى هذا السور رجال كما تبيِّن السورة، فلا هم في الجنة، ولا هم في النار، وبذات الوقت يتمكّنون من رؤية أهل الجنة وما هم فيه من نعيم، ورؤية أهل النار وما هم عليه من عذاب، فإن نظروا في هذه الجهة، رأوا هؤلاء، وإن نظروا في تلك الجهة، رأوا أولئك دون أن يتحدّد مصيرهم بعد إن كانوا سينقلبون إلى هذه الجهة، أو تلك.

ولكن لماذا تم وضعهم في هذا الموضع؟ فهم فئة خاصة من الناس جميعاً على مختلف العصور والأحقاب البشرية، لكن أعمالهم المتشابهة جعلتهم في هذا الموضع المضطرب، كما أن الأعمال المتشابهة جمعت أهل الجنة فيها، والأعمال المتشابهة جمعت أهل النار فيها: ﴿**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ**﴾ الآية ٤٦، بين هؤلاء، وبين هؤلاء، ولا هم من هؤلاء، ولا هم من هؤلاء.

وإضافة إلى ذلك فإنهم يتمكّنون من التعرّف على بعض الوجوه التي هم على معرفة سابقة بها سواء في الجنة، أو في النار رغم ذاك الارتفاع، وتلك المسافات الفاصلة.

وفي زماننا أصبح ذلك أكثر قرباً لأن الإنسان بات بإمكانه أن يرى الوجوه رغم المسافة البعيدة، فالمنظار يقرّب الأجسام، كما أن أجهزة التصوير المباشرة تفعل ذلك، فإذن هم: ﴿**يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ**﴾ واستناداً إلى ذلك يلقون عليهم السلام، كونهم يسمعونهم أيضاً:﴿**وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ**﴾، وأما عندما ينظرون إلى أهل النار، يسألون الله ألاّ يجعلهم معهم:﴿ **وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾.

من هذا المنطلق فإن سورة (الأعراف) تتناول جوهر النفس البشرية، وتحلّل حيثيّات هذه النفس، فيمكن من خلال ذلك أن يتعرّف الإنسان على نفسه بما لم يكن يعرف من قبل، فهي إذن سورة تحليلية تعنى بالتفاصيل أكثر مِمّا تعنى بالعموميات، وهذا ما يميّزها عن سورة الأنعام التي سبقتها، حيث قدّمت تعريفات أوليّة في السياق العام دون أن تتوقّف أمام التفاصيل، وكأنها بذلك مهّدت إلى هذه التفاصيل في السورة التي تليها في ترتيب المصحف، فهي سورة مكّية، وهناك آراء استثنت القليل من آياتها، فجعلتها مدنية.

واعلم أن الفرق بين المكّي والمدني هو أن المكّي ما أنزل قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، والمدني، هو ما أنزل بعد هجرته صلى الله عليه وسلم، والفرق مقترن بتسلسل الزمن وتدرّج نزول الآيات، وليس بالموضع الذي يكون النبي صلى الله عليه وسلم متواجداً فيه عند النزول، كما الأمر بالنسبة لعودته إلى مكة عام الفتح ونزول قوله تعالى عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ النساء٥٨ ، وهو في جوف الكعبة كما يُروى، والرسول آخذ بعضدتي باب الكعبة، وكان ذلك عندما أخذ علي رضي الله عنه مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة الحجبي، سادنها قسراً عندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم ومنعه وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بردها إليه تنفيذاً لأمر الله في الآية، فقال له: (هاك خالدة تالدة).

فعجب من ذلك فقرأ له علي الآية فأسلم، والآية تعدّ مدنية رغم نزولها في مكة، بل في الكعبة، ولكن نزولها بعد الهجرة حافظ على مدنيتها، كون مَكّي القرآن المجيد يختلف عن مَدَنيّه من حيث المضامين، فلكل مرحلة مضامينها التي تتوافق مع التدرّج في نشر الرسالة.

فالمكّي، هو التأسيس، أي مخاطبة الجانب العَقيدي في الناس، وحثهم على الإقلاع عن الأوثان، والشرك، والإيمان بوحدانية وربوبية وألوهية الله، وتصديق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبيان ألوان نِعَم الله

وأفضاله على الإنسان، والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، والصراع بين الحق والباطل، وما يمكن له أن يتفرّع عن هذه الأساسيات، وقد وقفنا على جوانب من ذلك في سورة الأنعام.

أما المدني، فهو مرحلة جديدة من مراحل نشر الدعوة، وهو في عمومه، يقل عن المكّي عدداً، كون أكثر القرآن نزل قبل الهجرة، فهنا نحن أمام مرحلة تفعيل الإيمان إلى عمل وجهاد، فسوره تحتوي على التشريع الإلهي الجديد، وعلى الأحكام وما إلى ذلك من تحويل

الإيمان في القلب إلى عمل وممارسة وسلوك ونظام، وقد وقفنا على جوانب من ذلك في سور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة. فهي السورة السابعة في ترتيب المصحف، بعد سورة (الأنعام)، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن)، كما عند جابر بن زيد عن ابن عباس. الجزء (٩)، الحزب (١٦، ١٧، ١٨)، الربع (١ ،٢ ،٣ ،٤، ٥، ٦).

إذن، نحن أمام سورة تفصيلية تفرز الناس إلى ثلاثة أصناف: المؤمنون، الكافرون، المتذبذبون. والصنف الثالث وإن كان يشبه في بعض تصرّفاته (المنافقين)، إلاّ أنه ليس من المنافقين في شيء، بل هو من المؤمنين، ولكن إيمانه يشوبه تردّد أمام بعض حدود الله، فيرتكب المعاصي وهو مؤمن، وبذات الوقت، يؤدّي ما عليه من فرائض فرضها الله عليه، ويلبث متأرجحاً في هذه الحالة المزدَوجة بين الطاعة والمعصية، ونظراً لأنه مؤمن، يخلو إيمانه من الشرك، يقدّم أعمالاً صالحة في مجتمعة منطلقاً من أرضية إيمانه بالله، وبالثواب والعقاب، فنرى بأنه يقع في المعاصي على أمل أن الله سبحانه وتعالى يغفر له، وليس لكونه لايؤمن بالثواب والعقاب، فكما أنه يؤمن بثواب الطاعة، يؤمن بعقاب المعصية، لكنه يرتكبها ويسأل الله المغفرة.

فالسورة الكريمة في جانب من جوانب مقامها المبارَك تضعك أمام هذا النموذج من الناس، وتتناول صلب هذه العقيدة المزدَوَجة التي لاثبات فيها على حسم الأمر، واتباع شرع الله. ولذلك يُفاجَأ هؤلاء أنفسهم كما يُفاجَأ الناسُ جَميعاً، سواء الذين ثقلت موازينهم إلى الجنة فدخلوها، أو الذين ثقلت موازينهم إلى النار فدخلوها، عندما تتساوى موازين هؤلاء، ولا ترجح كفة على أخرى، ولايدخلون الجنة لأن كفة الحَسنات لاترجح بهم، ولا يدخلون الجحيم لأن كفة السَيّئات لاترجح بهم، والله قد حرّم الظلم على نفسه، فلا يدخلون الجحيم ظلماً لأن سيئاتهم لا تؤهلهم إليها، كما لايدخلون الجنة، لأن حسناتهم لاتخوّلهم دخولها، فقد تساوت الكفتان.

على هذا المفصَل البالغ الحساسية تعمل هذه السورة، ومن أجل ذلك تروي العديد من الوقائع والأمثلة التي تتناول صلب هذه العقيدة المتأرجحة التي يتوازى فيها عمل الخير مع عمل الشر بالنسبة لميزان معتنقها.

فالسورة المكّية الطويلة، تعمل على ثبات العقيدة، لأنها تخاطب أناساً لا عهد لهم بالإسلام، ولذلك فهي تعرّفهم بالإسلام، وتحبّبه إليهم، وتبيّن لهم المنافع التي يمكن لهم أن ينتفعوا بها في الإسلام سواء في الدنيا، أو الآخرة.

ومع إيمان البعض، ورفض البعض، تنفرز هذه الفئة الثالثة التي تقتنع بفكرة الإيمان، وتؤمن بوحدانية وربوبية وألوهية الله عز وجل، وتصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى قد أنزل عليه القرآن، فتؤدّي ما يترتب على ذلك من فرائض كما أمر الله تعالى، لكنها إلى جانب ذلك، لاتقلع عن المعاصي، وهذه الفئة لاتقتصر على المسلمين فحسب، بل تشمل الناس جميعاً عبر التاريخ البشري، فكل زمن له ما له من هؤلاء، والذين هم على الأعراف، ينتمون إلى مختلف العصور البشرية، فقد جمعتهم عقيدة الازدواج في هذا الموضع المزدَوَج.

ولذلك تفصح لك السورة عن نشوء فكرة المعصية، وتبدأ بإبليس الذي هو أول العاصين من خلق الله، فلا نعلم أن أحداً قد عصى الله جل شأنه قبل إبليس.

وهذه إشارة أولى لك بأن تاريخاً حافلاً من الإيمان والطاعة والمقربة من الله، يمكن له أن يتحوّل في غمضة عين إلى كفر، ومعصية، وفساد.

فإبليس حاد عن الطاعة، وعصى أمر الله رغم كل ما كان عليه من طاعة، وحتى عقب المعصية، فإنه لايتلفظ عن الله بألفاظ فاحشة، رغم أن بعض الناس يتلفظ بها، ومرد ذلك أن إبليس يخبر الله، ويؤمن به، ويعرفه أكثر.

فيستأذنه كي ينظره: ﴿**إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾١٤ ، ثم أنه حتى في اتخاذه قرار الانتقام من آدم وذريته، يقول: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾١٦.

فهو على يقين بأنه لايستطيع أن يحيد شخصاً واحداً عن الصراط المستقيم دون أن يأذن له الله بذلك، ودون مشيئة الله، لأنه يعلم أن كل شيء إنما هو بقبضة الله العلي القدير.

فالتنبيه الأولي لك في ذلك هو أن التكبّر هو أقوى علامات فساد الإيمان، والإيمان الفاسد يودي بصاحبه إلى التهلكة، وبموازاة ذلك، فإن التواضع يصلح الإيمان، وكلما تواضع المرء، صلح إيمانه، ورفع الله له ذكره: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ الشرح٤، وإن كان الخطاب موجهاً إلى شخص النبي عليه الصلاة والسلام، إلاّ أن للمسلم أيضاً ﴿**فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ الأحزاب٢١ فيجعله الله تعالى طيّب الذكر، ويجعل ذكره في مقام رفيع، فالمسلم إن ﴿**كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ يكون له ﴿**فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾.

بعد معصية إبليس، تأتي معصية الإنسان، وهي تتمخّض عن معصية إبليس، لكنها تختلف في فعلها وبنيتها عن معصيته، و الإنسان يتراجع عن المعصية، ويتوب إلى الله، في حين أن الشيطان مستأنف للمعصية، وموسّع ما استطاع من رقعتها، ومفسد ما استطاع من الناس. فلم يدع الإنسان وشأنه، بل لحقه ليوسوس له حتى نال منه مراده، وأودى به إلى معصية الله. ولكن الله -جلّ شأنه- لم يترك الإنسان، بل ناداه، وذكّره: ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾٢٢ . فيستجيبان لله ويندمان على خطيئتهما بقولهما: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾٢٣.

وهذا درس نتعلمه في حياتنا مع مختلف الناس، فعندما ترى شخصاً يقدم على خطيئة بحقك، عليك ألاّ تأخذ منه الموقف الحاسم بشكل مباشر وعلى الفور، بل تتحقق من الأمر، وتنظر في الدوافع والمسبّبات التي أدّت به إلى ذلك، وتصبر عليه، وتلمس له عذراً وتذكّره، فلعلّه أخطأ في غفلة، ولعلّ شخصاً ما أغواه، وقد ندم أشد الندم بعد ذلك، ولعلّ الله تعالى يريد أن يكرمك بموقف عفو. وهذا مثل الرجل الصالح الذي تزوّج بامرأة وتفاجا بأنها حامل، فكان ردّ فعله الأولي، الغضب، واتخاذ قرار الانفصال عنها، والانتقام منها. لكنه كظم غيظه، وأمهل نفسه حتى يهدأ. وبعد التأنّي في التفكير، اقتنع بفكرة الانفصال، واهتدى إلى طريقتين، الأولى أن ينفصل عنها بانتقام، والثانية أن ينفصل عنها بموعظة، فآثر الثانية على الأولى، وما دام قد اقتنع بفكرة الانفصال، فبات ينظر إليها بأنها ضيفة تمضي بعض الشهور ريثما تضع حملها، ثم تخرج مع وليدها، وبناءً على ذلك، فبات يحسن إليها، ويكرمها، ويرى بأن الله تعالى وضعه في امتحان معها، وعليه أن ينجح في الامتحان ليظفر عند الله بمقام رفيع. فمن هذه القاعدة الإيمانية استكمل

علاقته الطيبة معها دون أن يجرحها حتى بكلمة، أو بنظرة، بل لبث على علاقته الزوجية معها، ومع الشهور اكتشف بأنّه تدرّب على الصبر، حتى أنه تعافى من بعض السلوكيات التي كان يمارسها بشكل سريع، ودخل الصبر إلى منهاج حياته برمّتها، فأصبح يشعر بأن صدره منشرح، ولم يعد يعاني كما كان من الاضطرابات جراء تسرّعه في بعض المواقف، بل غدا يمهل نفسه حتى يقدم على عمل ما، أو حتى يعلن عن موقف ما، أو يقول رأياً في شأن من الشؤون.

عندما حان وقت الولادة، ووضعت زوجته حملها، رأته عند صلاة الفجر يحمل المولود ويخرج، فلم تنبس ببنت شفة. خرج الرجل خلسة وهو على حذر وحيطة حتى لا يراه أحد، واتجه إلى المسجد، انتظر حتى استوى المصلّون في أماكنهم، وباشروا في الصلاة، عندئذ دخل ووضع المولود عند باب المسجد، ثم تقدّم يصلّي. وعندما انتهت الصلاة، تفاجأ المصلّون بالمولود، وبعد قليل تقدّمَت به خطاه وسط جموع الناس، مال إلى المولود، وحمله قائلاً بأنّه سيتكفّله، ثم أعاده إلى أمه التي كانت في انتظار كما لو أنها على جمر، وشرح لها ما فعله في المسجد، ثم انتظر أربعين يوماً حتى انتهت من النفاس، فطلّقها، وطلب منها أن تحمل ابنها وتعود إلى أهلها.

إذن، لقد أخطا آدم - عليه السلام - ولكن مغفرة الله أتاحت له كي يصلح من شأن نفسه، وينجب أبناءً صالحين ارتفعوا في مقاماتهم عند الله، بل حتى بعض العصاة من أبنائه، أنجبوا أبناءً صالحين، ومِن الأنبياء، ومِن أهل الصلاح مَن ولدوا لآباء مشركين. وفي ذلك عبرة للمقارنة بين الشيطان الذي استكبر، وبين آدم الذي استغفر، فالاستكبار يُخرج عن الرحمة، والاستغفار يُوجب الرحمة.

ما يمكنك الافادة منه في هذا المقام، هو الامهال، فحتى الذي تراه سيئاً، أو لعلّه سيّء بالفعل، قد يبدر منه عمل خير، ولو لم يمهل الله عباقرة الفكر الإنساني من الكفّار، لَما قدّموا للبشرية كل هذه المنافع، فالتسرّع يَكمن في أنّك تتخذ موقفاً صلباً من شخص لمجرّد خطيئة ارتكبها بحقك، والإمهال خير وسيلة إلى الصلاح سواء مع زوجك، أو ولدك، أو أخيك، أو جارك، أو صديقك، أو زميلك في العمل، فلعلّ في هؤلاء من الخير ما هو أكبر من موقف سلبي رأيته منهم.

★ ★ ★

إن أصحاب الأعراف هم أناسٌ آمنوا بصدقٍ، دون أن يُنافِقوا، أو يُشركوا بالله، ويؤدّون فرائض الإيمان، لكن من الطرف الآخر، فإنّهم يرتكبون المعاصي والأوزار، حتى أنّهم يُصبحون مَوضع شَك بالنسبة لبعض المسلمين، بل أن البعض من أهل الفتيا الذي لم تنفتح ذهنيته على سِعة الدِين، ولم يستطع أن يقرأ القرآن قراءات استنارية، فيجتزئ الآيات ويُخرجها من سياقها التشريعي العام، ويجتزئ الأحاديث النبوية من السياق التشريعي العام

لها، يقبل على تكفير هذه النماذج من الناس، ويفتي بحقهم ما يمكن أن يلحق بهم الأذى استناداً إلى وقفة الغلو الضيّقة التي حصروا أنفسهم فيها من سِعَة ورحابة الدِين.

وكلمة (الأعراف) لاذِكر لها في سائر القرآن المجيد سوى في هذه السورة، ولكن يورد المعنى بلفظ مرادف للكلمة وهو (سور) في قوله:﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ الحديد ١٣.

فالسورة الكريمة تضع هؤلاء في الوسط، ولعلّ في ذلك إشارة بليغة بأن يكون موقفك من هذه الفئة من الناس، موقفاً وسطياً، فتثني على عمل صالح يقوم به هذا الشخص وتباركه له، وتدين وتستنكر عملاً طالحاً يبدر منه، دون أن تتخذ من عموم الشخص موقفاً سلبياً. فعندما تراه في عمل صالح، تثني على عمله الصالح، ويكون لك أن تثني على شخصه أيضاً بشكل متصل، وعندما تراه في معصية، تستنكر فعل المعصية فيه بشكل منفصل، دون أن يكون لك أن تنال من شخصه.

وإذا نظرتَ إلى إيقاع حياة هؤلاء بتدبّر في السورة، سيجلو لك بأنهم يعيشون حالة قلق وعدم استقرار، ولذلك مفرزاته، مثل وخزات الاضطراب التي يعانونها، وأشكال القلق النفسي الذي يعيشونها، وعلقم الازدواج الذي يتجرّعونه. فهم في حالة قلق نتيجة الشّتات الذهني، وعدم حسم موقفهم من المعاصي رغم أنّهم تطهّروا بطهارة الدِين، وتخلّصوا من رجس الكفر. فعليك أن تفرز هذه الفئة في صنف خاص بها، لأن ليس كل مَن يخطئ، يَنتمي إلى هذا الصنف، فالمؤمن يُخطئ ويرتكب الذنوب، لكن ذلك لايكون بسَويّة ما يعمل من صلاح، فقد تبدر منه خطيئة ما في موقف ما، غير أن موازين الطاعة راجحة على موازين العصيان. ذلك أن الله تعالى (غفور) قولاً وفعلاً، قولاً بأنه أخبر الناس بأنه غفور، وفعلاً أن الناس ينالون بركات مغفرته. ومن بركات مغفرة الله، كما في الأثر، أن التائب من الذنب يكون كمَن لاذنب له، والسَيّئة تمحها الحَسَنة؛ لذلك فإن زِنة تلك الذنوب المنخفضة، قياساً مع زِنة الطاعات المرتفعة، تذهِب عن

الإنسان تلك الذنوب كما لو أنها لم ترتكَب بموجب مغفرة الله. يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾التوبة١٠٤.

عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السَيِّئة الحَسَنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[١٨].

والمغفرة لاتقتصر على المؤمنين فحسب، بل هي لعموم الناس دون استثناء، فتشمل الكُفّار والمـُشركين حتى وهم في ذروة كفرهم وشركهم، فيمنّ الله تعالى عليهم بأن يجعلهم في حالات صفاء نفسي في أوقات ما، ويجعلهم يمرّون بمواقف مختلفة تؤدّي بهم إلى الهداية، فترى نماذج عديدة من الكفار والمشركين، تقلع عن ماضيها المقيت، وتقبل على صفحة إيمانية جديدة مشرقة في حياتها، ومن جهة أخرى، هناك مَن لايتعظون ولا يستجيبون لمواقف الإيمان التي يمنّ الله تعالى بها عليهم، ولاتحرّك في دواخلهم ساكناً، وما ذلك إلاّ لتضخم درجات العِناد والاستكبار لديهم.

إذن، يضعك الله تعالى الآن أمام هذه الفئة المزدوجة في هذه السورة الكريمة ليريك بأنها في الآخرة ترى ما كانت عليه في الدنيا، أي في حالة قلق واضطراب، فلم تسلم كل التسليم ليقودها إسلامها إلى الجنة، ولم تذنب كل الذنوب لتقودها ذنوبها إلى الجحيم؛ فهي عندما كانت تؤدّي طاعة، كانت بموازاة ذلك ترتكب معصية، وعندما ترتكب معصية، بموازاة ذلك تؤدّي طاعة، وفق التساوي الذي لاترجح معه كفّة على أخرى. وإذا كانت السورة الكريمة تقدّم لك هذا التساوي في الحسنات والسيئات، فتبيّن لك بأن لاشيء في الكون إلاّ وقد خلقه الله بشكل منضبط، وذلك حتى تضبط حياتك من خلال هذا الانضباط، ولا تكون مستهتراً بما قد يؤدّي إلى خلل في توازن شخصيتك، فتعيش حالة اضطراب في حياتك، ولا تنعم بنسائم الاستقرار النفسي، والصفاء الذهني. فقد وردت كلمة (الدنيا) في السورة أربع مرات، وبموازاة ذلك وردت كلمة(الآخرة) أربع مرات، كما أن عبارة(أصحاب الجنة) وردت أربع مرات، وعبارة (أصحاب النار) وردت أربع مرات، وكلمة (رجال) جاءت ثلاث مرات، إلى جانب كلمة (نساء) التي جاءت ثلاث مرات، وكلمة (المؤمنون، المؤمنين) جاءت ست مرات، وكلمة (الكافرون، الكافرين) جاءت ست مرات، كما وردت (الحياة الدنيا) ثلاث مرات، و (يوم القيامة) ثلاث مرات، إلى ذلك وردت (حسنة، حسنات) أربع مرات، و (سيئة، سيئات) أربع مرات.

---

[١٨] رواه الترمذي وقال حديث حسن

بعد معصية إبليس، تطلعك السورة على خطيئة الإنسان الأولى، فيأتي الخطاب إليك في نداءات إلهية أربعة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾٢٦، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾٢٧، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾٣١، ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾٣٥.

ويُتاح لك في هذه السورة أن تتعرّف على قصص بعض الأنبياء بالتفصيل، مثل: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم السلام. كذلك تطلعك السورة على موقف الذين يحسمون أمرهم دون تردد، أو خوف، أو ازدواجية، من خلال وقائع قصة موسى، وفرعون، والسحرة، ونظير ذلك تتعرَّف على تردّد بني إسرائيل في اتباع نبيهم موسى عليه السلام، كما تطلعك السورة على أهل السبت، وكيف أنهم أرادوا التحايل على الله من قاعدة التأرجح في موقف الإيمان، وأن الله مسخهم قردة.

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قرأ سورة الأعراف جعل الله بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم عليه السلام له شفيعاً يوم القيامة".

وعن واثلة بن الأسقع أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أعطيت مكان التوراة السّبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلت بالمفصل " رواه أحمد وغيره، وروي عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" مَن أخذ السّبع الطوال فهو حبر " رواه أحمد. أخرج النسائي، عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة رَضِي اللَّهُ عَنهَا: (أن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرأَ فِي صلاة الْمَغْرِبِ بِسُورَةِ الأعراف فرَّقَهَا فِي رَكْعَتَيْنِ). وأخرج النسائي، مِنْ حَدِيث ابْن أبِي مُلَيْكَة، عَن عُرْوَة عَنْ زَيْدِ بْنِ ثابتٍ: أنَّهُ قَالَ لِمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ: (مَا لِي أرَاكَ تقْرأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ السُّوَرِ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُول الله عَلَيْهِ الصَلاة والسّلام يَقْرَأُ فِيهَا بِأطْوَلِ الطُّولَيَيْنِ . قَالَ مَرْوَانُ قُلْتُ: يَا أبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا أطول الطولين، قال الأعراف).

تضيء لك سورة الأعراف - التي هي من السبع الطوال - الجوانب الخفية من مكنونات النفس البشرية، وتظهر لك تفاصيل هذه النزعات، وهي تتمحور حول ثلاثية: الإيمان، والكفر، والازدواج، حتى ترى الخير في قمّته، والشر في ذروته، والتأرجح في متاهات شتاته. وبعد كل تلك المسيرة، تنتهي بك السورة الكريمة بآية السجدة وهي أول سجدة في القرآن وفق ترتيب المصحف، ولعلّ فيها إشارة بليغة بأن الخير كل الخير يكمن في الإيمان بالله، وتفعيل هذا الإيمان إلى عمل.

الباب الأول

كلمات في حروف

﴿١﴾

﴿المص﴾

حروف متقطّعة تفتتح بها السورة، وبحسب ترتيب السورة، فهذه هي السورة الثالثة التي تفتتح بآية من خلال حروف متقطّعة، بعد سورتي البقرة، وآل عمران، حيث بدأتا بـ: الم. الآن تم إضافة حرف (الصاد) إلى الحروف الثلاثة، وقد رأينا في السورتين السابقتين أهمية الوقوف أمام هذه الحروف.

ونرى أن نستأنف، ولا نمرّ على آية متكاملة من كتاب الله، كما لو أنها لم تكن، وإن كانت هذه الآية مبهمة، فذلك لايعني إغفالها، ونعتقد أن كل ما ورد في القرآن هو للفهم والتدبّر، فما جاء به جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هو للناس جميعاً، وعلينا أن نعي تماماً بأنها ليست كلمة ناقصة الحروف، سَمِعَ النبي حروفاً منها، دون أن يسمع تتمة

الحروف، بل أن هذا كل ما نزل به جبريل عليه السلام، على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذن هي ليست كلمة ناقصة الحروف، ونعتقد أنها لم تنزل ككلمة متصلة:﴿المص﴾، بل حرفاً حرفاً: (ألف، لام، ميم، صاد)، ولكن تم كتابتها ككلمة متصلة الحروف تجنباً للتداخل الذي قد يحدث في اللغة العربية، وخاصة مع القرآن الكريم، مثل الاكتفاء بحروف من الكلمة كي تدل عليها، كما الأمر بالنسبة لـ ﴿يس﴾ فاختصرت خمسة حروف في حرفين، فتكتب بحرفين، وتلفظ (ياسين) بخمسة أحرف، كذلك بالنسبة لـ ﴿طه﴾وما شابه، ولو كُتبت الحروف المتقطّعة حروفاً متقطّعة لعلّ ذلك فتح باباً بأن كل حرف هو آية مستقلة، ذلك أن ﴿يس﴾ آية مستقلة، و﴿طه﴾ آية مستقلة، فكُتبَت هذه الحروف المتقطّعة التي ترد كآيات في بدايات السور كلمة متصلة، وتقرأ على شكل حروف متقطّعة، فهي إذن، كلمات مختزلة في حروف.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾القمر ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، فهذه الآيات يتضمّنها القرآن، ويُعبَد بقراءتها، فهي من القرآن الكريم رغم ما يكتنفها من إبهام.

والصاد إشارة إلى الفصل، وعلى هذا يمكن الفهم بأنّ الله - جلّت قدرته - هو وحده القادر على وضع هذا الحدّ الفاصل ما بين الجنّة والنار، ثم أنه وحده الذي يُفصّل في أمر هؤلاء الذين يكونون ﴿علَى الأعْرَافِ﴾.

الأمر الآخر، فإن هذه السورة هي سورة تفصيلية، وهي تقع بعد سورة (الأنعام) التي ذكَرَت بعض الأنبياء، لكن بشكل إخباري، في حين أن (الأعراف) تذكر هؤلاء الأنبياء بشكل تفصيلي، وكذلك الأمر بالنسبة لكيفية ولادة الخطيئة الأولى، والعلاقة بين الإنسان والشيطان، وما إلى ذلك من مَحاور السورة الكريمة.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول في ﴿المص﴾: (أنا الله أعلم وأفصّل)، ويقول السدي: هو بعض اسمه تعالى المصوّر، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح

اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه المجيد، والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور. وقيل: هي حروف اسمه الأعظم.

رُوِيَ أنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أعْرَضُوا عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِمَكَّةَ وَقَالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فُصِّلَتْ ٢٦ ، نَزَلَتْ لِيَسْتَغْرِبُوهَا فَيَفْتَحُونَ لَهَا أَسْمَاعهمْ فَيَسْمَعُونَ الْقُرْآن بَعْدهَا فَتَجِب عَلَيْهِمْ الْحُجَّة.

وقال الزجاج: (أَذْهَب إِلَى أَنَّ كُلّ حَرْف مِنْهَا يُؤَدِّي عَنْ مَعْنًى، وَقَدْ تَكَلَّمَتْ الْعَرَب بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَة نَظْمًا لَهَا وَوَضْعًا بَدَل الْكَلِمَات الَّتِي الْحُرُوف مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: فَقُلْت لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَاف أَرَادَ: قَالَتْ وَقَفْت).

وعلى كل حال، فإننا نفتتح هذه السورة الكريمة بهذه الحروف، أي هي مفتتح ومفتاح الدخول إلى رحابة عالم هذه السورة المباركة. فعَقِبَ ذكر ﴿الم﴾ كمفتتحين، ومفتاحين لسورتين طويلتين مَدنيتين، وفق ترتيب المصحف العثماني، يأتي حرف الصاد، لنبدأ معه انطلاقة جديدة مع سورة مكّية مِن الطوال، للتعرّف على ما ينفعنا وفق شرح وتفصيل، كما أننا نتعرّف هنا لأول مرة على فئة جديدة من الناس، وهي التي لاتميل إلى الطاعة كل المَيل، ولا إلى المعصية كل الميل، بل تجمع ما بينَ الطاعة والمعصية، وما مصير هذه الفئة؟ لأنها لاتمكث ﴿عَلَى الْأَعْرَافِ﴾ بشكل دائم، بل تكون هناك بشكل مؤقت بانتظار حكم الله، لأن الناس في النهاية، إما في الجنة، أو في النار.

الباب الثاني

سعة الصدر

﴿٢﴾

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

بعد الحروف المتقطّعة في الآية الأولى، جاء الخبر في مبتدأ الآية الثانية: ﴿كِتَابٌ﴾، ويمكن أن نفهم ذلك على النحو التالي: يا محمد، إن هذا الكِتاب، بكل ما فيه من حروف، حرفاً حرفاً، قد ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

فنحن أمام وصف الله سبحانه وتعالى لكامل القرآن؛ أي أنه بكامله وتمامه دون نقص شيء منه، يقدّم هداية للناس، ويحتوي على المقاصد الشرعية بشكل مَحكم مفصّل. و: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، وثناء من الله تعالى عليه. فقد اختارك الله من سائر عباده ليُنزل ﴿إِلَيْكَ﴾ هذا الكتاب، وكان يمكن أن يختار غيرك ويصطفيه، فعليك أن تفرح وتستبشر بأن الله اختارك واصطفاك للتبشير بهذا الكتاب ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، بل ليكن ﴿فِي صَدْرِكَ﴾ انشراح ﴿مِّنْهُ﴾، ليكن صدرك منشرحاً ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء٣.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الحجر ٩٧.

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً "[١٩]

---

[١٩] أخرجه مسلم

والثلغ: الشَّدخ، وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ.

﴿فلاَ يَكُن فِي صَدرِكَ حَرَجٌ مِّنهُ﴾ وحرف الهاء في ﴿مِّنهُ﴾ يتسع ليحتمل أكثر من وجه للتحليل، فيجوز لهذه الهاء أن تكون للقرآن، ﴿فلاَ يَكُن فِي صَدرِكَ حَرَجٌ﴾من القرآن يا محمد وأنت تلقى التكذيب، فهو هنا يشعر بحرج من القرآن العظيم عندما يُكَذَّب به، ويجوز لها أن تكون للإنذار ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ **أي لاتشعر بالحرج وأنت تنذر به، وانذر به بصدر منشرح رغم كل ما يُقال**، ويمكن أن تكون للتكذيب، أي لاتكن حرجاً مِمّا تلقاه من التكذيب. فيتسع صدرك يا محمد واستأنف التبليغ مهما قال المكذّبون عنك.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام٣٣، ويُحتمَل أن تكون هذه الهاء لهذه المقاصد معاً.

﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾متصل بـ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، بمعنى: أنزلنا إليك هذا الكتاب ﴿لِـ﴾- بلام التعليل -﴿تُنذِرَ بِهِ﴾دون بيان المفعول به، ولكنك ترى المفعول به في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾مريم٩٧. وهم كفار مكة، واعتباراً من مركز انطلاق الدعوة، فإنها تنتشر لتشمل العالم في كل زمان ومكان، أي تنذرهم من الغفلة، ومِن مغبّة الاستمرار في العصيان، والإنذار في اللغة العربية هو الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إنما هو إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

ويتولى أتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل مكان وزمان الإنذار ﴿وَ﴾ **إلى جانب ذلك** يبيّنوا بأنه ﴿ذِكْرَى﴾ هداية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كي يستمدّوا منه العظة والاستقامة والصلاح.

﴿ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾الذاريات٥٥ .

لكن لايعني هذا أن المؤمنين لاينتفعون من الإنذار، وأن الكفّار لاينتفعون من الذكرى، فعندما يرى شخص مستقيم شخصاً قد ارتكب جناية، ولقي العقاب في تلك الجناية، فإنه يزداد تمسكاً باستقامته، ولذلك من المفيد أن يكون مطّلعاً على الأحكام التي تترتب على مرتكبي الجُنَح والجنايات، بل أي مخالفات وتجاوزات قانونية مهما كانت كبيرة، أو صغيرة.

من هنا، فإن الإنذار يكون عاماً بالنسبة للناس جميعاً، كما أنه يكون خاصاً بالكافرين، والأمر ذاته يكون بالنسبة للذكرى.

﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾الأنعام٥١

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾الفرقان ١

﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**﴾ يس١١

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ★ قُمْ فَأَنذِرْ**﴾المدثر ١ ، ٢.

كذلك فإن الكفار يمكن لهم أن ينتفعوا من الذكرى، فهو عندما يرى المؤمن مستقيماً، وعفيفاً، ونزيهاً، وطيباً، وأن الله ينجيه من العذاب، ويدخله الجنة، فقد يترك ذلك أثراً عليه، فيؤمن ﴿ **وَمَا عَلَى الَّذِينَ**

يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾الأنعام٦٩، ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ق٨، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ق٣٧ .

فالإنذار موجّه إلى الكفار، ورغم ذلك ينتفع به المؤمنون، والذكرى موجّهة إلى المؤمنين، ويمكن أن ينتفع بها الكافرون.

نرى هنا مدى حرص النبي عليه الصلاة والسلام على إقناع الكفّار بالقرآن كي يؤمنوا ﴿ **بِهِ**﴾ ، حتى أنه يشعر بضيق صدر عندما لايصدّقوه. فكما لو أنّه يُخاطب نفسه: هل التقصير منك يا محمد، فلماذا لم تستطع أن تقنع الكفّار بآيات ربّك، وهاهم يكذّبوك ويستهزؤون بك. وهي مشاعر طبيعية تنتاب الإنسان الجاد المستقيم الذي يشعر بعمق المسؤولية تجاه مهمّة يُكلّف بها. فإذا كان ذلك للإنسان العادي تجاه شخص اصطفاه وكلّفه بالمهمّة، فما الذي يكون لنبي اصطفاه الله تعالى للنبوّة وكلّفه بمهمّة حمل رسالته إلى الثقلَين؟

هنا يفرّج الله تعالى عنه هذا الضيق، فليس التقصير منك يا محمّد، وليس عليك سوى البلاغ، أمّا الهداية فمن الله، فما دمتَ توصل الآيات كما هي، فتكون قد اديتَ ما كلّفك الله به، واصطفاك مِن أجله؛ وما تبقّى فذلك شأن الله مع عباده.

يتبيّن لك من هذه الآية الكريمة بأن القرآن هو كتاب إنذار، وكتاب ذكرى، وأن الله يوجّه رسوله إلى عدم المبالاة بما يطلقه المغرضون من أقاويل وأكاذيب، وألاّ يضيق صدره بما يبدر منهم من طَعنٍ وإعراض، ويُطلق على الشجر الملتف الذي يتضايق: الحَرِجَة.

فأن تحرج شخصاً، أي تضيّق عليه سواء في حديثه، أو في الموضع الذي يكون فيه، فعندما تضيّق عليه في موضعه، فإنك تحرجه بَدَنياً، وعندما تضيّق عليه في حديثه، فإنك تحرجه

نفسياً. والإحراج هنا نفسي بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمـُراد بـه هـو النَيل مـن معنوياتـه عليـه الصلاة والسلام، فـالله عـز وجل يبـيّن لـه هـذه الحقيقـة ويرفـع لـه معنوياته ويرشده إلى عدم أخذ مـا يقول المكذّبون بعين الاعتبـار، ويستأنف نشر الـدعوة بعزم، ومعنويات عالية، وصدر منشرح، فالنتـائج تتحقّق، وسوف يجيء نصـر الله والفـتح، وترى الناس يدخلون دين الله أفواجاً. هذا هو الدرس البليغ الذي يمكن لك أن تستنتجه من هذه الآية الكريمة، ومن هذه العلاقة التي هي بين الله ورسوله، واعلم أن الله يخصّك بأشياء خصّ بها رسوله، فأنت يمكن أو تواجه مواقف متشابهة، فهل يثنيك المغرضون عن استئناف ما أنت به من استقامة، وحق، وصلاح ، وهل ستدع

أقاويلهم وشائعاتهم تنال منك، وتجعلك تيأس، أم تستمر دون أن تأبه بهم، وتحقق النجاح تلو الآخر، والانتصار تلو الآخر؟. فـاعلم بـأن الله يرشـدك إلى عـدم المبـالاة بالمغرضـين، وأن التكـذيب دَيـدَنهم بالنسـبة لِمـن يصـطفيهم الله ويهـديهم إلى نـوره، فمـا يهـم أن تسـتمر في عفافك، وطيبك، ونفعك لنفسك، ولأهلك، وللنـاس، وأن تحـافظ علـى روح العلاقـة السَويَة بينك وبين الله، وألاّ تسمح لأحد أن يفسد سويّة علاقتك بالله.

أن تكون متصالحاً مع نفسك، تعمل بثقة وعزم ومعنويات مرفوعة وصدر منشرح، فأهل البغضـاء يوجّهـون حقـدهم إلى المعنويـات، ويبتغـون إصـابتك في الصـميم، لأن الإنسـان إن ارتفعت معنوياته، ارتفع فيه كل شيء، وإن هبطت معنوياته، هبط فيـه كـل شـيء، وعليـك أن تدقق في هذه النقطة التي تركّز عليها الآية.

وكلمة ﴿**ذِكْرَى**﴾ جاءت نظير كلمة ﴿**حَرَجٌ**﴾، فهذا الكتاب هو ﴿**ذِكْـرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ بـه، أي هو سِعة، وفرج، وانشراح ﴿**لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ فأنت تحمل الفرَج للذين يؤمنـون بـك، وبمـا تحمـل إلـيهم مـن الله، وهـو يغـيظ المتكبّـرين الـذين لايؤمنـون بـك، ولا بمـا تحمـل إلـيهم مـن الله، فيعبّرون عن غيظهم واستكبارهم من خلال الطعن والإعراض، فهو ليس ﴿**ذِكْرَى**﴾ لهم مـا دامـوا مصـرّين علـى تعـاليهم، بـل هـو يقـرع في أسمـاعهم جـرس الإنـذار، وينـبههم كـي يستيقظوا من غفلتهم، فيتحوّل آنذاك هذا الكتاب بالنسبة إليهم أيضاً إلى: انشـراح، وسِعة، وفرج، ويتبرّكـوا ببركاتـه. لأن البركـات الـتي هـي في الكتـاب مـن شـأنها أن تمحق أي غلٍ مـن نفس الإنسان ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾الأنعام١٥٥ .

إن الله سبحانه وتعالى، يعلّم رسوله الصبر، والتحمّل، وسِعة الأفق، وكظم الغيظ، فهـو يعـدّه لينضج في الحياة، كما يعدّك لتنضج في الحياة، لأن الإنسان لايستطيع أن يفعل شـيئاً مجـدياً

قبل أن ينضج ويمتلئ بالحياة والتجارب وتقلّبات الأحوال، فهذه من معالم التربية الإلهية التي يخص الله تعالى بها رسوله ومصطفاه، كما يخص بها مَن يشاء من أهل الإيمان والصلاح والاستقامة من عباده في كل زمان ومكان.

فالإنذار في محوَر الآية هو بمثابة التوجيه إلى الصواب، كما أن الـ ﴿ذِكْرَى﴾ هي لتعزيز حالة الإيمان لدى المؤمنين والاستنارة من نور هذا الإيمان، أي الاستمتاع بثمار الإيمان من خلال تفعيله إلى عمل.

الآن تعرّفنا ما أمكن على كلمات الآية، ومن المفيد أن نعيد قراءتها: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فأنتَ يا رسولنا قد أحدثت انشقاقاً في بنية الواقع الاجتماعي في قلب المجتمع الذي تعيش فيه، وهذا كتاب يسمعه الناس لأول مرة، وهو يحدث انقلابا على معتقدات هذا المجتمع، فمن عبادة الأوثان إلى وحدانية الله، ومن الفوارق الاجتماعية واللونية والعرقية إلى المساواة بين الناس جميعاً، ومن العبودية إلى التحرّر، ومن الظلم إلى العدل، ومن الزنا إلى العفاف، ومن الوأد إلى تكريم المرأة. فقيادة كل هذا الانقلاب لايكون سهلاً، وعليك أن تأخذ بالاعتبار بأنك سوف تواجه كل أشكال وألوان ردود الفعل التي سوف تنجم عن أهل العناد، فيوجّهون إليك كل ما يأتي إلى ألسنتهم، ويسعون إلى إلحاق الأذى بك وثنيك عن الحق الذي تدعو إليه، بكل الوسائل التي يتمكّنوا منها، بل لايترددوا من فعل ذلك بكل الذين يخرجون من ملّة الكفر، ويؤمنون بك ويؤازرونك حتى يتراجعوا.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ يا محمّد من كل ما تلقاه وتسمعه، لأن كل ذلك أمرٌ متوقعٌ منهم، فخذ ذلك بالحسبان وأنت تستأنف بلاغ الدعوة. وهذا بطبيعة الحال يكون لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم، من بعده، فعليهم أن يأتسوا بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأخذوا كل أشكال المواجهة وردود الفعل بالحسبان، وذلك من خلال المكائد، والتضييق في المعيشة، والاتهامات، بل حتى أنه صلى الله عليه وسلّم قد تعرّض لفج في رأسه، وأخذت الدماء تنز منه، دون أن يتركوا وسيلة إلاّ ولجأوا إليها حتى أنهم أرادوا أن ينالوا من سمعته، ولكن الله برّأ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من إفكهم. فكل شيء مُتوقع على الذين يستأنفون مسيرة الحق، وعليهم ألاّ يُفجعوا، أو يُصدَموا بأي ردود أفعال

يمكن أن يلقوها من أتباع الكفار والمنافقين ودعاة الفجور، ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾النحل ١٢٧.

الباب الثالث

اتباع الهدى

﴿٣﴾

﴿اتبعُوا مَا أنزلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تتبعُوا مِن دُونِهِ أوْلِيَاء قليلاً مَّا تذكَّرُونَ﴾

قل للناس جميعاً يا محمّد: ﴿اتبعُوا مَا أنزلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، دعوا ما أنتم عليه من ضلال، واتبعوا الحق. في الآية السابقة قال: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ بالمفرد. والآن: ﴿مَا أنزلَ إِلَيْكُم﴾ بالجمع. فهذا الكتاب قد ﴿أنزلَ﴾ إليهم يا محمد من خلالك، وأنت رسولٌ ما بين مُرسِل الرسالة، والمُرسَل إليهم.

ولذلك جاء الخطاب هنا إلى المُرسَل إليهم كونهم الهدف من الرسالة: ﴿اتبعُوا﴾ أيها الناس ﴿مَا أنزلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من خلال الرسول، حامل رسالته إليكم، ﴿وَلاَ تتبعُوا﴾- فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾- الناهية، فتكون الكلمة معطوفة على الكلمة الأولى ﴿اتبعُوا﴾، ثم أن الجملة تتبع ذلك فتنعطف على الجملة الأولى، فتكون مع آية تتألف من ثلاث جمل، الأولى: ﴿اتبعُوا مَا أنزلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. الثانية: ﴿وَلاَ تتبعُوا مِن دُونِهِ أوْلِيَاء﴾. الثالثة: ﴿قلِيلاً مَّا تذكَّرُونَ﴾.

فالله يأمركم أن تـ ﴿تبعُوا مَا أنزلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وينهاكم أن ﴿تتبعُوا مِن دُونِهِ أوْلِيَاء﴾. والـ ﴿أوْلِيَاء﴾ هنا، هم كل مَن تتبعهم من دون الله، أي تجعل من نفسك تبَعاً لهم، ولا تقتصر هذه التبَعية على أمرٍ ما، بل تشمل كل مقوّمات الحياة، فتبعيّتك الأولى والأخيرة هي لربك الذي خلقك، وخلق أي شخص يمكن لك أن تتبعه، فكل ما يمكن أن ينفعك به هذا الشخص، فإن خزائنه بيد الله.

عن ابن عباس قال: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: " يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا

بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[20] .

فالولي هو الذي توليه أمرك وتضع اتكالك عليه، فتجعله أفضل منك، وتعتقد أن نفعك بيده، وأن ضرّك بيده، فهذا الشخص سوف يستصغرك، والله لايريد لك هذا، فلعل درجتك أرفع منه عند الله، ولعلّه

شخص خبيث لايعلم به غير الله، ولعلّك شخص طيب لايعلم بك غير الله، فإن الله يرفع لك شأنك وينهاك أن تذل نفسك له، فإن أراد فتح عليك النعيم بلا حساب، وله حكمة في كل ما تلقاه، فاتبع حكمته، وارض بما قسّم لك، واعمل لتطوّر نفسك وتتقدّم في حياتك مستعيناً بالله، ومتبعاً ﴿مَا أُنزِلَ﴾ إليك﴿مِّن﴾ربك، دون أن تتبع ﴿مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾مهما تبدا لك بأنهم يقدرون على نفعك، أو ضرّك.

فاعلم بأن الآية هنا تنزع عنك نقطة الضعف تجاه أي مغريات، فلا شيء يستحق أن تبدو ضعيفاً أمامه، فقد خلقك الله قوياً، والذي يضعف أمام شيء، يضعف أمام أشياء، وكل شيء يستجرّ شيئاً، فمنزلتك عند الله هي أثقل من أي ثقل يمكن لك أن تضعف أمامه، لأن الثمن سيكون باهظاً وأنت تظهر لله بأنك لست أهلاً لتلك المنزلة التي جعلك فيها، وجعل الملائكة يسجدون لك، وما في الأرض يكون في خدمتك، وأرسل لك الأنبياء والرسل، وخاطبك على ألسنتهم، فلا تدع الآية قبل أن تتفقه فيها كلمة كلمة، حرفاً حرفاً، معنى معنى، فهذا هو القرآن، فتجعله يقرأك وتصبح مرآة له، كما تقرأه، ويُصبح مرآة لك، فقراءتك للقرآن تمتاز بخصوصية، على قدر ما يمتاز القرآن بخصوصية عن أي كتاب غيره، فما لك فيه ليس لك في سواه في أي كتاب غيره، وما يقدّمه لك من نفع، لايقدّمه لك أي كتاب سواه، فاقرأ القرآن بخشوع كما لو أنك تقف أمام الله، لأنك بقراءتك للقرآن تكون في حضرة الله، فتهتز، وتبكي، وتخشع، وتتلقى معاني القرآن، ترتقي بقراءته، وتضعف كل الضعف أمام جلال ربك، فهو وحده الذي يستحق أن تضعف له، لأنه القوي الذي لا يقربه ضعف، فضعفك أمامه، عز لك، كما أن ضعفك أمام غيره ذل لك، لأنّك تكون قد ضعفت أمام

---

[20] رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه عن ابن عباس ، وقال ابن رجب ـ عن طريق الترمذي هذه ـ : (حسنة جيدة).من (جامع العلوم والحكم) (٤٨٣/١) ، وصححه الألباني في (صحيح الترمذي).

ضعيف، ضعفت أمام مَن لايملك ألاّ يخضع لضعف، بل قد يضعف لشيء، لاتضعف أنت له، عن النبي صلى الله عليه وسلم:" من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه"[٢١] .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾، لأن اتباعكم ﴿مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾، إنما هو تقليل من شأنكم الذي جعلكم الله فيه، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾الشورى٩، فلم يخلق الله أحداً ليكون تبعاً لأحد، فاتباع مَن هم دون الله، هو في الوقت عينه خروج عن اتباع الله، حتى لو كان المرء مؤمناً، لأن إيمانه يكون قد تعرّض للفساد في اللحظة التي أشرك فيها، ولم يأتمر بأمر الله، بل أشرك واتبع ﴿مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾. مهما كانت أشكال هؤلاء الأولياء من: الرهبان، أو الأحبار، أو الكهّان، أو المشايخ، أو الزعماء، أو الوجهاء، أو الأصنام، أو الكواكب، وما إلى ذلك ممّا يوليه المرء أمرهم دون الله تعالى. فالله يريدك أن تكون عالي الهمّة، شامخاً، مرفوع الرأس، لا أن تكون متضعضعاً، خنوعاً، ذليلاً. فالسؤال كما يقول لقمان الحكيم: (يُذهب ماء الحياء من الوجه).

الجملة الثالثة التي تختتم بها الآية: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. القليل هو النقص غير المكتمل، ولا يكتمل القليل إلاّ بالكثير. فيجوز أن يكون ذلك بالنسبة للذين يمزجون ما بين اتباع الله، واتباع الأولياء، فترى شخصاً يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويؤدّي ما عليه من طاعات لله تعالى، لكنه إلى جانب ذلك يتبع شخصاً يقوده إلى المعاصي، فيكون بذلك قد اتخذه ولياً حاد به عن ولاية الله، وقد ترى مفتياً يُصبح تبعَاً للحاكم، فيفتي بما يمليه عليه الحاكم، فيكون بذلك قد اتخذ من الحاكم ولياً من دون الله. فهذا المفتي يذكر الله ويؤمن به، ويؤدّي الفرائض، لكن إيمانه قد شابه شرك عندما رجّح ما أملاه عليه الحاكم على ما أنزل إليه من الله، فهو شخص ضعيف الإيمان متأرجح، فأمسى ذكره لله ﴿قَلِيلاً﴾ ، فقد أخرج الله من قلبه، ووضع بدلاً عنه الحاكم. فحضور الله تعالى في قلب المؤمن ثابت لاتزحزحه أي مغريات، ولا أي وَجَل، فهو لايضعف أمام مال، أو جاه، أو مركز،

---

[٢١] رواه البيهقي في شُعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ أصبح محزوناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومَنْ أصبح يشكو مصيبته فإنما يشكو ربه، ومَنْ دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، ومَنْ قرأ القرآن فدخل النار فهو ممّن اتخذ آيات الله هزواً".

أو امرأة، لأن قوة إيمانه بالله تجعله يتغلّب على أي ضعف، فيستغني عن أي شيء يمكن أن ينال من حضور الله في قلبه.

وجاءت ﴿مَا﴾للتأكيد على القلّة، ويجوز أن يتفرّع الزمن أيضاً من القلّة، فيذكروا الله في زمن قصير، فترى شخصاً يذكر الله ويعبده في وقت، ثم تراه في وقت آخر يتراجع إلى المعاصي، فنحن ما نزال ضمن مسار اللاثبات، والتأرجح، والازدواج بالنسبة لفئات من الناس، وعدم الاستقرار في العبادة، وهي فئات تشمل مختلف أعمار الناس، ولذلك يُستحسَن أن يعالج المرء هذه الازدواجية في نفسه مبكّراً، ويمكن للأبوَين أيضاً أن يأخذا هذه المسألة بجديّة بالنسبة لأبنائهما خاصة في المراحل المبكّرة من اكتشاف الحياة،

وتكوين الشخصية، فهي مسألة شديدة الأهمية من شأنها أن تعكس على شتى القرارات التي يُصبح المرء متأرجحاً فيها، وهي إشارة أولى من إشارات الفشل الذريع في الحياة، والمهنة، والعلاقة مع الآخرين، حيث يُصبح كل شيء بالنسبة إليه متأرجحاً، فيتحوّل إلى شخص غير موثوق به، سواء في مهنته، أو في علاقاته العائلية، أو علاقاته الاجتماعية بشكل عام، فهو شخص يُتوقع منه كل نقيض، فإن كان طبيباً، سيكون طبيباً فاشلاً، وإن كان مِهَنياً، سيكون مِهَنياً فاشلاً، وإن كان مفتياً، سيكون مفتياً فاشلاً، وإن كان مديراً، سيكون مديراً فاشلاً، وإن كان غنياً، سيكون غنياً فاشلاً، كما أنه سيكون فاشلاً في صداقاته، وفي علاقته بزوجته، وأولاده، وأقربائه، استناداً إلى قاعدة التأرجح التي يكون فيها، ويأتي ذلك إلى ميولاته، وانتماءاته، وقوة الإرادة، وثبات الشخصية.

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا كله على معتقده الديني، ولذلك يمكن للأبوَين معالجة الأبناء في وقت مبكّر، كما يمكن للإنسان أن يسعى إلى المعالجة في أي مرحلة عمرية يكون فيها. ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهذا القليل الإيجابي لايكون كافياً قياساً بـ (كثيراً) السلبي الذي ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

الباب الرابع

عندما يجيء بأس الله

﴿٤﴾

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

الآية تعالج عمّا قبلها، وهي استئناف في عمق المعنى لِما قبلها، ففي الآية السابقة، كان بيان الحالة، والآن تأتي مرحلة التهديد، والتهديد هنا هو تذكير الناس بما حدث للذين مِن قبلهم نتيجة غضب الله تعالى عليهم، وهذا بمثابة التحذير التصعيدي لهم لعلّهم يأخذوا العبرة مِمّا أصاب أهل القرى الذين جاءهم بأس الله نتيجة ذنوبهم.

وقد جاء العِقاب في وقتين أكثر ما يكون الناس فيهما بحاجة إلى الراحة:﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾، أي عند استغراقهم في نوم عميق ليلاً، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ وقد استرخوا لينعموا براحة القيلولة نهاراً، وهي عادة تكون بعد الغداء، كما أن النوم العميق ﴿بَيَاتاً﴾الذي يمتدّ حتى الصباح، يكون بعد العشاء.

فالقيلولة تكون من النوم الخفيف في منتصف النهار، وهي نقيض البيات الذي يكون من النوم العميق في منتصف الليل، أي يسترخي قليلاً في النهار كي ينهض ويستأنف نشاطه بعد قليل، ووقت القيلولة قصير، قد ينام فيها المرء، وقد لا ينام، لأن الغاية منها ليس النوم، بل الاستمتاع بلذّة التمدّد عندما يكون فيها البدن مسترخياً بعد بذل الجهد، وبعد الاستراحة لتناول طعام الغداء، فيشعر بأن بدنه بات ثقيلاً، وأنه يريد أن يغفو، فهي إذن لحظات استرخائية خاصة ينعم بها المرء.

والإنسان في هذين الوقتين يكون أكثر ما يحتاج إلى الراحة والسكينة كونه يستمدّ منهما نشاط البدن، وصفاء الذهن، ولعلّه يتكاسل ويتثاقل في القيام من الفراش لإغلاق الباب أو ما شابه، ويطلب من أهل البيت ألاّ يصدروا أصواتاً تزعجه في نومه، بل حتى يجعل من هاتفه صامتاً، وإن سأل عنه أحد، يقولون بأنه نائم كي لا يزعجوه في نومه. وإن كان الأمر طارئاً جداً، يتم إيقاظه بلطف، وبنبرة خافتة، ولمسات خفيفة، لأن النائم عندما يجفل من النوم، يُصبح كل شيء فيه مستنفراً، فتتسارع دقات قلبه، ويحتقن وجهه، ويتحشرج صوته، وما إلى ذلك بما هو نقيض ما كان عليه من سَكينة وهدوء قبل لحظات.

فيحتاج إلى وقت حتى يهدأ روعه، وقد يُفسَد عليه نومه فلم يعد قادراً على استئناف النوم إن كان في نومِ بَيات. ففي ذروة هذا الهدوء وهذه السكينة، يُباغتهم الله تعالى بالعقاب ﴿فَجَاءهَا﴾- جاء أهلها-:

﴿بأسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ في تلك الأوقات التي استرخوا فيها في لفائف الراحة. فهذه إشارة بليغة بأن هؤلاء كم تسبّبوا في إزعاج الناس في أوقات راحتهم، كم ألحقوا بهم البأس ﴿بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾. فالآن ذوقوا

وبال ما كنتم تقترفون، ولتعلموا بأن الله حق، وفي ذلك تنبيه لك بألاّ تزعج أحداً في وقت نومه، أو قيلولته، وألاّ تطرق الأبواب على الناس في هذين الوقتين، قيلولة الظهيرة، والوقت المتأخر من الليل، وعليك ألاّ تزعجهم بالهواتف، واعلم بأنك كما تزعج، تزعَج، وكما تراعي، تراعى. بل حتى الزوج عندما يرى امرأته نائمة، أو غافية، يمكن له أن يحضر بعض متطلباته مراعياً أخذها قسطاً من الراحة، فلعلّ الله الذي يرى ذلك، يقابله بالمثل، ويرأف به. فكم مِن مواقف حافظتَ فيها على راحة الناس، وكم من مواقف ترددّتَ فيها من إزعاج الناس، وكم من مواقف آثرتَ ألاّ تزعج الناس فيها رغم أنك صاحب حق، ولكن لتسجّل موقفاً مُراعياً عند الله، علّه يُقابلك بالمثل، أو يزيد رغم أنه صاحب حق كي يباغتك، أو يحرجك؛ لتعلم بأنك لستَ أكرم منه، ومهما قدّمتَ من مواقف طيبة، فإنك ترى منه ما هو أطيب، الأطيب الذي لا قدرة لك على فعله.

ونظير ذلك، فإنك مهما قدّمتَ من مواقف جائرة، فإنك تراها كما هي دون أن يزيد الله عليها شيئاً، لأنه وإن كان في الأولى يكرمك بالمزيد، فإنه في الثانية لايظلمك بالمزيد، بل يعفو عن كثير مِمّا كسبت يداك: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾الشورى٣٠ .

﴿فَجَاءهَا بَأْسُنَا﴾، أي ﴿فَجَاءهَا﴾ بعد أن تلقّت الهلاك: ﴿وَكَم﴾ **للتكثير** ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾. الهلاك هنا من أشكال وألوان الذل والخنوع، فهذا الذي كان عزيزاً ومَنيعاً، ومتمكّناً في هذه القرية أو تلك، قد وهن وذل، فيمضي ردحاً في تذوّق علقم الهزيمة والاستضعاف والإذلال على أيدي الناس في الدنيا، ثم يلقى عذاب الله في الآخرة.

فالإنسان عندما يهلك، يغدو في أقصى درجات الإرهاق ويضعف، فيُصبح مَقدوراً عليه، ومَتمكّناً منه، فحتى الضعفاء من الناس يتمكّنون منه، فيكون موضع شماتة الجميع، وقد وقع في أسر بني جلدته الذين طغى عليهم.

والمعنى يشمل الأفراد والجماعات معاً ﴿وَكَم﴾ كثير ﴿مِّن﴾ أهالي ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أهلكناهم، أي: ﴿وَكَم﴾ أهلكنا سكّان ﴿قَرْيَةٍ﴾، ﴿فَ﴾- بعد أن شفى الناس غليلهم من هؤلاء الذين طغوا في الأرض ﴿جَاءهَا﴾ - وقع عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا.

والكلمة هنا قريبة من المفاجأة، أي فوجئت ببأسنا الذي تستحقه نتيجة العصيان﴿بَيَاتاً﴾كما وقع لقوم لوط، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ كما وقع لقوم شعيب.

من جهة أخرى، فيمكنك أن تستنتج من ذلك بأن أسباب الأمن والرفاهية ورَغَد العَيش، لايمكنها أن تقي أحداً من غضب الله، وقد رأيت بأن أشدّ الطغاة الذين مكّنهم الله تعالى في الأرض والملك، وهيأ لهم أسباب الأمن، والحماية، والاستقرار ، والرفاهية، قد لقوا البأس وهم في دُورِهم، وفي ذروة قوتهم ونفوذهم، فأوقعهم الله تعالى وجعلهم في وهن وذل وخنوع، فلا تكن مغترّاً بما أعطاك الله من مال، أو جاه، أو صحة، أو ولد، أو نفوذ، ولتكن لك عبرة في أهل القرى الذين دهمهم بأس الله ﴿بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾الحج٤٥ .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾القصص٥٨ .

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ★ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ★ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ★ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ★ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ★ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾الحاقة ٥ - ١٠ .

﴿٥﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

في المحاكم العادلة، لايكون الحكم على المتجاوز على القانون إلاّ إذا اعترف بالتجاوز المنسوب إليه، وأكّده على نفسه، وهنا أنتَ أمام المتجاوز على حدود الله، وأمام العقاب الذي يستحقه بنظير هذا التجاوز.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ إقرارهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عقاب التجاوز على حدودنا ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ اعترفوا وأقرّوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ظلمنا أنفسنا، وانتهكنا حدود ربّنا.

وعندما يعترف المرء بأنه ظَلمَ، فهو اعتراف بأنه كان على خطأ. فهو يواجَه بالقرائن والثبوتيّات، فيعترف بها، وهذا بذاته إقرار منه بأن العِقاب حق، ذلك أنه كان يعلم بأنّه يُخالف الشرع، ويعلم العقاب الذي يترتب على هذه المخالفة ، فيكون قد ظلم نفسه مرتين، مرة في ارتكاب الوزر، ومرة في الخضوع للعقاب. ﴿فَمَا﴾مبتدأ الآية بحرف العطف، ثم بـ ﴿مَا﴾النافية ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ ومضاف إليه.

وكلمة ﴿دَعْوَاهُمْ﴾تحمل إشارة إلى الرجاء، بمعنى سؤالهم العفو من الله: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ونسألك أن تعفو عنّا، فهي إقرار، وبذات الوقت رجاء.

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"ماهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم".

ما يمكنك استنتاجه من هذه الآية الكريمة، هو أنك كما تتحاشى أن تضع نفسك أمام الحاكم في موقف كهذا، فعليك أن تتحاشى أن تضع نفسك في موقف كهذا أمام أحكم الحاكمين.

الباب الخامس

حضور الله

﴿٦﴾

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾

يوم القيامة عندما يُحشر الناسُ جميعاً على أرض بيضاء نقية ليس فيها معلم لأحد، وليس فيها موضع يعلو عن موضع، و﴿يَكُونُ النَّاسُ﴾حفاة عراة ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾القارعة٤ ، لاأحد يتميّز عن أحد، ولا أحد يعرف مصير أحد، بانتظار الحساب.

عندئذ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾. الفاء هنا تنسيقية، واللام قسَم توكيدي من الله جلّ شأنه، بمعنى: ﴿فَ﴾ بعزّتي وجلالي ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾أي: لنحقّقنّ مع ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، ولنحقّقنّ مع ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾.

فالاعتراف بالذنب وحده ليس كافياً، لتحقيق العقوبة، فقد لا يكون المذنب على علم بالحدود التي انتهكها، ويكون قد فعل ذلك جهلاً منه.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾- قبل إنزال العقاب - ﴿الَّذِينَ﴾ استحقوا هذا العقاب: هل ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان الحدود التي انتهكوها، وبيان عقاب المتجاوزين على تلك الحدود ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾القصص٦٥ ، الذين أرسلناهم إليكم؟ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾الحجر٩٢.

قال عمر بن الخطاب لابن عباس: (مع أنني على ما قلت عني لو أن لي ملء الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع).

﴿وَ﴾وإلى جانب ذلك: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾عن تبليغهم رسالاتنا إلى أممهم.

قال ابن مردَوَيْهِ: (حَدَّثنا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم حَدَّثنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن الْحَسَن حَدَّثنا أَبُو سَعِيد الْكِنْدِيّ حَدَّثنا الْمُحَارِبِيّ عَنْ لَيْث عَنْ نَافِع عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ: قَالَ

رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " كُلّكُمْ رَاعٍ وَكُلّكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّته فَالْإِمَام يُسْأَل عَنْ رَعِيَّته وَالرَّجُل يُسْأَل عَنْ أَهْله وَالْمَرْأَة تُسْأَل عَنْ بَيْت زَوْجهَا وَالْعَبْد يُسْأَل عَنْ مَال سَيِّده ").

﴿٧﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، جاءت بتشديد النون، لتأكيد الفعل، كما الأمر بالنسبة لـ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾، فسؤال الله -تعالى شأنه- ليس للعلم، بل حتى يعترفوا بألسنتهم ما ارتكبوه من انتهاكات، ذلك أن الله سميع بصير، وقد سمع كل شيء، وبصر كل شيء.

وهو علم بالجزئيات، كما أنه علم بالكليات، وعلمه يشمل ظاهر الأمور وباطنها.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾المجادلة٧ .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾تأكيد لهذا العلم، أي: نحن﴿كُنَّا﴾على علم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن كل ما فعلتموه من كبيرة، أو صغيرة.

وقد عطفت الواو هنا الجملة على: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾. قال ابن عباس: (﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، يُوضَع الْكِتَاب يَوْم الْقِيَامَة فَيَتَكَلَّم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِر عِبَاده يَوْم الْقِيَامَة بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا مِنْ قَلِيل وَكَثِير وَجَلِيل وَحَقِير لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيد عَلَى كُلّ شَيْء لَا يَغِيب عَنْهُ شَيْء وَلَا يَغْفُل عَنْ شَيْء بَلْ هُوَ الْعَالِم بِخَائِنَةِ الْأَعْيُن وَمَا تُخْفِي الصُّدُور).

فالقَص هنا بمعنى أنَ العِباد يُقصّ عليهم ما قد فعلوا، وهذا القص يكون ﴿بِعِلْمٍ﴾ من الله تعالى الذي لم يغب عنه شيء قط مما فعلوا.

والقَص بمعنى السَرد، أي يُسرَد عليك ما قد عملت. فجاء القَص كناية بالبيان التفصيلي، فمِن خلال القَص يتم سرد التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ثيمة ثيمة، ولذلك جاء: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

فهذا إثبات بأن لاشيء قط يملك أن يخفى عن علم الله.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾يونس٦١.

فاعلم بأن حضور الله هو حضور دائم بالنسبة إليك، ولا يغفل الله تعالى لحظة عنك، مهما غفلتَ عنه.

فهنا تنبيه إلى هذه الحقيقة، حتى تكون يقظاً للحضور الإلهي، ولا تكن في غفلة عنه، لأنك إن غفلت، أو انتبهت، يبقى الحضور كما هو، لكن غفلتك تفسح مجالاً للإكثار من المعاصي ما أمكن، ويقظتك تفسح مجالاً للإقلال من المعاصي ما أمكن.

والغفلة تودي بصاحبها إلى البطش والطغيان والظلم والعِناد والاستعلاء، واليقظة تودي بصاحبها إلى كل ما هو نقيض ذلك.

الباب السادس

مَوازين ومَوازين

﴿٨﴾

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿الوَزْنُ﴾ بذاته هو عفو من الله تعالى، لأنه لولا ﴿الـوَزْنُ﴾ لعوقِبَ الإنسانُ بكل خطيئـة ارتكبها، أما ﴿الوَزْنُ﴾ فـيعني أن الإنسان عنـدما يكون خـيره أكثـر مـن شـره، فإنـه يـدخل الجنة دون أن يُعاقَب بذلك الشر القليل مقارنة بالخير الكثير، وذلك من عفو الله بالإنسان.

﴿والـوَزْنُ﴾- معطـوف علـى ﴿فلَنَقُصَّـنَّ﴾- وضـع الحسـنات مقابـل وضـع السـيّئات ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم الحساب ﴿الحَقُّ﴾ لا زيادة ولا نقصان، سواء بما في رصيدك من الحسنات، أو بما فيه من السيئات.

﴿فمَن﴾ من الناس جميعاً ﴿ثقُلَت﴾ رجحت كفة ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بـالخير ﴿فأوْلَـئِكَ هُـمُ المُفلِحُونَ﴾، لأن هذا الثقل يلغي كل ما هو في كفـة الشـر، كمـا لـو أنـه لم يفعله، وهـذا مـن عفو الله تعالى شأنه، ذلك أن جانب الخير فيك رجح بجانـب الشـر، وخـيرك أكثـر مـن شـرك، وطاعتك أكثر من ذنوبك، وحسناتك أكثر من سيئاتك.

ورحمة الله تعالى غالبـة علـى عقابـه، ﴿فأوْلَـئِكَ هُـمُ المُفلِحُونَ﴾، حيـث ظفـروا بنعـيم الجنة، ونجوا من شقاء النار.

فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ صَفْوَان بْن مُحْرِز قَالَ قَالَ رَجُل لِابْنِ عُمَر : كَيْفَ سَمِعْت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّجْوَى ؟ قَالَ سَمِعْته يَقُول: " يُدْنَى الْمُؤْمِن مِنْ رَبّه يَوْم الْقِيَامَـة حَتَّى يَضَع عَلَيْهِ كَنَفه فَيُقَرِّرهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُول هَلْ تَعْرِف فَيَقُول أَيْ رَبّ أَعْرِف قَالَ فَإِنِّي قَـدْ سَـتَرْتهَا عَلَيْـك فِـي الـدُّنْيَا وَإِنِّـي أَغْفِرهَـا لَـك الْيَـوْم فَيُعْطَـى صَـحِيفَة حَسَـنَاته وَأَمَّـا الْكُفَّـار وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوس الْخَلَائِق هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّه ".

قَالَ حُذَيْفَة: (صَاحِب الْمَوَازِين يَوْم الْقِيَامَة جِبْرِيـل عَلَيْـهِ السَّلَام ، يَقُول اللَّـه تَعَـالَى : يَـا جِبْرِيل زِنْ بَيْنهمْ فَرُدَّ مِنْ بَعْض عَلَى بَعْض.

قَالَ: وَلَيْسَ ثَمَّ ذَهَبٌ وَلَا فِضَّـة، فَإِنْ كَـانَ لِلظَّـالِمِ حَسَـنَات أُخِـذَ مِـنْ حَسَـنَاته فَـرُدَّ عَلَـى الْمَظْلُوم ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَات أُخِذَ مِـنْ سَـيِّئَات الْمَظْلُوم فَتُحْمَل عَلَـى الظَّـالِم ؛ فَيَرْجِـع الرَّجُل وَعَلَيْهِ مِثْل الْجِبَال).

ولعلّك تسأل عمّا يتم وضعه في الميزان، فيجوز أن يكون ذلـك علـى شـكل صـحائف تسـجّل عليهـا الأعمـال، وكـل صـحيفة مكتـوب عليهـا نـوع العمـل وحجمـه، والأمـر شـبيه بـالأوراق النقدية، فكل ورقة لها قيمتها النقدية المتفاوتة عن الأخرى، فهي في مجموعها سجلّات، لكن قيمتها تكمن في فئاتها، فيكون الوزن بحجم القيمة.

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله عز وجل سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فإنه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء"[٢٢] .

يذكر القشيري: (إِذا خَفّتْ حسَنَات الْمُؤمِن أخْرَجَ رَسُول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطَاقَة كَالْأَنْمُلَةِ فيُلْقيها فِي كِفَّة الْمِيزَان الْيُمْنَى الّتِي فِيهَا حَسَناته فتَرْجَح الْحَسَنَات فيَقُول ذَلِكَ الْعَبْد الْمُؤمِن لِلنّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي أنْتَ وَأُمِّي ! مَا أحْسَنَ وَجْهك وَمَا أحْسَنَ خَلْقك فمَنْ أنْتَ ؟ فيَقُول:" أنَا مُحَمَّد نَبِيُّك وَهَذِهِ صَلَوَاتك الّتِي كُنْت تصَلّي عَلَيَّ قَدْ وَفَّيْتك أحْوَج مَا تكُون إِلَيْهَا ").

﴿فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وكلمة ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ تذكّر بالفلاحة، عندما يزرع الفلاّح ويجهد على زرعه، فيعطيه من ماله، وجهده، ووقته، ثم ينعم بنتيجة ذاك البَذل عند الحَصاد. ولا يستوي هذا مع الذي لم يزرع شيئاً، أو مع الذي زرع، لكنه لم يجهد على زرعه، فلا يرى حصاداً يمكن أن يحصده، وينعم به عندما يحصد الفلاّحون المجدّون حصادهم وينعمون به. ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾الأنبياء٤٧ ، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ القارعة٦ - ١١ .

رُوِيَ عَنْ النّبِيّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أنّ اللّه تعَالَى يَقُول يَوْم الْقِيَامَة يَا آدَم أُبْرُزْ إِلَى جَانِب الْكُرْسِيّ عِنْد الْمِيزَان وَانْظُرْ مَا يُرْفع إِلَيْك مِنْ أعْمَال بَنِيك فمَنْ رَجَحَ خَيْره عَلَى

[٢٢] أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل.

شَرّه مِثقَال حَبَّة فلَهُ الْجَنّة وَمَنْ رَجَحَ شَرّه عَلَى خَيْره مِثقَال حَبَّة فلَهُ النّار حَتّى تعْلَم أنّي لَا أعذّب إلّا ظَالِمًا ".

واعلم أن لذلك أيضاً درجات، وهذا ما يشير إليه مبتدأ الآية الكريمة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾.

أي نسبة الحسنات، ونسبة السيئات، فلا يتساوى جميع الذين ثقلت موازين الحسنات لديهم بذلك، فمنهم مَن تكون حسناته أكثر من غيره، وسيئاته أقل من غيره، ومنهم مَن تكون سيئاته أكثر من غيره، وحسناته أقل من غيره، رغم أن الجميع أصبح في الجنة ووقاه الله من عقاب تلك السيئات بعفوه ومغفرته.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ أي أن الجنة درَجات، بحسب ارتفاع نسبة الحسنات، رغم أن الجميع قد رجحت به حسناته وغدا في الجنة، كما أن جهنّم درَكات في الجانب الآخر، بحسب ارتفاع نسبة السيئات، رغم أن الجميع قد رجحت به سيئاته وغدا في النار.

ويمكنك أن تقيس ذلك على الامتحان، فليس كل ناجح يمكن له أن يدخل القسم الذي يريد، بل يدخل القسم الذي تؤهله درجاته له، رغم أن الجميع قد حصل على وثيقة النجاح، وكذلك الذين يدخلون السجن، فليس الجميع في جناح واحد، بل كل يدخل الجناح الملائم بحجم جنايته. لأنه ليس من الحق أن يتساوى المتفوّق بدرجة امتياز، مع الناجح بالكاد، وليس من الحق أن يُوضَع شخص ارتكب مخالفة سير، مع سجناء ارتكبوا جنايات مروعة، رغم أن الجميع مودع في السجن، فذلك معنى قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾، والله أعلم.

﴿٩﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

في الآية السابقة: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، ﴿ثقُلت﴾، موازين الخير على موازين الشر، ورجحت بها، فخفّت بذلك موازين الشر أمام ثقل موازين الخير. والآن تأخذك الآية إلى الجانب الآخر، حيث أولئك الذين ﴿خَفّت﴾ بهم موازين الخير أمام ثقل موازين الشر: ﴿وَمَنْ﴾ من الناس جميعاً ﴿خَفّت﴾ كفة ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات، ورجحت بالسيئات ﴿فَأُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ أي حرموا ﴿أنفسَهُم﴾

دخول الجنة التي أُعِدّت لِمَن ﴿**ثقُلَت مَوَازِينُهُ**﴾ بالخير ، وما استطاعوا أن يقوا ﴿**أنفُسَهُم**﴾ النار التي أعِدّت لِمَن ﴿**خَفّت مَوَازِينُهُ**﴾ بالشر.

﴿**الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾الأنعام١٢ ، ٢٠ .

﴿**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾البقرة١٦.

وما جعلهم يُمنون بهذه الخسارة الفادحة أنهم ﴿**كَانُواْ**﴾ بآيات الله ﴿**يظلِمُون**﴾. يجحدون شرع الله الذي أتت به آياته ويتبعون أهواءهم، وظلمهم إنما هو لأنفسهم، والآن يلقون عذاب ما اقترفوا من ظلم. فاعلم أن لا شيء لاوزن له عند الله سبحانه وتعالى، فحتى الخطوة التي تخطوها وأنتَ تبتغي منها الخير، تكون لك خطوة خير في ميزانك، والخطوة التي تخطوها وأنتَ تبتغي منها الشر، تكون خطوة شر في ميزانك.

أخرج أبو نُعَيْم الحافظ من حديث الأعْمَشِ، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: "ما من عَبْدٍ يخطو خطوةً إِلا يُسألُ عنها ما أرَادَ بها".

فكم من خطوة خطوتها، وأنتَ تجلب الطعام لعيالك، كم خطوة خطوتها وأنت تذهب إلى عملك، وأنت تذهب إلى عبادتك، وأنت تمضي في صلح، وأنت تحمل مساعدة لمحتاج، وأنتَ تعيد مريضاً، وأنتَ تصل رحمك، وأنتَ تجلب حاجة لعيالك، فهذه الخطوات كلها تسجّل لك، كما أن الخطوات النقيضة تسجّل عليك.

جاءت الخسارة في الآية، مقابل الفلاح في الآية السابقة، فهناك فلحوا، وهنا لم يلفحوا.

ما تتعلّمه من ذلك، هو الإكثار من الحسنات ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، فلا تقل بأنّك أدّيتَ ما عليك من فرائض، وهذا كفيل بدخولك الجنة لأنّك أطعتَ الله تعالى فيما فرَضه عليك، وقد سقطت عنك كل الفروض لأنك أدّيتها. لكن هل تضمن أن أحداً لن يأتيك يوم الحساب، ويأخذ منك حسناتك، فتكون كما أنك أدّيتها نيابة عنه لأنّك تجاوزتَ على حقوقه في الدنيا، ولعلّك ترى فوجاً مِن الناس كل واحد يطالبك بما ظلمته به، فلا تملك ما تسدد من الحقوق أمام عدالة الله سوى أن تعطيهم من كفة حسناتك، وشيئاً فشيئاً تخف كفة الحسنات، لتثقل كفة السيّئات، بل لعلّ الحسنات كلها تنفذ أمام كثرة أصحاب الحقوق، فتأخذ من كفة سيئاتهم لتضعها في كفة سيئاتك لتثقل أكثر فأكثر، وعندها

ستدخل النار رغم كل ما أدّيتَ من فرائض، وما قمتَ به من حسنات، فالحذر من الاعتداء على حقوق الناس ولو بكلمة، أو بإشارة، أو بطريقة غير مباشرة.

عـن أبـي هريـرة رضـي الله عنــهُ أن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم قـال:" أتـدرون مـا المفلسُ" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال:" إن المفلـس مـن أمـتي مـن يـأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكـل مـال هـذا، وسـفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسـناتهُ قبـل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ، ثم طُرح في النار"[٢٣] .

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: "لا تحاسـدوا، ولا تناجشـوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عبـاد الله إخوانـا، المسـلم أخـو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا" ويشير إلى صدره ثلاث مرات "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه".

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (دخلت علينـا امـرأة فلمـا ولـت أومـأت بيـدي إنهـا قصيرة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "لقد اغتبتها").

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَـالَ: هَـؤُلاءِ الَّـذِين يَـأْكُلُونَ لُحُـومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا" [٢٤].

وروي عنه صلى الله عليه وسلم:" لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَـا يَسْـتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ".

فلا أحد يكون في غِنى عن الزيادة، لأن لا أحـد يضـمن أن أعمالـه الصـالحة سـتبقى لـه ولا تـذهب إلى غـيره مـن أصـحاب الحقـوق عليـه، فهـذه الزيـادة تنفعـك، فتعطـي منهـا لأصـحاب الحقوق دون أن ترجح كفة سيئاتك بكفة حسناتك.

الأمر الآخر، فإن هذا الإكثار من الحسنات، يمكن أن ينفعك في الطاعات المفروضة عليـك، فإن كان بها نقص، يمكن لها أن تسدّ ذاك الـنقص بمشـيئة الله، ثـم لـو أنـك بـريء الذمـة ولا أحد له شيء عليك، فإن هذه الزيادة ستؤهلك للدرجات الرفيعة من الجنة، وتكون من أولـي المقامات الرفيعة عند الله عز وجل.

---

[٢٣] رواه مسلم ٣٤٧

[٢٤] رواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن جابر وأبي سعيد

واعلم بأن من أبواب الزيادة، أنك عندما لا تملك المال الذي تتوجّب عليه الزكاة، ورغم ذلك تكثر من الصدقات، وتعين المحتاجين بما يقدّرك الله عليه، إن رأيتَ شخصاً وضع أذى على الطريق، ورغم أن لا شيء عليك ممّا ينتج عن هذا الأذى، لكنك تذهب وتميطه عن الطريق، إن رأيتَ سيارة صَدَمت شخصاً، وأنتَ تمضي بسيارتك، ورأيتَ السائق يفرّ هارباً دون أن يسعف المـُصاب، لكنك وقفتَ وأسعفتَ المصاب، وآثرتَ إنقاذ حياة إنسان على أي مصلحة أنتَ ذاهب لتحقيقها، أن تعفو عن شخص متعسّر ديناً، أن تمشي في صلح بين شخصَين متخاصِمَين، أن تلمس للناس أعذاراً، أن ترجح كفة التسامح في

سلوكك على كفة العقاب، أن تكون مبتسماً أكثر مما تكون جهماً، أن تكون متفائلاً أكثر ممّا تكون متشائماً، أن تكون حريصاً ألاّ يفقد الناس الأمل بخيرك مهما تقلّبت بك الأحول، فثمة أناس لايأمل المرء منهم خيراً مهما كثر عندهم الخير، وثمة أناس يأمل المرء منهم خيراً مهما قل عندهم الخير.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ رَجُلاً بعفْوٍ إلاَّ عِزًّا، وَمَا تَواضَعَ أحَدٌ للهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ"[٢٥] .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عفواً عن الناس، فبعد فتح مكة قال لأولئك الذين حاربوه وعادوه بعد أن تمكّن منهم: "يا مَعْشرَ قريشٍ، ما تظنُّونَ أني فاعِلٌ بكُمْ"؟ قالوا: خيراً أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريم، قال: "فإنّي أقُول لكم كما قال يوسفُ لإخوتِه ﴿**لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ**﴾ -يوسف ٩٢- أذْهَبُوا فأنْتم الطُّلَقَاء".

ويروى عن الحسن قوله: (لو أنَّ رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر في أُذني الأخرَى لقبلتُ عذرَه)[٢٦] .

عن علي بن الحسين أنه قال: (إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل، فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة بغير حساب، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: ما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا جهل علينا حلمنا، وإذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيء علينا عفونا. فيقولون: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

---

[٢٥] أخرجه أحمد ٢٣٥/٢(٧٢٠٥) والدارمي(١٦٧٦) ومسلم(٦٦٨٤) والتِّرمِذي(٢٠٢٩) وابن خزيمة(٢٤٣٨).

[٢٦] الآداب الشرعية، ابن مفلح ٣١٩/١.

ثم ينادي مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة بغير حساب، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: ما كان صبركم؟ فيقولون: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرنا عن معاصي الله، فيقولون لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

ثم ينادي فيقول: ليقم جيران الله! فيقوم ناس من الناس، وهم الأقل، فيقال لهم: بم جاورتم الله في داره؟

فيقولون: كنا نتجالس في الله، ونتذاكر في الله، ونتزاور في الله، فيقولون: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

وقال: بئس القوم قوم ختلوا الدنيا بالدين، وبئس القوم قوم عملوا بأعمال يطلبون بها الدنيا)[٢٧] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَجِدُ النَّبِيَّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لا، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ. قَالَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفاً قُدَّامَهُمْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[٢٨] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ")[٢٩] .

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا"فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ"[٣٠] .

فكما تريد أن تحَب، عليكَ أن تحِب، كما تريد أن تستر، عليكَ أن تستر، كما تريد أن يُحسَن الظن بك، عليك أن تحسِن الظن، كما تريد أن تعفا، عليكَ أن تعفو، كما تريد أن

---

[٢٧] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني ١٣٩/٣.

[٢٨] متفق عليه

[٢٩] أخرجه الترمذي وابن ماجه

[٣٠] أخرجه أحمد والترمذي

تعطى، عليكَ أن تعطي، كما تريد أن يُحافَظ على عرضك، عليك أن تحافِظ على الأعـراض، كما تريد أن يُماط الأذى عن دربك، عليكَ أن تميط الأذى عن الدروب.

الباب السابع

تمكين ومعايــش

﴿١٠﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾

مِن مِنّة الله تعالى بالإنسان أنه مكّنه ﴿فِي الأَرْضِ﴾ جعله متمكّناً منها، وخوّله إمكانية التصرّف بها، والتمكّن مقاييس ودرجات، فالمَلَك متمكّن من مُلكه، والأمير مُتمكّن من إمارته، والمُزارع متمكّن من أرضه الزراعية، ومالك العقارات متمكّن من عقاراته، وصاحب البيت متمكّن من بيته، وعلى هذا النحو مكّن الله تعالى الإنسان في الأرض. وعندما تتمكّن من الشيء، فإنك تخبره، وتعرف حيثياته، فأصبح الإنسان من خلال هذا التمكين متمكّناً من عمارة الأرض من خلال الأرض، أي يستخرج منها ما يعمّر به المساكن، وقد استطاع الإنسان أن يستثمر المطر الذي ينزله الله من السماء في عَمار الأرض من خلال هذا التمكين.

﴿وَلَقَدْ﴾ اعلموا بأننا ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾فضّلنا عليكم وجعلناكم تتمكّنون ﴿فِي الأَرْضِ﴾، والتمكين هو سيادة، وملكية، وقوة، فليس بوسع أي من مخلوقات الله التي تعيش ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أن يتمكّن منها بقدر الإنسان، فكل شيء يرضخ لتمكين الإنسان منه، من الحيوان، والنبات، والجماد، فقد مكّنه الله تعالى ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وما يفعله الإنسان من خلال تمكينه ﴿فِي الأَرْضِ﴾، يعجز أن يفعله غيره، فكل هذه المنجزات الهائلة، ما كان للإنسان أن يبلغها، لو لم يمكّنه الله﴿فِي الأَرْضِ﴾. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الأرض التي مكّناكم فيها، صالحة لتعملوا فيها ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾الحجر١٩ . ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ كل أسباب ومقوّمات رَغَد العَيش. فالشمس تشرق عليها، والليل يخيّم عليها، والمطر ينزل إليها، والهواء يتوافر فيها، وتنعمون فيها بتقلّب الفصول، وفيها من نِعَم الله بما لا يمكنكم أن تحصوها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ النحل١٨ . فجاءت كلمة ﴿مَعَايِشَ﴾مفتوحة وغنية، بصيغة الجمع، مفردها (مَعيشة)، وزنها مفعلة، و ﴿مَعَايِشَ﴾ مَفَاعِلُ، والياء أصلية فيها- تضفي إليها غِنى أكثر. والـ﴿مَعَايِشَ﴾ هي مِهَن تمتهنونها، وتحققون معيشتكم من خلالها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ بمعنى: فسحنا لكم فيها أبواب المِهَن حتى تكسبوا من خلال هذه المِهَن وتعيشوا عيشة كريمة.

ومن ذلك (المَعاش)، أي الأجر الذي يقبضه المرء لقاء العمل الذي يبذله، وهو يعيش بهذا المعـــاش.

فقد وسّع الله تعالى على الإنسان بأن جعل الأرض تغتني بما يمكن للإنسان أن يتخذ من حرَف، ويُصبح حِرَفياً ما هراً في حرفته، ومهما عددتَ مِن الحِرَف، فلن تكون قادراً على إحصائها، والحِرَف تتفرّع من بعضها البعض، ويتكامل بعضها ببعض، فمهما كانت حرفتك، فإنّك تحتاج إلى حِرَفيين مساعدين لك، كما أنهم يحتاجون إلى حرفتك حتى تكتمل حِرَفُهم. ومِن خلال هذه الـ﴿مَعَايِشَ﴾أصبح الناس يتواصلون مع بعضهم البعض، ويغتنون من بعضهم البعض، فهذه الـ﴿مَعَايِشَ﴾ هي مَصَالح يلتقي الناس من خلالها، فتدر عليهم المنافع، كلّ بحسب الحِرفة التي يحترفها، وقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتقن الإنسان حرفته، ويطوّر نفسه فيها لأنه كلّما طوّر نفسه في الحرفة، نتج عن ذلك نتاج حَسَن، وعنه: "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه".

أي يكون متقناً للعمل الذي يقوم به، والمتقن لحرفته، يُقدّم نتاجاً جيداً حتى يُعرَف هذا النتاج باسمه، بل يُصبح اسمه علامة مميّزة لتسويق هذا الإنتاج، وليس هذا فحسب، بل أن مجموعة من الحرفيين الماهرين المتقنين لعملهم، في إحدى المدن يجعلون من مدينتهم مدينة معروفة بجودة الإنتاج، ويأتي ذلك على الدول أيضاً، فتكون بضاعة هذه الدولة عالية الجودة، ويقبل الناس عليها مهما غلا ثمنها، في حين تكون بضاعة تلك الدولة منخفضة الجودة، ولا يقبل الناس عليها إلاّ إذا اضطروا إلى ذلك.

واتقان المهنة مِن العِبادة لأن الإنسان المتقن لمهنته، ينفع بها الناس، في حين أن غير المتقن، يلحق الأذى بالناس، فكم مِن طبيب ألحق الأذى بمرضاه بسبب، عدم اتقانه لمهنته، وكم من بناء سقط على سكّانه، وكم مِن سائق تسبب في الحوادث، وكم مِن مدرّس تسبب في فشل تلاميذه، وكم من مفتي أضل الناس بفتواه، وكم من وزير ألحق الخسائر الفادحة بوزارته، وكم من حاكم ألحق الويل بشعبه، والسبب يعود إلى عدم الاتقان. أخرج الطبراني بسنده عن ابن عمر قال: سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: "«إذا كان يَوْمُ القِيَامَةِ دَعَا اللَّه بِعَبْدٍ من عِبَادِهِ، فيوقفه بين يَدَيْهِ، فيسأله عن جَاهِهِ، كما يسأله عن عَمَلِهِ".

فكل ما في هذه الأرض التي مكّنكم الله منها، عَمارٌ في عَمار، الأشجار عامرة بالثمار، والمساحات عامرة بالخضار، والهواء نقي عليل، والشمس تسطع عليها، القمر يهلّ عليها، والطيور تغرّد فيها، وســـــــخّر

لكم أنواع الحيوانات لتتمتعوا بلحومها ومنتوجاتها. وتعقدون علاقات حميمية فيها، تتمتعون بلياقة البدن، وتنعمون بصفاء الذهن، تتلذّذون بالعشرة الزوجية، تكوّنون العائلات، تتقنون المِهَن، ترسخون في العِلم، إن كل شيء فيها جميلٌ في جميل، وعلى أفضل ما يرام، ونظير كل ذلك لايريد الله منكم سوى أن تكونوا صالحين، ولا تكونوا طالحين، أن تكون عاملين، لا أن تكونوا خاملين، أن تحبوا بعضكم بعضاً، لا أن تبغضوا بعضكم بعضاً، أن تشكروا الله على نِعَمه، لا أن تجحدوها، وتتخذوا غيره أولياء لكم، وتشركوا به، وتبطروا، وتبطشوا، وتطغوا، وتكفروا بالله.

ثم اختتِمَت الآية الكريمة بـ:﴿**قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾.

أي نظير كل ذلك، وبدل أن تشكروني كثيراً مع كل نظرة تنظرونها، مع كل خطوة تخطونها، مع كل لقمة تتناولونها، مع كل شربة ماء تشربونها، مع كل ما ترفلون فيه من أسباب نعمتي عليكم، فإن شكركم لي قليل. وهذا بمثابة التنبيه للإنسان، فإن الله تعالى ينبهه كي يدرك هذه الغفلة التي هو فيها، فقد يتحدّث الإنسان في اليوم آلاف الكلمات، ولايكون فيها ذكر الله إلاّ في كلمات معدودة، وقد يأتي ذكر الله على لسانه بشكل تلقائي من ضمن الكلام، دون أن يقصد ذكر الله، أو دون أن يقصد القَسَم بالله، وما إلى ذلك. فذكر الله هو خشوع، وعندما تقول: الله. عليك أن تعيش حضور الله في قلبك، أي أن الله يجعلك تستقيم، فمِنَ الناس مَن يقسم بالله زوراً، ويقسم بالله كذباً وبهتاناً، فاعلم أن ذكر الله لايكون من خلال لفظ حروف اسمه فحسب، بل من خلال ما يحرّك فيك من الخشوع، فعنما تذكر اسم الله، عليك أن تعيش معنى الله فيك، فما يعني الله بالنسبة لك؟ والإجابة تكون من خلال الفعل الذي تبديه بذكرك لله تعاظَمَ شأنه، فشخص يُطلَب منه أن يقسم بالله على ما يقول حتى يؤخذ قوله بعين الاعتبار، تراه يتراجع لأن اسم الله يخيفه، ولأنه يعيش معنى الله في قلبه، فيعترف بالحقيقة، ويكون بذلك قد استقام بفضل ذكر الله. وشخص آخر يُطلب منه ذلك، فيقسم بالله وهو كاذب، لأنه لايعيش معنى الله في قلبه، ولذلك لم يحرّك اسم الله فيه ساكناً، فيكون بذلك قد لبث على اعوجاجه. والإكثار من ذكر الله - لفظاً ومعنى - يجعلك في حالة توازن أكثر، وكلما ذكرت الله كثيراً، وعشتَ معنى الله في جوارحك، جعلك ذلك تستقيم أكثر، وتتجنب أكثر سبل الاعوجاج. فلا ضيق يجعلك تقنط من رحمة الله، ولا سعة تجعلك في غِنى عن رحمة الله.

﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾إبراهيم٧ .

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾النحل١١٢ .

واعلم بأنك مهما شكرتَ الله، فإن فضله عليك أكثر، وكلّما شكرتَ الله أكثر، دنوتَ أكثر من رضوانه، وأن الذين تضيق بهم سبل الحياة، هم أولئك الذين لا يذكرون الله، أو يذكرونه قليلاً، فإن ذِكر الله حصانة كبرى من أشكال اليأس والاكتئاب، وفرَج من كل غَم وكَرب.

فانظر إلى الآية قبل أن تغادرها، واقرأها جملة واحدة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

فكلّما كان شكرك لله أكثر، مكّنك الله ﴿فِي الأَرْضِ﴾أكثر، ووسّع عليك الـ﴿مَعَايِشَ﴾أكثر.

الباب الثامن

الأنا الإبليسية

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾

الآن، وبعد أن عرّفتك الآيات السابقة في السورة على كينونة فكرة العصيان، وإلى ما يمكن للإنسان أن يلقاه وهو يصرّ على عصيان أمر ربه الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب للناس كي يتعرّفوا إليه، ويتبعوا ما شرع لهم، وأنهم سيلقون النفع على قدر ما يتمسّكوا بهذا الشرع، ويلقون الأذى على قدر ما يتجاهلوه.

يُعيدك السياق القرآن إلى المعصية الأولى التي وقعت، وإلى أول مخلوق قال لله عز وجل: لا ! . وكيف كان ردّ الله عليه، وهو - جلّ شأنه - لأول مرة يُقال له: لا، ولأول مرة يُرفض له أمر، وهو أول مخلوق يخرج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، فكيف تولد فكرة العصيان؟ .

تضعك الآيات أمام معصيَتين: الأولى معصية إبليس الذي كان سببها الإنسان، والثانية معصية الإنسان التي تمخضَت عن معصية إبليس.

وإن كانت المعصية الأولى سببها الإنسان، فإن جذورها هي الاستعلاء، أي أن الإنسان قد تسبّب أيضاً في إظهار نزعة الاستكبار لدى إبليس، فقد جعله الإنسان يفصح عن نزعته الاستعلائية هذه، ولسان حال إبليس يقول، استناداً إلى تضخّم حالة الاستعلاء لديه، وامتلائه بمشاعر التكبّر: أنا أعلا منه مرتبة، وأتميّز عنه بأن الله خلقني من نار، وخلقه من طين، فكيف أسجد لِمَن هو دوني، إن ذلك ينال من رفع منزلتي، ويلغي تمييزي عنه، ولا أمتثل لذلك حتى لو كان الأمر صادراً من ربي الذي خلقني.

الآن، ستضع يدك على جوهر فكرة كيف أن الإنسان تولد في مُخيّلته تداعيات فكرة الاستكبار والتمييز حتى يبلغ مرحلة يظلم فيها نفسه، وهو يعتقد بأنه على صواب، لكنه يكتشف في النهاية بأنه كان في وهم كبير، وأنه في حقيقة الأمر كان يحط من قَدر نفسه، لأن طاعة الله هي رفع للقدر وفق كل المقاييس، ومعصيته، هي حَط للقدر وفق كل المقاييس، ذلك أن الله عندما يأمرك بطاعة، إنما يرفع بذلك شأنك عنده، وعندما ينهاك عن معصية، إنما يجتبك بذلك من حَط قدرك عنده، فمن خلال ثنائية الطاعة والعصيان، ترتفع درجات الإنسان عند ربه، أو تتهاوى.

فقد ظلم إبليس نفسه من خلال المعصية، وانتهى إلى الذل والخنوع، وهو يتلقى لعنة الله عليه، ويُطرَد من رحمته التي لايعزّ أي مخلوق إلاّ بها، ولا عزّ للملعون من الله بأي شكل من الأشكال.

يُعيد الله تعالى ذاكرة الإنسان إلى مُنطلَق المعصية الأولى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾خلقنا آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، صورناه على الهيئة والخصائص الإنسانية، ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن تم ذلك، وأصبح أول إنسان واقعاً ملموساً، وحقيقة موجودة: ﴿قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾.

وَرَدَت: ﴿قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ﴾ دون: أمَرنا الملائكة أن ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾، لأنه جلّ شأنه، لو أمَر، لوقع التنفيذ حالاً، ولا مخلوق بمقدرته ألاّ ينفذ أمراً صدر عن الله﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾البقرة١١٧، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾النحل٤٠ .

في حين أن: ﴿قُلْنَا﴾ فيها شيء من فسحة للتحاور، وكلمة ﴿قُلْنَا﴾ من القَول، كما أن أمَرنا من الأمر يتم تنفيذه دون مجال للقول كونه حاسم وقطعي، والتنفيذ يكون طوعاً، أو كرهاً.

فقد سبقت كلمة ﴿قُلْنَا﴾ فعل الأمر ﴿اسْجُدُواْ﴾ أي: لو كان لديكم ما تقولوه قبل الانتقال إلى تنفيذ الأمر، فقولوه.

فإذن: ﴿قُلْنَا﴾، تفسح مجالاً للطرف الآخر السامع الذي وُجّه القول له، وهذا يعني بأن الله كان يعلم ما في مكنونات إبليس من استكبار، ولذلك فسح له المجال ليعبّر عمّا لديه من خلال القول. فـ ﴿قُلْنَا﴾ - قبل فعل الأمر ﴿اسْجُدُواْ﴾- حتى تقولوا ما لديكم قبل تنفيذ فعل الأمر، ثم بعد ذلك نحن نقرّر إن ننقلكم إلى المرحلة الثانية ﴿اسْجُدُواْ﴾، أو نحرمكم منها.

فهم يصغون جيداً إلى القول، ويقبلونه ويرضون به، ثم ينفذوا أمر السجود لآدم الذي خلقناه وصوّرناه كأب وبداية لخَلق جديد.

﴿فَسَجَدُواْ﴾ الملائكة جميعاً وقد انتقلوا إلى مرحلة تنفيذ الأمر، ﴿إِلاَّ﴾ باستثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾ أبى أن ينتقل من القول إلى فعل السجود ويقتدي بالملائكة ويكون مثلهم ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، فقد رأى بأنه أكبر وأرفع شأناً من أن يكون ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ لهذا المخلوق الجديد الذي شاء الله وقدّر أن يخلقه.

فقد اجتاز الملائكة مرحلة القول بالرضا والقبول، ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ حيث آثر أن يبقى عند مرحلة القول.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

﴿قَالَ﴾ تحويل متلقي الـ ﴿قَالَ﴾ من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، بصفته الوحيد الذي لبث عند القول.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي شيء حال بينك وبين السجود لآدم.

وتتجلّى هنا عظمة الله، رغم أنه يعلم ما الذي حال بينه وبين ذلك، لكن حتى يترك له المجال للتعبير عمّا اختلجه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ والقول دقيق جداً أي ثمة ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ ونحن نعلم ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ لكن رغم ذلك قله، بل نجعل ذرية هذا المخلوق كلها تسمعك.

عندئذ ﴿قَالَ﴾إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي أنك تنزل من شأني عندما تطلب مني أن أسجد لِمَن هو دوني.

الكلمة الأولى من الإجابة تشير إلى تضخم الـ ﴿أَنَا﴾ لديه، فـ ﴿أَنَا﴾ بكل ما فيه﴿خَيْرٌ﴾أرفع شأناً وأعلى قدراً ﴿مِّنْهُ﴾.

وكلمة ﴿مِّنْهُ﴾ جاءت تصغيراً للشأن، بمقدار ما جاءت الـ﴿أَنَا﴾ تضخيماً للأنانية الإبليسية فـ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من هذا المخلوق الجديد الذي خلقته، وهو أدنى مني.

والسجود له دلالاته، وكان يمكن لله عز وجل أن يأمر بشيء غير السجود، لكنها حكمة الله في هذا الطلب بالذات، وممّا يشير إليه ذلك أن للإنسان منزلته الرفيعة عند الله تعالى، وأن الملائكة سوف يتلقون أوامر أخرى، ويكلّفون بتكاليف إلهية بشأن الإنسان، ومن لحظة المنطلَق يكون الأمر محسوماً، إمّا بالقبول، أو العصيان.

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ثم يستأنفَ القول عن السبب الذي جعله يعتقد بأنه ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾أن الله خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وخلق الإنسان ﴿مِن طِينٍ﴾.

إذن، نحن أمام نزعة الاستكبار، وما يمكن أن يتفرّع عن هذه النزعة، فإبليس يعلم بأن الله تعالى هو الذي رفع له شأنه، وهو الذي خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وكان يمكن أن يخلقه من مادة أخرى، أو لايخلقه قط، فتضعك الآية أمام تركيبة عُقدة الاستكبار، وما يمكن أن تفعل بمَن يتبعها.

وهنا يمكنك أن ترى مظاهر مفرزات الاستكبار لدى مختلف شرائح الناس في كل زمان ومكان، فقد ترى حاكماً يتشبّث بكرسي الحُكم، وتتعزّز في كوامنه مشاعر بأنّه مميّز عن سائر الناس، وأنّه أرفع شأناً من الجميع، ولا أحد البتة يصلح أن يقتعد كرسي الحكم غيره، لذلك لا يتوانى من تصفية أي شخص يقدم على محاولة ليقتعد ذاك الكرسي، كونه يتحوّل إلى عدو لدود له.

فهو إمّا أن يبقى جالساً على ذاك الكرسي، أو لا يكون، واستناداً إلى هذا المفهوم، يستعدّ أن يسحق ملايين الناس من أبناء شعبه، وأن يحرق مدناً بأكملها في دولته، وكل ذلك يهون عليه على ألاّ يرى غيره يجلس على ذاك الكرسي، وهو حي يُرزَق.

وهذا لايقتصر على الحاكم، بل يأتي إلى أي مسؤول وفق تفاوت درجات المسؤولية، وشتى ما يمكن للمرء أن يفعله في سبيل أن يحافظ على منصبه الذي يشغله.

وترى أشكال الناس الذين يبطرون، ويتعالون على الناس، فيقول أحدهم بأنه ابن فلان ابن فلان، من منظور استعلائي، وترى أحدهم ينفش نفسه، ويمشي متبختراً لأنه يملك مالاً، أو نفوذاً، وإن جلس خلف كرسيه، ودخل عليه صاحب حاجة، لا ينهض احتراماً لدخول إنسان عليه، ولا يردّ عليه السلام، بل قد ينظر إليه بازدراء لأنه تجرأ وألقى عليه السلام، فعليه أن يلزم حدّه، ويعلم بأنه في حضرة مَن هو أرفع منه شأناً، فيقف خائفاً متوسلاً خاضعاً خافضاً الصوت وهو يطلب حاجته.

فالاستكبار يضخّم لديه عقدة الـ﴿أنا﴾ الإبليسية ويحول بينه وبين أن يكون طبيعياً، فيذكر بأن الله قد مَنّ عليه ووضعه في هذا الموضع، وفضّل عليه بأن أوكله على قضاء حاجات الناس.

وهذه هي الحقيقة، لكنه يبطر كما بطر إبليس، ويرى بأنه أكبر شأناً من النهوض لشخص من عامة الناس دخل عليه، أو مصافحته، أو حتى الردّ على سلامه بالمثل، أو بما هو أقل، لأنه يرى أن ذلك ينال من قيمته وشأنه، ويجعله في شيء من المساواة مع ذاك الشخص، ولسان حاله يقول: ﴿أنا خَيرٌ مِّنْهُ﴾ وضعني الله في هذه المرتبة الرفيعة، ووضعه في تلك.

فيكون قد حَكَم بأنه ﴿خَيرٌ مِّنْهُ﴾، فتكون نهايته شبيهة بالنهاية الإبليسية، حيث ينتهي إلى الذل والهوان والخزي.

فترى الناس يشعرون بالفرَج والغبطة وهم يرون ذاك المتكبّر قد أزاحه الله تعالى عن ذاك الموقع الذي كان يتحكّم بالناس من خلاله ويستكبر عليهم، وكان مصدر هم وكرب لهم، فنفّس الله عنهم ذاك الهَم، وفرّج عن ذاك الكرب، وجعل ذاك المتغطرس ينتهي نهاية مذلة.

فاعلم أن ذلك مردّه إلى الاستكبار، وما تعلّمك إياه الآية الكريمة، هو توخّي الحذر من أي شكل، أو أي درجة من درجات الاستكبار، لأنه قد يبدأ صغيراً كشرارة النار، فتتسع رقعتها شيئاً فشيئاً حتى تأكل الأخضر واليابس.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:"ثلاثة يؤتى بهم يوم القيامة: مجاهد، وقارئ، ومتصدق، فيقال للقارئ العالم: في ماذا تعلمت العلم وقرأت القرآن؟ قال: قرأت من أجلك القرآن، وتعلمت من أجلك العلم، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت ليقال قارئ وقد قيل ذلك، فيؤمر به فيسحب على وجهه إلى النار، ويؤتى بالمجاهد فيقال له: فيم جاهدت؟ قال: جاهدت في سبيلك أمرت بالجهاد فجاهدت في سبيلك، قال: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت ولكنك جاهدت ليقال هو جريء وقد قيل ذلك، فيؤمر فيسحب على وجهه إلى النار، ويؤتى بالمتصدق الذي تصدق بالمال فيقال له: فيم تصدقت؟ قال: أمرت بالصدقة في سبيلك فما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ولكنك تصدقت ليقال هو جواد وقد قيل ذلك، فيسحب على وجهه إلى النار"[٣١] .

عندما يضطر المؤمن إلى قول (أنا) فإنه يعقب ذلك بـ:(أعوذ بالله من كلمة أنا) ويعني بذلك الـ﴿أنا﴾ الإبليسية. ولذلك يُستحسَن ألاّ يُكثر المرء من الأنا، إلا في حالات الضرورة، لأن الإكثار من قول (أنا)، من علامات الأنانية، وهذه الأنانية تبدأ صغيرة، حتى تتضخّم وتصبح من أشكال الأنانية الإبليسية، فيصبح المرء عنيداً، متكبراً، متعجرفاً.

فكم من شخص قدّم عملاً صالحاً خفية، وهو يتحاشى أن يقول: (أنا)، فإن كان مجهولاً عند الناس، فهو معلوم عند الله، وما يهم المؤمن بالدرجة الأولى أن يكون عمله معلوماً عند الله، لأنه يبتغي من خلال عمله الصالح، وجه الله تعالى.

---

[٣١] رواه البخاري في الإمارة برقم ٣٥٢٧، والترمذي في الزهد برقم ٢٣٠٤، والنسائي في الجهاد برقم ٣٠٨٦

وكم من فاعل خير مجهول يدعو الناس له بالخير لأنه أعانهم دون أن يعلن شخصيته، وإن كان من حق الإنسان أن يُعلن بأنه فاعل الخير، ولا شيء في ذلك إذا كان عمله خالصاً لوجه الله، ولكن يُخشى في حال التكرار والإكثار، أن يتسرّب إليه شيء من الأنانية الإبليسية، فيُستحسَن أن يخفي الإنسان بعض ما يقوم به من أعمال الخير وقاية من تسرّب كهذا، لأن إبليس يترصّد كل بادرة من الإنسان يمكنه أن ينفذ إليه من خلالها.

وهو من خلال ذلك يريد أن يثبت لله بأن هذا الإنسان لم يكن أهلاً ليسجد له، فيدفع به إلى كل ما هو منحَط ودنيء وقميء، ولكن الله يرفع من شأن الإنسان بشكل عام، والإنسان يثبت لله بأنه أهل للعناية الإلهية الكريمة.

أمّا مَن يَتبع إبليس، فتلك مسألة فردية، وليست إنسانية عامة، فإن إبليس يضع الحِبال في أعناق متبعية، ويقودهم إلى كل ما هو منحط ودنيء وقميء، ولا يُشفى غليله حتى يهين كل خصلة إنسانية حميدة فيهم، وهم يستجيبون، حتى يتجرّدون من كل ما هو إنساني فيهم، ويتحولون إلى كائنات قميئة لا تحتمل، ولا تنتمي إلى القِيَم الإنسانية بصلة، فيحققون لإبليس مراده منهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم، فينتهون نهايات مأساوية مروعة.

فاعلم أن لا شيء يحدّ من نزعة الاستكبار في القلب بقدر التواضع، وأن تكون منحنياً لخدمة الناس، وبقدر ما تكون منحنياً لخدمة الناس، يرفع الله من منزلتك عنده، عن النبي صلى الله عليه وسلم:" من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله".

فعليك أن تعي بأن للناس عليك أكثر ممّا لك عليهم، وأن الله يعزّك على قدر ما تمشي في حوائج الناس، وأن الله يصلح لك شأنك على قدر ما تمشي في إصلاح شؤون غيرك.

وفي الحديث:"لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٣٢] ، وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَـــا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ

كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي

[٣٢] رواه البخاري ومسلم

بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"[٣٣] .

واعلم أن الأمر الذي لايقل أهمية وحذراً عن ذلك هو تقييمك للآخرين وتعاملك معهم من قاعدة هذا التقييم، فلا يكون ذلك من خلال المظاهر، أو الغِنى، أو الوجاهة، بل من خلال التقوى والورع.

فعندما تعطي شخصاً ما، وزناً لايستحقه، فإنك تشجّعه على الاستعلاء، وأول ما يستعلي، عليك، لأنك أو همته بما ليس له، لكنك عندما تعطي شخصاً تقياً وورعاً الوزن الذي يستحقه، فإنك تشجعه على المزيد، وتبارك له ما هو فيه، فيتواضع أكثر، وأول ما يتواضع، معك لأنك بيّنتَ له بأنك عرفت قيمته.

جاء في حديث أبي هريرة في الصحيحَين عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "إنه ليوتى بالعظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة". وعن مناقب عبد الله بن مسعود يقول عليه الصلاة والسلام:" أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحُد".

فالمنزلة عند الله تعالى لاتكون بالمظاهر والهيئات، بل بما يكون الإنسان عليه من تقوى، فالرجل السمين هو بثقل جسده أثقل من عبد الله بن مسعود الذي كان ضعيف البنية كما في ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه ثقيل بجسده، خفيف بعمله، وعبد الله بن مسعود، خفيف بجسده، ثقيل بعمله.

فانظر إلى تضخّم الأنانية التي جعلته يجزم بأنه ﴿خَيْرٌ﴾من الإنسان، وهذه مسألة غاية في الأهمية، فقد بلغت به الأنانية إلى مرحلة الحَسم النهائي وهو يخاطب رب العالمين مبرّراً عصيانه بالاستناد إلى تضخّم أناه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

وبطبيعة الحال، لم يكن إبليس ليعلم أن الله قد خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وخلق آدم ﴿مِن طِينٍ﴾، دون أن يُعلمه الله بذلك. وهنا مَكمَن عقدة الاستعلاء التي يتبعها بعض الناس مع بعضهم البعض، فترى شخصاً

[٣٣] رواه مسلم في صحيحه(٢٦٩٩)

تستفحل به نزعة الأنانية الإبليسية فيقول: أنا أبيض، وهو أسود، أنا ابن أمير، وهو عامل، أنـــا من الأعيان، وهو مـن سـواد النـاس، أنـــا جامعي، وهـو أمـي، أنـــا غـني، وهـو فقـير. وعلى هذا النحو تتضخم لديه الأنا: أنا دون غيري، أنا أفضل من غيري، أنـا أهـم مـن غـيري، فترى تكرار الأنا في حديثه بشكل منفر، واستناداً إلى كل تلك الفوارق، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ودوماً ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هـي إعلاء مـن شـأن الـذات، وإنقـاص مـن شـأن الآخـر، فـترى هـؤلاء يستهزؤون بالآخرين، فتتحوّل مجالسهم إلى مجالس استهزاء، وسخرية، واستصغار للآخـرين، وذلك مـن قاعـدة الامـتلاء بالحقد والضغينة تجاه الأفاضل، فيشعر أحـدهم بـأن أي نجاح للآخرين، هو بمثابة فشل لـه، وأي حـط مـن شـأنه، إنما هـو رفعـة لـه، فينـال بحديثـه مـن مقامات الناس ما أمكنه ذلك، ويسيء إليهم، ويسعى إلى تشويههم وبث الشائعات فـيهم، وهـو بذلك يغذّي نزعة أناه الإبليسية التي لاترتـوي، ولا تقف عنـد حـد حتـى تـودي بصـاحبها، كما أودت بإبليس إلى اللعنة والرجم. قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

أي أن النار خير من الطين، وبذلك فإن تكويني خير من تكوينـه، كما أن لـي الأسـبقية في الخَلق: خلقتني أولاً ﴿مِن نَّارٍ﴾ ثـم خلقتـه ثانيـاً ﴿مِن طِينٍ﴾.واسـتناداً إلى ذلـك، فأنـا لا أتنازل من مقامي لأسجد له.

﴿١٣﴾

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

ولأن حجتـه كانـت باطلـة، فقـد خذلـه الله بعـد أن أدلى بهـا، ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ مـن منزلتك عندنا ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ ليس ﴿لَكَ أَن﴾ تقرر الأفضلية و ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ في منزلتـك التي وضعناك ﴿فِيهَا﴾.

﴿فَاهْبِطْ﴾ جاءت الكلمة دقيقة بقدرما تحتـاج إلى دقـة في اسـتيعابها وأخـذ العِظـة منهـا، فكم من حاكم مستكبر هبط مـن قمّة كرسيه، وأصبح بـين ليلـة وضحاها ذليلاً، طَريـداً، وكـم مــن غـني هــبط مــن أوج غِنــاه بــين ليلــة وضــحاها، وأصــبح مــديوناً مطــارَداً. ﴿فَاهْبِطْ﴾والهبوط يكون من الأعلى إلى الأسفل سواء في المنزلـة، أو في عـين المكان. والهبـوط عادة يأتي بغتة، فهو سقوط مادي ومعنوي معـاً، والـذي يهـبط، يُصـاب في الصـميم، لأنـه لم يعد قادراً على العودة إلى المكان والمكانـة الـتي هـبط منهمـا، فقـد أُخـرِج مِـن المنـزل والمنزلـة التي

كان فيهما عندما تضخمت واستفحلت به الأنا، واستكبر ﴿فاخرُجْ﴾ الفاء هنا عاطفة تقريعية، و﴿فاخرُجْ﴾ جاءت تتويجاً لـ ﴿فاهبطْ﴾.

جاءت كلمة الخروج عقب كلمة الهبوط، ذلك أنه قد هبط هبوطاً ذريعاً من منزلته عند الله تعالى أولاً، أي قد هبط معنوياً ولم يعد يتبوأ المنزلة التي بوأها الله تعالى له. ثم جاء الخروج المادّي ليتوّجه باللعنة، لأنّه ما عاد أهلاً لوجوده المادي في ذاك المكان المقرّب من الله، بعد أن خسر وجوده المعنوي، ثم جعله الله ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، في وجهَيه المادّي والمعنوي.

بعد ﴿فاهبطْ﴾، وبعد ﴿فاخرُجْ﴾: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿فـ﴾- هذه المنزلة التي وضعناكها ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. والصاغر هو الذليل الذي كان عزيزاً، فتلقى الذل والهوان بغتة بسبب تماديه في النعمة، والصاغر يخص المنزلة دون أن يخص السن، وبالنسبة للإنسان يمكن له أن يكون صاغراً مهما تقدّم كان كبير السن، ويمكن له أن يكون عزيزاً حتى لو كان صغير السن، فيجوز للإنسان أن يكون كبيراً في الرفعة حتى لو كان صغير السن، فيكون كبيراً في تسامحه، وتواضعه، وأخلاقه، وقيمه، وسلوكه، وقد لايتمتع كبير السن بهذه الخِصال. ﴿فاخرُجْ﴾يا إبليس، قد جعلناك ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾وغير مسموح﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. فقد جاء الأمر تلو الأمر: ﴿فاهبطْ﴾، ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿فاخرُجْ﴾، ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. لقد تم الحسم بعد أن أذن له الله تعالى أن يفصح عمّا كان يدور في خلده؛ والآية رغم قِصَرِها غنية بالمعاني، مكثفة، غزيرة الدلالات، ويمكن لك أن تستنبط من كلماتها العظة تلو العظة. فكم من شخص أكرمه الله بنعمة الصحة والعافية، لكنه تمادى واستهلك طاقاته فيما يلحق الأذى بنفسه وبالآخرين، فهذه اللياقة البدنية التي متعه الله فيها، استنفذها واستهلكها في الأهواء والمجون حتى بلغ مرحلة أن جعله الله تعالى﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾في صحته وعافيته، فهذا الذي كان يدبّ بخطواته على الأرض، لم يعد قادراً على الوقوف على قدميه، والمشي عدّة خطوات لقضاء حاجة، وهذا الذي كان يقهقه ملء شدقيه وهو يستهزئ بالناس، ويصرخ بأعلى صوته في وجوه الناس، لم يعد قادراً على الحديث إلاّ بنبرات خافتة تخرج من فيه بالكاد، وهذا الذي كان يبطش بيديه وقدميه، فيؤذي الناس، والزرع، والحيوان، لم يعد قادراً على حمل كأس ماء، فقد خارت قواه، وأصبح يرجف كما كان يريد للناس أن يرتجفوا منه، سواء أكانوا من أبنائه، أو أقربائه، أو جواره، أو عمّاله، وما إلى ذلك. فقد طغى، وتطـــوّع

في كتيبة الشيطان، وجعل من نفسه جنداً من جنوده، فغدا من شياطين الإنس الذين ألحقهم الله تعالى بركب إبليس وجعلهم ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. فلا تستوي اليد التي تبني المساكن لتأوي الناس، باليد التي تهدّ المساكن على رؤوس سكّانها، واليد التي تزرع الزهور، باليد التي تزرع الألغام، واليد التي تقدّم الطعام للناس، باليد التي تحتكره وتتسبب في تجويعهم.

الباب التاسع

عداوة الشيطان للإنسان

﴿١٤﴾

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

لعل هذا المطلب يشير إلى أنّه لم يكن يتوقع ذاك الردّ الحاسم الشديد من الله، ﴿قَالَ﴾ بعد أن صُعِقَ بأمر الله: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وإن تأمّلتَ الجملة سترى فيها حجم الغلّ، ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي أمهلني حتى أنتقم من آدم وذريّته، فالإنسان هو الغاية من: ﴿أَنظِرْنِي﴾. لأن علاقته مع الله كانت سليمة، كذلك مع الملائكة، ومع الجن، ولا نعلم أي علاقة غير سليمة له مع أي خلق من خلق الله قبل الإنسان.

ورغم علمه بأن المعصية بذاتها قد تسبّبت له بهذا العقاب الشديد الذي لم يكن يتوقعه، إلاّ أنه لم يبرئ الإنسان ، بل رأى بأنه السبب الذي جعله يعصى، واستناداً إلى ذلك بدأ ينصب عداءه للإنسان.

فإذن لن أدع الإنسان مادام قد تسبّب لي بذلك، ولأنه أصبح ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾فقد تجرّد بذلك من النفع، ولم يعد يملك سوى الأذى، لأن (كل إناء بما فيه ينضح) وهو لم يعد ينضح سوى بالذل والهوان والفسوق.

فكما أن العزيز يملك ما يعز به نفسه ويعز الآخرين، فالذليل يملك الذل الذي يذل به نفسه والآخرين، ولذلك لايُرجى من الشيطان أي نفع، لأنه لايملكه، وقد جرّدته لعنة الله من أي نفع، فهو يودي بتابعيه من ذل إلى ذل، ومن مهانة إلى مهانة، وأقصى ما يمكن أن يبلغه تابع الشيطان، هو أن يُصبح مثله﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾الذليلين المهانين.

﴿١٥﴾

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

لقد أنظره الله تعالى بجملة مختصرة من ثلاث كلمات، والإنظار ليس مفتوحاً بحسب سؤال إبليس ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾، بل إلى وقت يعلمه الله:﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾الحجر٣٧، ٣٨ كذلك ص ٨٠، ٨١، فهو إمهال له إلى يوم يعلمه الله تعالى لحكمته في ذلك.

﴿١٦﴾
﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

كما أنه لم يكن متوقعاً ردّ الله الشديد عليه، فلعلّه لم يكن متوقعاً استجابة الله لسؤاله بعد وقوع العقاب الصارم عليه. فبعد أن وثق بالجواب، ﴿قَالَ﴾ متمادياً: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾. يمكنك أن تستخلص من هاتين الكلمتين بأنه لم يكن له أن يعصى دون مشيئة الله، وأن الله سبحانه وتعالى لو شاء لما أذن له أن يعصى، بل لما أذن لفكرة العصيان أن تختلجه.

وهذا يُتيح لك أن تتعرّف على الله، ذلك أنك تقرأ كتاب الله الذي هو السبيل الأقوى لمعرفة الله، لأنّه يُخاطب عقلك، يُخاطب قلبك، يُخاطب حواسك. وهو يحتوي على تفسير ما تراه من مظاهر الحياة، وما تلمسه في نفسك، وفي الآخرين.

إنه يبث إليك علامات النضوج الكبرى، ويجعلك تكون متوازناً تعيش حالة تصالح متقدّمة مع نفسك.

﴿قَالَ﴾إبليس بعد تلقي الإجابة: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، ﴿فَبِ﴾ الغواية التي﴿أَغْوَيْتَنِي﴾بها: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾لآدم وذريته ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. أي لأتفرّغن ولأجعلن القعود ﴿لَهُمْ﴾شغلي الشاغل حتى أحول بينهم وبين﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

في مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي فاكه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"إنّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم، وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم

المال؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة".

وممّا تعلّمك إياه الآية هنا، أن العصيان لايقترن بالجهل، بل المؤمن العارف بربه أيضاً قد تنزلق به قدماه إلى براثن الخطيئة، وإبليس لعنة الله عليه، من المؤمنين بالله، العارفين له، ورغم ذلك فقد أودى به

الاستكبار إلى أودية المعصية، وأمسى رمزاً للشر، فلا تغرّنك مظاهر التديّن التي يتزيا بها بعض الناس، ولا تغرّنك اللحى الطويلة، والعمامات الضخمة، والجبب الأنيقة، وكثرة الذهاب إلى المساجد، وما إلى ذلك من مظاهر تدينية، فلعلّ ذاك الشخص يكنّ في نفسه غلاً عظيماً تجاه عباد الله، ويثير فيهم انشقاقات كبرى، لعلّه عدو الله، وعدو الإنسان في الجوهر، ومؤمن بالله، ومحب للإنسان في المظهر، ولعلّه اتخذ من هذه المظاهر وسيلة للمعيشة، أو لمنزلة اجتماعية، أو لجاه عند السلطان، وهو شخص منتهك لمحارم الله إذا خلا بها.

عَنْ ثوْبَان عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ: "لأعْلَمَنَّ أقوَامًا مِنْ أمَّتِي يَأتون يَوْمَ القِيَامَةِ بحَسَنَاتٍ أمْثالِ جبَالِ تِهَامَة بيضًا فيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثورًا" قالَ ثوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفهُمْ لنَا، جَلِّهِمْ لنَا أنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قالَ: "أمَا إنَّهُمْ إخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أقوَامٌ إذَا خَلَوْا بمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"[٣٤].

﴿لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ثمة ثلاثة عناصر في هذا الشطر من الآية: ﴿لأقْعُدَنَّ﴾إبليس، ﴿لَهُمْ﴾الإنسان، ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾طريق رضى الله.

﴿لأقْعُدَنَّ﴾، لأكونن سدّاً منيعاً أمامهم حتى أحيدهم عن اتباع ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وفي ذلك بيان بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان على فطرة اتباع صراطه ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وفي الآية اعتراف من إبليس باستقامة صراط الله، ولولا ذلك لما كان لقعوده أي معنى.

---

[٣٤] رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

﴿١٧﴾

﴿ثمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

فهل سيلبث قاعداً على صراط الله﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، لمجرّد القعود والتفرّج على الناس يمضون بجانبه؟ جاء حرف العطف بشكل ترتيبي في مبتدأ الآية التي يستأنف فيها قوله: ﴿ثمَّ﴾ - بعد قعودي ﴿لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾- ﴿لآتِيَنَّهُم﴾ هو الذي يأتيهم، وليس هم الذين يأتوه.

وهذا يأتي على شياطين الإنس أيضاً الذين جندوا أنفسهم في كتيبة إبليس، فهم يذهبون إلى المستقيمين حيثما يكونون كي يحرّفوهم، لأن الإنسان المستقيم لا ينحرف من تلقاء نفسه، فلابدّ من عوامل تؤدّي به إلى ذلك، وإبليس إن بقي في موضعه، لا أحد سيأتيه، وبالتالي سيلبث منعزلاً، ولكنّه يأتي إلى الناس في أماكن أعمالهم الصالحة كي يوسوس لهم، ويفسد عليهم ما هم به من صلاح من خلال الإغواء والاستدراج والتزيين، فاعلم بأن الاستدراجات **الكبرى إلى أخطاء كبرى،** تبدأ بوسوسة صغيرة، واستدراج صغير، وخطأ صغير، والعارف يتحكّم بالصغائر تلافياً من بلوغ الكبائر ، لكن هذا لايعني أن الذي يبلغ الكبائر يعجز أن يعود عنها، بل أن الله سبحانه وتعالى مكّن الإنسان من العودة إلى صراطه﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾مهما عظمت به الكبائر، ففي أي لحظة إن عزم على العودة والتوبة، فإنه يجد أبواب الرحمة والمغفرة مفتوحة له بالغاً ما بلغت ذنوبه وكبائره حتى لو كانت كزبد البحر.

إذن سيأتيهم إبليس لَعَنَه الله﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، وهنا تكمن نقطة الحذر، فرجل وامرأة يتوافقان ويتحابان وينويان الزواج، لكن

إبليس يقعد لهما في صراط الزواج الشرعي، فيوسوس لهما ويزيّن لهما ما هو دون ذلك، وعندما يقع بينهما ما لايجوز له أن يقع إلاّ بإتمام عقد الزواج، يدفعان الثمن ويخسر أحدهما الآخر، وربما يكون ذلك سبباً لفشلهما لتكوين عائلة، فتشكّل تلك الخطيئة عقدة عند الرجل تجاه النساء، وعقدة عند المرأة تجاه الرجال، ولعلّ ذلك يجعلهما يستمرّا في الانحراف عن سويّة العلاقة التي جعلها الله تعالى شأنه، بين الرجل والمرأة.

وهنا مَكمَن الاختبار في قوّة الشخصية، أو هشاشتها سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة، فإن كانت شخصيتهما قوية، سيستأنفا صراط الزواج الشرعي المستقيم، وإن اعترضهما الشيطان، سيستعيذان بالله منه ويكملا.

لكن إذا كانت شخصيتهما هشّة، سيستدرجهما الشيطان من خلال تلك الهشاشة حتى يوقعهما فيما لا يُحمَد عقباه. والأمر بالنسبة لسائر المستجدّات والعلاقات في عِمارة الحياة، فيُصاب الإنسان بأزمات مالية، أو صحّية، أو اجتماعية، فيعتبر قوي الشخصيّة نفسه في حالة اختبار، ويصبر، في حين يستسلم هش الشخصية ويتخذ من ذلك ذريعة لمزيد من المعاصي، كما يتخذ الأول ذلك ذريعة لمزيد من الطاعات.

والإنسان يدرّب نفسه على الصبر في سائر ما يلقاه، ولعلّي هنا أضرب مثلاً في كيفية تدريب النفس على الصبر من خلال موقف كان قد حصل مع علي بن أبي طالب، عندما جاءه ضيوف إلى بيته، فنادى خادمه كي يأتي ويقدّم لهم ضيافة، فلم يرد الخادم الذي كان في غرفة المدخل، ثم ناداه كرة أخرى فلم يرد، عندئذ نهض علي واتجه إليه، فرآه مستلقياً على ظهره عاقداً ساقاً على ساق، ويُغنّي كما لو أن علياً لم يدخل! فقال له: يا غلام ألم تسمعني؟ فقال: بل سمعتك من أول مرة يا سيدي قال: ولِمَ لم تستجب ؟!

قال، وهو ما يزال في وضعه: لأنني أمِنتُ غضبك.

عاد علي إلى ضيوفه وأخبرهم بما فعله الغلام، فاقترحوا عليه أن يصرفه ويستبدله بغلام آخر، فقال علي: لا. قالوا: لِمَ يا أمير المؤمنين قال: أتعلّم عليه الصبر.

فالإنسان يحتاج أن يدرّب نفسه على الصبر، وكظم الغيظ ممّا يحيط به، وعليه أن يتخذ من ذلك الوسيلة، وكان بمقدور علي رضي الله عنه أن يصرف الخادم ويستبدله، لكنه أراد أن يختبر طاقات الصبر في نفسه من خلال هذا الخادم للصبر على ما هو أكبر.

لذلك يأتي الصبر لينظّم للإنسان سبيل مقومات الحياة، فيدرّب نفسه على الانسجام مع مختلف الظروف الحياتية التي تتبدّل عليه، تبدّل فصول السنة، فيحتمل أن يبرد، ويحتمل أن يعرق، يحتمل غبار العواصف، ويحتمل شوكة وردة الربيع.

لكن الذي يفتقد الصبر، ينهزم أمام أول امتحان، وقد رأينا ذلك لدى بعض أهل الثروة عند حلول بعض الأزمات الاقتصادية عليهم، حيث بدأنا نرى ألوانا من الانتحار لدى بعض الأباطرة، والأثرياء، وأن البعض بدأ يعلن إفلاسه، ثم يبيع حتى البيت الذي يسكنه بعد بيعه لِما كان يمتلك من عقارات، ومتاجر،

وبضاعة، وبات لايجد حتى الأجرة الشهرية لبيت يسكنه، وليت الأمر انتهى إلى ذلك، بل بات يرزح تحت ثقل الديون المتراكمة عليه خلال تعرّضه للخسارة، حيث بات يتوارى عن الأنظار، ويتهرّب من الرد على الهواتف، بل ويختبئ في البيت عندما يطرق عليه الدائنون الباب، فلا يجسر على إظهار نفسه طالباً من أهله أن يقولوا بأنه ليس في البيت.

إذن، تحوّلت حياته من النجومية إلى الظلام، ومن النعيم إلى الجحيم، ومن العلاقات الاجتماعية، إلى العزلة، ومن استبدال سيارة كل ستة أشهر إلى المشي على القدمين في مسافات طويلة لدى الاضطرار للخروج، بيد أن ذلك لم يرق للبعض، فإذا نظرنا إلى سِيَر هؤلاء، نرى بأن (حساسيتهم) لم تظهر بسبب الأزمة التي أصابت عموم الناس، ولكن عندما دنا الأمر إلى أموالهم الشخصية، ظهرت حساسيتهم المفرطة بغتة، فأقدموا على الانتحار استنكارا لِما أصاب ممتلكاتهم، لأنهم لم يتخيلوا أن يعيشوا كبقية الفقراء من أبناء جلدتهم، بسبب ما في قلوبهم من استكبار واستعلاء، وإن نظرتَ إلى هؤلاء، سترى أسوأ أشكال الجشع في سِيَرهم، من ابتزاز، واحتكار، ونفاق، ورياء، ومكر، وتجاوز للقيم الانسانية، فكان من الطبيعي أن يقفوا إزاء الحقيقة المروعة، حقيقة بلوغ قمة النرجسية السلبية، فهم لم يعوّدوا أنفسهم على تذوّق متعة العطاء، بل عودوا أنفسهم على تذوّق متعة الأخذ فحسب.

لذلك فإن الثقافة تقوم بعملية تهذيب للثروة، فترى أهل النضج من الأثرياء يعيشون حالة انضباط وتوازن، ثم أنهم دوماً يتركون شيئاً من ثرواتهم للاحتياط كما أن لاوجود له، فإن طرأ طارئ، أغناهم هذا الاحتياط عن سؤال اللئيم، وحَفِظَ لهم ماءَ الوجه، بيدَ أن الثروة مع الجهلِ تجعل من الثري لا أنه يكتفي باستثمار جميع ما لديه من أموال فقط، بل يستدين ربما بقدر ما يملك كي يوسّع في استثماراته، لذلك عندما تأتي الخسارة، فإنها لاتكتفي بأن تحيله مفلساً فحسب، بل يرزح تحت وطأة الديون التي لن يتخيّل سدادها بأي

شكل من الأشكال بعد الذي وقع معه، كونها أرقام مرعبة، ولذلك يَقدِم هذا الشخص على الانتحار، أو يستسلم لحالة انفعال تودي بحياته، لأنه لا يستطيع أن يتحكّم بحالته النفسية، فهو لم يدرّب نفسه يوماً على الانسجام مع مختلف الأحوال.

فإذن نرى أن بعض هؤلاء لا يتعلّم الصبر حتى من الصيام، لأنه لا يطيق أن يجوع أياماً، فكيف يجوع وهو يمتلك كل هذه الخيرات، فتراه لا يصوم فقط حتى لا يجوع عدّة ساعات، ولا يتقصّد أن يبقى عدة أيام دون تدفئة في الشتاء، أو يتقصد أن يبقى هاتفه مفصولاً دون رصيد، بل تراه قبل أن ينفذ الوقود يأتي

بحاجة سنتين قادمتين، وقبل أن ينتهي رصيد الهاتف، يأتي بأضعاف مضاعفة، ولا يحتمل شخصاً يخالفه الرأي، ولا يدرّب نفسه على كظم الغيظ عندما يواجه استفزازاً من شخص، وقس ذلك على سائر ألوان المعيشة وعندما يأتي الحديث عن القراءة ، فهم يقولون بأنهم لا يمتلكون وقتاً للقراءة، والحقيقة فإنهم لا يؤمنون بجدوى القراءة، وأن القراءة تهذّب لهم سبيل حياة حرة كريمة، ممتلئة، فهؤلاء فقراء القراءة على قدر ما هم أغنياء المال، وعندما أزفت الآزفة، لم يجدوا القراءة التي تحصّنهم، القراءة التي لا تذهب هباء الريح، وتبقى وفية لصاحبها، عندما تذهب الثروة هباء الريح، ولاتكون وفية لصاحبها.

﴿ثمّ لآتِيَنّهم مّن بَيْنِ أيْديهِمْ﴾، أي مِمّا هم فيه حالاً، وهو الشيء الذي يكون بين يديك، وتكون قيد الانشغال به، فيأتي ذلك على العامل في عمله، والصانع في مصنعه، والتاجر في متجره، والمصلّي في صلاته، والمزكّي في زكاته، والحاج في حجه، والصائم في صيامه، والنائم في نومه، والمستيقظ في يقظته، والمتصدّق في صدقته، والزوجَين في عشرتهما الزوجية. فالشيطان يكون دائم السعي لينفذ إليك لحظة بلحظة، والمؤمن القوي يزداد ثباتاً على مبادئه وقِيَمه، كما أن المؤمن الواهن يزداد اضراباً وانحرافاً. والفراغ أيضاً يكون مِمّا ﴿بَيْنِ﴾ يديك، فأحياناً لايكون لديك شيء تفعله لأسباب ما، مثل حدوث أمر طارئ أدّى إلى توقفك عن العمل، أو التقاعد، أو ما شابه، فتكون في حالة فراغ، فيستغل الشيطان ذلك لينفذ إلى ثنايا فراغك، ويبث الوساوس تلو الوساوس إليك حتى لا يدعك في صفاء فراغك، فلا تنهض إلاّ وقد ثقل رأسك بأفكار لامعنى لها، فيكون الشيطان قد أرهقك، وعلى هذا النحو، كلما استجبت له، بثّ إليك المزيد حتى تبلغ مرحلة متقدّمة من الشّتات الذهني، والاضطراب النفسي، فتهذي وتهلوس، وهذا ما يفضي بك إلى داء في عَصَب المخيّلة، فتمسي مخيّلتك عليلة، فتصدر الهَذَيان، والهلوسات، والتكهّنات، فترى أقرب الناس يعبّرون

عن استيائهم مِمّا ألتَ إليه، وأنّهم ما عادوا قادرين على احتمال ما يصدر عنك من تصرّفات وأقوال غير مسؤولة، بل حتى أنت يعتريك إحساس بأنك لم تعد قادراً على احتمال نفسك، فتستفحل بك الوساوس الشيطانية وتفتك بك.

وإلى جانب ذلك، فإن الإنسان المؤمن القوي السوي، يغتنم هذا الفراغ ليستمتع بكل لحظة من لحظاته، يحقق ساعات من الاسترخاء لبدنه، يصطحب عائلته إلى نزهات ورحلات، يرفّه نفسه ويرفّه عائلته، يستمع إلى أشياء نافعة، ويستمتع بالاستماع إليها، يمارس الرياضة، يضع لنفسه برنامجاً يغتنم فيه أوقات الفراغ، فترى عائلته تصبح أكثر قرباً وأكثر محبة له، وتره مشرقاً حيوياً. ذلك أنه تجاوز كل وسوسة أراد

الشيطان أن يبثها إليه في فراغه، فلم تجسر إحداها أن تحرّك لديه ساكناً، لأنه يخبر أن الاستجابة إلى وسوسة واحدة، ستجرّ إليه أختها، وهكذا دواليك، فلا يأخذ شيئاً من ذلك على محمل الجد، ويمضي تاركاً الوساوس تتلاشى كما لو أنها خيوط دخان، فينفث فيها، فتتلاشى لأنه يدرك بأنه لو دنا منها واستنشقها، سوف يسعل، ومع التكرار، سوف يُصاب بالتهاب في مجاري التنفس، وما إلى ذلك ممّا يعكّر على المرء طيب الحياة وإشراقتها في النفس، كلّما صَفَت مخيَلة هذا، تعكّرت مخيلة ذاك، كلّما استكانت نفس هذا، اضطربَت نفس ذاك، كلّما أشرَقَت الحياة في هذا، أظلَمَت في ذاك، كلّما اتسَعَت الأرض بهذا، ضاقت بذاك. ومن تفرّعات ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، النوم أيضاً، فالشيطان ينفذ إليك حتى في نومك، فأنتَ الآن نائم، لكنه لايدعك في نومك فينفذ إليك في نومك، فيريك أحلاماً إبليسية، يمكن لها أن تكون سبباً إلى ما يجلب عليك الكوارث إذا اتبعتها عند الاستيقاظ، فعندما تستيقظ، يسعى الشيطان إلى تذكيرك بها، لتبني عليها التكهّنات والظنون. فاعلم أن ذلك كله يكون للشخص الضعيف في بنيته الإيمانية، في بنيته الثقافية، في بنيته المعرفية. فيجوز تقوية ذلك بالإكثار من الاستعاذة، والاستغفار، والطاعة، والإقبال على القراءة الغنيّة المتنوعة، فتقرأ القرآن، والحديث، وقصص الأنبياء، وكتب التفسير، وسِيَر الصالحين، والفقه، والآداب الإنسانية، وكل ما يمكن أن يزيد شخصيتك قوة، ويزيدك نضجاً وانفتاحاً واستنارة ومعرفة. فيمكنك اختيار ما تقرأ بعناية، لأن القراءة غير المنتقاة بحسب ما يتناسب مع تركيبتك، ستبعث إليك الملل، فلا تجسر على تكملة القراءة، لأن الكتاب الذي اخترته، لايتناسب مع بنيتك الذوقية؛ فإن رأيتَ حاجتك إلى فهم بعض المعاني في القرآن، يمكن أن تختار التفسير الأقرب إليك، الذي تراك تتفاعل وتنسجم مع محتواه، فتستكمل بتشويق،

وأنت تتزوّد منه بمعارف لم تكن تعلمها مـن قبـل في القـرآن، فالتفسير هـو عمليـة تيسير لفهم القرآن واستيعابه، فيكون دليلاً إلى فهم معاني القرآن والتزوّد بنوره وهداه.

والإنسان لايقرأ التفسير إلاّ إذا وجد حاجته إلى استيعاب بعض المعـاني الـتي يجهلها فيمـا يقرأ من آيات، فيستعين بالمفسّر الذي يستخرج له المعاني من ثنايا حروف الكلمات، فيرتقـي قارئ القرآن من قـارئ لظـاهر الكلمـات، إلى مسـتوعب لجوهرهـا، ومتـدبّر لمعانيهـا، وهـذا مـا يحيل القراءة بالنسبة إليه إلى سلوك وعَمَـل، فعنـدما يجهـل معنـى آيـة، فعليـه أن يسـأل، لأن القراءة بذاتها ليست الهدف من القرآن، بل الفهم مِمّا يقرأ.

ولذلك نـرى أن المشتغل في علـوم القـرآن عليـه أن يكـون مواكبـاً للمنجـز البشـري في شـتى الميادين، ومن مختلف العصور، فيكون قارئاً ماهراً لأجناس العلوم والآداب والفنـون والمعـارف، وما إلى ذلك من مصادر الثقافة البشرية؛ لأن ذلك يكـون معينـاً لـه في فهـم تركيبـة الـنفس البشرية التي يخاطبها القرآن، فعليه أن يتذوّق القراءة، ويستمتع بها، ويستأنس بها، ويمضي ساعات طويلة في قراءة الكتب، ويجمع دوماً ما بين التراث والمعاصرة، فيكون مواكباً للجديـد، ويكون منفتحاً على أشكال الفنون، والتقنيات الحديثة، وكما أنه يمضي في الأسواق المزدحمـة بالناس، يمضي في حضـن الطبيعـة، وكمـا أنـه يصعد الحـافلات، يصعد الطـائرات، وكمـا أنـه يصـعد الطـائرات، يصـعد المراكـب البحريـة، وكمـا أنـه يمضـي في القـرى النائيـة، يمضـي في العواصم الكبرى، عليه أن يستخدم حتى تقنيات المطبخ الحديثـة في مطـبخ بيتـه، يسـتخدم تقنيات التواصل الاجتماعي بنفسه، فيعيش تفاصيل منجزات عصره ويحتك بهـا ويتفاعـل معها؛ ولا يكتفي أن يقود سيارة، أو يأخذه السائق إلى حيث يشاء، بل عليه أن يقود الدراجة النارية، والهوائيـة في الأسـواق، عليـه أن يركـب الخيـل والجمـل والحمـــار في أمـاكن مناسـبة لـذلك، عليـه أن يجلـس علـى الموائـد العـامرة، كمـا يجلـس علـى الموائـد المتواضـعة، وتكـون صداقاته وعلاقاته الاجتماعية مع مختلف شرائح ومستويات النـاس، فيـدعوهم إلى زيارتـه، ويستجيب لدعواتهم، ولعلّ التقصير في هذا التواصل الحي مع صميم تفاصـيل الواقـع يـؤدّي به إلى شيء من تكرار ما قد قيل، فهو لم يقرأ سوى ما قد قيل منذ مئـات السـنين، ويجهـل التعامل مع تقنيات عصره، ولعلّ المرء يرثى لحال مثل هـذا الشـخص عنـد اللقـاء بـه، كونـه يعيش خارج عصره، ولا تشم منه رائحة العصر الذي يعيشـه، فهـو قليـل المطالعـة، مكتبتـه

تراثية بامتياز، منعزل، لايعلم شيئاً عن التقنيات المنزلية الحديثة، ولعلّه يفشل في سلق بيضة، ويمكن أن يكون لديه برنامج أسبوعي يظهر فيه في الأسبوع نصف ساعة في قناة ما، ويكون التسجيل أيضاً في بيته حتى لايخرج منه، فيعيش حالة من البرود الروحي، والجمود الفكري حتى ترى علامات اليأس بادية على سحنته، فحتى البسمة لاتليق به لأنها تصرخ في وجهه وتقول بأنها مصطنعة وليست حقيقية، وكلّما كثرت أعداد هؤلاء، أسهموا في عملية تراجع المجتمع إلى الوراء، وجعل شرذمة بين الناس وبين الإسلام، فيعطون صورة سلبية عن الإسلام كما لو أن القرآن كان يخاطب زمناً ما ضياً، ولا مكان له في منجزات الحاضر. لذلك فإن التواصل مع مستجدّات العصر يُعدّ من الضرورات الأساسية للمنشغل في علوم القرآن.

فمن الطبيعي أن تكون أفكاره خارجة عن عصره، وبالتالي لاتخاطب أبناء عصره، بل تخاطب أناساً من الماضي لاعلم لهم بكل أشكال وألوان الحداثة التي يعيشها الناس في العصر الراهن.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾. يجوز أن يكون الخلف هو العمل المُنجَز سابقاً، فحتى ما خيَّبتَ قعود الشيطان لك به، وما أنجزته من أعمال صالحة، فإنه يبقى ساعياً بخيبته لتشكيكك فيها، فيبث فيك الشك نحوها، كما يبثه في العمل الذي هو بين يديك وأنت مُباشر فيه الآن، لأن ما مضى هو تأسيس لِما هو الآن، وأنت تستمدّ ثباتك الآن من جدوى ما قمتَ به من قبل، فأنتَ مستكمل للمضيء على الصراط المستقيم، وكل خطوة تخطوها في هذا الصراط، تترك فيها صلاحاً، فإن نظرتَ خلفك، رأيتَ بساتيناً من زهو وأشجار الصلاح التي قدّمتها في طريقك نحو ربك، كما أن الماضي على صراط الانحراف، يكون قد ترك خلفه أودية من أشواك الفساد، فمجرّد الشك يجعله يعدل عن انحرافه، ويتجه من الصراط الملتوي إلى الصراط﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، كما أن مجرّد الشك يجعلك تنحرف عن الصراط ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾، وتتبع الصراط الملتوي، فيلبث الشيطان يوسوس للصالح بأن كل ما فعله من صلاح لم ينفعه بشيء، وأن بقاءه على الاستقامة كمَن يسبح ضد التيّار، في حين أن الذين يتبعون المنحرفات، يجنون منافع كثيرة، وما شابه من وساوس من شأنها أن تشكك الصالح في ماضيه، فتجعله يتبرأ منه ويمضي في ركب العصاة. وقد يستجيب بعض الناس لمثل هذه التداعيات الشيطانية، فتراهم ينقلبون إلى الضد، بين ليلة وضحاها، ويتحوّلون إلى فسَقة

بعد تاريخ من العفاف. لذلك فإن العزلة غير محمودة، وأهل الصلاح يتلاقون مع بعضهم البعض، ويؤازرون بعضهم البعض، ويتكاتفون مع بعضهم البعض، وإن بدا سلوك مريب من أحدهم، لايتخلّون عنه، ويسعون إلى إصلاحه، لأن هناك مَن ينتظر ليستدرجه إلى المزيد، وإن حلّت محنة على أحدهم، يتعاونون في مساعدته. يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" مَثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إِذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى"[٣٥] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٣٦] .

فالمؤمن الحق الذي يريد لنفسه الخير، يريده للناس جميعاًن لأن الإيمان الحق ينزع الأنانية من نفس المؤمن.

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾. الذين يعملون ﴿وَعَن﴾شمالك فيشكّك في أعمالهم الصالحة التي يقدّمونها، والشيطان يرمي من ذلك بث مشاعر اللاثقة بين الناس، وإشاعة مظاهر التشكيك فيهم، فحتى الذي يصنع بك معروفاً، يقذف الشيطان إليك وسوسة لتسيء الظن بصَنيعه الذي صنعه معك، وحتى الذي تصنع معه معروفاً، يقذف الشيطان إليه وسوسة ليسيء الظن بصَنيعك الذي صنعته معه. فتبهّك الآية الكريمة إلى أهمية سلوك حسن الظن في حياتك، وأن تلتمس للآخرين أعذاراً مهما رأيتَ فيهم مِن مؤاخذات، وألاّ تجحد ما صنعه الآخرون معك من معروف، وأن تقرّ لهم بهذا الحق وهذا الفضل حتى لو بينك وبين نفسك.

فهو معروف له عند الله، وسوء ظنك لاينال شيئاً من ذاك المعروف، لكنك تثبت بأنك لستَ أهلاً لتحسن الظن بذاك المعروف الذي ساقه الله لك عن طريق ذاك الشخص، فيعاقبك الله عقاب تأديب وتحذير بما يشاء من ضيق يد، أو سقام، أو حرمان من مزايا اجتماعية، ذلك حتى تكون حريصاً على مـــالك، على صحتك، على زوجـــك، على أبنـــائك، على أقربائك، على جوارك، على صداقاتك، على مهنتك، على سوية علاقاتك الاجتماعية، فاعلم أن حسن الظن من علامات تقوية الإيمان، وأن سوء الظن من علامات اتباع الشيطان،

[٣٥] أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير

[٣٦] رواه البخاري ومسلم

وأن حسن الظن انفتاح، وسوء الظن انغلاق، وأن حسن الظن صَفاء، وسوء الظن شَتات، وأن حسن الظن يجعل منك حَسَناً، وسوء الظن يجعل منك سيئاً. قال:﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾. ولم يقل (من فوقهم). وذلك أمر غاية في الأهميّة يمكنك أن تستنتج منه بأن الذي تكون علاقته بالله قوية، يعجز الشيطان أن يحول بينه وبين صلب هذه العلاقة: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾الحجر٤٠، ص ٨٣ . كما أنه لايستطيع أن يحول بين الإنسان وبين رحمة الله التي تأتيه من فوق، أو بين أن ترتفع الأعمال الصالحة إلى السماء، فالعلاقة بين العبد المخلص، وربه، هي علاقة نقية صفية، لا يقوى الشيطان عليها، كما أنه لايقوى على منع نزول رحمة الله إلى الإنسان بصفة عامة. قال في نهاية الآية: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. بعد أن أفعل بهم ما أفعل، وأوقع بهم ما أوقع. وهذا يقع بالفعل، لكن يبقى الاستثناء، ومن ذلك :﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾سبأ ٢٠ ، ٢١ .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الاستعاذة بما روى البزار بإسناد حسن عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: "اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي".

وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد صححه الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي". قال وكيع: ("من تحتي" يعني الخسف).

﴿١٨﴾

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وهنا قد يتبادر سؤال إلى الذهن، فإن كان إبليس من الجن، فما الذي جعله يعيش في الجنة مع الملائكة، بل أنه يُصبح من الملائكة: ﴿قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾، فإن لم يكن إبليس من الملائكة، ما شمله القول، و ﴿إِلاَّ﴾ التي استثنته من الاستجابة،

أثبتت بأنه من الملائكة، لو أنه استجاب، لكان ذلك استجابة لكونه من الملائكة الذي وُجّه إليهم القَول.

فـ ﴿إلاَّ﴾ استثنته مِن عموم الذين توجّه القول لهم، واستجابوا، ثم أن الملائكة خلقهم الله من نور، وإبليس خلقه الله من نار كما خلق سائر الجن، فكيف يكون جنّياً وبذات الوقت ملاكاً ؟! والجن يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويموتون كما الأمر بالنسبة للإنسان، وطبيعة خَلق الملائكة تختلف عن ذلك.

فيُحتمَل - والله أعلم - أن الله سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء لأنه كان كثير الصلاح والعبادة، فأكرمه وجعله (مع) الملائكة يقوم بما يقومون به، ولكنه لم يكن من أصل الملائكة، بل﴿كَانَ مِنَ﴾ أصل﴿الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾الكهف٥٠ .

وعملية الرفع إلى الجنة أعطَته مزايا جديدة لايتمتع بها سوى الملائكة، وبذات الوقت، جَنبَته ما يصيب عموم الجن. وهي مسألة شبيهة بشخص من إحدى بلاد الشرق، ذهب ليعيش في إحدى بلاد الغرب، فأكرمه ذاك البلد بأن منحه جنسيّته، فبمقتضى حصوله على جنسية ذاك البلد، يكون له ما له، وعليه ما عليه مثل سائر مواطني ذاك البلد، كونه بات يتمتع بالجنسية التي يتمتع بها مواطنو البلد جميعاً. لكنها في ذات الوقت جنسية مُكتسَبة، وليست أصلية، لأنّه ينتمي إلى أصل آخر مختلف عن سكّان البلد الأصليين. فصفة المَلاك هي صفة مكتسبة، وليسَت أصلية بالنسبة لإبليس الذي ينتمي إلى جذور جنّية، وينحدر منها، فعندما عصى، أعاده الله إلى أصله السابق، وهذا بمثابة إسقاط تلك الصفة التكريمية عنه، التي كان يتمتع بها قبل العصيان، أي قبل وقوع فعل ﴿إلاَّ﴾ الاستثنائية، فقبل ذلك: ﴿قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾، وإبليس من ضمن الملائكة الذين جاء عليهم القول، لكنّه عندما انحَرَف عمّا أكرمه الله به، واستكبَر، ولم يقدّر المنزلة التي بوأه الله بها، جاءت﴿إلاَّ﴾ الإلهية القاصمة لتعيده إلى أصله، واعتباراً من ذلك لم يعد إبليس مشمولاً بأي أمرٍ يوجّهه الله إلى عموم الملائكة، فقد أهبطه الله من تلك المنزلة التكريمية، كما أخرجه من الجنة ﴿مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾، لكونه أثبت بأنّه ليس أهلاً لها.

والأمر يكون شبيهاً بالنسبة لذاك الشخص الذي كَرّمه البَلَد ومنحه جنسيته، وجعله يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها مواطنوه الأصلاء، بَيد أنّه خالَفَ الأوامر، ولم يقم بواجباته نَظير تلك الحقوق التي أُعطيَت له، فيُسقِط ذاك البلد جنسيّته عنه، كما الأمر بالنسبة لـ

﴿فَاهْبِطْ﴾، أولاً، ثم تطرده من أراضيها ثانياً كما الأمر بالنسبة لـ ﴿فَاخْرُجْ﴾. فقد عاد إبليس إلى موطنه الأصلي الذي هو الأرض، وإلى جنسه الأصلي الذي هو الجن، ولكنه عاد﴿مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾ ، عليه لعنة الله. وطبيعي أنه أدرك بأنه سيعود إلى ما عليه بنو جلدته من الجن فيموت، لكنه استغل الموقف وطلب من الله أن ينظره: ﴿أَنظِرْنِي﴾، لاتمتني﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. فيعطيه الله سؤله، ولعلّ ذلك من باب طاعته السابقة، وأيضاً في الإنظار فسحة له للندم رغم كل ما حلّ به، ولا نعلم أن هناك مانعاً كان يحول بينه وبين الندم، فيكون قد عصى الله في السماء، وقد تلقّى عِقابه، وفي الأرض اتعظ من ذلك وندم وتواضع، وعاد كما كان في سابق عهده في الأرض من العابدين بعد تلك التجربة التي مرّ بها، ولعلّه كان سيموت مثله مثل سائر الجن، وأن الله غفور رحيم بمَن يشاء من عباده، ولكنّه عَنيد، بل شديد العِناد، ومتكبّر، وشديد التكبّر، فبدل أن يغتنم استجابة الله تعالى

له بالندم وطلب العفو، تمادى و﴿قَالَ﴾ مفصحاً عن غلّه تجاه الإنسان: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كذلك ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. لذلك نرى أنه مع تصاعده في التمادي، يُصعّد الله عليه العِقاب، ففي البدء ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. ولكن الآن وقد تمادى في العصيان، وأنه سيفعل ما يفعل بالإنسان، ولعلّ في كلامه ما يشبه أنه عرف مدى منزلة الإنسان عند الله، فلعلّ الله ومن باب هذه المنزلة، يخفف عنه كي يجتب الإنسان أذاه، فتبيّن الآية الكريمة أن المنزلة تكون بموجب الطاعة، فمهما كان الإنسان مقرّباً من الله، فإن المعصية من شأنها أن تبعده عن الله، وما أبعد إبليس عن الله، هي المعصية، فجاء قول الله مبيّناً هذه الحقيقة: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾ بعد أن أذننا لك أن تفضي بما لديك.

المذؤوم هو المقوت، أي أصبح بفعله هذا ممقوتاً، ومذؤوم مِن ذأمه، بمعنى عابه وذمه و المدحور من الدَحر، أي الإبعاد والإقصاء، فهناك خروج تكريم، وهناك خروج طَرد، وليس كل خارج من موضع يكون مطروداً منه، وخروج إبليس هو خروج ذم وطَرد.

ولعلّ هذا الردّ الصارم أيضاً لم يكن يتوقّعه إبليس، حيث تم طَرده مِن المَلأ الأعلى، ولكن الردّ جاء موازياً لحجم اللؤم الذي أظهره إبليس، وهذا يجلو في وعيده بالإنسان، لعلّ الله يعفو عنه عصيانه، ويستثنيه من السجود، لِما لهذا الإنسان من منزلة عند الله، وقد تجلّى ذلك لإبليس عندما طلب الله من الملائكة جميعاً السجود لآدم، وإن كان ذلك - والله أعلم -

فإن الله تعالى قد خيّب ظنه، ﴿لَمَن تبعَكَ مِنهُمْ لأملأنَّ جهَنَّمَ منكُمْ أجمَعينَ﴾. جملة متناغمة متناسقة، تتكامل كلماتها مع بعضها البعض ﴿لَمَن﴾مِن ذرية آدم كائناً مَن كان ﴿تبعَكَ مِنهُمْ﴾وعصاني ﴿لأملأنَّ﴾، والملئ هنا جواب على قول إبليس ﴿ولاَ تجدُ أكثرَهُمْ شاكرين﴾. أي هناك متسع في ﴿جهَنَّمَ﴾ لكل مَن يعصاني ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ق٣٠ .

ثم اختتمت الآية الكريمة بـ ﴿منكُمْ أجمَعينَ﴾. فجمعت أهل العصيان من الإنس والجن مع بعضهم البعض،﴿ **لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾الأنفال٣٧. فلا تحسبن يا إبليس، ولا يحسبن أتباعك بأن جهنم ستضيق بالعصاة، بل فيها متسع لكل ما هو مزيد.

فهي رسالة للإنسان أيضاً بأنه يكون عزيزاً عند الله بقدر طاعته وعبادته وتواضعه، ويكون ذليلاً عند الله بقدر عصيانه ومجونه واستكباره.

الباب العاشر

خطيئة الإنسان ومغفرة الله

﴿١٩﴾

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

كمنت كل الأحداث المذكورة في الآيات السابقة بين ﴿وَيَا﴾ في مفتتح هذه السورة، لنبدأ معها مرحلة جديدة من حياة الإنسان، حيث سيخلق الله سبحانه وتعالى أنثى أولى من ضلع هذا الذكر الأول، وبذلك ستنطلق مسيرة الجنس البشري. فمادام ثمة أنثى، فلابد من التكاثر من خلال رحم هذه الأنثى، لأن المُراد من خلق الأنثى هو التكاثر، ولذلك فإن الملائكة لايحدث بينهم تكاثر كونهم ذكور، في حين أن الجن يتكاثرون بسبب وجود الأنثى، والآن ثمة أنثى جديدة، هي أنثى الإنسان، ولابدّ من علاقة جسدية بينهما حتى يؤسّسا لعملية التكاثر، ولابدّ للشهوة أن تتحرّك حتى يتم التلاقح، وقد تقدّم تحليل ذلك بشيء من التفصيل في سورة النساء. وهنا ترى بأن القرآن يوزّع أحداث الموضوع الواحد على العديد مِن السور القرآنية، وذلك وفق مسار كل سورة، لأن كل حدث يكون في ذات الموضع الأكثر تعبيراً، والأكثر عظة، والأكثر حكمة، فتتكامل مواضيع أحداث القرآن المجيد بعضها ببعض، فتكون أكثر غِنى فيما لو قُصّت جملة واحدة في سورة واحدة.

فثمة امرأة تظهر لأول مرة في السورة، وقد وصفها الله تعالى بأنها زوج آدم، فبعد أن كنا أمام فرد بشري، أصبحنا أمام زوج بشري، وهنا أمر هام أيضاً وهو أن السجود كان حصرياً لآدم الرجل وحده دون حواء الأنثى، وكان يمكن أن يكون السجود لهما معاً لو شاء الله ذلك، لكن حكمة الله اقتضت أن يتفرّد آدم الرجل بهذا السجود مِن الملائكة جميعاً الذين هم من أصل الملائكة، وأن إبليس الذي لم يكن من أصل الملائكة لم يكن مستحقاً، ولم يكن أهلاً ليبقى في الجنة إلى جانب الملائكة ويستجيب لأمر الله ويحتفي بهذا المخلوق البشري الجديد الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلقه، والسجود هنا رمز للتحية، والقبول، والترحيب، والاحتفاء بما خلَق الله، وبما يليق بهذا المخلوق، والله عز وجل يقدّمه للملائكة بهذه الهيئة الخَلقية الإنسانية الجديدة التي يشهدونها لأول مرة، وبسبب العصيان والاستعلاء، فقد أوقع الله بإبليس كل ذاك العقاب الشديد، وهي إشارة كبرى بأن للإنسان منزلة رفيعة عند الله، وهو مخلوق عزيز عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَ﴾الآن بعد كل ما وقع لإبليس ﴿يَا آدَمُ﴾ بسببك ﴿اسْكُنْ﴾و ﴿اسْكُنْ﴾نظير﴿فَاهْبِطْ﴾، و﴿فَاخْرُجْ﴾. والسَكَن مِن السكون أي أقِم في الجنة واستكن بسَكينتها، فهذا الموضع لايطأه مَن يعصاني، وهنا تتيح لك الآية معرفة جديدة لله عز وجل، وهي أنه يختبر خلقه، فقد اختبر الملائكة، واختبر إبليس، والآن سيأتي الاختبار إلى الإنسان، ذلك أن الاختبار هو الذي يُظهر الحقيقة، وبدون الاختبار ستكون الكلمات الباردة الخالية من الأفعال، فالاختبار يُظهر المَعادن، فإن أردتَ أن تتعرّف على معادن الناس، لايكون لك ذلك دون أن تختبرهم، والعلاقات الحميمية الكبرى تنبثق من ثنايا اختبارات كبرى، فشخص تأمنه على عرضك ومالك وولدك وسرّك، لاتفعل ذلك قبل أن تكون قد اختبرته، ومرّرته بالعديد من التجارب سواء المباشرة أو الغير مباشرة. وزوجة تثق بها كل الثقة وتضحّي من أجلها بالغالي والنفيس، لأنك تذكر مواقفها معك موقفاً موقفاً، ولعلّ امرأة أخرى من عامة النساء تكون قد تأثرت بأفكارك، فأعدلت لها مسار حياتها من خلال سيرتك وأفكارك، فتريد أن تعبر لك عن شكرها، فتؤازرك وتقول كلمة حق بشأنك، وترى منها مواقف طيبة، فتكنَّ لها احتراماً شديداً، ويبقى ذكرُها طيباً عندك. وفي هذا المقام أذكر السيدة أم سليم الأنصارية، هذه المرأة التي تتمتع بسيرة حسنة، وتبرهن أن الرجال العظماء يمكن لهم أن يسهموا في وجود نساء عظيمات، والنساء العظيمات يمكن لهن أن يقفن دعامة قوية إلى جانب الرجال العظماء.

لذلك فإن الزمن الذي يخلو من الرموز والأمثلة الكبرى، فإنه زمن فقير بأشخاصه المميزين، الزمن الغني برموز وأمثلة يفرز أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يقتدون بهذه الرموز التي تعيش في ظهرانيهم .

لننظر إلى زمن وجود النبي صلى الله عليه وسلم، وننظر إلى قائمة الأشخاص الذين عملوا معه، لننظر كيف أنه استطاع أن يحدث تغييرا نعطافياً في سلوكيات الناس.

لقد صنع أناساً ما كان لهم أن يظهروا لولا وجود النبي ، وهؤلاء الناس صنعوا أناساً لما كان لهم أن يظهروا لولا وجود أولئك.

إن ظهور امرأة مميزة، يمكن أن يكون حافزاً لظهور نساء أخريات يقتدين بها، ولكن هذه المرأة أيضاً تحتاج على حافز يجعلها تشعر بأهمية وقيمة أن تكون مميزة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم (وهي أم أنس) أن هذا الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم يحرم الخمر فانطلق حتى أتى الشام فهلك هناك. فجاء أبو طلحة فخطب أم سليم، فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة ما مثلك يُرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك.

فقال: ما ذاك دهرك.

قالت: وما دهري ؟

قال: الصفراء والبيضاء (يعني الذهب والفضة) .

قالت: فأني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، فأن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره.

قال: فمن لي بذلك؟

قالت: لك بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فانطلق أبو طلحة يريد النبي صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، فلما رآه قال: جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه.

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالت أم سليم، فتزوجها على ذلك.

هنا ننظر إلى فراسة النبي في التقاط ملامح الناس، فأبي طلحة رجل كافر، يقدم إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها إشراقة الإسلام التي ظهرت على وجهه وبلغت حدس النبي، الناس على هذا النحو يرتقون من خلال الناس ، وكذلك ينحدرون من خلال الناس. إن وجود امرأة سيئة في حي، يمكن أن يتسبب في انحراف امرأة أخرى، ووجود امرأة فاضلة في حي يمكن أن يتسبب في هداية امرأة سيئة.

قال ثابت (وهو البناني عن أنس): فما بلغنا أن مهرا كان أعظم منه، أنها رضيت الإسلام مهرا، فتزوجها وكانت امرأة مليحة العينين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد له بني، وكان يحبه أبو طلحة حبا شديدا ومرض الصبي مرضا شديدا وتواضع أبو طلحة لمرضه أو تضعضع له، فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء يقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيأ وذهب فلم يجئ إلى صلاة العتمة ، فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبي صلى الله عليه وسلم (وفي رواية إلى المسجد) ومات الصبي فقالت أم سليم: لا ينعين إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له الصبي. فسجت عليه ووضعته في جانب البيت، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل

عليها ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه ، فقال : كيف ابني فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، وأرجو أن يكون قد استراح.

فأتته بعشائه، فقربته إليهم فتعشوا وخرج القوم، قال: فقام إلى فراشه فوضع رأسه، ثم قامت فتطيبت، وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل إلى أهله، فلما كان آخر الليل قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا قوما عارية لهم، فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم ؟

فقال لا.

قالت: فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر.

فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إلي ابني. فاسترجع وحمد الله، فلما أصبح اغتسل، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى معه فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما في غابر ليلتكما.

روى مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: كان لأم سليم- وهي أم أنس- يتيمة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليتيمة فقال :" أنت هيه (بإسكان الياء والهاء هاء السكت) لقد كبرت لا كبر سنك".

فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك يا بنية؟

قالت الجارية: دعا علي نبي الله أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا أو قالت قرني. فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها حتى لقيت رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقال لها: مالك يا أم سليم؟ فقالت: يا نبي الله دعوت على يتيمتي

قال: وما ذاك يا أم سليم

قالت: زعمتْ أنك دعوت أنه لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها.

قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها طهورا وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة.

قال سفيان: قال رجل من الأنصار فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قرأوا القرآن .

لم يأت ذلك لأم سليم من تلقاء نفسه، بل كانت تسعى إلى المعرفة والتفقه والعلم ،وتستنير بقراءة القرآن، وتتابع ما يقوله النبي، وما يقوم به من سنن.

وكان ابنها أنس بن مالك الذي دفعته في صباه ليخدم رسول الله عشر سنوات مصدراً من مصادر التعرف على أحاديث وسنن النبي.

تصفها السيدة عائشة أم المؤمنين بقولها: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

قال أنس: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه، فقيل له ؟ فقال : "إني أرحمها قتل أخوها معي". وعند سفر النبي كانت أم سليم تديم البقاء مع نسائه وتتعلم منهن ما تعلمنه من النبي.

يقول أنس: أتى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال: "ويحك يا أنجشة، رويدك سوقا بالقوارير".

ومن النماذج الدالة على حرصها في طلب العلم أن أم سليم رضي الله عنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟

قال النبي: "إذا رأت الماء" . فغطت أم سليم وقالت يا رسول الله: وتحتلم المرأة؟

قال: "نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها" ؟.

وفي رواية عند مسلم قالت عائشة رضي الله عنها: يا أم سليم فضحتِ النساء تربت يمينك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : "بل أنت تربت يمينك نعم فلتغتسل يا أم سليم إذا رأت ذلك".

وفي رواية عند أبي داود في سننه في الطهارة: " إنما النساء شقائق الرجال".

في صحيح البخاري عن عكرمة أن أهل المدينة سألوا ابن عباس رضي الله عنهما عن امرأة طافت ثم حاضت قال لهم: تنفر، قالوا: لا نأخذ بقولك وندع قول زيد رضي الله عنه قال: إذا قدمتم المدينة فسلوا، فقدموا المدينة فكان فيمن سألوا أم سليم فذكرت حديث صفية، أي قول النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة : "عقري حلقي إنك حابستنا أما كنت طفت يوم النحر"؟

قالت: بلى.

قال: "فلا بأس انفري").

عن أنس رضي الله عنه: (أن أم سليم رضي الله عنها كانت تبسط للنبي صلى الله عليه وسلم نطعا فيقيل عندها على ذلك النطع قال: فإذا نام النبي صلى الله عليه وسلم أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ثم جمعته في سك وهو نائم، وفي رواية عند مسلم قال أنس رضي الله عنه: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عندها، فعرق وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ فقال: "يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين"؟ قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب.

قال الزهري: لم تكن أم سليم تتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته إلا في النادر، وكان زوجها أبو طلحة من أقوى الرماة بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين انهزم الناس يدافع عنه، وقد أدت أم سليم رضي الله عنها في ذلك اليوم العصيب دورا عظيما. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم رضي الله عنهما وإنهما لمشمرتان- تنقزان - وقال غيره: تنقلان - القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم فتملآنها ثم تجيئان فتفرغان في أفواه القوم. ولما كان يوم حنين- وكانت معركتها بعد فتح مكة- وكان عدد المسلمين أكثر بكثير من عدوهم إذ كان العدو من قبيلة هوازن، وكان حال كل من الفريقين ما ذكره الله في كتابه ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾التوبة٢٥. فانهزم الناس وبقي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عدد قليل من أصحابه لا يتجاوز عددهم اثني عشر رجلا، فكانت أم سليم مع من بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الحرج، وعند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن أم سليم رضي عنها اتخذت خنجرا يوم حنين فقالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

قالت أم سليم قولتها الشهيرة: يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك. فقال رسول الله: "يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن".

قالت أم عطية رضي الله عنها: (أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سيرة امرأة معاذ، وامرأتين أو ابنة أبي سيرة وامرأة معاذ، وامرأة أخرى). قال ابن حجر نقلا عن القاضي

عياض: (معنى الحديث لم يف ممن بايع النبي صلى الله عليه وسلم مع أم عطية في الوقت الذي بايعت فيه إلا المذكورات لا أنه لم يترك النياحة من المسلمات غير خمسة).

كان أبو طلحة يملك بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾آل عمران٩٢.

قام أبو طلحة رضي الله عنه- وهو زوج أم سليم الأنصارية- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله: بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

قال أنس رضي الله عنه: قال أبو طلحة لأم سليم رضي الله عنها: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟

قالت: نعم. فأخرجت أقراصا من شعير ثم أخرجت خمارا لها، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي وردتني ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول الله قال: فذهبت به فوجدت رسول الله في المسجد، ومعه الناس فقمت عليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس: أرسلك أبو طلحة؟

قال: فقلت نعم . فقال: الطعام؟

فقلت: نعم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: قوموا.

قال : فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله بالناس، وليس عندنا ما يطعمهم . فقالت: الله ورسوله أعلم .

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلمي ما عندك يا أم سليم فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ففت وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ما شاء أن يقول ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم

خرجوا ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم حتى شبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلا.

روى البخاري من حديث أنس بن مالك قال الراوي: مر بنا (أي أنس) في مسجد بني رفاعة فسمعته يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر بجنيات أم سليم دخل عليها، فسلم عليها، ثم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب فقالت أم سليم: لو أهدينا لرسول الله صلى الله غليه وسلم هدية.

فقلت لها: افعلي فعمدت إلى تمر وسمن وأقط فاتخذت حيسة في برمة فأرسلت بها معي إليه فانطلقت بها إليه فقال لي: ضعها ثم أمرني فقال: ادع لي رجالا سماهم، وادع لي من لقيت قال: ففعلت الذي أمرني فرجعت فإذا البيت غاص بأهله فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يديه على تلك الحيسة، وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه يقول لهم: اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه ثم تصدعوا كلهم عنها. وفي رواية لمسلم: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله فصنعت أم سليم حيسا فجعلته في تور فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرأ عليك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت: إن أمي تقرأ عليك السلام فذكر الحديث إلى أن قال: فدعوت من سمى ومن لقيت قال: قلت لأنس كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أنس هات التور" قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه" قال: فأكلوا حتى شبعوا قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم فقال لي: يا أنس ارفع قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت.

روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة"، وفي رواية لمسلم: "فسمعت خشفة فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك".

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وارفلا في نعيمها، وتمتعا بغَدَق العَيش فيها كما يروق لكما، فكل أسباب البهجة والمتعة والراحة والأمن والرفاه متوافرة في الجنة التي

أعددتها لكما، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾واختباري لكما بأن ﴿لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾حتى تدوم عليكما نعمتي، فإن اجتزتما هذا الاختبار، لبثتما في هذا النعيم، وإن فشلتما فيه وتركتما كل هذه السعة التي في ﴿الْجَنَّةَ﴾ وقربتما ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾التي نهيتكما عنها ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، حيث ستظلمان نفسيكما بعصياني.

﴿٢٠﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

لعلّ في ظاهر الآيات الماضية تبيّن لك بأن آدم عليه السلام، قد شَهِد تفاصيل ما جرى، وأنّه كان حاضراً حضوراً فعلياً، وأن سجود الملائكة له وقع في حضوره الشخصي، وأنه رأى امتناع إبليس، وبالتالي سمع كيف عبّر إبليس عن مساحة حقده ووعيده بالانتقام منه ومن ذريته، وردّ الله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهذا الكلام وإن كان موجّهاً لإبليس، إلاّ أنه موجّه أيضاً لآدم، ولذريّته، فإن اتبعتموه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. واستناداً إلى ذلك، فلعلّ إبليس لو وسوس له وحده، لفشل في إصابة الهدف، وهو الخارج لتوّه من مشهد حي، كان هو بطله المنتصر فيه بدخول الجنة، وكان إبليس هو المنهزم المخذول المدحور فيه، وهو يجرّ أذيال هزيمته مطروداً من الجنة ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، وقد توعّده بالانتقام وجهاً لوجه في حضرة الله والملائكة، فهنا استغل إبليس العنصر الذي كان استجدّ، وما شهد وما سمع شيئاً قط.

تبدأ الآية الكريمة بحرف الفاء الاستئنافية، ﴿فَ﴾- في ذروة اكتشاف أحدهما لجماليات الآخر، فقد أصبحا عريسَين للتو، ويجوز أن يكون الله تعالى قد بعث ملكاً يعلّمهما أصول الملاطفة والعشرة الزوجية، وممّا يُروى في شيء من ذلك أن حواء قالت له: (يا آدم هذا طيب زدنا منه). فهما في ذروة الاستمتاع بعَسَل جماليات ومعطيات العلاقة الزوجية في رحاب الجنة، في أوج تلك اللحظات التي رآها أكثر ما تكون مناسبة لنيل مراده منهما-

﴿وَسْوَسَ﴾، وعليك أن تعيد كلمة ﴿فَوَسْوَسَ﴾مرات عديدة حرفاً حرفاً، ﴿لَهُمَا﴾ للرجل والمرأة معاً. وهنا إشارة استنارة لك بأن الرجل والمرأة عندما يكونا معاً ما يتوانى أن يـ﴿وَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾، ولذلك تحدث الوساوس الكبرى التي تؤدّي إلى أخطاء كبرى عندما يختلط الرجال بالنساء، وخاصة عندما يختلي رجل بامرأة. فالوسوسة تكون فعّالة أكثر إذا كانا (معاً) سواء في مكان عام، أو في خلوة، والخلوة تؤتي أكلها بالنسبة للشيطان أكثر، وقد نبّه وحذّر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله: " ما اختلى رجل بامرأة إلاّ وكان الشيطان ثالثهما".

ولا يكون الشيطان ثالثهما، إلاّ ليستدرجهما إلى ما تحت الثياب، فتظهر المرأة من مفاتن جسدها، وتمتدّ نظرات الرجل إلى تلك المواضع التي لاتسترها الثياب، فترى بعض النسوة يُظهرن مساحات من أجسادهن أكثر من التي يسترنها، فيبدو أكثر من نصف الجسد عارياً، وهي تكون في مكان عام وسط الرجال، أو تمضي في الطرقات والأسواق العامة التي عادة تكون مكتظة بالمراهقين، أو المتأخرين عن الزواج، أو ما شابه ممّن يمكن أن تتأجّج بهم غرائزهم جراء ما تثيره هذه المرأة من إظهار مفاتنها للعيان، وهذا بمثابة الطغيان بنعمة الله، فقد أكرمها الله بحُسن وصحة ولياقة ولطافة أنوثة، لكنها تطغى في هذا التكريم، وتسعى إلى تأجيج غرائز الناس في الأسواق وحيثما تطأ قدماها.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، الوسوسة هي كالصوت الخفي مثل الخشخشة، فيبثها الشيطان إلى القلب، ويكرّرها عليه حتى يتفاعل معها، ومن ذلك وسوس الحلي.

يُحكى أن أحد الأولياء (سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه الحق تعالى هيكل الإنسان في سورة بلور وبين كتفيه خال أسود كالعش والوكر فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل فجاء من بين الكتفين فأدخل خرطومه قبل قلبه فوسوس إليه فذكر الله تعالى فخنس وراءه ولذلك سُمي بالخناس لأنه ينكص على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب).

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ﴾ليظهر، اللام هنا لام الصيرورة والعاقبة ﴿لَهُمَا﴾معاً ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ ما خَفي عن أنظارهما ﴿مِن﴾ عوراتهما، وتسمّى العورة (سوءة) لأن كشفها يسيء إلى الإنسان. والذي يُجرَح، يُقال له: تعوّر. فإظهار العورة بهذا المعنى، هو بمثابة خدش للحياء في الإنسان، وقد حدث ذلك فجأة مع آدم وحواء عليهما السلام، دون أن يتعمّداه، ولعلّهما لو علما هذه العاقبة، لَمَا أكلا مِن الشجرة، ورغم أن ذلك

قد حصل بين رجل وزوجته، إلاّ أنهما تركا كل شيء، وهرعا لإخفاء ذلك، وهذه فطرة العفاف التلقائية في الإنسان.

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

أي ﴿إِلاَّ أَن﴾ لا ﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ من الملائكة ﴿أَوْ﴾ لا ﴿تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾الذين يخلدون في الجنة ولا يقربهم موت، فلعلّ (لا) في القولَين مضمرة.

ويُروى (أن أول ما ابتدأهما به من كيده إياهما أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها فقالا له: ما يبكيك؟ قال أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة. فوقع ذلك في نفسيهما ثم أتاهما فوسوس إليهما).

﴿٢١﴾
﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾

أقسم لهما الشيطان بالله تعالى أنه يقدّم لهما النصح، ولا نعلم أنه قد حلف بالله كذباً قبل ذلك، فهو يكون أول مَن حلف بالله كذباً، ولعلّهما صدّقا ذلك لاعتقادهما أنه لايجوز لأحد أن يحلف بالله تعالى كذباً.

وفي الحديث:" المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم". فأنا أقدّم لكما النصح حتى تخلدا في الجنة، وتخلد معكما ذريتكما دون أن يقربكم الموت، فصدّقا بأنها الحقيقة التي أعلمها، ولا تعلمانها، وأقسم لكما بالله على ذلك.

فالشيطان- لعنه الله- تمكّن من الوسوسة لهما بموجب أخذه العهد من الله﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ﴾.

وعبارة ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾لاتعني بأنه سيبقى يتفرّج عليهم ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، بل سيترصّدهم يوماً بيوم، وساعةً بساعة حتى يوقع بهم، ويفصح عن ذلك بعد حصوله على العهد الإلهي له: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، واستأنف﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

فهذه الاستجابة لعلّها من باب أن الله ما أضاع له أعماله الصالحة سابقاً، فأعطاها له من خلال الاستجابة لمطلبه الأخير، بأن أمَدّ في عمره إلى ما شاء الله تعالى ﴿إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، ولكنه لايعلم متى يحل عليه هذا اليوم، وبناءً على ذلك فهو في قلق دائم لأنه يتوقع أن يحل ﴿يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾عليه في أي لحظة، فيكثف نشاطه الإبليسي في الناس على قلق قبل أن يُدركه ﴿يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ولعلّ الأمر يكون قريباً من شخص يقوم بخدمتك، ويخلص لك خلال فترة طويلة، وأنتَ تكرمه، لكنه بغتة يطغى ويستكبر ويخرج عن طوعك، فتطرده من البيت لأنه خرج عن وظيفته وولائه لك وتنفيذ أوامرك، فلعلّه يلتمس منك مطلباً قبل خروجه من بيتك الذي أمضى فيه وقتاً طويلاً، وهو يتركه بغصّة الفراق الأبدي، فتستجيب لمطلبه كبادرة كَرَم منك، وكردّ على ما قدّمه لك من خدمات ومن طاعة خلال الفترة التي أمضاها في بيتك.   أمّا إذا استغلّ كرمك واستجابتك لرجائه، فتلك مشكلته التي تفصح أكثر عن معدنه، كما تفصح أكثر وأكثر عن سِعة كرمك، ولله المثل الأعلى.

﴿٢٢﴾

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

أزلّهما بعد أن غرّر بهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ والذوق هنا ليس بمعنى التذوّق، بل بمعنى الأكل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾طه١٢١، فعند أكلهما طعام ﴿الشَّجَرَةَ﴾على الفور: ﴿بَدَتْ﴾ظهرت ﴿لَهُمَا﴾ لأنظارهما ﴿سَوْءَاتُهُمَا﴾.

وهنا قد تحقق ما أخبر به الله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾. فالغاية من الوسوسة هي ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾، والآن: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾.

أصبح كل واحد يرى قبل ودبر الآخر لأول مرة، وبشكل مفاجئ. ﴿وَطَفِقَا﴾ صارا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على ما ظهر من عوراتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ليسترا بهـــا.

ويُقال بأن حواء بدأت بالأكل أولاً، ولم تحل العقوبة عليها، ولكن عندما أكل آدم أيضاً، حلّت العقوبة عليهما معاً.

يقول ابن عباس: (تقلّصَ النّور الّذِي كَانَ لِبَاسهمَا فصار أظْفَاراً فِي الأيدي والأرجل).

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، النداء بذاته هو اختبار آخر، أي استئناف للاختبار، وقد جاء هذا الاستئناف على إبليس أيضاً

عندما قال له الله بعد العصيان: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فتبيّن من ردّه إذ ذاك بأنّه عصيان للعصيان، وأن مصدره الاستكبار، فكان التصعيد في العقاب بعد إظهار الحقيقة.

الآن نحن مع بدايات المرحلة الثانية من الاختبار التي هي التحقيق، وما ينتج عن هذا التحقيق: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن﴾ أكل ثمار ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا﴾وأخبركما ﴿إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

سوف يتوقّف القرار على الجواب، كما توقّف القرار على الجواب بالنسبة لإبليس، فهل سيكون الجواب كجواب إبليس، ويتماديا ويستكبرا ويبطرا بالنعمة، وهذا ما يرمي إليه إبليس، أم سيكتشفان بأنه قد غُرّر بهما، ويعترفان بخطيئتهما، ويتخذان من ذلك درساً بليغاً لن ينسياه، ثم يتوبان إلى ربهما.

﴿٢٣﴾

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

لقد أخطأنا باتباع الشيطان الذي غرّر بنا، واستدرجنا بحلفانه بك، وظننا أنه لا يجوز الحلفان بك كذباً، فنبوء لك بذنبنا، وندمنا الشديد على ما اقترفناه، ونتوب إليك، ونسألك ﴿رَبَّنَا﴾ المغفرة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ وتأخذنا بذنبنا ﴿وَإِن لَّمْ﴾ ﴿تَرْحَمْنَا﴾ وتعفو عنا خطيئتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

الخسارة التي لاتعوّض بشيء قط، فنسألك النجاة من عواقب هذه الخسارة الفادحة نتيجة أننا ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ وأن ترأف بنا ﴿رَبَّنَا﴾ وتأخذنا بمغفرتك ورحمتك حتى - ﴿لَ﴾ا - ﴿نَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فقد اختلفت الإجابة كلياً عن إجابة إبليس الذي لعلّه اغتاظ، وأحس بأن طُعمَه رُدّ إليه.

﴿٢٤﴾

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

جاء الهبوط جمعاً، ولعلّ ذلك يشير إلى آدم وحواء وما سينجبان من ذرية، لكن عند الدخول قال: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾وحدكما ﴿الْجَنَّةَ﴾ فكان القول خاصاً بشخصيهما، ومرتهناً باجتياز الامتحان بنجاح، لكن ذلك لم يحدث، ولأنهما عبّرا عن ندمهما الشديد، تم تخفيف العِقاب عنهما بالهبوط مع ذرّيتهما القادمة إلى الأرض، لكن بقي الأمل بالعودة إلى الجنة باقياً لأن هذا الهبوط يكون ﴿إِلَى حِينٍ﴾، وعبارة ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ فيها إشارة إلى آدم وحواء وذريتهما جميعاً.

أمّا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فذلك إشارة بأن الإنسان يتسبب بالأذى لأخيه الإنسان، وقد ثبتت هذه الحقيقة منذ البداية مع هابيل وقابيل، ثم الحروب البشرية التي وقعت بين ذرية آدم على مختلف العصور.

والدرس البليغ الذي تستنتجه من هذه الجملة، هو أن أي إنسان هو قابل أن يُصبح عدوانياً بامتياز، لأن بذور النزعة العدوانية كامنة فيه، فينبّهك الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة حتى لا تكون غافلاً عنها، وبالتالي حتى تكون حذراً في علاقاتك، فتعطي ثقتك لِمَن يكون أهلاً لهذه الثقة، وتحجبها عمّن لايكون أهلاً للثقة، فكَم مِن شَخصٍ تلقّى ضربةً في الصَميم غدراً نتيجة إفراطه بالثقة.

واعلم أن العداوة لاتقتصر على الآخرين فحسب، بل أن الإنسان يكون عدو ذاته أيضاً، فيودي بنفسه إلى التهلكة نتيجة اتباع الأهواء، واستهلاك طاقاته الذهنية والبدنية في السلوكيات المنحرفة.

وكأن هذا الشخص يدعو الآخرين إلى أخذ موقف عدائي منه، وهو يكون قد اتخذ موقفاً عدائياً من نفسه، حيث يذلّها ويهينها، فتراه محتقناً، مضطرباً وقد ألحَق الأذى بأسنانه، بعينيه، بسمعته، بالاستمتاع بمشاعر الأبوة، والبنوة، والأخوة، والقرابة، والصداقة، فحتى

زوجته تنفر منه، بل حتى هو ينفر من نفسه، فحتى الموضع الذي يسكن فيه لا يليق بإقامة إنسان، وحتى الثياب التي يرتديها، وحتى الروائح الكريهة التي تفوح منه، فيمسي كما لو أنه شبح، ولا يأمَنه أحد على شيء قط.

ذلك أنه كائن منفلت، وقد جرّد نفسه من كل خصلة إنسانية، ولكن هذا لا يعني أن هذا الشخص قد بلغ مرحلة لا يمكنه العودة منها، ولا يوجد شخص يبلغ مرحلة لا يمكنه العودة منها سواء سلباً أو إيجاباً، فيمكن أن يهدي الله هذا الشخص وينقلب رأساً على عقب بين ليلة وضحاها، من خلال موقف ما، أو مشهد ما، أو خاطر ما، ويمكن عكس ذلك أيضاً على شخص كان صالحاً، فانقلب فاسداً بين ليلة وضحاها من خلال موقف ما، أو مشهد ما، أو خاطر ما، فكل الاحتمالات واردة في ثنايا كلمات الجملة الثلاث.

وهذا ما يجعل الإنسان في حالة صراع مع نزعات الشر في كوامنه، وهي المعركة الكبرى التي على الإنسان أن يخوضها مع نفسه من أجل انتصار نزعات الخير على نزعات الشر في كوامنه، وذلك هو الانتصار الأكبر الذي يحققه الإنسان، كما أن هزيمته أمام نزعات الشر فيه، هي الهزيمة الكبرى التي يمكن له أن يُمنى بها.

وتعلّمك الجملة بأن عليك أن تكون حَذِراً من دور الشيطان في هذه المعادلة، فهو يستثمر أي لحظة ضعف فيك، فكما أنك تسبّبتَ في خروجه من الجنة، تسبّب هو أيضاً في خروجك من الجنة، لكن شَتّان بين الخروجَين، فيسعى الشيطان بكل ما أوتي من طاقات أن يذل ويهين الإنسان، ويقوده إلى الأعمال المشينة التي يندى لها الجبين.

فهو يركّز على فكرة الإذلال والمهانة، فكلّما يذل الإنسان نفسه، يدلّه إلى المزيد، وكلّما يهين نفسه، يهوي به إلى المزيد حتى لا يبقى في المزيد، مزيد، ويبلغ الإنسان إلى قاع القاع من الذل والمهانة والقَرَف، فيقول له الشيطان: هذا أنت وهذا حجمك، ألم أكن على صواب بترفعي عن السجود لك.

فلأجل ألاّ يحدث ذلك، وهو بطبيعة الحال لا يحدث لعباد الله الصالحين، وإن وقَعَت معهم بعض أخطاء، إلاّ أنّهم لا يبلغون تلك المراحل المريعة من اتباع الشيطان، لأن حصانتهم تكون من الله عزّ شأنه: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾الحجر٤٢ ، ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ★ إِنَّمَا**

سُلطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾النحل، الآيتـان٩٩ ، ١٠٠، **﴿إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾**الإسراء٦٥.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فبعضك أيضاً لبعضك **﴿عَدُوٌّ﴾**، فلا تدع العنان لرغباتك، لأعضائك، يمكن لعينيك أن تودِيان بك إلى التهلكة، يمكن ليديك أن تبطشان، يمكن لقدَميك أن تقوداك إلى هاوية، يمكن لغرائزك أن تسوقاك إلى الانتهاكات، يمكن للسانك أن يودي بك إلى فتنة.

فتحذّرك هذه الجملة من الآية الكريمة من عداوة الأعضاء والحواس والأهواء إن تركتها تتسلّط عليك، وهي دعوة إلى ضبط النفس، وكظم الغيظ، والتحلّي بطاقات الصبر، والإنسان هو معلّم نفسه، ذلك أنه يتعلّم من نفسه ومن أخطائه.

بعد الهبوط إلى الأرض، تلقّى آدم وحواء درساً لن ينسياه، ولذلك يكونا في حذر شديد من الشيطان، ولم يبلغنا بأنه استطاع أن ينفذ إليهما رغم وجودهم معاً عن قرب هذه المرة في الأرض، فقد مرّا بتجربة شديدة، حيث عكّر عليهما الشيطان لذة عسل زواجهما في أيام الزواج الأولى، وهذا له استمرار، فترى الشيطان- لعنه الله- يقبل على أي عروسَين جديدَين من ذرية آدم، ويسعى كي يفسد عليهما لذة عَسَل زواجهما، ويصيب هدفه مع البعض، فتسمع أن فلاناً قد طلّق زوجته في ليلة الدخلة، أو أنه طلّقها بعد يومين من الزواج. ولذلك ترى الأهل يوفّرون الهدوء والراحة للعروسَين في الشهر الأول من الزواج، فيقبل عليهما المباركون وهم يقدّمون لهما الهدايا في صباحية الزواج، لأنها علامة في اجتياز ليلة الدخلة بسلام، وبدء أول صباح من صباحات الزواج.

فيستمتعان بهذا الشهر من خلال السفر، وتلقي دعوات الولائم على موائد عامرة تليق بعروسين حيث يُحتفى بهما يوماً بعد يوم، فيتغدّيان في بيت، ويتعشيان في بيت، فيكون الشهر الأول من أمتع شهور الحياة الجميلة التي يعيشانها بما يَتعارف عليه الناس بشهر العَسَل، أي هو شهر عَسَلي مميّز استثنائي من شهور العمر، فكل يوم فيه يكون عسلاً في عسل، حتى إذا انتهى هذا الشهر الأول، أحسّ أهل الطرفين بشيء من الطمأنينة على علاقتهما الزوجية.

فكل يوم صفاء بينهما هو يوم يغيظ الشيطان، وكل يوم جفاء بينهما هو يوم يسر الشيطان، لذلك يسعى بكل إمكاناته أن يعكّر صفوهما، فلا يكون له نصيب يوم من

شخصَين حذرَين واعيَين لهذه الحقيقة، لا يلتفتان إلى أي فكرة ملتوية يمكن أن تراودهما، لأنهما يعلمان أن ذلك حبل من حبال الشيطان، فيتجنبان بعض التفاصيل التي لا لزوم لها، بعض الأحاديث التي لا تجدي بشيء، فهما يدركان بأن الشيطان قد توعدهما بأنه سيأتيهما من بين أيديهما، ومن خلفهما، وعن أيمانهما وعن شمائلهما.

أي ممّا هم فيه حالاً، وممّا وقع لكل واحد منهما في الماضي، وممّا قال أشخاص من طرف الرجل، وممّا قال أشخاص من طرف المرأة. فما يعنيهما بالدرجة الأولى، أن يحرما الشيطان من يوم، أو من ساعة، من شهرهما المجيد هذا، ويستمتعان بكل لحظة من لحظاته الممتعة، وهو أساس متين يضعانه لعمارة حياة زوجية قويمة.

فترى في وجهَيهما نضارة الزواج. أما إذا كان الأمر بالنسبة لعروسَين واهنَين في شخصيتيهما، فيكون شهر عَسَلهما شهراً شيطانياً بامتياز، حيث يكون دائم الحضور بينهما وهو يراهما يستجيبان ويتفاعلان مع وسوساته، فيكون شهرهما أغلبه، أو كله من نصيب الشيطان، فيعكّر عليهما صفو أي لحظة سعيدة يمكن أن يستمتعا بها.

فلا يتوانى أن يبث إليهما الوساوس، ويرمي إليهما الفكرة تلو الفكرة، ويستدرجهما إلى التصعيد، فيستمدّ همّته ونشاطه بقدر استجابتهما وتفاعلهما مع ما يبث إليهما، فيتحوّل شهرهما إلى شهر من التعكير، والمشاحنات، والمشادات الكلامية، حتى يتحوّل إلى أسوأ شهر عاشاه، ذلك أنهما سمحا أن يكون شهراً شيطانياً بامتياز، فيكون للشيطان منهما ما يريد.

ولذلك على الإنسان أن يبذل جهداً على نفسه في قراءة المؤلفات النافعة المجدية التي ينتفع بها، ويُحصّل منها العلم، والثقافة، وسِعة الأفق.

وعلى الأبوَين أن ينمّيا سلوك القراءة النافعة في أبنائهما، لأن الطفل الذي يقرأ هو طفل لا خوف عليه، وكل الخوف على طفل لا يقرأ. فهي مرحلة بالغة الحساسية يؤمن فيها الطفل بجدوى القراءة، فعلى الإنسان أن يؤمن بأهمية وجدوى القراءة حتى يستطيع أن يقطف ثمارها.

وفي المثالَين المذكورَين تبيّن معنا بأن العروسَين الأولَين قد قطفا ثمار شهر عَسَلهما الناضجة واستمتعا بها وهما يقفان على أرضية النضوج الفكري الصلبة، بل أن بعض الثمار تتساقط عليهما من تلقاء نفسها لأنها بلغت رونق النضوج، في حين حُرِمَ العَروسَان الثانيان من قطف هذه الثمار، لأنهما لم يعملا على إنضاجها، فلبثت قاسية غير مستوية، عصيّة على القطف، وهما يقفان على أرضية مهترّة، هشّة، يتأرجحان عليها ذات اليمين وذات

الشمال، فبدل أن ترى نضارة شهر العسَل في وجهَيهما، ترى فيهما الشحوب والاحتقان؛ وكما أن الأولَين غدَيا كوردتين تتفتحان يوماً بيوم، فإنهما غدَيا كوردتين تذبلان يوماً بيوم،

وكما أن الزواج الأول يُتوّج ببناء عائلة ناضجة متماسكة، فإن الثاني إمّا يُتوّج بالطلاق، أو بعائلة مشتتة منهارة.

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿وَ﴾ تجدون ﴿فِي الأَرْضِ﴾التي أهبطتكم إليها ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، تعيشون فيها حالة استقرار، ﴿وَمَتَاعٌ﴾، تستمتعون بخيراتها، لكن ذلك لا يكون دائماً، بل: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يأتي أجل الموت، للأفراد وفق الزمن والأعمار، ثم كحالة جماعية اعتباراً من آدم، وإلى الإنسان الأخير، ستتركون ﴿الأَرْضِ﴾، لأنها تكون قد أدّت ما عليها بما أمَرَها الله، فيكون بذلك قد حان الـ﴿حِينٍ﴾، حيث يكون الحساب في مكان يشاءه الله تعالى، غير ﴿الأَرْضِ﴾.

﴿٢٥﴾
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

تعيشون ﴿فِي الأَرْضِ﴾، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾أفراداً أفراداً، ﴿وَفِيهَا﴾ يحين الـ﴿حِينٍ﴾، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. الخروج في الآية أحال﴿حِينٍ﴾الآية السابقة إلى حينين، حين الموت الفردي، وحين الخروج الجماعي من ﴿الأَرْضِ﴾ برمتها يوم البعث، حيث ستخرجون من﴿الأَرْضِ﴾، وتتركونها إلى حيث يشاء الله تعالى، فيتم فرز الناس وفق أعمالهم، إلى ما يستحقون. فالثمرة تكون ما بين ﴿تَحْيَوْنَ﴾، وما بين ﴿تَمُوتُونَ﴾، إن كانت ثمرة صالحة، أو ثمرة فاسدة، فهي ثمرة العمر الذي ينعم بها الإنسان، أو يشقى.

الباب الحادي عشر

خير اللباس

﴿٣٦﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

تحوّل الخِطابُ الآن مِن آدم إلى ذريته، لأنهم هم الذين سيشكّلون المستقبل البشري﴿فِي الأَرْضِ﴾.

﴿يَا﴾، نداء الله تبارك وتعالى إلى أبناء وبنات آدم وحواء، بعد أن أصبحا فعلياً ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وفحوى النداء، تذكير بانه جلّ شأنه ﴿قَدْ﴾إشارة إلى التحقق والتأكد، ﴿أَنزَلْنَا﴾النزول هنا بمعنى العطاء، فتقول: أتيته بثياب، أي أعطيته ثياباً ونزل أنزلنا منزلة، أعطينا، ثم أن الثياب من نتائج نزول المطر، فـ ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ المطر ، تصنعون من نتاجه ﴿لِبَاساً﴾ ثياباً ﴿يُوَارِي﴾ يستر ﴿سَوْءَاتِكُمْ﴾ عوراتكم. وهي ثياب تختلف عمّا كانت على آدم وحواء في الجنة، لأنها كانت على سَوية المكان الذي كانا فيه، وثياب الأرض تكون على سَوية طبيعة الأرض.

والثياب آيات الله في الناس بجمالياتها، وتنوّعاتها، وجودتها، واشكالها، وألوانها، فكل مجتمع يغتني بأزيائه، ودوماً هناك موضات تستجدّ في عالم الأزياء، ودوماً يتكاثر مصممو الأزياء، والخياطون، وهي حرفة تدر أرباحاً طائلة على محترفيها المَهَرة.

فـ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾مِن نعَمنا ﴿عَلَيْكُمْ﴾أننا ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾، عندما أهبَطنا أبويكم إلى ﴿الأَرْضِ﴾حتى لاتشعروا بالحرَج الذي شَعَرَ به أبواكم عندما ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

وهذه مسألة دقيقة غاية في الأهمية، فالغرض من اللباس هو ستر القبل، والدبر، والإنسان مهما تقدّمَت به درجات الإباحية، فلا يتجرأ أن يمشي في الأسواق وهو يُظهر ذلك، وحتى على شواطئ البحار يتعرى الناس من كل شيء، إلاّ من قطعة مهما صغر حجمها حتى تستر القبل والدبر، وعلى نقيض ذلك، فلو ارتدى ذات الشخص ثيابه الكاملة، ومن ذات الشاطئ، لكن يظهر شيء من قبله، أو دبره دون أن يعلم بسبب تمزّقٍ ما، فتراه عندما ينتبه إلى ذلك، يُسارع إلى إخفائه بأسرع حركة عفوية، فإظهار كل البدن قبل لحظات

باستثناء ذاك الموضع، لم يُشعر بحرَج، وإخفاء كل البدن باستثناء ذاك الموضع، أشعَرَ بالحَرَج سـوأء

النسبة للرجل، أو المرأة. ومساحات العورة تختلف من الرجل إلى المرأة، كون الرجل يحل له أن يُظهر جوانب عديدة دون ما فوق الركبتين، وما تحت السرة كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم:" أسفل السرّة وفوق الركبتين من العورة"، و يحل للمرأة أن تظهر وجهها وكفيها كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أرادَ أنْ يَتزَوّج اِمْرأة فلْيَنْظرْ إلَى وَجْهِهَا وَكَفَّيْهَا". فالتركيز على اللباس يكون لغاية أن: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾بالدرجة الأولى، ولكن من متفرّعات السوءة هي الأماكن الأكثر قرباً مِن السوءة، فهي مناطق حسّاسة، ولعلّها لاتكون مغلّظة، ويبقى التغليظ في السوءة بالنسبة للرجل، لأن الرجل يمكن أن يظهر منه شيء ممّا يعلو الركبة في بعض الظروف، وثمة حديث في البخاري عن أنس رضي الله عنه يوم خيبر:(فأجْرَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زُقَاق خَيْبَر ثُمَّ حَسِرَ الْإِزَار عَنْ فَخِذِهِ حَتَّى إِنِّي أَنْظُر إِلَى بَيَاض فَخِذ نَبِيّ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وعن التوافق بين ذلك وبين ما خرجه من حديث جرهد عندما ذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "غَطِّ فخِذك فإنَّ الْفَخِذ عَوْرَة"، قال البخاري: (حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط)، ولعلّه لَس في ذلك مخرجاً من الخلاف بين حديثي الرجلَين. واعلم أن مفهوم العورة مختلف بالنسبة للرجل والمرأة، فما يجوز للمرأة أن تراه في المرأة، لايجوز للرجل أن يراه فيها، وليس كل ما هو عورة في المرأة بالنسبة للرجل، هو عورة بالنسبة للمرأة أيضاً، وكذلك ليس كل ما هو غير عورة للرجل بالنسبة للرجل، هو مباح إظهاره أمام المرأة، أو أمام جمع من النساء، فبحضور النساء، يستتر الرجل ما أمكنه، ولا يُظهر - على سبيل المثال- من أعلى جسده إلى غاية السرة بحضور نساء أجنبيات، رغم أن إظهار السرة ليست من العورة وفق ما روى أبو هريرة عندما قبّل سرة الحسن بن علي وقال له:(أُقَبِّل مِنْك مَا كَانَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ مِنْك). وسَماح الحسن لأبي هريرة بذلك، يشير إلى عدم اعتبار السرة من العورة. لكن يُستحسَن عندما ترى المرأة مفاتن المرأة، ألاّ تصف ذلك لزوجها، لأنها بذلك قد تضع تصوراً لِشكلِ ما رأتْ، في مخيّلة زوجها ولو للحظات.

﴿وَرِيشًا﴾ ، لعلّه نوع من الرفاهية في ارتداء الثياب، فيكون المرء مُرَيّشَاً في ثيابه، كما يمكن له أن يكون متواضعاً فيها، فشخص يرتدي ثياباً قد تعادل دخل عامل لمدة سنة،

وشخص يرتدي ثياباً من المستعملة، ووفق ذلك من درجات جودة وفخامة وغلاء أنواع الثياب، وذلك مباح للناس وفق استطاعتهم.

فبعد ذكر الأساسيات، جاء ذكر الكماليات، وهي من أشكال الرفاه، ورغد العيش، والرياش يمكن أن يشمل كل ما هو زيادة عن الحاجة الأساسية، فإن امتلك المرء ثوباً، ثم اشترى ثوباً ثانياً، سيكون ذلك من

الرياش، كونه زيادة عن الحاجة الأساسية، فذلك من زيادة فضل الله على الإنسان. قَالَ الْإِمَام أحْمَد: (حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد حَدَّثنَا مُختار بْن نَافِع التَّمَّار عَنْ أبِي مَطَر أنَّهُ رَأى عَلِيًّا رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أتَى غُلَامًا حَدَثا فَاشْتَرَى مِنْهُ قَمِيصًا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِم وَلَبِسَهُ مَا بَيْن الرُّسْغَيْنِ إلَى الْكَعْبَيْنِ يَقُول حِين لَبِسَهُ الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ الرِّيَاش مَا أتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي فَقِيلَ هَذَا شَيْء تَرْوِيه عَنْ نَفْسك أوْ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا شَيْء سَمِعْته مِنْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول عِنْد الْكِسْوَة"الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ الرِّيَاش مَا أتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي ").

وهذا ليس كل شيء، فجاء قوله تبارك وتعالى مبيّناً عقب ذلك: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، وفي ذلك توثيق للعلاقة بين الظاهر والباطن، بين البائن، وبين الخفي، فيمكن للإنسان أن يتزيا بزي شرعي سواء أكان رجلاً، أم امرأة، لكنه يفعل ذلك ليخفي فجوره، فهو في الجوهر فاجر، وفي المظهر تقي، فبيّن الله عز وجل بأن العبرة ليست في المظهر، بل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، فتم في هذا المقام وصف التقوى باللباس كون الآية تتمحوَر حول اللباس، أي عليك أن تكون منسجماً بين ما تظهر، وبين ما تخفي، وأن تتقي الله فيما تلبس. والفرع الآخر من تفرّعات هذا الشطر من الآية الكريمة، يعيدنا إلى ﴿وَرِيشاً﴾، وهو تذكير للذين أفاض الله عليهم بالنعمة، ألاّ يظنوا بأنهم أفضل من الفقراء، أو يتعالوا عليهم، أو يبطروا، فقد يكون الفقير الذي يرتدي ثياباً بالية، يكون مرتدياً ثياب تقوى نفيسة في جوهره، وقد يكون الثري الذي يرتدي ثياباً نفيسة، يكون مرتدياً ثياب تقوى بالية في جوهره. فتبيّن لك الآية بأن الخير يكمن في ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىَ﴾، وهي الأساس لأي لباس ظاهري. وما هو هام في هذا المقام، هو التوافق بين اللباس المادي، واللباس المعنوي. يُروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال عن ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىَ﴾: (العمل الصالح)، وكذلك (السمت الحَسَن في الوجه).

﴿٢٧﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

بدأت الآية بمنادى مُضاف، إشارة إلى استئناف القول في ذات المحور:﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾. بشكل عام لا استثناء فيه، ويُسمى ذلك نداء علامة، لأنه إعلام للناس جميعاً بنسبتهم إلى أبيهم آدم، أما إذا جاء قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فذلك يسمى نداء كرامة.

الفتنة، هي إفساد الطاعة على المطيع، فقد أفسد الشيطان على آدم وحواء طاعتهما، و ﴿أَخْرَجَ﴾ هما ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ ويريد أن ﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ حتى يُخرجكم عن طاعتي، ويحرمكم الجنة التي خرَجَ منها ﴿مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾، فهو لايريد لكم الجنة بأي حال من الأحوال، وقد توعّدكم بذلك، فهو يريد أن تكونوا معه في النار التي تسبّبتم أنتم له بها، فلذلك طلب مني أن أنظره، وقد أنظرته، وفي ذلك اختبار لكم لتثبتوا أنكم تستحقوا الجنة، أم لا.

﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾، آدم رجل وحواء امرأة، ولكن تم تغليب الرجل على المرأة، واللغة العربية تثني، وتغلب في التثنية، مثل: (القمران) في تثنية القمر والشمس، والقمر مذكر، والشمس مؤنث، أو (الحسنان) في تثنية الحسن والحسين، لأن الحسن هو الأكبر.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾

﴿إِنَّهُ﴾الشيطان ﴿يَرَاكُمْ﴾ كما ترون بعضكم البعض، ليس ﴿هُوَ﴾فحسب، بل ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ القبيل، مِن القَبيلة، أي له أنصار من قبيلته، وهم شياطين الجن، يصطادونهم في غفلاتهم. ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾فقد قضت مشيئة الله أن يرَوا الإنسان، ولا يُرَوا منه. وقد ذكر ابن عبد البر خمسة أسماء للجن: (الجني العادي)، والذي يسكن البيوت، يسمَى (عُمّار)، والذي يتعرّض للصبيان (أرواح)، والمتمرّد(شيطان)، وإذا ازداد تمرّداً (عفريت).

وجاء فِي الصَّحِيحِ: «"إن عفريتاً من الجن تفلّت علي الليلة في صلاتي فهممتُ أن أوثقه في سارية المسجد ".

وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى".

يقول ذو النون: (إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً).

ويقول مالك بن دينار: (إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المجاهدة إلا من عصمه الله).

تبيّن الآية الكريمة بأن غاية الشيطان أن ينزع عنكم اللباس المادي الكامن في الثياب، واللباس المعنوي الكامن في الحياء، لأن أحدهما يتكامل بالآخر.

والوسوسة في هذا المقام، شبيهة بالفيروسات اللامرئية التي تنتقل إلى جسم الإنسان، أو إلى بعض الأجهزة الالكترونية، نتيجة الغفلة، فالفيروس يدخل بدنك نتيجة غفلة منك، كما أن الذي يبث الفيروس إلى جهازك الالكتروني، يستغل غفلتك، والفيروسات متفاوتة بتداعياتها وتبعاتها، من الزكام، إلى السرطانات، وما إلى ذلك، كما أن فيروسات الوساوس الشيطانية تتفاوت بتداعياتها وتبعاتها، وفي جميع حالات الفيروسات، فلاشيء يكون مجدياً قدر الاحتراز، والوقاية.

وما يثلج الصدر، هو ختام هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

اللا إيمان يكون بمثابة العَقد ما بين الإنسان والشيطان، فأساس ولاية الشيطان على الإنسان، اللا إيمان، ومتى ما آمن الإنسان بوحدانية الله، سَقَطَت عنه ولاية الشيطان، فولايته تكون﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالإيمان هو أعلى درجات الوقاية من وساوس الشياطين، واللاإيمان أعلى درجات الاستجابة لوسوساتهم. والشياطين هم أشرار الجن، أي هم شياطين الجن، فهؤلاء أولياء لأشرار الإنس، أي لشياطين الإنس، فالإيمان هنا بمثابة تزكية النفس من وباء الوساوس الشيطانية.

فكما أن جهاز المناعة القوي لدى الإنسان المعافى، يقاوم الفيروسات، وجهاز المناعة الضعيف تغلبه الفيروسات وتتمكّن من صاحبه وتفتك به، فإن جهاز المناعة القوي بالنسبة للإنسان يكمن في إيمانه، وجهاز المناعة الضعيف يكمن في لا إيمانه.

﴿٢٨﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِذَا﴾ارتكب الفاحشون الجدد ﴿فَاحِشَةً﴾، برّروها لأنفسهم تحت ذريعة أننا ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا﴾ فاقتدينا بهم، ﴿وَ﴾ - يتبجّحون بالقول- : ﴿اللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ، ونحن نطيع الله في أمره لنا باتباع ما كان عليه آباؤنا. ﴿قُلْ﴾ بيّن لهم يامحمد ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾ وأنتم تقولون ذلك تكهّناً لايستند إلى حقيقة. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَ﴾تنسبون إلى الله ما لم يقله.

وهذا تنبيه للغافلين الذين يعتقدون بأنّهم على صواب، ويؤمنون بجدوى ما هم عليه، وما قد قيل لهم بأن ما يتبعوه إنما هو بأمر الله. بعد بيان ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أتت الكلمة وعيداً بالألِف، بمعنى ﴿أَ﴾ تعلمون مغبّة أن تقولوا ﴿عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وإن كانت الجملة وَعيديّة، فهي بذات الوقت إخبارية، أي: ﴿أَ﴾ -نكم- ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

الباب الثاني عشر

القِســط

﴿٢٩﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، بالعدل والاستقامة ﴿وَ﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لأن المساجد هي بيوت الله التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ففي كل سجود وأينما كنتم، اتجهوا إلى القبلة. ﴿وَادْعُوهُ﴾ الهداية من اتباع الظنون، وكونوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾دون أن تشركوا به شيئاً، والإخلاص، أن تكون العبادة لله وحده، فالغاية الوحيدة من أي عبادة، تكون ابتغاء مرضاة الله، وأي غاية أخرى، سوف تنال من هذا الإخلاص.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾جملة مكثفة ومختزلة ودقيقة، فاعلم بأن الله الذي أتى بك، قادر أن يعيدك إليه، فـ ﴿كَمَا﴾ أنه بدأ بخلقك، فإن عودتك إليه، والعَودُ كالبدء. وإن كان ذلك يزيد المؤمنين صلاحاً في العمل، فإنه ينذر الكافرين بعاقبة الكفر، وهم ينكرون البعث: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾الواقعة٤٧ ، ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ★ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾النازعات١٠ ، ١١. يقول الله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ق١٥، ويقول﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾الروم٢٧ .

﴿٣٠﴾

﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

أمّا مَن يتبيَّن الحق بعد الذي كان فيه من ﴿الضَّلاَلَةُ﴾، فإن الله يهديه إلى الحق الذي ينشده بعد ذلك.

وأمّا مَن عاند واستنكر وأبى التبيان، فقد ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ أبقاه الله في ضلاله، ذلك أن أهل هذا الفريق الضال أبوا أن يقيموا وجوههم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾،

ويدعـــــوا الله﴿مُخْلِصِينَ لَـــهُ الـدِّينَ﴾، ليتطهّـروا مـن بـراثن الفاحشـة، حيـث ﴿إِنَّهُـمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّـهِ﴾، بعنـادهم ﴿وَيَحْسَـبُونَ﴾ يتوهّمـون بـذلك ﴿أَنَّهُـم مُّهْتَدُونَ﴾.

فبـذلك ﴿حَـقَّ عَلَـيْهِمُ﴾ حكـم ﴿الضَّـلَالَةُ﴾، أي اسـتحقوا هـذا الحكـم فأبقـاهم الله في ضلالهم، دون أن يهديهم.

وكلمة﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، جاءت بمعنى الحسابات الخاطئة الغير مبنيّة على دلائـل وثبوتيّـات، فلعلّك تحسب حسابات عديدة لأمر ما، أنتَ مقبـل عليـه، وتكون قـد أعـددتَ نفسك جيـداً لدخول ذاك المُستجَد بتلك الحِسابات التي حَسبتها؛ ولكن إزاء الواقـع تـراك في واد، والمستجَدّ في وادٍ آخر، ذلك أنّك بَنيتَ حِساباتك على تكهّنات وتخمينات، وليس على دلائل وحقائق.

فما يستند إليه هؤلاء، هي حسابات خاطئة ، لماذا؟ تجيب الآية: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ . فالله هو الذي بيده ملكوت كل شـيء، وهـو الـذي طَـردَ الشـيطان مـن الجنة، ولو كا الشيطان قادراً على عدم الخروج، لَما خَرَج، ولكن الله تعالى أخرجه رغمـاً عـن أنفـه ﴿مَـذْؤُوماً مَّـدْحُوراً﴾، ولم يملـك إلاّ أن يرضـخ لأمـر الله. فتبـيّن الآيـة لأصـحاب هـذه العقيدة بأن حساباتكم خاطئـة، وعلـيكم أن تعيـدوا النظـر فيهـا، فـلا تعقـدوا آمـالكم علـى الشيطان، لأنّه غير قادرٍ على إعطائكم خيراً يعجز عن إعطائـه لذاتـه، وأن لعنـة الله جرّدتـه من أي شكل من أشكال الشفاعة، وهو ليس مَلاكاً مِن أصلِ الملائكة، بـل هـو مـن الجـن، وقـد أكرَمَه الله، لكنه أسقَطَ عنه هذا التكريم بسبب استكباره وعصيانه ومكيدته للإنسان.

فـ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، بمعنى: لاتحسبوا أنكم ﴿مُّهْتَـدُونَ﴾، واحسـبوا أنّكـم في حِساباتكم هـذه غير مهتدين، وتلك هي الخطوط الحقيقية الأولى شَـطرَ خـروجكم مـن الفريـق الـذي﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، وانضمامكم إلى الفريق الذي ﴿هَدَى﴾.

الباب الثالث عشر
الاستمتاع بالزينة والطيبات

عندما تذهب إلى بيت شخص ما، فإنك ترتب نفسك، وتتطيَّب، وتتمشَّط، وترتدي ثياباً جديدة، وتتهَندَم، وما إلى ذلك، فتكون بذلك قد أخذتَ زينتك ﴿عِندَ كُلِّ﴾بيت من البيوت التي تدخلها.

﴿٣١﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

عندما تذهب إلى بيت شخص ما، فإنك ترتب نفسك، وتتطيَّب، وتتمشَّط، وترتدي ثياباً جديدة، وتتهَندَم، وما إلى ذلك، فتكون بذلك قد أخذتَ زينتك ﴿عِندَ كُلِّ﴾بيت من البيوت التي تدخلها.

ولكنك عندما تذهب إلى بيت الله -وكل مسجد هو بيت من بيوت الله- لعلّك لاتفعل نصف ما تفعله بالنسبة للاستعدادات في الذهاب إلى بيوت الناس، والبعض يذهب ببيجامة نوم مهترئة، أو بثياب بالية، أو متسخة، تفوح منه روائح كريهة، ويكون شعره أجعداً، وشعرات ذقنه مشتتة، ويكون وجهه جهماً، على نقيض ما يذهب إلى أي بيت من بيوت الناس. فتلك الاستعدادات، وذاك الإشراق، وذاك الوجه المبتسم، وتلك الثياب الجديدة، وذاك العطر، وما إلى ذلك، فكلّه مُخصّصٌ لبيوت الناس، أمّا بيوت الله، فلاشيء من ذلك، بل على النقيض.

في هذه الآية الكريمة، ينبهّك الله تعالى إلى هذه المسألة، لعلّك لاتعلم، فيبيّن لك: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فالأولوية في كل تلك المظاهر ، وكل تلك الاستعدادات، تتخذها وأنت متجه إلى بيت الله، وهو أولى بهذا الحُسن المادّي والمَعنوي من أي بيت دونه. ويُستحسَن أن يغار المؤمنون على بيوت الله كغيرتهم على بيوتهم أو أكثر، فيحافظوا على حاجات المسجد، كل بمقتضى استطاعته، فإن انتبهتَ إلى سجّادة مهترئة، استبدلتها بجديدة، إن وجدتَ إبريقاً مثقوباً، استبدلته بإبريق جديد، إن وجدتَ صنبوراً عاطلاً، استبدلته بجديد، إن وجدتَ مصباحاً لايضيء، استبدلته بجديد، وما إلى ذلك ممَا يمكن أن يقوم به كل فرد وفق استطاعته، دون أن يُخبر أحداً. فترى بعض الميسورين الذين يرفلون ويتقلّبون في نِعَم الله، لايحرّكهم ساكن وهم يرون مسجد الحي مَعدوماً من وسائل الراحة والنظافة، وبئس الأحياء التي تكون بيوتها فخمة راقية، ومساجدها فقيرة معدومة، فمِنَ الأغنياء، أغنياءٌ لايرضون أن يكون أثاث بيوتهم أفضل من أثاث بيت الله في حَيّهم، لا يرضون أن تكون زينة بيوتهم، أفضل من زينة بيت الله. فيخجلون من الله تعالى، ويحسبون حِساباً لساعة يلقون فيها الله، فيسألهم هذا السؤال، فهؤلاء تقشعرّ أبدانهم حياءً من الله.

فكم مِن بادرة لطيفة عند رجل مقتدر، وهو يرى شخصاً فقيراً يدخل المسجد بثياب رثة، فيأخذه بسيارته، ويبتاع له ثياباً جديدة ثمينة، حتى يأتي بها إلى المسجد، فكم مِن مواقف نورانية يمكن للإنسان أن

يفعلها، وهو يعبّر عن حبه لله، وعن غيرته الشديدة على بيوت الله. فذاك الغني لم يرفل له جفن وهو في بيته ينظر إلى فخامة الأثاث، وإلى ألوان السجّاد، وأناقة الديكور، وزخرفة البناء، ويتخيّل ما عليه بيت الله من فقر، فيخرج من بيته في اليوم التالي، ويقرّر ترميم بناء المسجد بزخرفة لاتقل عن زخرفة بيته، وكسوة لا تقل عن كسوة بيته، وهو يقول: خجلتُ يا رب أن أقيم في بيت أجمل من بيتك. فلعلّ موقفاً واحداً يُعادل عمراً من العبادة،

فإن كنتَ كريماً، يبيّن الله بأنك لستَ أكرم منه، وأنه أكرم منك، فيجازيك بما هو أكثر، وإن غرتَ على بيته، يكون أكثر غيرة على بيتك، فهناك أناس من أصحاب المواقف الكبرى التي يحفظها الله لهم. يستخلصهم من سائر الناس، فهذه أمور واردة، وهي تكون لأناس استثنائيين تقرّبوا إلى الله بأعمال استثنائية خالصة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، فحفظها الله لهم. فإن أراد الله تعالى أن يكرم إنساناً، لايعفيه فقط من حقوقه عليه، بل يجعل الناس أيضاً يعفون عن حقوقهم عليه. أخرج أبو يعلى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أنس قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : "رجلا جثيا من أمتي بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي قال الله: أعط أخاك مظلمته قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء قال: يا رب يحمل عني من أوزاري" وفاضت عينا رسول الله بالبكاء ثم قال: "إن ذلك ليوم عظيم يوم تحتاج الناس إلى أن يتحمل عنهم من أوزارهم فقال الله للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا لأي صديق هذا لأي شهيد هذا ؟! قال: هذا لمن أعطى الثمن قال: يا رب من يملك ثمنه ؟ قال : أنت قال : بماذا ؟ قال: بعفوك عن أخيك قال: يا رب قد عفوت عنه قال: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة" ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة ").

فإن بَدرَت منه بادرة كَرَم رغم ما فيه من ضيق، وإن عَفا وسَترَ في موقف متنازلاً عن حقوقه، وإن صبر واحتسَب على مصيبة كبرى أصابته، وفوّض أمره لله، وإن أقدم على إنقاذ حياة شخص رغم خطورة الموقف. فهناك أعمال حتى الناس يقفون أمامها بانبهار ، لأنها لاتبدر إلاّ من أناسٍ استثنائيين.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. امضوا إلى المساجد بإشراق، بزهو، بلياقة، بخطوات واثقة، بعز، بافتخار، فلا بيوت، ولا أمكنة قط أفضل من هذه التي تمضون إليها.

فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: (كَانَتْ الْمَرْأَة تطُوف بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَة وَتَقُول: مَنْ يُعِيرنِي تِطْوَافًا ؟ تجْعَلُهُ عَلَى فرْجهَا، وَتقُول: الْيَوْم يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فلا أُحِلّهُ، فنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾). وحسب القاضي عياض، فإن المرأة التي قالت هذا الكلام هي ضُبَاعَة بِنْت عَامِر بْن قُرْط.

وَأخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: (كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاةً إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَابًا فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ)، وَعَنْهُ:(أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَصَلُوا إِلَى مِنًى طَرَحُوا ثِيَابَهُمْ وَأَتَوُا الْمَسْجِدَ عُرَاةً).

وَرُوِيَ (أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلَّا فِي ثِيَابِنَا وَلَا يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْبًا وَلَا يجد من يَسْتَأْجِرُ بِهِ كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَإِمَّا أَنْ يَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّى اللَّقَى).

وقد أبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في حجته سنة تسع كما يُروى عندما أمر أبا بكر رضي الله عنه أن ينادي في موسم الحج:" لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ".

﴿وكُلُواْ﴾تناولوا أطيب الطعام ﴿وَاشْرَبُواْ﴾ ألذ الشراب، روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا من غير مخيلة ولاسرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده". وممّا يُروى في أسباب نزول هذه الآية أن بني عامر ما كانوا يأكلون في أيام حجهم إلاّ قوتاً، ويمتنعون عن تناول الدسَم، اعتقاداً منهم بأنهم يعظّمون بذلك حجّهم. وعندما قال المسلمون للنبي صلى الله عليه وسلّم بأنهم أحق أن يفعلوا ذلك، أنزل الله عز وجل ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾. وهذا بيان بعدم جواز النهي عمّا أحل الله استناداً إلى توقّعات وظنون.

﴿وَ﴾في ذلك ﴿لاَ تُسْرِفُواْ﴾ لا تنفقوا أموالكم فيما لاطائل منه، والإسراف كالهدر، أي تهدر مما أنعم الله عليك. ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾الإسراء٢٩، فلا تحرم نفسك، ولا تزيد عن حاجتك﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. حتى لا تخرجوا من محبة الله لكم، فتنقلبوا من النعيم إلى الشقاء، فحافظوا على محبة الله لكم بعدم الإسراف.

﴿٣٢﴾

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

إن كان الله هو الذي أحلّ زينته ﴿الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من الثياب وما يمكن أن يتزيّن به الإنسان ليبدو بمظهر أنيق، ﴿وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المأكل والمشرب، وقد ﴿أَخْرَجَ﴾ -ها- ﴿لِعِبَادِهِ﴾ من النبات، والحيوان، والمعادن ، وكل ما سخّره الله لذلك، فـ ﴿مَنْ﴾ يملك الحق كي يحرّمها على العِباد، أو على نفسه.

﴿قُلْ﴾لهم يا محمّد أن ﴿زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ﴿هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أن تحرّم شيئاً على نفسك، أي أن تحرم نفسك منه، فتعيش حالة حرمان، والنعمةُ بين يدَيك. فبعض الناس يحرّم حلال الله سواء على نفسه، أو على عياله، أو على الآخرين، وهو لا يملك حق التحريم، لأن الله الذي يملك ذلك، لم يحرّمه. وجاءت كلمة ﴿لِعِبَادِهِ﴾ مفتوحة لتشمل الناس جميعاً بصرف النظَر عن الإيمان، أو عدم الإيمان، فهي من حق كل إنسان كائناً مَن كان، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾يونس٥٩ . لكن تأتي جملة الفصل في الآية وهي: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ليكون النعيم خالصاً للمؤمنين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ دون الكافرين. ﴿كَذَلِكَ﴾ على هذا النحو ﴿نُفَصِّلُ﴾نوضح ﴿الآيَاتِ﴾ الأدلة والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾يتدبّرون هذا التفصيل في آياتنا.

﴿٣٣﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

ما يؤذي الناس، فقد ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾، فكما أنه أحل الذي يطيب به الناس، فإنه ﴿حَرَّمَ﴾ الذي يستفحش به الناس، سواء أكان ارتكاب هذه الفواحش ظاهراً للعيان، أو خلسة وخفية.

وفي ذلك ردّ على الذي يبيح لنفسه ارتكاب الفواحش في السر، فهو يتساوى مع الذي يرتكبها في الجَهر، وما هو فرق بين السر والجهر رغم تساوي العِقاب، فإن الجهر يزيد في العِقاب، إذا أدّى إلى إفشاء المعصية واستدراج الناس إليها، فهو لم يكتف بإفساد نفسه كما لدى الذي ارتكبها خفية، بل سعى إلى نشر رقعة الفساد في الأرض، وروّج للفواحش وكان من الدعاة إليها.

وفي الحديث: " إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا" وذلك للتمييز بين المبتلي، وبين المتعمّد في نشر المعاصي والترويج لها وإشاعتها في الناس. وكلمة الاستتار، لاتعني الاستمرار، ولا تعني مباركة المعصية المستمرة، فهي معصية في وجهيها الخفي والعَلَني. والستر من الحياء، حياء من الله، وحياء من النفس، وحياء من الآخرين، والحياء من الله، هو رأس الحياء. فالذي يستحي من الله، وإن ارتكب معصية، فإنه لايتمادى فيها، والذي لايستحي من الله، يتمادى في معصيته. ولعلّ الإنسان الذي يستحي، يكون أقرب إلى التوبة من الذي لايستحي. بل حتى الذي لايستحي في إعلان فاحشته، فإن الحياء هو خطواته الأولى نحو التوبة، فيستحي من الله، وهذا ما يجعله يستحي من نفسه، ويستحي من الناس، ثم يقبل على التوبة.

فإن زَنَت امرأة، تكون قد زَنَت فقط، أمّا إذا صوّرَت هذا الزنا وأشاعته في الناس، فتكون قد زَنَت، وإضافة إلى ذلك، تكون قد روّجت للزنا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" " لَا أحد أغْيَر مِنْ اللَّه فلِذَلِكَ حرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ".

﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ثم فصلَ ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ بأن أضافهما بصيغة المفرد بواوَين معطوفين على ﴿الْفَوَاحِشَ﴾. ﴿وَالإِثْمَ﴾ من الذنوب القبيحة التي يقبح بها الإنسان ﴿وَالْبَغْيَ﴾ بمعنى الاستقواء على الآخرين، والبطش بهم، وقهرهم، وأكل حقوقهم بالباطل ، فعندما يتجاوز الإنسان الحدّ، يكون قد بغى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا عائد لـ ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ وكذلك إلى الجملتين الختاميتين من الآية الكريمة: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. ذلك أن الإنسان لايملك حق هذا التجاوز، وهو من خلال هذه الأفعال المذكورة، يتجاوز ﴿الْحَقِّ﴾ ، فيفعلها وفق الباطل.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ الشرك الذي لا أساس له من الصحة، فهو شرك يخلو من البرهان والحجّة. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾افتراءً دون أن تتحقّقوا ممّا ﴿تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ﴾.

الباب الرابع عشر

التقوى والصلاح

﴿٣٤﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

لعلّ الأمة في الآية لا تعني القوم بأكمله ما دمنا ضمن سياق المحوَر الذي نحن فيه، فالأمة هنا هي مجموع الكفار الذين يجتمعون على عقيدة الكفر، وهذا المجموع هو جزء من القوم الذي تنتمي إليه هذه الأمة، لأن منها ما يخالفها، ويؤمن.

فالأجل هو العقاب الذي يوقعه الله تعالى على هذه الجماعة الكافرة **﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾** لتلقي العقاب **﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾**.

وهذا من شأنه أن يرفع اللبس الذي قد يقع فيه بعض المؤمنين عندما يرون بعض أشكال النعيم عند الكفار، وأهل الفجور، ثم أن البعض يتمادى على كتب الله ورسله:**﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾**- ما يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم - **﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** الأنفال٣٢ . ولكن الله يمهل الإنسان ولا يعاجله بالعقاب رحمة منه، وفي ذلك إتاحة له كي يتوب، ويتراجع، ويصلح من شأن نفسه. أمّا الذين يلبثون في كفرهم بعدما يتوب منهم مَن يتوب، فإن الله ينصر المؤمنين عليهم، وقد يطول ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾يوسف١١٠. وذلك من حكمة الله في الناس.

﴿٣٥﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿يَا﴾كافة﴿يَا بَنِي﴾ ذريّة ﴿آدَمَ﴾ دون استثناء، ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ رجال ﴿مِّنكُمْ﴾ وفيكم، أصطفيهم كي يحملوا إليكم ﴿آيَاتِي﴾ التي تبيّن لكم الحقائق، وتضع لكم منهاج حياة قويمة سليمة طيبة.

﴿آيَاتِي﴾ دلائلي وثبوتيّاتي اليقينية الدامغة التي لاريب فيها، فهؤلاء ﴿يَقُصُّونَ﴾كلمة غنية تتكامل مع كلمة ﴿آيَاتِي﴾. فهذه الآيات تحتوي على قصص تعنيكم، ﴿يَقُصُّونَ﴾-ها-﴿عَلَيْكُمْ﴾ لتأخذوا منها العظة، وتستقيم بها مقوّمات حياتكم، فتكونون حقيقيين أقوياء، تقفون على حقائق، لا مرتابين واهنين، تقفون على تكهّنات. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ يمدّونكم بالحقائق والبراهين من خلال ﴿آيَاتِي﴾ التي يقرؤونها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ .

﴿فَمَنِ﴾ مِنكم ﴿اتَّقَى﴾ أخذ العِبرة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ من شأن نفسه ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ سواء في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾دنيا وآخرة، لأن التقوى والصلاح، حصانة ومناعة في مواجهة أي خوف أو حزن، فهم لايخافون، ولا يُخاف ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ، ولا ﴿يَحْزَنُونَ﴾، ولا يُحزَن ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

الباب الخامس عشر

ظلم الافتراء على الله

﴿٣٦﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أمّا ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن قصّها عليهم رُسُلنا، و ﴿اسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها وأخذ العِظة منها، ﴿أُوْلَـئِكَ﴾من الأشقياء الذين اتبعوا أهواءهم وتكهّناتهم، فضلّوا عن سواء السبيل، وبذلك فقد جعلوا من أنفسهم من سَكنة ﴿النَّارِ﴾ الذين يخلدون ﴿فِيهَا﴾ فهؤلاء ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله، وليس هذا فحسب، بل ادّعوا بأنهم أكبر من الإيمان بها.

﴿٣٧﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾

﴿فَمَنْ﴾، جاءت استفهامية تعجّبية﴿فَمَنْ﴾، أي لا يوجد مَن هو ﴿أَظْلَمُ﴾أعظم ظلماً ﴿مِمَّنِ﴾ مِن الذي ﴿افْتَرَى﴾ تقوّلَ ﴿عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ ما لم يقل، وقال أنّه مِن الله، ومِن ذلك أن ينسب إلى الله الولد، أو الشريك، أو الصاحبة. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أنكَرَ آيات الله وكذّبها. ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ فقد ساوى الله تعالى بين إثم التقوّل، والتكذيب، فالطائفة الأولى دَعَت إلى التقوّل الذي لم يقله الله، والثانية نَهَت عمَا قال الله، فقد تساووا في الإثم من خلال ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ ، لكن رغم هذا الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يحصلون على حقوقهم المكتوبة لهم من الأرزاق والأعمار.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، وعندها يقولون لهم الملائكة تبكيتاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾. سواء بالدعوة إلى الافتراء الذي افتريتموه على الله، أو بتكذيب آياته واتباع أهواءكم في عبادة غير الله. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وهذا بذاته اعتراف بالخيبة، أي كنا نعبد دون الله ما قد غاب ﴿عَنَّا﴾ ولا يملك أن ينفعنا بشيء، ولولم نكن نعبدهم، كذلك ما ملكوا أن يضرّونا بشيء. ﴿وَ﴾- استنـــــاداً إلى هذه

الحقيقة التي تجلّت لهم-: ﴿شَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾. أقرّوا بأنّهم كفروا عندما ادّعوا شركاء ﴿مِن دُونِ اللّهِ﴾.

الباب السادس عشر

المُضِلون والمُضَلون

﴿٣٨﴾

﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾

الدخول هنا بمعنى الانضمام، انضمّوا إلى ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ سبقتكم بالدخول ﴿مِّن الْجِنِّ﴾ كون للجن أسبقية الخلق ﴿وَالإِنسِ﴾ الذين سبقوكم لتكونوا معاً ﴿فِي النَّارِ﴾. فهو دخول انضمام الذي يكون من كافة أمم الجن والإنس، ومن كافة القرون.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾ انضمّت ﴿أُمَّةٌ﴾ جديدة إلى ﴿أُمَّةٌ﴾ سابقة ﴿لَّعَنَتْ﴾ كالت اللعنة على ﴿أُخْتَهَا﴾. فكما أن أهل الجنة يُهنؤون بعضهم البعض بالفوز: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ★ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ★ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ★ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾الطور ٢٥- ٢٨ ، فإن أهل النار يلعنون بعضهم البعض بالخيبة وتحدث مناوشات وملاسنات بينهم: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾العنكبوت٢٥ .

فأهل النار لا يحترمون بعضهم بعضاً، لأنهم يفتقدون الطيب، وفاقد الطيب لايستطيع أن يكون طيباً مع نفسه، أو مع غيره، على نقيض أهل الجنة الذين يحترمون بعضهم البعض، لأن الطيّب يستطيع أن يكون طيباً مع نفسه، ويكون طيباً مع غيره. فمن هنا تعلم أن أهل الطيب لا يحقدون على أهل الخبث، وأهل الخبث يحقدون على أهل الطيب، وينظرون إليهم نظرة لؤم على ما هم به، فهؤلاء ينضمّون إلى بعضهم البعض رتلاً رتلاً.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً﴾ لم يبق أحد من مستحقي النار خارجها، وقد ضمّتهم، **﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا﴾**الأمّة التي اتبعت فكرة التكذيب على الله دون أن تتحقق، تشكو الله الأمّة التي ابتدَعَت وأنشأت فكرة التكذيب. فإن وجَدتَ شخصاً يعبد الشيطان، وقلت له: لِمَ تعبد الشيطان؟ قال: هذا ما وجدتُ عليه أبي، ويقول أبوه: هذا ما وجدتُ عليه أبي. وعلى هـــذا النحـــو، فإن

كل أمّة تتبع أختها في الضلال، فتكون كل أمّة قد أضلّت أختها حتى إذا بلغنا الأمّة الأولى التي ابتدَعَت وأنشأت فكرة عِبادة الشيطان، وعلى هذا النحو التقوّل بأن الله له أبناء، أو شركاء، أو صاحبة، وكل ما تتفرّع عنه فكرة الضلال، فعند وقوع العقاب تلعن كل أمّة تلو أمّة أختها بشكل تصاعدي حتى بلوغ الأمّة الضالّة المبتدعة لفكرة الضلال. فكل أمّة تريد أن تحمّل مسؤولية الضلال لغيرها أمام الله وهي تقول: **﴿رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾**، فتظهر رغبة الانتقام لديهم، فشخصٌ غرّر بك واتبعته حتى انتهى الأمر بك إلى السجن، فتشرح للقاضي بأنك كنتَ في حال سبيلك وأن هذا الشخص قد غرّر بك واستدرجك وجعلك تتبعه، فتريد للقاضي أن يُنزل به عقوبة ضعف عقوبتك، فتشعر برغبة الانتقام من هذا الذي أضلّك وانتهى بك إلى هذه النهاية المروعة. فالحذر كل الحذر من رفقة السوء، والحض كل الحض على رفقة الطيب، فإن أردت أن تتخذ صديقاً، فليكن صديقاً طيباً يشهد الناس له بالطيب، وله مواقف طيبة مشهودة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:" إنما الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً ، ونافخ

الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة "[37] . الآية الكريمة، تحذّرك من الغفلة، وأن تلبث يقظاً حتى لا يُغرَّر بك تحت أي ذريعة، لأنه عند وقوع الواقعة، سيتخلّى الجميع عنك، وستدفع وحدك الثمن الباهظ . ومن هنا استخلص أهل القانون مقولة: (القانون لايحمي المغفلين). وذلك حتى يلبث الناس في يقظة لعدم تجاوز القانون . فالضعف هو الزيادة، أي زدهم عذاباً أكثر من عذابنا. ضاعف لهم العذاب في النار، أي عذاب ضلالهم، وعذاب إضلالنا، فقد زيّنوا لنا الضلال حتى أوقعوا بنا. وكلمة ﴿ضِعفاً﴾ إقرار بأن العقاب هو عدل وحق عليهم، ولم يُظلموا. فيا رب، هذا العقاب الذي أنزلته بنا هو حق وعدل، ونحن نستحقه، كوننا نَبهنا من أهل التقوى، فاستهزأنا بهم، وكم من قائل أراد نصحنا، وبيَّن لنا مَغبّة ما كنا فيه من ضلال بدافع المحبة، وبدافع أخوّة المشاعر الإنسانية، ولكننا آثرنا أن نبقى في غفلتنا، واتباعنا لهؤلاء الذين أضلّونا. الآن اكتشفنا كم أن دعاة الاستقامة كانوا يحبّوننا، وكم أن دعاة الضلال كانوا يبغضوننا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾. ولعلّ المعنى أنّكم أيضاً كنتم تضلّون غيركـــم

﴿وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ . فذهابكم إلى تجمّعات وملتقيات الضلال كان يعني أنّكم تؤيّدونهم وتؤازرونهم، سواء بحضوركم، أو بأموالكم. ودعاة الضلال كانوا يعتاشون من أموالكم ويستقوون بها، وتلك المقرّات التي بُنيَت لترويج الضلال، شُيّدَت أعمدتها بأموالكم. ويشمل ذلك كل المقرّات والمناشط التي تروّج للضلال ومن ضمنها: قنوات التلفاز، ومحطّات الإذاعة، والصحف، والمجلاّت، والكتب، وسائر أشكال المنشورات، ورقية كانت، أم الكترونية.

قال الزهري في تعريف الضعف: (الضعف ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور).

فالذي يروّج للضلال، يستقطب الناس، ويستدرجهم إليه، وعلى قدر ما يوسّع من دائرة الضلال، ويزيّنه للناس سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، سواء بشكل علني، أو بشكل خفي، يتضاعف عليه العذاب.

---

[37] رواه البخاري ج٧- ص ١٢٥- ط دار الفكر- د. ت

وكلمة ﴿أمَم﴾، مفتوحة لتشمل جميع الأمم التي ﴿خَلَت من قبلِكُم مِّن الجنِّ وَالإنـسِ﴾ ولا يُستثنى منها أحد، فكل جيل جديد يحيل الذي سبقه إلى (قبـل)، وهـذا الجديـد يتحـوّل إلى(قبل) بالنسبة لجيل جديد آخر. فهؤلاء ينتمون إلى جميع الحقب، ومن سائر الأمـم. فـلا تغرّنك المظاهر، فلعلّ فرقة ضالة تتمكّن من بناء مسجد في مكان ما، تدعو فيه إلى الضلال، فذلك في الظاهر مسجد، وله قبّة مسجد، ويؤذّن فيه، وما إلى ذلك، لكنّه في الباطن يـدعو إلى الضلال، وهو لايمت إلى بيت الله بشيء سوى بالمظهر. وهذا له امتداده، فقد سبق للمنـافقين أن بنوا مسجداً لغاية التفرقة بين المسلمين، وذلك بأمر مـن أبـي عـامر الراهـب كـي يلحقـوا الضـرر والتفرقـة بـين المسـلمين، فيصـلّي فيـه الـبعض ويـترك الصلاة في مسجد قبـاء الـذي يصلّي فيه المسلمون. فقال الله جل شأنه: ﴿وَالّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِـرَاراً وَكُفْـراً وَتَفْرِيقـاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾التوبة١٠٧ . وقد تم حرق هذا المسجد وهدمه.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حـديث عـن الأشـعري : "إن مـن فـارق الجماعـة قيـد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه إلا يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثـى جهـنم" . فقـال رجـل : يـا رسـول الله وإن صـلى وصـام ؟ . قـال : "وإن صـلى وصـام فـادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله"[٣٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول : يـارب أنـا الصـلاة . فيقـول: إنـك علـى خـير. ثـم تجـيء الصدقة فتقول: يارب أنا الصدقة. فيقول: إنك على خير . ثـم يجـيء الصـيام فيقـول: يـارب أنا الصيام . فيقول : إنك على خير .

[٣٨] رواه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح

ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: إنك على خير . ثم يجيء الإسلام فيقول: يارب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي"[٣٩].

وقال الدارمي : (أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدّث أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟

قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج ، فلما خرج قمنا إليه جميعا فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفا أمرا أنكرته ولم أرَ والحمد الله إلا خيرا ، قال: ما هو ؟ قال: إن عشت فستراه قال: رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة ، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة ، ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة ، قال فماذا قلت لهم ؟ قلت: ماقلت لهم شيئا انتظار رأيك وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع حسناتهم شيء ؟ ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا: يا أبا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لايضيع من حسناتكم شيء ، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ، هؤلاء صاحبة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي ما أردنا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا "أن قوما يقرءون القرآن لاتجاوز تراقيهم"،

وأيم الله لعل أكثرهم منكم ، ثم تولى عنهم . فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج. وفي الصحيح: "من فارق الجماعة شبراً فميتته جاهلية".

ولعلّ خطيباً يستغل منبر بيت الله ليحقق لنفسه من خلاله مآرب شخصية، فتكون غايته من المنبر، غاية وصولية في مراتب دنيوية. ٠ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين

---

[٣٩] رواه أحمد

قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر فيها إلا قليلا"[40] يقول علي بن أبي طالب للّذين يتزيون بزي الإسلام ويبنون مساجداً في سبيل تحقيق الفرقة في الناس: (أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه، كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها). ويصف الذي يفتي لهؤلاء: (قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو في لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لايدري أصاب أم أخطأ ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب)[41] . وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وأنا اسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشرّ فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟

قال: "نعم" ، فقلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال: "نعم وفيه دَخن " قلت: وما دَخنه ؟ قال: "قوم يستنون بغير سنّتي ويهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر"، قلت: فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: "نعم فتنة عمياء ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها" قلت: يا رسول الله صفهم لنا قال: "قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا" قلت يا رسول الله ما تأمرني إن أدركت ذلك ؟ قال : "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم" قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك") .

فاعلم أن أي مقرّ يُدعى فيه إلى الحق والهداية والتقوى والاستقامة والتآلف والتعاضد بين المسلمين جميعاً، فهو بيت من بيوت الله مهما كانت هيأته متواضعة، حتى لو كان عبارة عن غرفة صغيرة في دائرة، فهذه الغرفة هي بيت الله في تلك الدائرة.

---

[40] أخرجه مسلم في صحيحة: كتاب المساجد باب استحباب التكبير بالعصر رقم: ٦٢٢ . وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب في وقت صلاة العصر رقم ٤١٣، والترمذي في سننه كتاب المواقيت، باب ما جاء في تعجيل العصر رقم ١٦٠

[41] نهج البلاغة –ج١ ط٢ – دار الأندلس– بيروت ١٩٦٣

والمدير اليقظ، ينتبه إلى هذه الحقيقة، فتراه لا يأذن أن يكون فرش وأثاث وديكور غرفته، أفضل من فرش وأثاث وديكور غرفة الله، ولا يأذن أن يكون موقع غرفته أفضل من موقع غرفة الله، ولا يأذن أن تكون سعة غرفته أرحب من سعة غرفة الله في الدائرة التي جعله الله مديراً لها. فهو يستحي من الله إن لم يكن ذلـــــــك، فتراه عندما يزوره الناس في دائرته، فإنه يأخذهم لزيارة غرفة الله في تلك الدائرة، لأنها تكون أفضل وأجمل وأبهى الغرف في الدائرة. ولكن المدير الجاحد لأفضال لله عليه، لايعنيه ذلك بشيء، فتكون غرفة متصدّعة الجدران، رثة السجاد، كريهة الرائحة، رديئة الإنارة، سيئة الموضع.

﴿٣٩﴾

﴿وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

تقول كل أمة للأمة التي اتبعتها، ويجوز أن يقول كل شخص للشخص الذي اتبعه: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. ونقيض الفضل الأذى، أي أنكم أذيتم أنفسكم باتباعكم لنا، واذيتمونا أيضاً، فقد كنتم تؤازروننا على الضلال، وتجعلون مسيرة الضلال مُمكنة ومُستأنفة من بعدنا، فلا تبرؤوا أنفسكم وتحمّلوننا كل الإثم، ﴿فَذُوقُواْ﴾ معنا ﴿الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ المؤدّية إلى الجنة مفتوحة للذين آمنوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وتواضعوا لها، وأصلحوا العمل، ولكن ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ﴾ يدخل ﴿الْجَمَلُ فِي سَمِّ﴾ ثقب إبرة ﴿الْخِيَاطِ﴾.

فـ﴿الْجَمَلُ﴾مهما حاول، فإنه لايجسر أن يدخل ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، ويبقى دون ذلك. فالمعنى أن الذين يدعونكم إلى الضلال على أنه الطريق إلى الجنة، كمن يدعون إلى دخول الجمل في ثقب إبرة ﴿الْخِيَاطِ﴾، فإن استطاعوا ذلك، فإنهم سيستطيعون أن يدخلوكم الجنة. فالذين يزيّنون لكم الضلال على أنه يوصلكم إلى الجنة، مثلهم كمثل الذي يزيّن للجمل ولوج ثقب إبرة ﴿الْخِيَاطِ﴾.

و﴿حَتَّى﴾ هي إشارة إلى أنهم لو استطاعوا أن يجعلوا الجمل ﴿يَلِجَ﴾ في ثقب إبرة ﴿الْخِيَاطِ﴾، سيصدقونكم القول بدخول الجنة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾. فهذا هو الجزاء الذي يلقاه المجرمون من الله تعالى، نظير ما قدّموا من أفعال إجرامية، فهم يلبثون دون الجنة ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. وقد وصمهم الله بـ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾لأنهم أجرموا بحق أنفسهم، وأجرموا بحقوق الآخرين عندما ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله ﴿وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان والعمل بها. فالتابع والمتبوع اجتمع في وصمة الإجرام وأصبح سواءً في سواء، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾. نجعلهم مجتمعين مع بعضهم البعض في جهنم، كما كانوا يتآزرون ويتواصلون مع بعضهم البعض في التكذيب والاستكبار من كافة العصور.

الباب السابع عشر

مِهاد وغواش الظالمين

﴿٤١﴾

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

المهاد هو الفراش، فهم يفترشون جهنم، والغواش جمع غاشية، وهو الشيء الذي تقي نفسك به، فتجعله وقاية بينك وبين حر شديد. فإن كنتَ في شمس في ذروة ظهيرة الصيف الشديد الحرارة، تبحث عن أي شيء تتخذه وقاءً بين بدنك العاري من الثياب، وبين أشعة الشمس الملتهبة. فالآن تضعك الآية الكريمة أمام هذا التصوّر، والغاية من ذلك، حتى تصلح من شأن نفسك إن كنتَ فاسداً، حتى تعيد حقوق الناس إن كنتَ أخذتها منهم بالباطل، حتى تنتهي من الاعتداء على أعراض الناس، حتى تنتهي من الوشاية، والرياء، والنفاق، وفي كل ذلك حتى ترحم نفسك من الإرهاق الفكري، والاضطراب النفسي، والقلق، والمكائد، فتنعم بصفاء الذهن، وهدوء الأعصاب، وسكينة النفس. وتتحوّل من إنسان شرير إلى إنسان خيّر، من إنسان ضار إلى إنسان نافع، من إنسان مزدوَج إلى إنسان سَوي، من إنسان كاذب إلى إنسان صادق، من إنسان زان إلى إنسان عفيف، فإن كان بك شيء من ذلك، تنبّهك الآية كي تقلع عنه، وإن لم يكن، فتنفعك الآية بأن تجعلك محافظاً على ما أنت فيه من صلاح واستقامة، وتسعى إلى الاستزادة.

كانت خاتمة الآية السابقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾. واختتمت هذه الآية بـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. فلا تتوسّم عدلاً من إنسان مجرم، فهو قد ظلم نفسه، وظلم غيره، فمجرّد تنفيذ الجريمة هو تحقيق للظلم لنفس مرتكب الجريمة، وللمجني عليه. وكلمة ﴿الظَّالِمِينَ﴾في هذه الآية تغني اشتقاقات معاني كلمة ﴿المُجْرِمِينَ﴾في الآية السابقة، وأخرجت الجريمة من حصرها في القتل لتشمل سائر ما يمكن أن يلحق الأذى والضرر بالنفس، أو بالآخر. فكل ظلم يجعل من الظالم مجرماً، وكل جريمة تجعل من المجرم ظالماً، فقد جعلت الآيتان العلاقة متداخلة بين الجريمة والظلم.

الباب الثامن عشر

التكليف

﴿٤٢﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

تريك الآية أحوال الصالحين المستقيمين في الجانب الآخر﴿وَالَّذِينَ﴾من عموم ذرية آدم في كل زمان ومكان ﴿آمَنُواْ﴾بما أنزل الله، ولم يكذّبوا ولم يستكبروا ﴿وَ﴾ تفاعلوا مع إيمانهم بأن ﴿عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، اتبعوا شرع الله وانتهوا عمّا نهى عنه. وجاءت عبارة : ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ لتراعي بعض تداعيات النفس، جاءت كلمة ﴿نَفْساً﴾ دقيقة لتخاطب النفس البشرية، وما يمكن أن يتداعى عنها، فإن وقع الإنسان في زلّة في غفلة ما، عليه أن ينتبه ويتراجع ويستغفر ربه، لأن الشيطان يريد أن يستدرجه بتلك الزلّة للاستمرار، ويزيّنها له حتى يأخذ من تلك الزلّة ذريعة للاستمرار. فنفس الإنسان تميل إلى الذنوب ، والمؤمن يتخذ من ذنب أذنبه وسيلة للمزيد من الاستغفار والتوبة. ولعلّ في كلمة ﴿وُسْعَهَا﴾ أن الإنسان لايسعه أن يعيش حياته دون ذنوب، ومهما حاول فلن يكون بوسعه ذلك لأن جبلة النفس البشرية لا تتسع لذلك، بل يمكن للذنب أن يجدّد الإيمان، فلعلّ ذنباً ارتكبه مؤمن صالح، جعله يعود إلى الصراط المستقيم بقوّة ألف عابد، ولعلّ عودة من ذنب ارتكبه، تجعله يتذوّق حلاوة الطاعة بما لم يذقها في عمر من الطاعة. فالمؤمن القوي ليس هو ذاك الذي تخلو حياته من الذنوب، بل هو ذاك الذي ارتكَبَ ذنوباً، وأصبح قوياً بالإقلاع عنها، وقوياً بعدم تمكّنها منه ليستمر فيها، أو تستدرجه إلى المزيد.

﴿أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. في الآية ٣٦ قال في خاتمتها: ﴿أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. والآن استبدِلَت كلمة واحدة من ذات الجملة، فجاءت ﴿الْجَنَّةِ﴾ بدلاً عن ﴿النَّارِ﴾ . ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ الذين آمنوا بالحق وأصلحوا واستقاموا ﴿أَصْحَابُ﴾ أهل ﴿الْجَنَّةِ﴾ الذين أعِدَّت كي يكونوا ﴿هُمْ﴾ أهلها وسَكَنتها و ﴿أَصْحَابُ﴾ الخلود فيها.

﴿٤٣﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

مِن نِعَم الله تعالى على الإنسان أيضاً أنه ينزع الغِلّ من صدره، ففي الجنة لا يوجد إنسان في صدره ذرة ﴿مِنْ غِلٍّ﴾ . وهذا نقيض أهل النار الذين لا يكرمهم الله تعالى عليهم بهذه النعمة، فيلبثون في غِلّهم، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾. فنحن أمام أناس أنقياء، وقد استهلّت الآية بكلمة: ﴿وَنَزَعْنَا﴾، والنزوع هو من نسيج الشيء، والغِلّ هو فيروس نائم في جسم الإنسان لا أحد يستطيع أن ينزعه إلاّ الله، وهو شبيه بالفيروسات المَرضيّة التي هي في الأصل متواجدة في دم الإنسان، ولكنها نائمة لا تؤذيه بشيء، وقد تبقى نائمة حتى نهاية عمر الإنسان، وقد تستيقظ وتستفحل به في أي وقت من الأوقات وفق العوامل، ومنها التلاقح والاستقواء عندما تتسرّب إليها فيروسات أخرى من الخارج، أو عند الانفعالات المتصاعدة، لأن الجهاز المناعي يُصبح ضعيفاً أمام تسرّب فيروسات أخرى، وتجاوب الأولى معها، أو أمام تصاعد الانفعالات، فيؤدّي ضعف الجهاز المناعي إلى يقظة وتنشيط الفيروسات لتستفحل بالإنسان وتفتك به، فيرتفع به الضغط، أو تخرج نسبة السكر عن معدّلها الطبيعي، أو تتلاقح الفيروسات السرطانية، أو يتخثر الدم فيستعصى على القلب ضخّه إلى العروق.

فكل ذلك يمكن للإنسان أن يتفاداه من خلال الوقاية من العوامل المؤدّية إليه، كما أن الأمر بالنسبة إلى النار التي يمكن للإنسان أن يتفاداها بالوقاية من العوامل المؤدّية إليها، وكما أن ذلك يؤدّي في الدنيا إلى حياة هانئة طيبة، فإنه في الآخرة يؤدّي إلى الجنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيحمدون الله على ذلك ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وهم في ذروة الحصول على حقوقهم التي وعدهم الله تعالى بها من خلال رسله، يستأنفون القول: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فآمنا بما حملوه إلينا من ربنا في الدنيا، والآن نرى ونعيش تحقيق ما آمنا به على أنه حق.

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ هي نتاج عملكم في الدنيا، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف ٧١.

الباب التاسع عشر

أعراف اللـه

﴿٤٤﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

تخبرك الآية الكريمة هنا بأن الحديث ممكن بين ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، فأصواتهم تصل بعضهم البعض. ويمكن الاستنباط من فحوى هذا الحوار بأن ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يذكّرون ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ عندما كانوا يستهزؤون بهم وباستقامتهم في الدنيا حيث أن ذلك سيكون هباءً في هباء. فالآن: لم يكن ذلك هباءً في هباء، بل كان ﴿حَقًّا﴾ في حق، والآن: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حق الحق الذي ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ به، وظفرنا بما وُعِدنا به. وعندما كنا نردّ على استهزائكم بالموعظة الحَسَنة، وندعوكم إلى الهداية، لأن

الله يعد الضالّين بأن يكونوا أصحاباً للنار: ﴿فهَل وَجدتم مّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قالُوا نَعَمْ﴾ وهذا اعتراف وتأكيد منهم بأنهم تلقّوا الوعيدَ بالعِقاب، بَيدَ أنّهم لبثوا في تكذيبهم واستكبارهم وعصيانهم.

﴿فأذّنَ مُؤذّنٌ بَينَهُمْ﴾ جاءت كلة الأذان دقيقة، لأن الأذان دعوة إلى الصلاة التي تقي الإنسان أن يكون فاحشاً منكراً، ودعوة إلى الفلاح الذي يحض الإنسان كي يفلح ما استطاع في الدنيا، بهدف أن يجد الحصاد الذي وعده ربه يوم القيامة.

ونهاية هذه الآية الكريمة مُتصلة بنهاية الآية السابقة: ﴿وَنُودُوا أن تِلْكُمُ الجَنّةُ أورِثتمُوها بِمَا كُنتمْ تعْمَلُونَ﴾، فهذا حصادكم الذي فلحتموه. أمّا ﴿أصْحَابَ النّارِ﴾: ﴿فأذّنَ مُؤذّنٌ بَيْنَهُمْ أن لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من الجنة، واستحقاقها النار. فعملك هو الذي يجعلك صاحباً للجنة، أو صاحباً للنار ﴿فمَن يَعْمَلْ مِثقَالَ ذرّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثقَالَ ذرّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾الزلزلة٧، ٨ ﴿إنّ اللهَ لاَ يَظلِمُ مِثقَالَ ذرّةٍ وَإن تكُ حَسَنَةً يُضَاعِفهَا وَيُؤتِ مِن لدُنهُ أجْراً عَظِيماً﴾النساء٤٠.

﴿٤٥﴾

﴿الذِينَ يَصُدّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بالآخِرَةِ كافِرُونَ﴾

أي- ﴿أن لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ﴾- ﴿الذِينَ يَصُدّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ .

هنا تدرك أن مرادفات اللغة العربية تغتني وتمتاز عن بعضها رغم المعنى الواحد، فلم ترد (ويريدونها) رغم أن ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ بمعنى (ويريدونها). لكن حروف كلمة الترادف تذكّر بالبغي، فهم يبغون البغي من خلال إرادتهم ليجعلوا العِوَجَ في الاستقامة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فهم قد اعوجّوا أولاً، ثم يسعون إلى تعميم الاعوجاج ليكون حالة عامة، وهم من دعاة وأئمة الاعوجاج، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ، ذلك أن ﴿هُم بالآخِرَةِ كافِرُونَ﴾، فلا يحسبون حساباً للثواب والعقاب ﴿وَهُم﴾ ﴿بِـ﴾ الحساب في ﴿الآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ جاحدون.

وبالعودة إلى قراءة الآية، تجد أنها ترتكز على الذين ﴿يَصُدّونَ﴾ الآن ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾. وقد أظهَرَت الآية السابقة كيف أن الذين سبقوهم في الصَدّ، قد أمسوا في الجحيم، وهم يقرّون بأنهم وجدوا وَعيدَ الله بهم، وبالمقابل وجد المؤمنون وَعدَ الله لهم.

فالآية الكريمة تقول لهم: لاتضلوا ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ﴿وَ﴾لا تـ ﴿بغونَهَا عِوَجاً﴾ ولا

تكفـروا ﴿بـالآخِرَةِ﴾ حتـى لاتلحقـوا بــ ﴿أَصْحَابَ النَّـارِ﴾، وحتـى تكونـوا مـن ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

﴿٤٦﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾

يضع الله سبحانه وتعالى حِجاباً بين ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾و﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ﴿الأَعْرَافِ﴾ هي الحدود التي تحدّ وتفصل ما بين الجنة والنار، فهي تبـيّن للجنـة حدودها، وتبيّن

للنار حدودها، وتكون حدّاً ما بينهما، وهي جمع عـرف، والعـرب تسمي كل مكان مرتفع من الأرض عرفاً. ﴿وَعَلَى﴾ هـذه الحـدود ﴿الأَعْـرَافِ﴾ يجتمـع ﴿رِجَـالٌ﴾، وهـؤلاء الرجـال ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ﴾ ممّن هم في الجنة أو في النار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بملامحهم.

ووضعهم في هذا المكان ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ أي ﴿عَلَى﴾ أعلى الساتر الفاصل فيـه شـيء مـن التعجّـب، فمَـا الـذي أتـى بهـم إلى هـذا الموضـع، فـلا يكونـوا في الجنـة، ولا يكونـوا في النـار. والتواجد لايكون خاصاً بالرجال فقط، بل بالنساء أيضاً، لكـن جـاءت كلمـة ﴿رِجَـالٌ﴾كـون النساء ينتسبن للرجـال، كمـا الحـال بالنسـبة للرجـال الـذين ينتسـبون للرجـال، فهمـا معـاً ينتسـبان للرجـال، فنسـبة الرجـل لأبيـه، وكـذلك نسـبة المـرأة لأبيهـا. ثـم أن الـذكورة إذا اجتمعَت مع الأنوثة، فإن النسبة تكون للذكورة، حتى لو كانت أعداد الذكور أقـل مـن أعـداد الإناث، فإن اجتمع عشرة أشخاص، ست نساء، وأربعة رجال، فنقـول: رأينـاهم في المدينـة، ولا نقول: رأيناهن. بل حتى لو كن تسع نساء مع طفل واحـد، فإننـا تقـديراً للـذكر في الطفـل، لانقول: رأيناهن، بل: رأيناهم، كـون الغلَبـة تكـون للـذكورة، وفي الأصـل كـان الرجـل قبـل أن يكـون للمـرأة أي وجـود، ثـم كانـت المـرأة مـن خـلال وجـود الرجـل، فوجودهـا دومـاً يقـترن بوجـود الرجـل، ولـذلك تبقـى تابعـة للرجـل وتحمـل نسـبة الرجـل، وتكـون صـيغة الـذكورة غالبة على صيغة الأنوثة عند وصفهما معاً. ولذلك قد تكـون أعـداد النسـاء أكثـر مـن أعـداد الرجال الذين تم وضعهم ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ .

إذن: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ بعد أن انتهى الميزان، وفُرِزَ الناسُ بحسَب أعمالهم، وقد لبث هؤلاء دون فرز عندما تبيّن أمام الميزان بأن حسناتهم لاتخوّلهم دخول الجنة، كما أن سيئاتهم لاتؤهّلهم دخول النار، فقد تساوت كفتا ميزان حسناتهم بسيئاتهم، فلا مثقال ذرة زيادة، ولا مثقال ذرة نقصان، فتم وضعهم مؤقتاً ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ ريثما يُحسَم أمرهم بما يأمر الله تعالى في شأنهم. وفي ذاك الموضع المضطرب، ينظرون تارة إلى أهل الجنة، وتارة إلى أهل النار: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾. ينادون ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ بأصواتهم، ويسلمون عليهم ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾أن ﴿يَدْخُلُوهَا﴾.

الطَمَعُ في الحصولِ على شيء، هو أمنية في الحصول على ما هو ليس حقّك، ولكن يمكن لك أن تطمع في الحصول عليه بكَرَمٍ مِن كريم، فكرمه يجتبكَ اليأس في الحصول على مبتغاك. فجاءت الكلمة معبّرة عن جوهر الموقف، فـ﴿هُمْ يَطْمَعُونَ﴾كرماً من الكريم بما لايستحقوه بأعمالهم، والله دوماً يُطمَع برَحمَته وكَرَمه.

وأهل الجنة:﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ الرحمن٥٤، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ★ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الغاشية١٥، ١٦

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾الرحمن٧٦ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قلنا يا رسول الله الجنة ما بناؤها؟ قال: "لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَمِلاطُهَا المسكُ الأَذفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤ وَاليَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ، وَيُخَلَّدُ وَلا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُمْ"[٤٢] ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة؟ فقال: "دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسكٌ خَالِصٌ"[٤٣] .

وما يجعل هؤلاء ﴿يَطْمَعُونَ﴾، أن أمرهم لم يُحسَم بعد، أي هناك إمكانية للنجاة من النار، فلا تمسّهم لحظة واحدة رغم الحجم الهائل من الذنوب في موازينهم، وبناءً على ذلك،

[٤٢] أخرجه الترمذي والدارمي

[٤٣] أخرجه مسلم

فهناك إمكانية لدخولهم الجنة رغم عدم غلبة حسناتهم كفة السيئات ولو بزنة ذرة واحدة، فكَرم الله جلّ شأنه يحسم لهم الأمر، وهم يعقدون كل آمالهم على هذا الكرم بانتظار أمر الله سبحانه وتعالى. فكما أن كفة الحسنات وضعتهم على حافة الجنة فيرونها بأعينهم، فإن كفة السيئات وضعتهم على حافة النار، فيرونها بأعينهم، فلبثوا يتأرجحون على الحافتين.

﴿٤٧﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وكما أنهم ينظرون إلى أهل الجنة ويمتلؤون رغبة وشوقاً لدخولها طَمَعاً برحمة الله، فإنهم ينظرون إلى ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ويتقون دخولها قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ وليس: صرفوا ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ ، بمعنى أنهم ومن باب الفضول والاستطلاع أرادوا أن يروا ما هم عليه ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾. أي، نظروا وهم لايبتغون أن ينظروا، ولكنهم نظروا فضولاً واستطلاعاً كمَن يسترق نظرة سريعة خاطفة إلى شيء، ويعاود بسرعة. ولعلّ في هذا الصرف بذاته إشارة إلى أنهم وضعوا احتمال دخول النار، إلى جانب احتمال دخول الجنة، ولذلك ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فكان النظر السريع فقط لرؤية الحال استناداً إلى شعورهم بإمكانية الانضمام إلى تلك الحال، فلم ينادوهم، ولم يسلّموا عليهم كما فعلوا عندما نظروا إلى ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وتمنوا دخولها، وطمعوا برحمة الله لتحقيق أمنية الدخول، بل ﴿قَالُوا﴾ اتقاءً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ أي ﴿لَا﴾ تساوينا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، و ﴿لَا﴾ تضمنّا إليهم.

﴿٤٨﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

يحدث أن يتعرّف ﴿أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ على أناس ﴿يَعْرِفُونَهُمْ﴾ بملامحهم، فيقولون لهم: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. أي مهما كانت تجمعاتكم كبيرة، ومهما حشدتم من أناس في تجمعاتكم التي استكبرتم فيها على آيات الله، اليوم تبيّن أنه ﴿مَا أَغْنَى

﴿عَنكُمْ﴾ ذلك كله بشيء. فمئة شخص يتواضعون لله ويؤمنون بوحدانيته ويعملون صالحاً، هم خير من ألف يفسدون في الأرض. فعدد قليل من الأشخاص مثل تاجر، وطبيب، ومزارع، ووجيه، وحِرَفي، وعامل، وما إلى ذلك يتفقون ويتعاونون فيما بينهم على أفعال الخير والصلاح لوجه الله تعالى، مثل إنشاء جمعية خيرية تعنى بتأمين رواتب ولو منخفضة لأهل الحاجة، أو بناء مشفى خيري، أو فتح صيدلية خيرية، أو الاتفاق مع مخبز لتأمين الخبز لعائلات فقيرة، أو تزويد أهل الحاجة بمواد تموينية، وأحياناً يقوم بعض الخَيّرين سواء بتخصيص حصّالة يضعون فيها ما باستطاعتهم على مدار عدّة شهور، ثم يوزّعون ما قد تجمّع من المال فيها على أهل الحاجة.

فمِن النـــاس مَن يملكون سلسلة محال لبيع اللحوم، أو يملكون أبنية لعيادات طبية، أو سلسلة مخابز، أو مباقر، أو دواجن، أو محال لمواد تموينية، أو ما شابه، لكن منظر فقير لايحرّك فيهم ساكناً، ولاشيء يعنيهم سوى تكديس الأموال حتى لو كان ذلك على حساب احتكار لقمة عيش فقير. فهؤلاء لايغنيهم كل ذلك بشيء مهما كثرَت أعدادهم، ومهما اتسَعَت أموالهم، ولكن الذي فيه نفع، هو ذاك الشخص الذي عندما يتناول لقمة لحم طيبة، يتذكّر في ذات الوقت المحتاج الذي لايستطيع أن يبتاع اللحم، فيتحرّك فيه ساكن، ويبتاع دابة، ثم يقسّم لحمها في أكياس، ويوزعها على المحتاجين حتى يأكلوا كما أكل، فبذلك يكون قد شكر الله على ما أطعمه من لقمة طيبة، ولأنه ليس أكرم من الله، فإن الله الذي ينظر إلى صَنيعه، يُضاعف له في العطاء. وهذا يأتي إلى سائر ما يمكن للإنسان المقتدر أن يقدّمه لأخيه الذي به عوز، فهو يشعر بالآخر، ويتآزر معه لوجه الله تعالى، فهذه المواقف الإنسانية يراها عند الله، ويُعامَل بمثل ما عامَل. فأولئك ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ عنهم جمعهم، وما أغنت عنهم أموالهم، ذلك أنهم كانوا يستكبرون على الناس، ويتعالون عليهم. فالناس يحتاجون إلى جمعيات خيرية تعزّز فيهم مشاعر الألفة والتحاب. فاعلم أن الأولوية في أي مهنة مكّنك الله منها، هي للإنسان، وأن أي مال خلا من نصيب الفقير فيه، هو مال منزوع البركة، فلا نفع في مال تجنيه من خلال إلحاق الضر بإنسان. فطبيب عديم الخبرة يرى الناس يموتون نتيجة خبرته المتدنية في العلاج، ولايحرّك ذلك فيه ساكناً، ولا يفكّر أن يطوّر خبرته، أو يعاقب نفسه بالتوقف عن العمل شهراً، لأنه ينظر إلى الأمر من منظور مادي يفوق المنظور الإنساني، وصيدلاني يتسبب في إلحاق الأذى بالناس نتيجة أخطاء يرتكبها في إعطاء الأدوية الموصوفة في الوصفة الطبية، ولا يحرّك ذلك فيه ساكناً. فاتقان العمل من العبادة، لأن

الجودة تنتج من خلال الاتقان، فلا يكون الدافع من خلال أي عمل هو الأخذ، بل الأخذ وفق جودة العطاء.

﴿٤٩﴾

﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

﴿أَهَؤُلاء﴾-استئناف لنداء﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾- : ﴿أَهَؤُلاء﴾الفقراء ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾. هاهم ﴿هَؤُلاء﴾قد نالهم ﴿اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

وجاءت ﴿أ﴾ سابقة ﴿هؤلاء﴾تقريعاً وتعجّباً في ذات الوقت، كَمَن يقول لك كلاماً مجحفاً بحق شخص طيّب ويقسم على ما يقول، فتقول بتعجّب: أتقصد فلاناً ؟! . وهذه هي المظاهر التي تعمي الناس عن الحقائق، وذلك منبته الاستكبار، حتى أن البعض لايتنازل أن يقف بسيارته ليوصل فقيراً يكون يمشي تحت الشمس لأنه لايملك أجر الركوب، وقد يتجاهل بأنه رآه حتى لايسلّم عليه، بل إذا رآه الفقير في مكان ما وألقى عليه السلام، تراه إمّا يُظهر بأنه لم يسمع، أو يرد ببرود، لأنه يعتقد أن معرفته الوثيقة بفقير هي انتقاص من شأنه. وبذات الوقت فإنه لو رأى غنياً أو وجيهاً في مكان ما، فتراه يقف، ويقدّم نفسه إليه، ويعرض عليه خدماته. فإذا نظرنا إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نراه كان يعتني بالفقراء ولم يكن يميّز نفسه عندما يكون جالساً مع أصحابه، حتى إذا دخل شخص غريب، ماعرف مَن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجالسين، حتى يسأل، وكان إذا مرّ بالصبيان يسلّم عليهم، وكان يلبّي طلبات الناس، ويتواضع لهم، وذات يوم عندما رأى شخصاً أتى إليه وقد ارتعد من هيبته، قال: " هوّن عليك فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد".

﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فهاهم ﴿هَؤُلاء﴾الذين لم يكونوا يعجبوا المستكبرين ينالون المقامات الرفيعة عند الله، في حين مُني المستكبرون بالخزي والعار والذل. ﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ هاقد نولهم الله ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ ونحن نراهم بأعيننا يرفلون في نعيم الجنة، كما نراكم بأعيننا تتقلّبون في سعير النار.

إلى هنا وقد انتهى كلام ﴿أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾، ليجيء أمر الله بشأنهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: (أصحاب الأعراف قوم ينتهى بهم إلى نهر يقال له الحيوان، جانباه قضب الذهب مكلّل بالدرّ، فيغتسلون فيه ويخرجون وفي نحورهم شامة، فيعودون فيغتسلون فيزدادون بياضا وحسنا، فيقال لهم: تمنوا، فيتمنون ما شاؤوا، فيقال لهم: لكم سبعون ضعفا، فهم مساكين أهل الجنة).

﴿٥٠﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُوا إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

يبدو أن الأمر قد حُسِم بشأن﴿أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾، فلم يعد لوجودهم ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ ذكر، وقد تحوّل ذاك الوقوف إلى شيء من الماضي، فتستأنف الآية المرحلة الجديدة التي لم يبق فيها أحد خارج الجنة، أو خارج النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وكلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ تبيّن مدى الحاجة القصوى إلى ﴿الْمَاءِ﴾ أولاً: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ فعندما تكون عطشاناً، تطلب بعض الماء لتشربه، أما إذا كنتَ في عطشٍ شديد، وبذات الوقت تكون محفوفاً بالنار المشتعلة بك، فعندها تطلب فيضاً ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾، من أجل إطفاء النار، لأن فيض ﴿الْمَاءِ﴾ يتمكّن من النار ويُطفئها. فلم يطلبوا شربة ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾، بل: يا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾. فإن أول شيء طلبوه هو ﴿الْمَاءِ﴾ لكونه يطفئ النار، وينهي الحرارة المرتفعة، ويروي العطش. ثم لم يركّزوا على شيء بعينه، بل ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ فتكون إجابتهم: ﴿إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الباب العشرون

وزر الجحود بآيات اللـه

﴿٥١﴾

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

فهؤلاء ﴿الَّذِينَ﴾ حرّم الله عليهم ما في الجنة ﴿اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾ فقد أمضوا حياتهم في لهو ولعب ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ استدرجتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إلى متاهات الأهواء. ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ نحرمهم نعيم الجنة ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾ فهم ﴿الَّذِينَ

﴿حرموا أنفسهم من هذا النعيم، وقد جعلتهم الأهواء ينسون ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾. ﴿فَالْيَوْمَ﴾ كذلك ﴿نَنسَاهُمْ﴾ لأنهم ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، فهم ﴿الَّذِينَ﴾ ﴿مَا كَانُوا﴾ يؤمنون بما حمَلَت إليهم آياتنا، وبَيَّنَتْ لهم هذا الذي يرونه في ﴿يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، وهم الآن يلقون عاقبة جحودهم. وهذا الذي ذكر من الذين يكونون في الجنة، أو الذين يكونون في النار، أو ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾لم يحصل بعد، فهذه الأماكن المذكورة هي خالية من الناس حتى يوم القيامة، وهذه الوقائع متصلة بالآية الثامنة:﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾. أي أن ذلك سيقع﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وأنه لم يقع بعد، وبذلك فلا أحد﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾، ولا أحد في الجنة، ولا أحد في النار بعد، فهذا كله إخبار من الله عز وجل بأنه سوف يحصل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. والمجال مفسوح أمام المخيّلة البشرية كي تتخيّله على سبيل بأنه سيقع، بوعد قاطع من الله تعالى. فالحكمة من ذلك أن الإنسان سيكون بإمكانه أن يختار ما هو أفضل، ويتقي ما هو أسوأ عندما يُظهره الله سبحانه وتعالى على هذا الغيب الذي سوف يقع لا محالة. وهذا أيضاً فضلٌ من الله على الإنسان، فالناس كما نعلم جميعهم ما يزالون في الأرض منذ خروج آدم عليه السلام من الجنة، وأجساد الناس جميعاً ما تزال في الأرض بما فيهم الأنبياء والرسل، وما يُستَثنى منهم عيسى عليه السلام الذي له خصوصيته حتى في الخَلق، كما ورد في القرآن، والسنة. فالجنة خالية من الناس، وكذلك النار، حتى يأتي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فيكون الحساب الأكبر، ويكون الفرز الأكبر للناس جميعاً. فإذن لم يقف أحد على الميزان بعد، ولن يقف عليه أحد قبل حصول ذلك اليوم الموعود، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يروي بأنه رأى أناساً في الجنة، وأناساً في النار ، وسأل عنهم جبريل عليه السلام، فعرّفه عليهم كما جاء في بعض الأحاديث، فكيف يتوافق ذلك مع ﴿يَوْمَئِذٍ﴾الذي لم يأت بعد؟ فهذا جائز لأن أرواح الأنبياء والرسل وأقطاب

الصلاح البشري تكون في الجنة، لكن الأجساد هي في الأرض، وهكذا أرواح المشركين وأقطاب الفساد البشري. فمعلوم أن أرواح المؤمنين، وأرواح الكفار لاتكون في موضع واحد، والتعامل مع أرواح المؤمنين، لا يكون كالتعامل مع أرواح الكفار عند الموت.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ"[44] . ويكون النبي صلى الله عليه وسلم أول الداخلين إلى الجنة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ . فَيَقُولُ : بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ"[45] .

وإذا كان ذلك بمثابة التكريم للمؤمنين في مرحلة البرزخ، فإنه بمثابة الرحمة للكفار لأن ذلك قد يخفف عنهم العذاب﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وهذا مثل شخص يتم توقيفه على ذمة التحقيق، وبعد سنة من التحقيق والأدلة، تثبت عليه الجناية التي حكمها سنة ونصف، فتحسب سنة التوقيف تلك من الحكم، فلن يلقى العقاب الذي يتوجب عليه عند إثبات الجناية ووقوع الحكم خلال سنة ونصف، بل يلقاه فقط في نصف سنة. وعلى ذلك فإن البعض قد يخرج من البرزخ إلى يوم الحساب وقد اقتص منه تماماً. فالرسول صلى الله عليه وسلم يجوز أن يكون قد رآهم في المعراج، ويجوز أن يكون قد رآهم أيضاً في المنام، وذلك بما أذِن الله تعالى له بذلك. عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: "يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ".

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم: "رأيتني دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقيل هذا بلال، ورأيت قصراً بفنائه جارية فقيل هذا لعمر" وهذا يشير بأن رؤيا الأنبياء وحي، فقد جزم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ قَالَ بَلَى وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لَا

يُشْبِعُكَ شَيْءٌ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَجِدُ هَذَا إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[46] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

---

[44] رواه مالك في الموطأ (٢٤٠/١) وصححه ابن عبد البر في الاستذكار (٦١٤/٢)

[45] رواه مسلم (١٩٧)

[46] رواه البخاري(٦٩٦٥)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء أضاءه لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء"[٤٧] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقاً يَأْتونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً"[٤٨] ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ"[٤٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾" [٥٠] السجدة١٧. وأبواب الجنة تفتح وتغلق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «" تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا "[٥١]
.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "«إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ" [٥٢]

---

[٤٧] متفق عليه

[٤٨] أخرجه مسلم

[٤٩] متفق عليه

[٥٠] البخاري (٣٢٤٤)، مسلم(٢٨٢٤)

[٥١] أخرجه مسلم

[٥٢] متفق عليه

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "«مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ يَتَوَضَّأ فَيُبْلِغ أوْ فيُسْبغ الوُضُوءَ، ثمَّ يَقُولُ أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إلا فُتِحَتْ لَهُ أبْوَابُ الجَنَّةِ الثَمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أيِّهَا شَاءَ"[53] . أما عن صفة أهل الجنة فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بها في القرآن الكريم ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ* تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾المطففين ٢٢- ٢٤، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة٢٢- ٢٣، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ* لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ الغاشية٨- ١٠، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ عبس٣٨- ٣٩، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران١٠٧، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ الإنسان ١١ . وتستقبلهم الملائكة كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر٧٣، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الرعد٢٣، ٢٤، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الأنبياء١٠٣.

---

٥٣ أخرجه مسلم

الباب الواحد والعشرون

تفصيل الكتاب

﴿بِكِتَابٍ﴾أنزلنا لكم على رسولنا كتاباً ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. أمّا الذين لا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾بما فيه من ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيكونوا قد اختاروا أن ﴿نَنسَاهُمْ كَمَا

﴿٥٢﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿وَ﴾-الآن يـامَن لاتريـدون أن تكونـوا مـن الـذين﴿نَنسَاهُمْ﴾- :﴿لَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾أنزلنا لكم على رسولنا كتاباً ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. أمّا الذين لا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾بما فيه من ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيكونوا قد اختاروا أن ﴿نَنسَاهُمْ كَمَا

نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، وقبلوا أن يكونوا في زمرة الذين يقولون للمؤمنين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ . فيقول لهم المؤمنون: ﴿إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . فالآن لم يحدث شيء من ذلك بعد، والقرار لكم. إن هذا الكتاب هو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بما فيه ويعملون بما آمنوا به.

﴿٥٣﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾. يُخبر الله بأن انتظارهم إنما هو انتظار تحقيق الوعد الذي جاء به كتاب الله، مهما كانوا يوهمون أنفسهم بغير ذلك. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ يتحقّق الوعد الذي في ثنايا هذا الكتاب: ﴿يَقُولُ﴾ يعترف ﴿الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ جحدوه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ما قالوه كان حقاً.

الآن وقد تبيَّنت لنا حقيقة أننا كنا في ضلال ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا﴾ ينجوننا من النار، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الباطل، بل نعمل بما ﴿قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ . هؤلاء بعد أن ينتهي الحساب، يكونوا ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أنفقوا أعمارهم دون نفع، والخسارة هنا هي خسارة عمر بأكمله، هذا العمر الذي يمكن أن يحقق فيه الإنسان كل يوم

ربحاً من خلال عمل الخير، ويمكن أن يحقق كل يوم فيه خسارة من خلال عمل الشر. وقد بَيّنَت الآية ٩، بأن خسارة النفس تكون من خلال خفة موازين الخير: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾.

﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم﴾ عن مؤازرتهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، يتوهمون بأنهم سيؤازرونهم وسيشفعون لهم في الآخرة. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾يونس ١٨. فمَن كانوا مع بعضهم البعض، تشتتوا ولم يعد أحد منهم يعترف بالآخر، ذلك أن الباطل هو الذي جمَع بينهم، فتبيِّن الآية بأن الجمع هو جمع الحق مهما كان عدده قليلاً، وأن جمع الباطل ليس جمعاً حقيقياً مهما كان عدده كبيراً.

الباب الثاني والعشرون

الباب الثاني والعشرون

حكمة التأنـــي

﴿٥٤﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

آية تفصيلية مكثفة المعاني، مكتنزة الدلالات: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾. وكان يمكن أن يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، لأن ﴿رَبَّكُمُ﴾هو ﴿اللهُ﴾. أو يقول ﴿إِنَّ﴾ ﴿اللهُ﴾، لأن ﴿اللهُ﴾هو﴿رَبَّكُمُ﴾. لكن بدأت الآية التفصيلية البيانية بـ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾، لأن الله سبحانه وتعالى يُطلعنا فيها على أمورٍ أساسيّةٍ كبرى، وهي الأمور التي أقلقَت الفكر البشري، وما تزال تقلقه دون الوصول إلى نتائج حاسمة، وإن كان سؤال: كيف تشكّلَ الكون؟ كبيراً، إلاّ أن: كيف تشَكّلت ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؟ أكبر بكثير، وهو السؤال الذي يعيدنا إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾الذي خلقكم هو﴿اللهُ﴾وحده الذي لا شيء قط قبله، قد ﴿خَلَقَ﴾قبلكم ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ بكل ما فيها من مستويات وأطباق وسعة وخواص ﴿وَ﴾ كذلك ﴿خَلَقَ﴾كوكب ﴿الأَرْضَ﴾الذي أنتم عليه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ولأن الخطاب موجّه إلى الإنسان الذي يعيش على﴿الأَرْضَ﴾، نرى - والله أعلم - أن قياس اليوم هو الذي يكون على﴿الأَرْضَ﴾، أي من خلال شروق الشمس ومغيبها، واليوم الواحد يستغرق ٢٤ ساعة. فـ يا أيها الناس اعلموا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾هو ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. لأن هذا القياس هو الأقرب والأوثق لهم بالنسبة لقياس الزمن. لكن

لماذا ﴿في ستةِ أيّامٍ﴾، وهو القادر عل خلق ذلك في يوم واحد، أو أقل﴿ومَا أمْرُنَا إلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ﴾القمر٥٠، هنا عليك أن تأخذ حكمة التريّث، وفي الحديث:" التأني من الله والعجلة من الشيطان". فليس كل ما تستطيع أن تفعله في زمنٍ ما، تستعجل بفعله، فعليك أن تبدأ بتدرّج رغم مقدرتك على فعل العمل كله في وقت قياسي. والله جلّت قدرته لم يكن ليخطئ لو فعل ذلك في أقل من الأيام الستة، وشاء ذلك لحكمة منه، فكل ما يكون من الله هو حكمة في حكمة. لذلك يمكن اجتزاء الآية من سياقها على سبيل النصح بالتأنّي بالنسبة لشخص

يعجل في أمره، فتقول له: على رسلك، فإن الله القادر على كل شيء قد﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ في سِتةِ أيّامٍ﴾. وهذا ما يغتني به القرآن حيث يمكن قراءة بعض الآيات قراءات متعدّدة ضمن سياقها، وكذلك اجتزاءها من سياقها لأغراض مختلفة، فمِنَ القرآن ما يجوز اجتزاؤه لأغراض ينتفع بها الناس مثل العظة، والدعاء، ومنه ما لايجوز اجتزاؤه بأي حال من الأحوال وعلى الأخص في مسائل الفتيا والتشريع.

فيجوز لك أن تجتزئ من الآية ١٩ من سورة النساء: ﴿فعَسَى أن تكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ وتخرج هذا الكلام من سياقه، وتوظّفه في سياق آخر. ﴿فعَسَى أن﴾ تكره عملاً، وقد جعل لله لك ﴿فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾، ثم لعلّك تكره شخصاً، ولكن فيما بعد يأتيك خيرٌ كثيرٌ من خلال هذا الشخص، وما إلى ذلك مِمّا يجعلك تتأنّى في اتخاذ المواقف الحاسمة. وممّا يمكنك استخدامه من الذكر الحكيم في سائر حياتك:

﴿كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ البقرة ٢٤٩

﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاّ وُسْعَهَا﴾البقرة ٢٣٣

﴿لَن تَنالُوا البِرَّ حَتى تُنفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ﴾آل عمران ٩٢

﴿ما عَلى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ﴾المائدة ٩٩

﴿لاَ يَستوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ﴾المائدة ١٠٠

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّستقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾الأنعام ٦٧

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ﴾الأنفال ٢٣

﴿ألَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾هود ٨١

﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقّ﴾يوسف ٥١

﴿كُلٌ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ﴾الإسراء ٨٤

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِّلعَبِيدِ﴾الحج ١٠

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثلُ خَبِيرٍ﴾فاطر ١٤

﴿وَلَا يَحِيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهلِهِ﴾فاطر ٤٣

﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان﴾الرحمن ٦٠

﴿فَاعتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبصَارِ﴾الحشر ٢

﴿تَحسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾الحشر ١٤

﴿كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت رَهِينَةٌ﴾المدثر ٣٨ .

ومن الأدعية التي يمكنك أن تأخذها من القرآن الكريم لسائر شؤون حياتك:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾البقرة ٢٠١

﴿رَبَّنَا أَفرِغ عَلَينَا صَبرًا وَثَبِّت أَقدَامَنَا وَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ﴾ البقرة٢٥٠

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذنَا إِن نَّسِينَا أَو أَخطَأنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحمِل عَلَينَا إِصرًا كَمَا حَمَلتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعفُ عَنَّا وَاغفِر لَنَا وَارحَمنَا أَنتَ مَولاَنَا فَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ﴾البقرة ٢٨٦

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَيتَنَا وَهَب لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾آل عمران ٨

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران ١٦

﴿رَبِّ هَب لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾ آل عمران ٣٨

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَت وَاتَّبَعنَا الرَّسُولَ فَاكتُبنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران ٥٣

﴿ربَّنَا اغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسرَافَنَا فِي أَمرِنَا وَثَبِّت أَقدَامَنَا وانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ﴾ آل عمران ١٤٧

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَذا بَاطِلاً سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدخِلِ النَّارَ فَقَد أَخزَيتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَن آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّر عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخزِنَا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخلِفُ المِيعَاد ﴾ آل عمران ١٩١-١٩٤.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف ٢٣

﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف ٤٧

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾الأعراف ١٢٦

﴿حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة ١٢٩

﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يونس ٨٥، ٨٦

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ إبرهيم٤٠

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ إبراهيم ٤١

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ الإسراء٨٠

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الكهف ١٠

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾طه٢٥، ٢٨

﴿لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء٨٧

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾الأنبياء٨٩

﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ المؤمنون٩٧، ٩٨

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ المؤمنون ١٠٩

﴿رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ المؤمنون١١٨ .

فالأيام الستة التي شاء الله جل جلالـه أن يخلق فيها **﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾**فيها بيـان لـك بأن الله يفعل كل شيء في وقته، فالوقت المناسب هو الذي يجعلك تنتفع بما ينعم الله عليـك، فلعلّك تطلب أمراً والوقت لايناسب انتفاعك به، بل قد يحمل لك ضرراً لـو حقّقـه الله لـك في ذاك الوقت الذي لا تعلم بأنه غير مناسب لحصولك على ما تريد، ولا تظن بأن الله سـبحانه وتعالى يهمل دعاءك، بل يؤجّله، ويحقّقه لك في وقت وفق ما يراه مناسباً لـك، وإن كـان فيـه أذى لك، يستبدل دعاءك بما هو نفع لك حتى لايـذهب دعـاؤك هبـاءً، وتحقيقـاً لوعـده لـك **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾**البقرة ١٨٦.

الأمر الآخر قد ترى ظلماً يمتدّ، ولكن الله لحكمة منـه يمهـل حتـى يوقـع العقـاب في وقتـه المناسب، وإذا جاء الوقت الذي جعله الله يجيء في وقته المناسب، لـن يكـون بوسـع شـيء قـط

أن يوقف وقوع العقاب. كما بيّنت لك الآية ٣٤: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. فذلك مدعاة للصبر والتريّث، ويعكس على شخصية الإنسان حالة من الهدوء والاستيعاب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ★فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ق٣٨، ٣٩.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾شاء الله عز وجل وله المشيئة فيما يشاء، أن يستوي ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾عرش الرحمن ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، فهل بمقدور أحد أن ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ غير الله الذي خلقهما؟.

فانظر إلى بديع العبارة، وبديع التناسق بين الكلمات المتناغمة مع بعضها البعض في ثنائية الليل والنهار، وتعاقبهما لبعضهما البعض بدقة فائقة. ﴿يُغْشِي﴾كلمة بالغة الدقة، تذكّر بالغشاء الذي عادة يكون ناعماً ورقيقاً وشفّافاً، والغشاءُ يفصل بين جانبَين، فيكون فاصلاً شفّافاً بينهما، وهذا وجه آخر من وجوه عِمارة بناء السورة (الأعراف)، الفواصل، والعرف، الفاصل . ورغم أن الأغشية رقيقة وشفافة، فإنها تكون بالغة الأهميّة، مثل غشاء العذرية، غشاء الأذن، الغشاء الفاصل بين البيضة وقشرتها، وما إلى ذلك. فـ ﴿يُغْشِي﴾إشارة إلى الغشاء الفاصل ما بين الليل والنهار، وهذا الغشاء هو الذي ينظّم عملية تعاقب الليل والنهار، فبدايات انبلاج الضوء هي بدايات ناعمة حيث يتسرّب الضوء بنعومة كما لو أنه حرير ليفترش على بساط الأرض، وهي لحظات ساكنة هادئة ينتشر فيها الضوء رويداً رويداً، وهي من أفضل الأوقات التي يُستجاب فيها الدعاء. في هذا الوقت وبشكل متلازم، فإن الظلام يتوارى رويداً رويداً بدقّة متناهية حتى ينسحب تماماً ويسلّم المكان للضوء الساطع الذي ينتشر بكل حضوره كما لو أنه لن يغيب. لكن كما فعَلَ بالليل، فإن بدايات الليل تفعل به ذات الفعل في المساء، وإن كانت تلك الأوقات ذهبيّة بالنسبة للنهار، فإن لحظات المساء تكون مخملية مذهلة، وللمساءات الجميلة خصوصيتها، فعند المساء يطيب الخروج، كما يطيب الجلوس مع العائلة في البيت، ومساء كل موضع يتمتع بجماليات ومزايا خاصة، مساءات الأماكن الواقعة على البحار والأنهار، مساءات الأرياف، مساءات المدن الصغيرة، مساءات العواصم الكبرى. هكذا تزحف خيوط المساء رويداً رويداً ، وبالمقابل يجرّ النهار آخر بقاياه رويداً رويـــــــداً،

حتى يختفي تماماً ويخيّم الظلام على المكان كما لو أنه لن ينفكّ عنه ثانية.

﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾فاطر١٣، ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾الزمر٥ .

فذلك هو الغشاء الذي يكون بينهما، وما تعلّمك إياه الآية أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الليل قبل النهار، وبذلك فإن الأصل هو الظلام، فحتى في وَضَح النهار، تبقى بعض الأماكن مظلمة كونها غير معرّضة لضوء النهار بشكل جيّد، فتستخدَم الإنارة فيها، وعند انطفاء الإنارة، يعود الظلام إلى ما كان عليه، وإذا عكستَ الأمر، ترى بأن الظلام مهما اشتدّ فإنه لايستطيع أن يخترق الضوء، وليس بوسع الظلام بأي حال أن يبدّد الضوء، لكن القليل من الضوء، يبدّد الظلام. والبدء يكون من الليل: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ★ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ★وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ★ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾يس ٣٧- ٤٠ ،﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾الأنبياء٣٣ ، ﴿**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾النور٤٤ .

وفي القرآن سورة الليل وترتيبها ٩٢، وقد ورد الليل ومشتقاته ٩٢ مرة في القرآن. وبذلك فإن مساحة الظلام على الأرض تفوق مساحة الضوء، كون الضوء يكون من خلال تعرّض بقعة من الأرض لأشعة الشمس، وقد قدّرت المسافة بين الأرض والشمس بنحو ١٥٠ مليون كم.

عقب ذلك جاءت كلمتان لا تقلّان شفافية: ﴿**يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾. أي دون تأخر، وفي لسان العرب: (الحَثُّ: الإِعْجالُ في اتّصالٍ؛ وقيل: هو الاستعجالُ ما كان. حَثَّهُ يَحُثُّهُ حَثّاً.

واستَحَثَه واحْتَثَّه، والمُطاوع من كل ذلك احْتَثَّ.

ويقال: حَثَثْتُ فلاناً، فاحتَثَّ. قال الجوهري: الحِثّيثى الحَثُّ، وكذلك الحُثْحُوثُ.

وحَثْحَثَه كحَثَّه، وحَثَّثه أي حَضَّه.

وَوَلَّى حَثِيثاً أي مُسْرِعاً حَرِيصاً.

ورجل حَثِيثٌ ومَحْثُوثٌ: حادٌّ سَرِيعٌ في أمره كأنَّ نَفْسَه تَحُثُّه.

والطائرُ يَحُثُّ جَناحيَه في الطَّيَران: يُحَرِّكُهما)[54] .

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾. سخّرها الله لكم، ولا تملك من أمرها شيئاً سوى أن تكون طوع أمر الله، فكل ما تراه يطرأ على﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾يكون بقضاء الله تعالى وتصريفه.

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فكما أن﴿لَهُ الْخَلْقُ﴾، فإن الأمر بشؤون ﴿الْخَلْقُ﴾ يكون ﴿لَهُ﴾. واختتِمَت الآية بـ: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا تذكير للإنسان بـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾كما في مفتتح الآية، وكذلك هو﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾الذي لارب لمخلوق قط غيره، ذلك أن لاأحد قبله، ولا شيء قبله، وهو سبحانه وتعالى قبل أي قبل.
﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾، والبركة هي الخير والإحسان والكَرَم والعطاء، و﴿تَبَارَكَ﴾، أي هو مصدر كل بركة تحل على العباد، فـ﴿تَبَارَكَ﴾، أي عظم شأنه، وتعالى، وكثر خيره، وأحلّ البركة على مَن شاء، وبارَكَ فيمَن شاء من عباده، فالإنسان يصبح مَبارَكاً ببركة الله له. فيكون ﴿تَبَارَكَ﴾، بمعنى إظهار القدرة على إحلال البرَكة، وحرف التاء، إظهاريّة ، أي تظهر بركته على خلقه.

[54] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي ط٣، ج١٥ ، دار صادر، بيروت.

الباب الثالث والعشرون

التضرّع والخفية في الدعاء

﴿٥٥﴾

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

التضرّع هو التوسّل والخشوع، فأن تتضرّع إلى الله عز وجل، يعني أن تتوسّل إليه وتخشع له، لكن لماذا؟ لأنك تطلب منه أن يعفو عنك أولاً، ثم أن يمنحك ما لاتستحقه بعملك. فهو إن أعطاك ما هو استحقاقك، ما ظلَمَك، لكن هذا لايرضيك، لأن ما تريد هو يتجاوَز استحقاقك، وهذا ما لا يحصل إلاّ من خلال العفو عن تجاوزاتك، وبالتالي إعطائك ما هو أكثر ممّا تستحق. فيوجّهك الله أن تتخذ التضرّع سبيلاً إلى ذلك، وهذه بشارة كبرى من الله، فهي تحمل أملاً بالاستجابة. فبدأت الآية شاملة الناس جميعاً:

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي رغم كل تجاوزاتكم أيها الناس كافة، لاتقنطوا، بل﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ﴾. وجاءت ﴿رَبَّكُمْ﴾ أيضاً بالجمع العام. وهو تذكير بأنّه خلَقَكَ، وسَوّاكَ، وربّاكَ، وأطعمَكَ،

وأسقاكَ، فإن خرجتَ عن أمره في فعلٍ ما، فإن باب الأوبة إلى ربك ورب العالمين مفتوح. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، والخفية من الخفوت، أي تتضرّع إليه بخفوت دونما ضجيج أو صوت مرتفع، أو إبداء حركات ملفتة، فذلك شأن بينك وبين ربك الذي تصله الهمسة التي تهمسها في قرارة نفسك. فليس الهدف أن توصل صوتك إلى الآخرين، أو يروك من خلال حركاتك، أو تظهر لهم الدموع التي تنهمر من عينيك، فبعض الناس تراهم يرفعون أصواتهم، ويبكون، ويجعلون الكلمات تغص في حناجرهم، ويبدون حركات ملفتة، ومنِهم مَن يُظهر ذلك في بعض الوسائل التصويرية وما شابه، فكأنه مركّز على الذين يروه، والغاية أن يراه الناس فيما هو فيه. تبيّن لك الآية بأن ذلك من شأنه أن يترك أثراً على حالة التضرّع إلى الله، ويجعلك في شتات بين الله، وبين رؤية الناس لك، أو سماعهم لصوتك. فتكون في حالة انتباه بأن الناس ينظرون إليك، أو يسمعون صوتك، ويرون حركاتك، وهذا يأتي على حساب التركيز فينال منه. فعليك أن تركّز في دعائك إلى ربك: ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، لأن هذا التركيز هو الذي يجعل الدعاء يصل نقياً صافياً إلى الله دون أن تشوبه شائبة، وكأن معنى التضرّع قد تكامل بالخفية، وأن حالة التضرّع الكاملة تتحقق من خلال الخفية، عن النبي صلى الله عليه وسلم"خير الذكر الخفي". فالخفاء يبقيك في حالة صفاء ذهني بينك وبين الله، وعندما تذرف الدموع، فإنك تكون قد ذرفتها خالصة لله، لأنك موقن أن لا أحـــد يراك غير الله، وهذا ما يزيد الجـــوارح

خشوعاً، فترى صدرك منشرحاً بين يدَي الله، وتراك في حالة عظمى من السكينة الروحية في رحاب رحمة الله التي تتسع لتغفر ذنوبك حتى لو كانت كزبد البحر. فلا أحد بينك وبين الله، وقد عدتَ إليه نادماً متضرّعاً خاشعاً تدعوه الرحمة والمغفرة، وعند ذاك حتى الملائكة يستغفرون لك: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾غافر٧ . وجاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (رَفَعَ النَّاس أَصْوَاتهمْ بِالدُّعَاءِ فَقَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَيّهَا النَّاس اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمّ وَلَا غَائِبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيع قَرِيب "). فعندما تريد أن تتحدّث مع شخص في أمر مصيري هام، فإنك تريد أن تكونا معاً دون أن يكون معكما أحد لأن ذلك يجعلك مركّزاً على ما ستقوله له، وأن حضور أي شخص يمكنه

أن يفسد عليك حالة التركيز، ثم يقطع بعض خيوط الأفكار. وفي جميع الأحوال فإنك لاتستطيع أن تسقط من حسابك حضور هذا الشخص الثالث ونظراته إليك، وسمعه لك.

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. فلا يريد الله لك أن تكون معتدياً حتى يحبك، وذلك يدعوك كي لاتكون معتدياً، وإن كنتَ معتدياً أن ترفع اعتداءك، لأن الله إن أحبك معتدياً، آزرك على الاعتداء، لكن حبه لك مشروطاً باللا اعتداء يجعلك تجنح إلى اللا اعتداء في سبيل تحقيق حب الله لك. فالتضرّع بخفية، هو السبيل إلى مغفرته التي لاتجعل من ذنبك ماضياً فحسب، بل تلغيه كما لو أنه لم يكن. ولكن هنا مقصد من ختام هذه الآية القصيرة بهذه الجملة، والمقصد يبقى ضمن السياق، فما علاقة ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، بـ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾؟ فاعلم بأن الاعتداء ضمن السياق يأتي بمعنى المبالغة في الدعاء، كأن تشترط شروطاً في الدعاء، ومن ذلك أن يقول شخص: اللهم امحق هذا الملك، واجعلني بدلاً عنه، أو اجعل زوج هذه المرأة يموت كي أتزوّجها، أو انزع من هذا الشخص ثروته، أو ما شابه، بحيث يكون دعاؤك عبارة عن اعتداء على الآخرين وإلحاق الأذى بهم. فتدعو الله أن يكره أناساً وهو يحبهم، أو ينزع عنهم كرمه الذي أكرمهم به، فهذا اعتداء على الناس من خلال الدعاء، ويمكنك أن تعكس ذلك على الأرض أيضاً، فترى شخصاً لمجرّد أنه يتقرّب من شخص له نفوذ أو سلطة، يريد أن يؤذي الناس من خلاله، فيطلب إليه أن يلحق الأذى بأشخاص ما، وحتى إن أنكر ذاك الشخص ذلك، فإن قول الاعتـــداء

يكون قد وقع. فإذن لمجرّد الدعوة بالظلم يجعل الاعتداء واقعاً حتى دون الاستجابة للدعاء. وقد ذكر الله تعالى كلمة (الحب) في الآية، وفي ذلك تذكير للإنسان بألاّ يكره الناس ويتمنى لهم الشر، بل أن يحبّهم ويتمنى لهم الخير، فالله ﴿لاَ يُحِبُّ﴾ أن تتمادى في دعائك على حقوق الناس، وحتى المخطئ أن يكون الدعاء له بالصلاح والهداية. من هذا المنطلق يجوز أن يكون العكس صحيحاً، فـ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في دعائهم للآخرين بالضر، و﴿إِنَّهُ﴾ ﴿يُحِبُّ﴾اللامعتدين في دعائهم للآخرين بالنفع. وإذا كان ذلك في الدعاء، فإنه يشمل سائر ما يمكن أن يجعل من الإنسان معتدياً على غيره سواء بالأقوال أو الأفعال. وهنا عليك التنبيه بأنه لايعني عدم الإكثار أو الإلحاح في الدعاء بما ينفع، فعلى الإنسان أن يكون مداوماً على الدعاء، وألاّ يفقد الأمل بالاستجابة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا

دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ، فإنما هُوَ يَسْأَلُ رَبَّهُ"[55] ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ فِي الدّعاءِ". والإلحاح أن تداوم على الدعاء من أجل النفع سواء لك أو لغيرك.

﴿٥٦﴾

﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

لقد أصلح الله ﴿الأَرْضِ﴾، وجعلها صالحة لأن يكون عليها الناس جميعاً، ويقومون بأعمال صالحة، فالأصل أن ﴿الأَرْضِ﴾ صالحة، والأصل أن الإنسان صالح. ولذلك جاء مبتدأ الآية بالنهي: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾، أي أنتم لستم فاسدين، و﴿الأَرْضِ﴾ليست فاسدة، والفَساد هو عامل مُكتسَب، فلا تكسبوا الفساد، ولا تنشروه بين بعضكم البعض على امتداد ﴿الأَرْضِ﴾. فالله يصلح للناس شأن الأرض، وهي ليسَت حكراً على جيل جَنَح إلى الفَساد، فإن أقام الحروب، ولوّث بيئة ﴿الأَرْضِ﴾، فإن الله يُنزل الأمطار، ويرسل الأنبياء والرسل، ويجعل الأدوية لأوبئة الناس، وأوبئة ﴿الأَرْضِ﴾، ويوفق الصالحين والحكماء في نشر العلوم النافعة، فيعود كل شيء إلى أفضل ما كـــان عليه

بفضل الله، حتى يبقى الإنسان في معدنه الصالح، وتبقى﴿الأَرْضِ﴾في معدنها الصالح.

إن الله ينهاكم أن ﴿تُفْسِدُوا﴾، ويرشدكم أن تـ ﴿ادْعُوهُ خَوْفاً﴾من إنزال العقاب بكم كما أنزله على مَن سَبَقوكم من الفاسدين. و تـ ﴿ادْعُوهُ﴾ ﴿طَمَعاً﴾في رحمته التي هي ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

[55] أخرجه البخاري (١١/ ١٤٤) كتاب «الدعوات» باب: ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، حديث (٦٣٣٨) ومسلم (٤/ ٢٠٦٣) كتاب «الذكر والدعاء» باب: العزم، حديث (٩/ ٢٦٧٩) ، وأحمد (٢/ ٤٨٦) وأبو داود (١/ ٤٦٧) كتاب «الصلاة» ، باب: الدعاء، حديث (١٤٨٣) من حديث أبي هريرة.

الباب الرابع والعشرون

بشارة الرياح بالمطر

الباب الرابع والعشرون
بشارة الرياح بالمطر

﴿٥٧﴾

﴿وَهوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشراً بَيْنَ يَدَيْ رَحمَتِهِ حَتى إِذَا أقلّت سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخرِجُ الموْتى لَعَلَّكُمْ تذَكَّرُونَ﴾

﴿الرِّيَاحَ﴾تحمل البشارة بمجيء المطر، كذلك تنشر هذا المطر وتجعله يتسع فيصل بعض الأماكن التي لايصلها دون ﴿الرِّيَاحَ﴾.

﴿سَحَاباً ثِقَالاً﴾غيماً مثقلاً بالماء ﴿سُقْنَاهُ﴾ سقنا ذاك الغيم المثقل بالماء ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾. فهذا ردّ بليغ على قول المنكرين بالبعث، فتلك الطبيعة التي كانت ميتة، ها هي امتلأت بالمروج الخضراء.

يبقى القرآن محافظاً على جماليته اللغوية ودقّة كلماته المكتنزة، وقوّة معانيه، فيذيقك بلاغة اللغة وهي في أوج تكامل جماليتها، ويفتح مخيّلتك على كنوز المعاني من خلال انتقاء الكلمات الدقيقة الأكثر تعبيراً عن قوّة المعاني التي تسري في عروقها. ومع المداومة على قراءة القرآن، تتشكّل لديك ذائقة خاصة، فتنفر نفسك من جملة فجّة، أو عبارة هشّة، أو أسلوب ركيك.

وعلى نقيض ذلك، فلو قرأت كتاباً جيداً، فإنك تتفاعل معه، وتلتذّ بقراءته، وأنت تستشعر قيمة هذا الكتاب وتنتفع به، ولايعني ذلك أن الكتاب الآخر كان سيّئاً في مضمونه، بل لعلّه يطرح موضوعاً هاماً للغاية، بَيدَ أن الركاكة، والهشاشة، والمُباشَريّة الفَجّة، قد وقفت حائلاً بينك وبين استئناف القراءة. وتلك هي الكتب التي تنشَر ولا تقرأ، فيكون

نشرها كعدم نشرها، كونها تفتقد إلى عناصر ومقوّمات الكتب التي تلبث مقروءة في كل زمان ومكان، وتمتلك إشراقات التشويق إلى قراءتها، والعودة إلى قراءتها، وما ذلك إلاّ لأنك تستشعر مدى حاجتك إليها، ومدى ما تقدّمه لك هذه الكتب النفيسة. فالمواظبة على قراءة القرآن، ترفع سويّة ذائقة تلقّي جماليات وبلاغة اللغة لديك، فيميّز لك القرآن الكريم، الغث من السمين في سائر القراءات الأخرى، ويجعلك متمكّناً من استخلاص جواهر المعاني من رَحِم الكلمات.

تبدأ الآية بهذه الجملة البديعة المكتنزة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. هنا تتخيّل كيف أن الرياح تحمل البشرى للناس والدواب والطبيعة بقدوم هطول المطر. وجاءت كلمة ﴿يُرْسِلُ﴾تشريفاً للرياح التي جعلها الله رسولة تحمل هذه البشرى. ﴿وَ﴾الله ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ﴾

﴿وَ﴾ليسَت هي التي تأتي من تلقاء نفسها بشكل آلي، وعندها كانت ستحل الكوارث، لأن لا أحد بمقدوره أن يمسكها، فالله ﴿الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ هو وحده قادر على إمساكها والتحكّم بها في الوقت الذي يشاء. فهذه ﴿الرِّيَاحَ﴾أمينة على حمل البشرى برحمة الله من خلال قدوم المطر الذي ينتعش منه كل ما في الأرض. ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾، عندما يثقل الغيم بالمطر ويغدو﴿سَحَاباً ثِقَالاً﴾، كالمرأة التي تثقل بحملها، والشجرة التي تثقل بثمارها، عندئذ ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، فالشتاء الذي هو فصل ذروة المطر، يكون عادة بعد الخريف الذي هو فصل الرياح التي تسقط الأوراق اليابسة الميتة عن الأشجار، وتطرحها أرضا وتدفع بها على شكل ركام إلى حيث الأودية والأنهار، مبشرة الشجرة في ذات الحين بثوب عيدي مزركش جديد لم تر له مثيلا في أي عيد مضى، هامسة بأنها سوف تخلع عنها ثوب السنة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغبار.

ثم يهمس لها أن الشتاء ينتظر ليقدم بعد ذلك ويغسل سائر بدنها بعذوبة مطره الذهبي، والربيع منهمك الآن بحياكة ثوبها المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها المشوق، ويجعلها عروسا متجددة تستقطب بحلتها أنظار وحواس كل مارٍ بجوارها من أنس، وجن، وطير، ودابة، ونبات، وجماد.

يهتف الخريف لها بحنان إنه في عجلة من أمره لأن الشتاء والربيع ينتظران كي يكرماها، وعليها أن تتشجع وتتجاوب كي يحتفيان بها، فتخلع الشجرة بحياء شديد أوراقها، وتسلّم نفسها بخجل وتردد عذراء، أمانة لأنامله الأمينة، ينفخ على أعوادها اليابسة وهو يتأمل

تخلص الشجرة من آخر ذرة غبار، ثـم حينئـذ مايلبث أن يسلّم الأمانـة إلى انتظار الشتاء الذي يتسلّمها تحت جنح رذاذه ويشرع في غسل بـدنها عضواً عضواً بفَـيض مطـره الغزيـر حتـى ينظّف عنهـا آخـر ذرة غبـار، فيرسـل آنئـذ الربيـع زخـات خفيفـة مـن رذاذه حتـى يتخلّص كل ما في الشجرة من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحات دافئـة مـن خصـلات شعر شمسه، فتنشّف أعضاءها عضواً عضواً بـدفء، ثـم مـا يلبـث الربيـع آنئـذ أن يبـدأ في ارتـدائها الثيـاب الـتي حاكها علـى فصـال جسـدها قطعـة قطعـة، بادئـاً بـالقطع الداخليـة الصغيرة، ومنتهياً بآخر لمسات الزينة.

تأخذ الشجرة المباركة أوج حلّة زينتها، فلا ترى البلابل موضعاً أكثـر جمالاً وقـدراً منها كي تقضي فيـه وقتها، فتتهافت إلى ربوعها الخلاّبـة مـن كل صوب وحـدب أزواجاً أزواجاً ..فرادة فرادة، فتبني لها أعشاشاً، وتتزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شـدو، وزغاريـد. يمرّ المارّ، فلا يكون له إلاّ أن يقف ليمتع بصره

بالنظر، وهو يسبّح فالق الإصباح على سحر هيأتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيـب ريحها، وعذوبة سَكِنتها.

قال: ﴿سُقْنَاهُ﴾. فالسحاب يكون في حالـة انتظار حتـى يسوقه الله، فـترى الغـيم المثقل بالمطر يمضي في الأفق إلى ما يشاء الله، ولا ينزل منه المطر إلا في الموضع الـذي يشـاء الله، فهـو قـد يمضـي فـوق بقعـة أرض دون أن تنـزل منـه قطـرة مطـر، وقـد ينـزل المطـر بغـزارة في موضع، ولا ينزل في موضع قريب منه، قد ينزل في الريف، ولا ينزل في المدينة، أو قد ينزل في هذا الحي من المدينة، ولا ينزل في حي مجاور له. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ أنزل الله تعالى بهذا الغيم ﴿الْمَاءَ﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾بهذا ﴿الْمَاءَ﴾ ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. فـلا ثمـرة تثمـر، ولا ورقة تخضرّ دون ماء. ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ﴾. بعـد أن بـيَّن الله لـك هـذا التفصيل في كيفية إيجاد الحياة في النبات الميت، وبعثه من جديد، ضَرَبَ به مثلاً على بعـث الإنسان بعد موته. فالله الذي يحيي هذا النبات اليابس بعـد موتـه، فيجعلـه يزدهـر بالحيـاة قادر أن يحيي الإنسان بعد موته، فالذي يقدر على الخلق أول مرة، يكون قـادراً علـى البعـث بعد الموت، والنبات مثال يريه الله لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الباب الخامس والعشرون

بين الطيّب والخبيث

﴿٥٨﴾

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

الطِيبُ مُبارَكٌ من الله، فيكون أمره مَيَسّراً، وجاءت عبارة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، أي لا أحد بوسعه أن يمنع الخير الذي يخصّه الله عز وجل للإنسان ﴿الطَّيِّبُ﴾.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾، الطيّبون الذين يعيشون في بلدٍ، فيتطيَّب البَلَدُ بطِيبهم، ويصبح طيباً.

فاعلم أن الإنسان الطيّب أينما كان، وحيثما تواجَد، تطيَّب الناس من طيبه، فإن كان في بيت متواضع، ترك الناس قصورهم كي يزوروه لأنهم يستشعرون بالراحة والسَكينة والنقاء، ويستنشقون منه مسك عذوبة طِيب الإنسان، فيتطيّبون بالتقرّب إليه، والحديث معه، فالإنسان الطيّب هو خير طبيب نفسي لأولئك الذين فتكَت بهم أوبئة الحياة الماديّة، أو الوساوس الشيطانية، أو استبَدّت بهم هلوسات النفس.

فالطيّب هو في الوقت عينه طبيب للنفس، يكون قد طَبّب نفسه أولاً، فأصبح طيباً، ثم أن بعض الناس يشعرون بالراحة والتنفيس عن الكرب، والتفريج عن الهَم، وهم ينظرون إليه، أو يُجالسونه، أو يتحدّثون إليه، بل حتى وهم يتخيّلونه، فإن مجرّد ذكره يكون عامل تخفيف بالنسبة إليهم.

فتبيّن لك الآية الكريمة بأن هؤلاء قد خَصّهم الله تعالى برزق طَيّب مُبارَك، وهذا الرزق المُبارَك، ليس بوسع أحد كائناً مَن كان أن يمسكه عنهم، أو أن ينال من بَرَكة الله فيه. ثم جاء الشطر الثاني من الآية معطوفاً على الشطر الأول: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾.

جاء العطف في ﴿وَالَّذِي﴾، ليبيّن بأن الطِيبَ إن خَرَجَ عن طِيبه، أصبح خبيثاً، وبالتالي ما يصيب الخبيث، سيصيبه كذلك.

فلا يكفي أن تكون طيباً وأن رزقك يأتيك ﴿بِإِذْنِ﴾ ربك، فعليك أن تكون متمسّكاً بالطيب ومداوماً عليه، وهذا من أسباب دوام مباركة الله، فكما أنك تريد أن يديم الله في بركته عليك، فعليك أن تلبث مداوماً على الطيب، وتسعى إلى التقدّم فيه. فكلما تقدّمتَ خطوة إضافية في الطيب عَمّا كنتَ عليه، أتتكَ المُباركة مُضافة إلى ما كانت عليه بالنسبة إليك. وجاءت كلمة ﴿الطَّيِّبُ﴾ شاملة كل ما هو طيّب،

فإن كنتَ كريماً، أكرمك الله بأكثر مِمّا أكرمتَ به، وإن كنتَ ستيراً، سترك الله بأكثر مِمّا سَترتَ به، وإن كنتَ عفواً، عفا الله عنك بأكثر مِمَا عفوتَ به.

﴿وَالبَلَدُ الطَيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإذْنِ رَبِّهِ﴾ . هكذا جاء الحسم الإلهي في هذه المسألة قولاً فصلاً واحداً، وهو عهد من الله للإنسان. ﴿وَ ﴾في الجانب الآخر: ﴿الَّذِي خَبُثَ لاَ يَخرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾.

النَكَد هو المنزوع البَرَكة الذي يفتقد إلى مسك الطيب، لا يستمتع الإنسان به، ولا يقتصر النَكَد في الطعام، فقد يكون هذا الشخص الخبيث في بلد طيب، أو يُدعى إلى وليمة لتناول الطعام في بيت شخص طيب لبعض عوامل القرابة أو الجوار أو ما شابه، فالعَطَب سيكون في معدته التي لا يشاء الله تعالى لها أن تهضم طعاماً طيباً بيسر، أخرَجَه للطيبين، ثم أنه لايتلذذ بتناول الطعام، بل يلتهمه كما تلتهم الدواب العلف، فلايكون طعامه ﴿هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾وبالعودة إلى تمام الآية: ﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾النساء٤ فاقترن ﴿هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾بالطيب، وما دون ذلك لن تأكلوه ﴿هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾بأي حال من الأحوال. فإذن عاقبة ذاك الطعام لن تكون محمودة بالنسبة للشخص الخبيث الذي تناوله، بل ينكّد عليه يومه، حيث تتعسّر معدته بهضمه، فيبقى يعاني اضطرابات سوء الهضم حتى تخرج آثار ذاك الطعام الطيب من بَدَنه الخبيث.

ونقيض ذلك، فإن الطيّب يسوق الله رزقه الطيّب المُبارَك حتى لو حلّ النَكَدُ على البلد كله، فيُستثنى الطيّبون من ذلك، فهو عهد الله في قول حاسم واحد: ﴿وَالبَلَدُ الطَيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإذْنِ رَبِّهِ﴾.

فلا شيء يمكن له أن يحول بين إيصال هذا الرزق الطيّب إلى ذاك الشخص الطيّب حتى لو قذفت به الظروف إلى خيمة في بقعة أرض مهجورة، في حين أن ذاك الخبيث حتى لو كان في قصر، وكل ألوان الطعام والشراب متاحة له، فإنها تكون ﴿نَكِداً﴾عليه، فلا يستطيع أن يتناول قطعة حلوى، لأن نسبة السكر المرتفعة في دمه لاتسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يشبع لحماً، لأن نسبة البروتين المرتفعة لاتسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يستمتع بتناول القشدة، أو صفار البيض، أو الكبد، لأن نسبة الشحوم الثلاثية والدهون لاتسمح له بذلك. ولا يستطيع أن ينعم بالمكيّفات سواء في حرّ الصيف، أو برد الشتاء، لأن التهاب قصبات المجاري التنفسية لايسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يستمتع بنوم عميق لأن دورته الدموية

المضطربة تفرض عليـــــــه أن ينهض ويمشي بضعة خطوات، وإذا تجاوز تمدّده في الفراش أربع ســــــاعات، فإن

ذلك يجعله في خطر وهو نائم، ولا يستطيع أن يأتي زوجته إلاّ في الشهر مرة، دون إثارة ما أمكن، أو بأقل ما يمكن منها، لأن الأطباء حذّروه بأن حالة قلبه لاتحتمل تفاعلات الإثارة.

وهو منصوح من ضمن نصائح الأطباء بأن يتجنّب الضحك بطلاقة، لأن الانفعالات السلبية أو الإيجابية قد تؤدّي إلى ما لا يُحمَد عُقباه بسبب بعض الاضطرابات في جملته العصبية، وإلى ما شابه بما ينكّد على هذا الخبيث كل مقوّمات حياته رغم كل ما تبدر عليه من مظاهر رَغَد العَيش.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾. فأمام هذه الحقيقة، يـزداد الشاكرون شكراً لله، ويتقدّمون في مراتب الطيب، ويتجنّبون مواضع الخبث.

﴿كَذَلِكَ﴾، بفضل منا ﴿نُصَرِّفُ﴾، نبيّن ونفصّل ﴿الآيَاتِ﴾، الحقائق والأدلّة ﴿لِقَوْمٍ﴾، لأنــاسٍ ﴿يَشْكُرُونَ﴾. يستوعبون هـذه ﴿الآيَاتِ﴾، ويتـدبّرونها ويتفـاعلون معهـا، فـ﴿يَشْكُرُونَ﴾الله على فضله.

الباب السادس والعشرون

نوح عليه السلام

﴿٥٩﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

الآن سوف ننتقل إلى مرحلة مفصليّة من تاريخ الإنسان، وهي مرحلة انتهاء الإنسان تماماً من سطح الأرض، وما بقي من الإنسان هو فقط وجود نوح ومَن معه في سفينة على الماء، وما دون ذلك، فلا وجود لبَشَرٍ قط. إذن، سوف يقود نوح عليه السلام، المسيرة الجديدة الثانية للبشرية عندما تستوي سفينته ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ هود٤٤ .

وسوف يكون الأب الثاني للبشر بعد آدم، والخلاف بين الرَجلَين المؤسّسَين للذريّة البشرية، أن الأول خَلقَ دون أب أو أم، وقد وجد نفسه بَغتة في الجنة، والثاني وجد أن الطوفان قد سَحَقَ كل كائن بشري أينما كان تواجده من سطح الأرض، ووجد نفسه ومَن معه في سفينة، وعندما تستوي سفينته ﴿عَلَى﴾جبل ﴿الْجُودِيِّ﴾، سوف يدرك عظمة مسؤولية تأسيس إنسان جديد سوف يخلقه الله عز وجل.

ولذلك سيكون حريصاً على الإنسان كل الحرص، وخائفاً عليه كل الخوف، وكذلك قلِقاً عليه كل القَلق، وهو الذي قد خرج للتو من طوفان سحَقَ الأخضر واليابس، بما في ذلك أكثر الناس قرباً إليه، فلذّة كبده، وحليلته، وكل ذلك تحوّل في هنيهة إلى شيء من الماضي الذي لم يعد له أي وجود.

فالآن سوف تبدأ مسيرة جديدة للإنسان، وسوف تشرق عليه الشمس مرة أخرى، سوف يهطل المطر مرة أخرى، سوف ينبت الزرع مرة أخرى، سوف تتكاثر أشكال الدواب والطيور مرة أخرى، سوف تعود الحياة بكل مقوّماتها وزَخمها مرة أخرى، بعد أن تلقّت البشرية درساً بليغاً نتيجة تماديها في الطغيان. ويبقى الإنسان مسكوناً بالخوف من الطوفان كلّما اشتدّ المطر، لكن بعض المؤشرات الإلهية تطمئنه بأن ذلك وإن اشتدّ بغزارة، فهو مطر خير وإنبات، وليس مطر طوفان وإسحاق، ومن بعض علامات الطمأنينة ما يظهر في كبد السماء من ألوان قوس قزحية عند هطول المطر. لكن لم يختف الطوفان من تعرّضه للحياة البشرية، أو الطبيعية، ولو بشكل جزئي، فهو يمكن أن يتعرّض لأشخاص، أو لبيوت، أو لقرى، أو لمدن، أو لدول، ممّا يجعله جزئياً وليس عاماً وشاملاً للأرض برمّتها. وذلك من ألوان العقاب للناس عندما يتمادون في الطغيان والفسوق والفجور.

تفتتح الآية بمقدّمات حلول الطوفان، وأن الله يرسل لأولئك القوم رسولاً منهم وإليهم كي ينذرهم، لعلّهم يتراجعون عمّا هم فيه من التمادي في العصيان قبل أن ينزل العقاب الشديد الذي كَمن في الطوفان: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾.

كان يمكن القول﴿أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾، دون ﴿لَقَدْ﴾، لكنها جاءت لمزيد من التأكيد والتوثيق، ويجوز أن تكون جواب قسم محذوف، فأنذرَهم ونصَحهم كي يتراجعوا عمّا هم فيه من العصيان، ولدى بعض علماء الأنساب هو : (نُوح بْن لَامَك بْن متوشلخ بْن أَخْنُوخ وَهُوَ كما قيل إِدْرِيس النَّبيّ عَلَيْهِ السَّلَام، اِبْن برد بْن مهليل بْن قنين بْن يانش بْن شِيث بْن آدَم عَلَيْهِ السَّلَام).

﴿فقالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ﴾، ودعوا الشرك، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾، فهؤلاء كانوا يصنعون التماثيل ويعبدونها، وكانوا يطلقون عليها أسماء مثل: ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرا. ولعلها أسماء لأناس صالحين، ولكن ما هو غير صالح أنهم باتوا يعبدون هذه التماثيل التي صنعوها، وأطلقوا عليها الأسماء نسبة إلى الصالحين: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

اليوم الذي لاأحد ينفعكم فيه، ولا أحد بمقدوره أن ينجيكم ﴿عَذَابَ﴾عاقبة الشرك بالله الذي ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾.

وما تستخلصه هنا، هو ألاّ تعطي للناس أكثر من أحجامهم البشرية، ولا يمكن لأي مخلوق قط أن يرتقي إلى درجة أن يُعبَد، فالإنسان هو مخلوق يَعبد الله وقد خلقه الله كي يعبده، لا أن يعبد مخلوقاً مثله، أو يصنع تمثالاً، أو رمزاً لمخلوق ما ثم يعبده، وليس بالضرورة أن تنحصر العبادة في السجود أو الركوع، بل أن تأمل من هذا الرمز ما لا يجوز لك أن تأمله إلاّ من الله.

﴿٦٠﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾

كلمة ﴿الْمَلأُ﴾، تشير إلى الملء، بمعنى قد امتلأت الأرض بالمفسدين، والاستثناء يكون نادراً جداً، تقول فلان صرّح بقوله على الملأ، أي على الجميع. ﴿قَالَ﴾له ﴿الْمَلأُ﴾المجموع ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ كجواب على نصحه لهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

رفضوا حتى التفكير بقوله، كونهم اعتبروا الكلام صادراً من شخص يعيش ﴿فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

بل أنهم أرادوا أن ينالوا حتى من الذين اتبعوه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾الشعراء١١١.

وذلك كي يسدّوا الطريق عن الذين يريدون الإيمان به، وهنا تجلو نزعة الاستكبار لديهم، حيث أنهم اعتبروا أنفسهم فوق الفئة التي رأوها دونهم سواء بالنفوذ، أو المال، أو ما شابه.

﴿٦١﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أجابهم رافعاً صفة الـ ﴿ضَلالَةٌ﴾عن نفسه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾، ومبيّناً الحقيقة: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يقل (أنا)، بل: ﴿وَلَكِنِّي﴾، أي لم آت من تلقاء نفسي حتى تتهمونني بالـ﴿ضَلالَةٌ﴾، ولو كنت أتيت من تلقاء نفسي، لكان لكم أن تصفونني بذلك ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فكان يواظب على محاولات إقناعهم حتى أنهم: ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾هود٣٢.

يقول لهم بأن﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾هو الذي أرسلني من أجل إصلاحكم، ومن أجل نفعكم، وإنذاركم وأن الله سوف يعاقبكم على ما أنتم به من عصيان، ويوقفكم عند حدودكم إن رفضتم الانصياع لأمر الله، وما أنا سوى حامل هذا البيان الإلهي إليكم.

﴿٦٢﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

أوصل لكم ما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ وأقدّم لكم النصح، وأنذركم أن لدي معلومات ﴿مِنَ اللّهِ﴾ بشأنكم ﴿تَعْلَمُونَ﴾ها، إن لبثتم في عِنادكم واستهتاركم بما﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ به من ﴿رِسَالاتِ رَبِّي﴾.

فالأرض ليست كوكباً مجهولاً لاصاحب له، يفعل الإنسان فيه ما يشاء، ويطغى ما يشاء، فعليه أن ينصاع لأوامر صاحب هـذا الكوكب، وإلاّ فإنه يوقفه عنـد حدّه رغماً عن أنفه مهما كان نفوذه ممتداً، ومهما امتلك من مـال وعتاد، ومهما استقوى بأعداد هائلة من رجال حوله، فإن الله يفتت كل ذلك بين ليلة وضحاها.

وانظر إلى بلاغة الكلم الطيّب المـبطّن بقوّة التعبير: ﴿وَ﴾اعلموا بأني ﴿أَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. إن نصحي لكم هو السبيل لنجاتكم ممّا أعلمني به الله بشأنكم.

﴿٦٣﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

ما يزال يفعل كل ما بوسعه حتى يثنيهم عمّا هم عليه من التمادي في العصيان، وهذا درس بليغ نتعلّمه، فعندما يستشري الفساد في مجتمع، ويكثر فيه الفجور، ويستهزئ الناس بالقرآن، وبالدعاة إلى الحق، فذلك لايعني فشل أئمّة الدعوة إلى الحق، بل يعني أن الناس طغوا إلى درجة أنهم باتوا يستهزؤون برسالات الله وأنبيائه ورسله، وكل أشكال الدعوة إلى صراط الله المستقيم.

فنوح عليه السلام، لم يقصّر في دعوته، بل نجح في الإبلاغ بما كلّفه به الله عز وجل، لكنه رأى الجحود والاتهامات الضالة من الناس، ومحمّد صلى الله عليه وسلم، بلّغ الناس بما تلقّاه من الله سبحانه وتعالى، لكنهم أبوا ذلك، فما كان عليه سوى أن يترك أحب البقاع، والمكان الذي أنزل عليه ما يزيد عن ثلاثة أرباع الوحي فيه، وأيضاً المكان الذي فيه ذكرياته الطيّبة حيث التقى فيه أم المؤمنين الأولى خديجة عليها السلام، كيف أنه كان يهرع إليها عندما كان يأتيه الوحي وهو يقول لها: "زملوني زملوني"، فخروجه بالقوة من كل ذاك الواقع الذي ترعرع في جنباته، ويعبق برائحة طفولته، وتشكّلت فيه معالم شخصيته، لم يكن لأنه قصّر في أداء الرسالة، بل لأن الناس استشرى فيهم وباء الطغيان وباتوا ينكرون كل ما هو حق، ويقبلون كلما هو ضلال، فيبقى الأمر بالتدخّل الإلهي لإيقاع العقاب المباشر والصارم بحق هؤلاء، لأن الله لم يخلق الأرض ليعيث فيها المفسدون فساداً، بل لصلاح الإنسان واستقامته وفضيلته، وأن يستمتع بما يُخرج الله تعالى من خيرات طيبة، ويلبث النكَدُ لأهلِ النكَد.

فترى البعض يكيلون الاتهامات لأهل الدعوة والصلاح، ويوصمونهم بالفشل في إيصال الحق إلى الضالّين، بل يتمادى البعض أكثر فيحمّل الدعاة - بك تفرّعات الدعوة من إمامة وخطابة وفقه وتفسير، وما إلى ذلك من علوم شرعية تدعو إلى الحق- مسؤولية هذا الإعراض عن دين الله. فالداعية تكمن مهمته في إبلاغ الناس ونصحهم، وتقديم الحجج والأدلة الدامغة إليهم كي يصلحوا من شأنهم ويتقوا الله.

أمّا إذا أصرّوا على عِنادهم واستهزأوا، فذلك لاينال من مهمّة الداعية، أو من قيمته، وعبر التاريخ البشري، فإن لله سبله في كيفية إيقاع العقاب بالضالّين.

فالدعاة مصابيح الله في الأرض، والله جل جلاله يؤازرهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "مَن آذى لي ولياً آذنته بالحرب" لماذا؟ لأن هذا الذي يؤذي ولياً من أولياء الله، إنما يريد أن يُطفئ مصباحاً من مصابيح الهداية في الأرض.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾، جاءت الكلمة تعجّبية واستفهامية في الوقت عينيه، من خلال همزة التعجّب وواو العطف في مبتدئها:﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

فلا تعجبوا فقد ﴿جَاءكُمْ ذِكْرٌ﴾ هدى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وليس على مخلوق آخر لا تعرفونه من الملائكة أو الجن، فأنا أعرفكم وأنتم تعرفونني، ونحن من أصلاب بعضنا البعض.

فلا تعجبوا، فإن هذا الرجل الذي لايعجبكم هو الأقرب ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ بمغبّة ما أنتم فيه ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ بالتوبة إلى الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾فيعفو لكم عمّا قد سلَف.

﴿٦٤﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾

جاءت الكلمة مباشرة وبليغة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، وهذه شهادة جلية من الله تعالى بأنه صادق، فالذي يكذب، لا يُكَذّب حتى لو كُذّب، لأنه كاذب. لكن الذي يُكَذّب، لابد له أن يكون صادقاً حتى يُكَذّب في صدقه﴿فَكَذَّبُوهُ﴾. تبرئة لنوح عليه السلام من تكذيبهم له، ومصادقة على صدقه. حيث كانوا يتداولون فيما بينهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾المؤمنون٢٤.

عندما أبلغهم بكل ما أرسله الله به ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً* ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾نوح ٥- ٨.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾، استخلصه الله تعالى ﴿وَ﴾ استخلص ﴿مَعَهُ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ آمنوا وآزروه، وهم قلّة، وأنجاهم بأن جعلهم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ السفينة.

لكن هذا الطوفان العام حصل بعد نحو تسعة قرون من الدعوة المستمرة، ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً**﴾العنكبوت١٤.

ولعلّه قد بدأ بالدعوة في نحو الأربعين من عمره، وحصيلة كل هذه القرون من الدعوة لم تنتج سوى عن نحو ثمانين شخصاً بين رجل وامرأة من كافة سكان الأرض، وهم من الطبقة الفقيرة. حتى أن الوجهاء كانوا يشترطون عليه أن يطرد هؤلاء حتى يأتوا إليه، وكان يرفض هذا المطلب، وبعد كل هذا الجهد الدؤوب وهذه القرون الطويلة من الدعوة، وهذه النتيجة القليلة من المؤمنين، جاء أمر الله إلى نوح عليه السلام بأن يصنع سفينة كبيرة ويستعد لوقوع العقاب على القوم، ونجاته مع مَن آمنوا من خلال دخولهم إلى السفينة. ثم أن يجمع من أشكال الحياة من حيوان ونبات زوجين، وبذلك فإن السفينة لابدّ لها أن تكون ضخمة حتى تستوعب كل ذلك فبالإضافة إلى المؤمنين الذين معه، هناك بعض أنواع الحيوانات تكون ضخمة مثل الفيلة، أو الإبل، أو البقر، أو ما شابه، كما أن وجود كل هذه الحيوانات في مكان واحد يشكّل خطراً عليها، فبعضها مفترسة، وبعضها وديعة، فلا بدّ من صناعة أقفاص لتحمي بعضها من بعض سواء الحيوانات الصغيرة، أو الكبيرة، وكما أن هذه السفينة تحتاج إلى واقية حتى تقي نزول المطر على مَن بداخلها، وما إلى ذلك من عوامل الاستعدادات.

لكن وبدل أن يتعظ القوم من ذلك وهم يرونه منهمكاً في عمله هذا، وكان بإمكانهم أن يتوبوا حتى اللحظات الأخيرة، قالوا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ**﴾المؤمنون٢٥.

ويتداولون فيما بينهم على سبيل الاستهزاء إن كان نبياً، أو نجّاراً، وأنه يقوم بصناعة سفينة ضخمة في موضع لا نهر فيه، وكانت زوجته واسمها (واهلة) تقول بأنه مجنون، وهذا العمل يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً. قيل: (كان الرّجل من الكفّار يحمل ولده إلى نوح عليه السـلام فيريه إيّاه ويقول: يا بني لا يفتننتك

هذا الشيخ المجنون عن دينك ودين آبائك، فلمّا ضاق ذرعاً دعا على قومه: ﴿ **رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾نوح٢٦، فاستجاب الله دعاءه وأمره بغرس شجر الساج، فعلم نوح عليه السلام أن في الأمر مهلة، فأمر بغرس الأشجار عشر سنين، وأدركت القطع بعد أربعين سنة، ثم أمر الله بقطعها واتخاذ السفينة منها، وألهمه كيفيتها فعمل السفينة على خلقة البط، وجعل لها رأساً كرأس الدّيك، وذنبـاً كذنب الطّاووس، وصيّرها أربعة أطباق، طبقاً له ولأصحابه، وطبقاً للبهائم والوحوش، وطبقاً للسّباع، وطبقاً كالسقف لئلاّ

يصل المطر إليهم من نحو السّماء، وقيّرها داخلاً وخارجاً، وسدّها بالمسامير، وكان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين، وفرغ من ذلك فبينا ابنته تختبز إذ فار التنور بالماء وفجّرت الأرض عيوناً فبادرت إلى أبيها تخبره، فنادى نوح في أصحابه فاجتمعوا إليه ودخلوا السفينة، وحشر الله إليه حيوان الأرض فأخذ من كل جنس زوجين، فكانت أبواب السماء مفتحة بماء منهمر والأرض متفجّرة بالماء أربعين يوماً، ثم قال: ﴿يا أرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾) هود٤٤ .

إذن عندما انتهى كل شيء، ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾هود٤١ ، ﴿وَ﴾ ركب الجميع في السفينة: ﴿أغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فقد أغرقهم الله بسيل الطوفان، بمَن فيهم زوجته وأحد أبنائه. فهؤلاء جميعاً الذين تعرضوا للغرَق ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ونظير ذلك يكون بأن مَن أنجيناهم، آمنوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

وهذا يعني أن كل جبال الأرض مهما بلغ ارتفاعها، فإنها قد تعرّضت للفيضان الذي غمرها، حيث تحوّلت الأرض كلها إلى مساحة سويّة من الماء، ولا شيء يظهر فوق الماء باستثناء سفينة نوح. لكن التكاثر البشري اقتصر على ذرية نوح عليه السلام، وذلك من أبنائه الثلاثة سام، وحام، ويافث ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾الصافات٧٧.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه). أما أشكال الحياة الأخرى، فقد تكاثرت أيضاً مِمّا كان في السفينة ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾هود٤٠.

يقول وهبُ بنُ منبِّهٍ: (سامٌ هو أبو العربِ وفارسَ والرومِ وأهلِ الشامِ وأهلِ اليمنِ، وكان هو القيِّم بعدَ نوحٍ في الأرض، ومن ولدِهِ الأنبياءُ كلُّهم، عربُهم وعجمُهم، وجعلَ اللهُ في ذريته النبوة والكتابَ، وهو الذي اختطَّ مدينةَ القدسِ، وأسَّس المسجدَ الأقصى، وكان ملِكًا عليها، وحامٌ أبو السودانِ وأهلِ الهندِ والسندِ والزنّجِ والحبشةِ والنوبةِ وكلِّ جلدٍ أسودَ، ويافثُ أبو التركِ ويأجوجَ ومأجوجَ والفرنجِ).

فبعد كل ذاك الكلام الطيب، وذاك الإنذار المبين، والمقابلة بالتكذيب والاستهزاء، كان تدخل الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾. فقد أعماهم الاستكبار عن رؤية الحق والإيمان به. وهذا درس نتعلّمه، وهو ألاّ نتخذ مواقف مسبقة من الآخرين قبل أن

نصغي إليهم بشكل دقيق وجيد، وأن نؤمن بما ينفعنا، ونتجاهل عمّا لا ينفعنا. فليس المهم أن تسمع الحق، بل المهم أنك تأخذه وتنتفع به، وليست ثمة معضلة أن تسمع شخصاً يقول الباطل، المهم أن باطله لايجد سبيلاً للتأثير عليك، بل تكون أكثر ثباتاً وعزيمة على الحق الذي أنت فيه، فإن قوّة الإيمان تقوّيك على الباطل وتجعله ضعيفاً أمامك، وضعف الإيمان يضعفك أمام الباطل، ويجعله قوياً عليك، وقد اختتمت الآية بكلمة بالغة الدلالة ﴿عَمِينَ﴾ . وهذا ليس عمي العَينين، لأنهم كانوا يرون بأعينهم، بل هو عمي القلب، لأن القلب لايخشع بما ترى العينان من آيات الله في الأرض وفي الناس.

الباب السابع والعشرون

هود عليه السلام

﴿٦٥﴾

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾

الآن سندخل حقبة جديدة أخرى من التاريخ الإنساني الذي يقصّه الله تعالى على رسوله من أجل أن يحمل هذا القص إلينا﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾يوسف ١١١ .

﴿عَادٍ﴾ بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وهو الذي عُرِف القوم به.

و﴿هُود﴾ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. كما جاء عند بعض أهل الأنساب.

وهو من الأنبياء الذين أتوا في المرحلة الانتقالية الجديدة بعد الطوفان، وبعد تكاثر الناس في الأرض. لكن بدأت بذور الفساد تظهر في الناس مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً عادوا إلى ما كان عليه قوم نوح كما لو أن كل ذلك لم يقع.

ويجلو هذا من خلال ما يقوله ﴿هُود﴾عليه السلام لقومه، وما يردّ به قومه عليه، وهو متشابه مع ما قاله نوح، وما سمعه من قومه. والعائدون إلى الضلال هم قوم ﴿عَادٍ﴾، وكلمة الأخ التي وردت في الآية الكريمة هي تذكير بروح الأخوّة الإنسانية الفطرية. فعندما تنصح شخصاً، لا يكون لك ذلك قبل أن تشعر نحوه بروح الأخوّة الإنسانية، وعندما تضل شخصاً، لا يكون ذلك قبل أن تنزع عن نفسك مشاعر الأخوّة الإنسانية تجاهه: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾. أي كما أرسلنا نوحاً إلى قومه، أرسلنا﴿إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾. هذا النبي الذي أرسله الله إلى قومه كي يبيّن لهم الحق، ويحذّرهم من مغبّة الضلال.

﴿قالَ﴾ مخاطباً إياهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾دعوا عبادة ما دون الله ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ﴾ وحده دون أن تشركوا به شيئاً ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ فلا أحد إلهكم غير الله. ثم في النهاية على شكل تحذير: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾فتقوا أنفسكم عقاب الله.

﴿٦٦﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

هناك عند نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾. وهنا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. والسفاهة بمعنى أنك تقول كل ما يأتي إلى لسانك بشكل عشوائي، والسفيه هو ذاك الشخص الذي لا يعقل ما يقول، فما يصدر منه من أقوال يكون هذياناً، ولذلك استأنفوا قولهم: ﴿وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. فما تقوله ليس صدقاً، وأنت لستَ رسول الله، بل أنت شخص سفيه تتلفظ بما تهذي به مخيّلتك. وهذا ما قاله ﴿الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾، كموقف حاسم من نصحه لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾.

﴿٦٧﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

هنا بيان بأن على الإنسان ألاّ يسكت عندما يُجار عليه، وتتوجّه إليه التهم الباطلة، بل عليه أن يردّ على كلامهم ويبيِّن أصل الحق الذي هو فيه. لأن سكوته بمثابة الرضى، وهو تعبير عن موقف ضعيف، فأجاب بقوة وبثقة: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، لا أقول شيئاً عن سفه ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ وإنما أنا مكلّف ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٦٨﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

الكلمات بالغة الدلالة وغزيرة المعاني، ورغم أنه كلام مُسترسَل مُتصل مع بعضه، إلاّ أنه انقسم إلى آيات مستقلّة، وكان يمكن أن يكون في آية واحدة، كونها جملة واحدة غير متقطعة. لكن جاء ذلك حتى يتوقّف المرء أمام بلاغة العبارات في الآيات القصيرة، فالبلاغة لاتقتصر على الآيات الطويلة فحسب، بل تكون كذلك بالنسبة للآيات القصيرة المختزلة في عدّة كلمات.

﴿أبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾، وهذا متصل بـ﴿وَلَكِنِّي﴾ في الآية السابقة، أي: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أرسلني كي ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾. فما أقوله لكم ليس من عندي، وهو تكليف من الله تعالى ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ مرشد مريد بكم الخير ﴿أَمِينٌ﴾. أنقل لكم بأمانة ما حمّلني الله تعالى إليكم.

﴿٦٩﴾

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

جاء مفتتح الآية مطابقاً لقول نوح عليه السلام في الآية ٦٣ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾. وهذا تذكير وفي الوقت عينه إنذار بوقوع العقاب إن استمرّوا في التمادي، فقد كرّر عليهم ذات الكلام، أي أقول لكم ما قاله نوح لقومه قبل أن يقع عليهم الطوفان. ولذلك استؤنِفَت الآية بكلام جديد مخاطباً الحاضر ﴿وَاذكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

لا تنسوا بأن الله لو سَكَتَ على الطغيان، لَسَكَتَ على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وما كان من لزوم أن يُغرِق كل أولئك الناس وأشكال الحياة من سطح الأرض، ليأتي بأناس على شاكلتهم. فإن استمررتم بالتسفيه والتكذيب، فاعلموا بأنكم لستم أفضل من ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وسيلحقكم الله بهم.

﴿وَاذكُرُوا﴾ جيداً ولا تنسوا ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ الله ﴿خُلَفَاء مِن بَعْدِ﴾ أن أغرق﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾بالطوفان، ﴿وَ﴾ أكرمكم الله بأن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، البسطة هي ضخامة البدَن وطوله، فقد كانوا يتمتعون بلياقة وقوة في أبدانهم، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ★

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ★ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ★ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ★ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ★ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ★ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾الشعراء ١٢٨- ١٣٤ .

فقد أمدّكم الله بالعافية واللياقة، بعد أن نظّفَ لكم الأرض من الفاسدين، وسلّمكم إياها نظيفة، وكذلك أعطاكم زيادة عمّا أعطى﴿**قَوْمِ نُوحٍ**﴾. فالبسطة هي الزيادة والدرجات المتقدّمة من الكمال.

وقد وردت البسطة في وصف طالوت مقترنة بصفتين: ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾البقرة ٢٤٧، فكان في زمانه أعلم بني إسرائيل، وأكثرهم جمالاً. لكن هنا جاءت البسطة شاملة الزيادة في الخَلق كله، مثل: الطول، والضخامة، والقوة، والجمال، وما شابه. فقد متعهم الله وخصهم بأن زادهم ﴿**فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً**﴾. وهذه الزيادة عليها أن تجعلهم يشكروا الله: ﴿**فَاذْكُرُوا**﴾ اشكروا ﴿**آلاء**﴾ نِعَم ﴿**اللَّهِ**﴾ عليكم بهذه الزيادة، ولا تبطروا ولا تطغوا ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. يزيدكم الله من نِعَمه، ويديمها عليكم، ويصلح لكم شأنكم، ويستجيب لدعائكم، وفوق كل ذلك، يجعل الجنة من نصيبكم.

﴿٧٠﴾

﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾

الذي يكون التكذيب ديدنه، يلبث في اعوجاجه مهما سعيت إلى إصلاحه، بل يتحايل بكل ما استطاع حتى لا يتزحزح عمّا هو في من اعوجاج، فيكون الحديث معه كحديث الطرشان. فمهما قدّمتَ إليهم من حجج قويّة، وأدلّة دامغة، وبعبارات بيانية بليغة، فإنهم يتهرّبون من نصوع الحقيقة، ويؤثرون البقاء في الظلمات.

وكما أن الذي يكون على حق، تكون كلماته متزنة مترابطة متناغمة بليغة، تطفح بإشراقة المعاني السامية، فإن الذي يكون على باطل، يتذرّع بذلك من خلال كلمات هشّة، وجمل ركيكة، وأسلوب فجّ.

فانظر إلى قولهم: ﴿**أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾. وقبل ذلك قيل لنوح عليه السلام: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾.

ولذلك إذا دققتَ فيما يتذرّع به المكذّبون والمغرضون، سترى بأنهم يصفون أهل الحق بصفات هي فيهم، وبعيدة كل البعد عن أهل الحق، بل حتى أجوبتهم تعبّر عن مدى التزمّت في مواقفهم، دون أن يكونوا منفتحين على الإصغاء إلى الحق. فهم يرفضون حتى مجرّد فكرة أن يعبدوا ﴿اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، ولذلك استخدموا حرف الألف كمبتدأ لجوابهم وكتعجّب، كمَن يجحّظ عينيه، ويمطّط شفتيه، ويهزّ رأسه باستغراب ويقول: ﴿أجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾. والكلمة بذاتها فيها إشارة إلى إدانتهم له﴿أجِئْتَنَا﴾، ﴿أ﴾ تجرأتَ

و﴿جِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، يا لغرابة ما تدعونا إليه، فكيف تطلب منا أن ﴿نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. ثم يستأنفون تعجّبهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فبعد كل ما قدّمه لهم من استفاضة في الشرح، وتذكيرهم بما قد حصل لـ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وأن الله قد أكرمهم زيادة، وما إلى ذلك من الإفادة والبيان، ثم توجيه التحذير لهم من مغبّة التكبّر والتكذيب، لم يحرّك ذلك فيهم ساكناً كما لو أنهم لم يسمعوه. فعندما تنصح شخصاً وتحذّره من جناية تراه مقدماً عليها، وتذكّره بأن عقاب هذه الجناية شديد، وأن فلاناً من الناس قد ارتكبها، ولاقى عقوبتها الشديدة، ولكنك تراه مصراً على عِناده، ويطلب منك أن تفده إن كنتَ صادقاً، فلايبقى أمامك سوى أن تمسك به حتى لا يودي بنفسه إلى ارتكاب تلك الجناية، وبالتالي إلى عدم إيقاع ذاك العِقاب الشديد عليه، لكنه يدفعك عنه ويتهمك بأنك على ضلال وتبتغي إضلاله.

﴿٧١﴾

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

وهذا بمثابة التحذير الأخير وقد وقفوا على حافة الهاوية السحيقة، وهو يراهم ويسعى بكل إمكاناته أن يثنيهم عن العِناد ولو بطرفة عين، فدقق في نهاية الآية الكريمة: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾. وما كان بحاجة إلى قول هذا الكلام لهم، لولا أنه وجد فيه فسحة لإمكانية العودة إلى الحق خلال فترة الانتظار هذه التي سوف تحسم الأمر، لأن الأمر لو كان محسوماً، لوقَع.

ويبقى القرار لهم، وهم يتمتعون بكامل الحرية في الاستئناف، أو الاستوقاف، ولأن العاقبة مريعة ومهولة، فإنه يذكّرهم في ذروة اللحظات الحاسمة التي هي وشيكة الوقوع بين غمضة عين وأخرى، والقوم لا يأبهون كما لو أن الأمر لايعنيهم بشيء.

وهذه هي حال أهل النصح مع أهل العِناد والاستهزاء، فإن البأس شديد، والعِقاب مروع.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، فالشرك بالله ﴿رِجْسٌ﴾ ﴿وَ﴾- يجعلكم عرضة لـ - ﴿غَضَبٌ﴾ الله. فأنا أقول لكم الحق الذي أرسلني به الله إليكم، ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم﴾. وهي مَحض ﴿أَسْمَاءٍ﴾ خالية من الأفعال، ﴿مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، لاتملك أي سلطة لأي تصرّف. حذاري.. حذاري يا قوم، إن العِقاب بات أكثر قرباً من أي وقت مضى ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، صدّقوني فما زال بالإمكان العودة.

﴿٧٢﴾

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾

يبدو بأن كل ذلك لم ينفعهم بشيء، ولبثوا مصرّين على ما هم عليه من طغيان، وهو لم يفقد الأمل في تراجعهم حتى وقع العِقاب بالفعل. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ليقع العقاب على المفسدين، ولم يُذكر كيف كان عِقابهم في هذه السورة، ولكن ظهر ذلك في سور أخرى من القرآن الكريم مثل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾فصلت١٦.

كذلك:﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ* فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ الحاقة ٦- ٨ .

وهكذا فإن الله تعالى ينجي المؤمنين الصالحين، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾. فعاقبهم الله ولم يدعهم يعيثوا فساداً في الأرض، وممّا يُروى: (كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه السلام الأحقاف، والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضر موت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل

قوتهم التي جعلها الله فيهم، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له (صداء)، وصنم يقال له (صمود) وصنم يقال له (الهباء).

فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم النـــــاس، ولم يأمرهم بغير ذلك فيمـــا ذكر فأبوا عليه وكـذبوه

وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به، وهم يسير يكتمون إيمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له (مرثد بن سعد بن عفير)، وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذّبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل، وكان البيت معروفاً مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم كان (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)، وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له (معاوية بن بكر) وكانت أم معاوية (كلهدة بنت الخيبري) وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقلّ عنهم المطر قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة ليستسقوا لكم فإنكم قد هلكتم فبعثوا، قيل: بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صنديد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد.

فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون عليّ والله وما أدري كيف أصنع فإني أستحي أن آمرهم بالخروج لما بعثوا إليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك

من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا. قال وشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم		لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا		قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو		به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمو بخير		فقد أمست نساؤهم أيامى

وإن الوحش تأتيهم جهارا		ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم		نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم		ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم. فقال مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم، وأظهر إسلامه وقال في ذلك:

عصت عاد رسولهم فأمسوا		عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود		يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد		فأبصرنا الهدى وجلا العماء
وأن إله هود هو إلهي		على الله التوكل والرجاء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيبا لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف أنه اتبع دين هود وآمن به:

ألا يا سعد إنك من قبيل		ذوي كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا		ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفد		ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام		ذوي رأي ونتبع دين هود

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا. ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشيء

مما خرجوا إليه، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد: اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد. وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال: اللهم أعط قيلا ما سألك. وقال الوفد معه: واجعل سؤلنا مع سؤله. وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل طول العمر، فعمر عمر سبعة أنسر، وقال قيل بن عنز حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمـــــــــراء

وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء.

فناداه مناد اخترت رمادا رمددا لا يبقي من آل عاد أحدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ*تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأحقاف٢٤ ، ٢٥ .

أي كل شيء مرت به بأمر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها (مهدد) فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أن أفاقت قالوا لها: ماذا رأيت؟ قالت: رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من آل عاد أحدا إلا أهلكه. واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس وإنها في وقتها لتمر بالظعن من عاد فتحملها بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل إليه رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له: أين فارقت هودا وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر. وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر: صدق ورب الكعبة) . قال السدي: (بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها وأغلقوا الأبواب، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت) . وقيل: (إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين

تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر). وبذلك فقد أنجى الله تعالى هوداً والمؤمنين الذين معه، وهذه سنة الله في الأرض، حيث تبقى للطيّبين، وينتصر فيها الطيبون حتى لو ظهر المفسدون في بعض المراحل الاستثنائية، وحتى لو طالت بهم بعض السنوات، ولكن سنة الله تقضي بأن تكون الغَلَبة للمؤمنين الصادقين، العاملين على صلاح الأرض. ولا يكون ذلك لأقوام فحسب، بل حتى للجماعات والقبائل والعوائل والأفراد.

وحتى عند العِقاب، فإن الله ينجي الصالحين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ منه، لماذا ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ منه؟ لأن العِقاب يكون عاماً، مثل سقوط طائرة، أو غرق باخرة، أو حادث سير، أو فيضان، أو عاصفة، أو حريق، وما إلى ذلك. ولا أحد ينجو من ذلك سوى ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ من الله تعالى ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الـ ﴿دَابِرَ﴾ هو الآخر الذي لم يبق بعده أحد منهم، أي استأصلنا ﴿دَابِرَ﴾ آخر المكذّبين بما أتى الرسل من آيات الله، ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بها.

الباب الثامن والعشرون

صالح عليه السلام

﴿٧٣﴾

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ما زال الخطاب القرآني يذكّر الناس جميعاً بأنهم أخوة، ومهما بلغت حدّة الخلافات الفكرية والعقائدية بينهم، فليس للإنسان أن يتجاهل رابطة الروح الإنسانية الأخوية هذه.

وهنا تكون العلاقة بين أشدّ الناس إيماناً وصلاحاً، وهو نبي الله، وبين أشدّ الناس كفراً وفساداً، وهم قومه الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله.

ورغم ذلك، يذكّرهم الله تعالى بالانطلاق من خلال هذه الرابطة لمعالجة أي خلاف ينشب بينهم: ﴿وَإِلَى﴾ قبيلة ﴿ثَمُودَ﴾، وقد سموا بذلك نسبة إلى أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

فبعد كل الذي وقع لآدم، ثم لقوم نوح، ثم لقوم عاد، جاء أناس غيرهم. ودوماً فإن الغاية من التجدّد الإنساني، هو الصلاح، وأن المفسدين يُصابون في الصميم، مهما تمتعوا بعوامل القوة والجبروت، لأن سنة الله أن يكون الصلاح عاماً في الأرض، وليس الفساد. وتلك كلها أدلّة يبيّنها الله سبحانه وتعالى للناس جميعاً في كل زمان ومكان.

وتفصل بين هود وبين صالح عليهما السلام مائة سنة:﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾. فأساس صلاح الإنسان هو عبادة الله الذي ليس ﴿مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾، ولذلك يبدأ الرسل بالدعوة إلى ترك الشرك، وعبادة الله، وتلك هي الخطوة المشرقة الأولى التي يمكن للإنسان أن يخطوها على سبيل الصلاح الحقيقي الذي ينقذ الإنسان من قلق الازدواجية، إلى سكينة التوحيد.

فإن سَكَنَ الإنسان في معتقده، صلح حاله، واستقام أمره، لأن ما دون ذلك تشوبه الازدواجية مهما تظاهر المشرك بالاستقرار.

فالمؤمن يؤمن بإله واحد، ويشترك معه المؤمنون جميعاً وعلى مختلف العصور بالإيمان بهذا الإله الواحد فقط دون غيره، وذلك من أقوى عوامل الاستقرار.

في حين أن المشرك يتشتت في العبادة، فترى آلاف الأشكال والألوان التي يعبدها المشركون، وهم لا يتفقون في شركهم على ما يعبدون، فحتى عبادة المشرك لله سبحانه وتعالى، إلى جانب شركه، لا تنفعه بشيء، ذلك أن الشرك دوماً يكون عامل تشتت ذهني.

في حين أن التوحيد بالله الذي لا إله غيره ولا شريك له، يكون عامل راحة ذهنية. فبعد تأسيس حالة التوحيد في النفس البشرية، يأتي العلاج بتدرّج على أساس سليم. ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾. إن الله رؤوف بالناس ويبيّن لهم الأدلّة والثبوتيّات رأفة بهم، فأهل قبيلة ﴿ثَمُودَ﴾قد طلبوا من النبي صالح عليه السلام أن يجعل

لهم ﴿ناقة﴾، وقد سأل الله عز وجل كي يستجيب لمطلبهم. وقد استجاب الله لرسوله في الناقة، دليلاً لهم إلى تصديق رسول الله إليهم.

وهي ﴿ناقة﴾خلقها الله بشكل استثنائي دون ذكر ودون أنثى، وبشكل فوري دون حمل.

وقد روي في ذلك: (إن عاد لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى إن أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى إليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى إليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم إلى الله تعالى وإلى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول فقال صالح أي آية تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم، وذلك في يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة، لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة، ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت بالبخت من الإبل فإن فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبها إلا الله عز وجل عظيما وهم ينظرون إليها ثم نتجت سقبا مثلها في

العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبا أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح: هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر

يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى إذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فهم على ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم الإبل والبقر والغنم فتهبط إلى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي فتهرب المواشي إلى ظهره فتكون في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى بأم غنم وكانت عجوزا مسنة وهي امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم، والمرأة الأخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال لها مصدع بن مهزج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وجها وأكثرهم مالا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أي بناتي شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا منيعا في قومه.

عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة". قوله انبعث أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع المتنع ممن أراده. قال أصحاب الأخبار:

فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهزج، فاستنفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت

على مصدع فرماها بسهم فانتظم في عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من أحسن الناس وجها ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرجت ورغت رغاة واحدة فتحذر سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن تطاول فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهزج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزئون به: ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك؟

وكانوا يسمون الأيام في ذلك الوقت الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك: تصبحون غدا يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمّرة، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلموا فلنقتل صالحا فإن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليقتلوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبدا فإنه قد وعدكم العذاب أنه نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم إلا غضبا عليكم وإن كان كاذبا فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم

مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فمنع صالحا فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا إلى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبي الله إنهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك؟ قال: نعم. فدلوهم عليه فأتوا أبو هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلّبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعا إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد ما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال.

وذكر السدي في عقر الناقة فقال: أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه والسلام إن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتا سريعا فكان إذا مر بالتسعة فرأوه، قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا

نخرج فنرى النـــــاس أنا قد خرجنـــــا إلى ســــفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كـــــان الليل وخرج صـــالح إلى

مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فإذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فإذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة، وقال السدي وغيره: لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعا فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيرا لنا، وقال ابن العاشر: هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها).

إن ذلك بمثابة دليل عظيم بأن ما يقدر عليه الله، لا يقدر عليه سواه، وأن جميع الأشكال الشركية لو اجتمعت، ما كان بوسعها أن تأتي بناقة بهذه الطريقة، لأن الله لايجعلها قادرة على ذلك، وليس بوسعها أن تقف حائلاً بين ما يريد الله فعله.

فهذا من شأنه أن يثبت الإيمان بوحدانية الله في القلو ب، وبذات الوقت، فإنه يُظهر معادن الكفار الحقيقية، فهم إزاء هذه الثبوتيات الجلية، ليس بوسعهم ألاّ يؤمنوا مهما أظهروا اللا إيمان، فهم يؤمنون، ولكن الاستكبار يمنعهم أن يقرّوا بهذا الإيمان، وبالتالي فإن هذا الإيمان لا ينفعهم، ذلك أن قلوبهم مكتظة بالعناد، والغل، والحقد، والتعالي. فينكرون حتى إيمانهم، ويسعون ما بجهدهم أن ينزعوا هذا الإيمان من صدورهم، وألاّ يصدّقوه، ولكن كل ما حولهم يبيِّن ويثبت لهم بأن الله هو واحد أحد، فرد صمد، وأنه الوحيد الذي تكون له القدرة على كل شيء بشكل مطلق ودون أي استثناء.

ولذلك ترى أن بعض الملاحدة في النهاية يعترفوا بفشلهم الذريع في موارة هذا الإيمان، فيعلنوا إيمانهم، ويتوبوا ويتراجعوا عن تاريخهم، ويفتحوا صفحة جديدة من حياتهم، حتى لو كان ذلك في وقت متأخّر جداً.

فبعض الناس تخف حالة العناد لديهم مع التقدّم في العمر والتجارب الحياتية، فيتواضعوا ويُراجعوا حساباتهم بشكل دقيق، ثم يسألوا الله المغفرة عمّا قد سلف.

ويتحوّلوا إلى أناس صالحين، بل ومنهم مَن يتحوّل إلى دعاة إلى الإسلام في مجتمعاتهم الغير مسلمة، فيكون صوت الإسلام فيهم، ويؤثر على الكثيرين منهم، فيدخلوا الإسلام بفضل الله، ثم من خلال ما أثر عليهم هذا الداعية الذي هو منهم وفيهم وابن جلدتهم.

﴿٧٤﴾

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

هنا عليك أن تدقّق في الكلمات التي يقولها أنبياء الله، والكلمات التي يقولها المشركون، فترى الأدب والاحترام في كلماتهم حتى وهم يتحدّثون مع أكثر عباد الله عدوانية وطغياناً. وبالمقابل ترى العبارات القاسية التي يقولها المشركون لأشخاصٍ هم قِمَمٌ في الفضيلة والأخلاق والصلاح والاستقامة والمحبة.

فهذا درس بليغ تتلقاه في أدب الحوار مع الناس بما كانوا عليه، فتتعلّم كظم الغيظ، وضبط النفس، فلا تدع أحداً يغلبك في أدبه بالتحاور معك، فمهما كان محاورك مؤدّباً، عليك أن تكون أكثر أدباً منه، وأضعف الإيمان ألاّ تتنازل لتكون أقل أدباً منه في تحاورك معه.

وقد رأيت أن القوم قالوا لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكذلك قالوا لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فكان ردّه لطيفاً ومؤدّباً، فلم يردّ بكلامهم عليهم، بل اكتفى بأن رفع صفة السفه والكذب عن نفسه بأدب جَم: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فانظر إلى بديع الكلام الذي يقوله النبي صالح لقومه: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾.

وكلمة ﴿وَاذْكُرُواْ﴾، بمعنى حريٌ بكم أن تشكروا الله﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

أي ما أنتم به من نعمة الآن، كانت لأهل ﴿عَادٍ﴾، ولكنهم عندما طغوا، عاقبهم الله بطغيانهم، ﴿وَاذْكُرُوا﴾ذلك جيداً ولا تنسوه، لأن هذا الذكر يجتبكم ما آلوا إليه. فالآن أصبحتم ﴿خُلَفَاءَ﴾ لكل هذه النِعَم ﴿مِن بَعْدِ عَادٍ﴾. ﴿وَ﴾ قد ﴿بَوَّأَكُمْ﴾ مكّنكم الله ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي كانت لهم.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً﴾، تشيدون القصور على الأرض السهلة، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾، كذلك ﴿تَنْحِتُونَ﴾ لكم البيوت في ﴿الْجِبَالَ﴾.

﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

الخلاف بين ﴿وَاذْكُرُوا﴾في مفتتح الآية، و ﴿فَاذْكُرُوا﴾هنا، أن ﴿وَاذْكُرُوا﴾جاءت تذكيراً بـ ﴿عَادٍ﴾، وما حلّ بهم نتيجة تماديهم. و ﴿فَاذْكُرُوا﴾هنا جاءت تذكيراً لهم ليقدّموا الشكر لله على آلائه، لأن ذكرهم لـ ﴿آلاءَ اللهِ﴾، يقيهم أن يعثوا ﴿فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿٧٥﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾، قالت الأكثرية القوية المستكبرة على ما جاء به، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ للأقلّية التي تواضعَت وآمنَت، فقد ذكرت الآية صفتين متناقضتين لفريقَين متناقضَين، ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ أي تعالوا عن الإيمان، و ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ أي تواضعوا للإيمان: ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، وهذا بمثابة بثّ الشكوك فيهم، فكانت إجابتهم الحاسمة والثابتة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. ثابتون على ما آمنّا به، ولا تزحزحنا شكوككم عن إيماننا.

فالذين آمنوا، رأوا كيف أن ﴿صَالِحاً﴾ دعا الله، وقد استجاب الله لمطلب هؤلاء من خلال معجزة الناقة، وذلك من أكبر البراهين على صدقه. ورغم ذلك أبوا أن يتنازلوا عن

استكبارهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تمادوا ليزحزحوا المؤمنين عن إيمانهم، ويبثوا فيهم الشكوك.

﴿٧٦﴾
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

وقد جاء قولهم فجّاً، كمَن يقف على أرضيّة هشّة وهو يتأرجح عليها، وإذا أمعنتَ القراءة في الآية القصيرة، سيجلو لك أن جوابهم لايصدر إلاّ من الذين لايملكون حجّة في موقفهم، فيتفوّهون بعبارات غير منضبطة.

فإن قال لك شخص ملحد بأنه لا يؤمن بالله، تسأل الله له الهداية. أمّا إذا قال: لا أؤمِن بما آمنتَ أنت به، فذلك اتهام لشخصك بأنك على باطل، لأنه خصّك بقوله.

وهذا الأسلوب الذي يخلو من أدب الحوار، ما يزال سائداً لدى المغرضين، فيكيلون الاتهامات الشخصية لأهل الورَع والاستقامة.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾، كان رد فعل المستكبرين وهم يرون الناس ترق قلوبهم للإيمان أن قالوا لهم: ﴿إِنَّا﴾ نحن ﴿بِ﴾ ما أتى به صالح ﴿الَّذِيَ آمَنتُمْ﴾ أنتم ﴿بِهِ كَافِرُونَ﴾رافضون أن نكون معكم في هذا الإيمان.

﴿٧٧﴾
﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

تمادوا في الطغيان والتكذيب، والله سبحانه وتعالى يمهلهم ويمهلهم، ثم أن المؤمنين يحتملونهم ويحتملونهم، علهم يراجعوا أنفسهم ويهتدوا، ولكنهم لا يستوعبون الحكمة من الإمهال، فيتمادوا أكثر ويطغوا أكثر:

﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ﴾بأن نحروها، ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾غدوا أكثر عِناداً وصلابة في استكبارهم للامتثال بما جاء من الله.

﴿وَقَالُواْ﴾ استهتاراً: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، أي بما قاله لهم في الآية ٧٣: ﴿هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَ﴾ لم يأبهوا بذلك و ﴿عَقَرُواْ النَّاقَةَ﴾التي جعلها الله استجابة لدعاء رسوله، رأفة بهم. ثم أنهم يستعجلون العذاب على أنفسهم استناداً إلى التكذيب ﴿وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فإن كنتَ صادقاً فيما تقول بأن الله أرسلك، ها قد عقرنا ﴿النَّاقَةَ﴾ فأين ﴿عَذَابٌ﴾ الله الـ ﴿أَلِيمٌ﴾ الذي حذّرتنا منه؟! وكل هذا حتى يحرجوه، ويوسّعوا من دائرة بث الشكوك والشبهات حوله.

وهذا هو عين التمادي المتصلّب، فيحدث أن ترى شخصاً ضالاً، يتقصّد شخصاً مستقيماً بالإساءة، فيجعله هدفاً له حتى يثنيه عن استقامته، فهو لا يكتفي بأنه ضل السبيل، بل لايعجبه أن يستقيم غيره أيضاً، فتراه يلاحق ذاك المستقيم من مكان إلى آخر، ويوجّه إليه التهم الباطلة من مجلس إلى آخر، ويريد أن يحرجه بعبارات تخلو من الأدب، وينسب إليه الأكاذيب.

فلا يكون أمام المستقيم سوى أن يرفع التهم الجارفة عن نفسه بأدب جّم، ولكن الضال يزداد اعتداءً عليه، فقط لأنه رفع عن نفسه الاتهامات الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، ولم يقرّ بالكذب على أنه صدق.

فكان عليه أن يصدّق الكذب ويقرّ أمام الناس بأنه صدق. فحتى لو فعل ذلك، لأظهر للضال بأنه شخص كاذب، لأنه أقرّ بالكذب على أنه صدق، وهو يعلم بأنه كذب مثلما يعلم الضال بأنه كذب.

وهذا مثال يذكره الله تعالى لنا حول العلاقة بين أهل الصلاح، وأهل الفساد في التاريخ البشري، فتبيّن الآيات بأن ما يحدث في الحاضر ليس جديداً في هذه العلاقة.

﴿٧٨﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

الآن تريك الآية الكريمة بأن ذلك التمادي لن يكون بوسعه أن يستمرّ، وأن الإنسان المستقيم له مَن ينصره مهما بدا ضعيفاً في موقفه، ومهما تخلّى الناس عنه، ومهما استقوى عليه أهل المكائد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وقد جاءت الكلمة في الصميم تعبيراً وكشفاً للضعف الحقيقي الذي هم عليه، والإنسان لا يرتجف إلاّ إذا خارَت قواه، ومادام الإنسان يتمتع بالقوة، فإنه يقاوم الارتجاف، لكنه إذا تعرّض لمرض، لا يملك سوى أن يرتجف، لأن قوته تكون قد خارَت عنه، وكذلك عندما يصبح شيخاً طاعناً في السن، فإنه يرتجف لأنه لم يعد يتمتع بالقوة التي كان يتمتع بها، وكانت تصدّ عنه الارتجاف.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، أي أصبحوا مأخوذين بـ ﴿الرَّجْفَةُ﴾التي ﴿أَخَذَتْهُمُ﴾ ممّا كانوا عليه من قوة وأصبحوا تحت سطوتها. فهذا هو الوهن الحقيقي الذي كانوا يستقوون به، ثم جاءت العبارة الأخرى لتظهر استسلامهم: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

فلم يعد بمقدورهم حتى أن يقفوا على أقدامهم، فذاك الذي كان يجري بلياقة حصان، ها هو يخنع ويستسلم لرجفة سلّطها الله عليه، فتصطكّ ركبتاه ولا تجسران على حمله للحظة واحدة، وتلك اليد التي طالما بطش بها، لم تعد قادرة على حمل شربة ماء، وذاك الصوت الأجشّ الذي طالما صدع به أسماع الناس بهتاناً، تحوّل إلى نبرات خافتة مرتجفة، وتلك العينان اللتان طالما جحّظهما في وجوه الناس، زاغتا، ولا تكادان أن تنفرجا إلاّ بالكاد.

وهذا من الدروس البليغة التي يعلّمها القرآن لإنسان كل زمان ومكان، فعندما تجري بلياقة حصان إلى فعل شر، تذكّر أولئك الذين ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

فإن متعك الله تعالى بلياقة بدنية سليمة، وعينَين سليمتين، وقدَمَين سليمتين، ويدَين سليمتين، وصوت سليم، فعليك أن تثبت لله بأنك أهل لهذه النِعَم التي بوأك بها. فتجري بقدَميك إلى عمل صالح، وتحمل بيدَيك الخير للناس، تقول بصوتك طيب الكلام، تنظر بعينَيك إلى الناس بأدب، فلا تختلس النظر إلى الناس لتحرجهم بنظراتك إليهم.

فمِن الأدب أنك عندما تدخل على شخص، أن تشعره بدخولك، أو تطرق الباب حتى لو كان الأمر بين الرجل وزوجته، أو بين أهل البيت الواحد، وألاّ يباغت أحدهم الآخر، فلعلّه يكون في وضع حَرِج. فذلك من آداب حسن استخدام النظر الذي يُسجَّل للإنسان، وهذا يُقاس على اختلاس السمَع أيضاً، فتشعر الآخر بأنك تسمعه، إن وجدتَ نفسك بغتة تسمع

صوت شخص دون علمه. والإنسان لا يولد كاملاً، لكنّه يخطئ ويتعلّم فيصلح مِمّا كان فيه من خطأ، فليس المهم أنك أخطأت، بل المهم أنك أصلحت.

إذن، الـ ﴿الرَّجْفَةُ﴾ هنا تنجم عن الذعر المباغت، ونجد بعض تفاصيل ما أصابهم في سور أخرى مثل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الحجر٨٣ ، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فصلت١٧ ،﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾الذاريات٤٤. فيُحتمَل أن العِقاب كان على شكلَين، الصاعقة من السماء، والزلزلة من الأرض، فلم يملكوا من أمرهم سوى أن يصبحوا ﴿فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أي قضى العِقاب الإلهي عليهم، وقد أنجى الله تعالى رسوله، والذين آمنوا من ذلك.

﴿٧٩﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾

وهذا إرشاد لك كي تفتح قلبك لأولئك الذين يقدّمون لك النصح، ويعظونك، فتشكرهم على بادرة نصحهم لك. فانظر إلى حجم ما يتمتع به رسول الله صالح عليه السلام من الأدب مع قومه حتى بعد أن أوقع الله تعالى بهم العِقاب، فلم يشمت بهم، بل تركهم ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، أنذرتكم بما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ بشأنكم، وفعلت كل ما كان بوسعي أن أفعله من أجل إنقاذكم من نتائج ما كنتم عليه من ضلال واتباع الأهواء، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ ما استطعتُ أن أنصح ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، فأصررتم على تكذيبي، والآن قد وقع ما أنذرتكم به، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بأدب كما كان بينهم بأدب.

الباب التاسع والعشرون

لوط عليه السلام

﴿٨٠﴾

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾

ولأن الأمر عظيم، ولأن البأس شديد وبالغ الخطورة، فما تزال الدروس والأمثلة القرآنية تتوالى من تاريخ الإنسان مع استفحال المعاصي. وإن كانت السورة في مقدّمتها قد وضَعَتك أمام المخيّلة بالنسبة للجنة، والنار، والميزان، والأعراف، حتى تكون على بيّنة بما يمكن له أن يحدث لك، فإنها هنا تضعك أمام الوقائع الحياتية الملموسة.

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ جاء ذكر لوط عليه السلام في مبتدأ الآية، وهو يحذّر قومه الذين ابتكروا الشذوذ، أو كما يُعرَف في وقتنا بـ (المـَثلية الجنسية)، أي يعاشر المرء جنساً مِن مثله، وهذا انحراف عن الطبيعة البشرية.. ولوط بن هاران بن تارخ، هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد أرسله الله إلى قوم (سدوم) عندما فشَت فيهم هذه الفاحشة التي ابتكروها: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾.

فهؤلاء هـم أول مَـن أتـوا فاحشـة الانحـراف الجنسـي، وحرّفـوه عـن مساره الطبيعـي كمـا تطلعنـا الآيـة الكريمـة. وقـد أدان لـوط هـذا السلوك الشـاذ فـيهم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مُـديناً إياهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الانحراف عن طبيعة العلاقة الجنسية بـين الرجل والمـرأة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾.

فلم يسبق لأحد من ذريّـة آدم عليـه السلام قـد أتـى ذلـك قبـل قـوم لـوط عليـه السلام، ولذلك لبث هذا الفعل المنافي للحشمة مُنتسباً إلى قوم لـوط، ومـع مـرور الـزمن بـات يُوصَف المنحرفون جنسياً بـ (اللوطيين) في بعض التعريفات.

ونـرى أن هـذا الوصـف غـير دقيـق، رغـم أننـا نـرى أن الـذين يسـتخدمون هـذا الوصـف، لايتقصدّون به الإساءة إلى شخصـية لـوط، بـل ينسـبون بـذلك هـذا المـُنحَرف إلى قـوم لـوط، نَسابَة الانحراف.

فإذن الوصف للفعل، وليس للشخص، والانتساب إلى الفعل، وليس إلى الشخص، ولـذلك نـرى أن ننزّه اسـم لـوط عليـه السـلام مـن هـذا السلوك المنـافي للحشـمة الإنسـانية، فيـتم انتسـاب الأعمال الصالحة إلى أهل الصلاح في التاريخ البشري، لأن لوطاً قد تبرّأ من أفعالهم، فليس من الدقة أن نصف المشركين الذين كانوا في مكـــــــة بالمحمّديين حتى لو كان بعضهم ينتسب إليه نَســـــابة الدَم، لأن محمّداً صلى الله عليه وسلم قد تبرّأ من أفعـــــالهم،

وأدانهم في شركهم، فإذن هم قوم محمّد صلى الله عليه وسلم، وليسـوا محمّـديين. فيجـوز أن يُعرَف الذين يتبعون هذا السلوك بالمنحرفين، أو المَثليين، أو الشاذين، ويبقى قـوم لـوط هـم الذين ابتكروا هذه ﴿الْفَاحِشَةَ﴾، وأول مَن أتوها في التاريخ الإنساني.

﴿٨١﴾

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

هذا بيان لوصف نوع ﴿الْفَاحِشَةَ﴾، كونها ترد في القرآن كوصف للجماع دون عقد شرعي، وهو ما يُعرَف بالزنا.

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ﴾النساء١٥.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء﴾. وهنا إشارة جليّة أن ذلك لم يحدث بسبب قلّة ﴿النِّسَاء﴾، بل أنهم كانوا يأبون معاشرة ﴿النِّسَاء﴾رغم كثرتهن، وهذا ما يحدث في بعض المجتمعات الغربية رغم تكاثر أعداد النساء، والتيسير المُتاح في مسألة الزواج، بل التغاضي حتى عن العلاقات الجنسية غير الشرعية، وإتاحتها، فإن البعض يلجأ إلى المَثلية رافضاً المرأة سواء بعقد شرعي، أو بزنا.

وقد اعتبرت بعض قوانين الغرب ذلك من الحريّة الشخصية تجاوزاً، فلم تنص بعقوبات رادعة بحق هؤلاء، مِمّا جعل الشذوذ مُستشرياً ومُباحاً.

ولأن الانحراف يستجرّ الانحراف، فقد رأت بعض النساء أيضاً أن يُباح لهن ذلك كناية بالرجال، فظهر ما يُعرَف بالنساء السحاقيّات، وهنّ كذلك مثليّات يرفضن معاشرة الرجال، ويأتين بعضهن البعض ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ﴾ ﴿الرِّجَالِ﴾.

وقد رأت هذه القوانين أن تسكت عن ذلك أيضاً، وتتيحه على غرار الرجال.

إذن ليس لك أن تترك لأهوائك الحبل على الغارب، لأنك عضو في مجتمع، ورب لأسرة، وأخ، وعم، وخال، وما إلى ذلك، والأمر لا يتوقف عليك، بل يترك ذلك أثراً على مَن هم على صلة بك، وقد تفسَد

الأسرة كلها نتيجة فساد الأب، فكان لابدّ من استحداث قوانين بالنسبة لحريّة الأبناء دون أن يكون للآباء الحق في ردعهم.

والمعضلة التي تنجم عن ذلك أن أي ممارسة منحرفة وغير طبيعية، تؤسّس سلوكاً منحرفاً عاماً على سويّة شخصية الإنسان، فيكون بشخصية مهزوزة، مضطربة، مكتئبة، قلقة، متوترة، ذلك أن ممارسته الجنسية، هي ممارسة شاذة على الطبيعة البشرية، كون الله قد خلق الذكر والأنثى، وجعل الذكورة تكتمل بمسك الأنوثة، وتكتمل الأنوثة بمسك الرجولة، فيستمدّان معالِم حياة طبيعية سويّة من تكامل هذه العلاقة.
ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم، يحثّ الناس على الزواج، ويقول: " أشراركم عزّابكم" ، وكان يوجّه العزّاب إلى الإكثار من الصوم.

بعد أن قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، أضاف: ﴿بَلْ﴾، أي: والحقيقة: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. والإسراف بمعنى البَطَر، كما الأمر بالنسبة للبعض سواء في الشرق، أو الغرب؛ فعندما يفتح الله عليه وييسّر له أمره، تراه يبطر ويمرد ويشذّ عن قاعدة الطبيعة البشرية، فيلجأ إلى علاقات غير شرعية، أو منحرفة. فيكون بذلك قد أسرف بالنعمة التي أتاحها الله له.

فالحقيقة﴿أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

من جهة أخرى، فإن الإسراف هو الإنفاق فيما لاطائل منه، فتنفق شيئاً دون أن تنتفع بما أنفقت، ودون أن ينتفع به غيرك. وهنا تتعلّم من الآية بأن العشرة الزوجية بين الرجل والمرأة، تعود بنفعها عليهما معاً، وذلك من خلال الأبناء، وتكوين عائلة، وتلبية الحاجات الطبيعية فيهما، والاستقرار العاطفي، والتوازن العصبي، والانضباط النفسي، وكل ذلك إلى جانب أواصر علاقات القرابة بينَ عائلتي الزوج والزوجة، ومن خلال المنزلة الاجتماعية التي يكسبها الزوجان، فالزواج يجعل منه عماً، ويجعل منها عمّة، ويجعل منه خالاً، ويجعل منها خالة، وما يتفرّع من صلات القربى التي تكون أساسها العشرة الزوجية بين رجل وامرأة.

فالشذوذ لايحقّق شيئاً من ذلك، ﴿بَلْ﴾يشكّل جناية على المرأة، لأن هذه الشهوة قد أودعها الله تعالى في الرجل لتكون من حق المرأة، والبذور التي يقتلها الرجل ويسرف بها في أهوائه المنحرفة،

هي من حق رحم المرأة، ولذلك فإن الرجل عندما يأتي امرأته يكون قد عَبدَ الله، لأنه يكون قد أطاع الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم:" وفي بضع أحدكم صدقة". قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال:"أرأيتم إن وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال، كان له بها أجر".

والمرأة التي تمسك نفسها عن زوجها، تكون قد عَصَت الله في أمره، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح" وفي رواية:"حتى تراجع وتضع يدها في يده".

فالإسراف هو هدرٌ لطاقة الرجل، كما أنه اعتداء على حق مشروع من حقوق المرأة. والكلام موجّه لإنسان كل زمان ومكان، وليس مقتصراً على قوم لوط فحسب.

﴿٨٢﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

فلقي رفض النصح في جواب قومه، بدل أن يستجيبوا ويعتدلوا ويصلحوا من شأنهم.

﴿قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الخروج هو النفي، أي أنفوهم من هذه القرية، لسبب ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. وهذا هو دَيدَن العصاة، فحتى اتهاماتهم يعنون بها الإغاظة، لأنهم يعلمون بأنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وقد رأيت أنهم قالوا للمؤمنين من قوم صالح: ﴿إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

والآن: ﴿قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لماذا؟ لأن تهمتهم الوحيدة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. أي ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾من أن يأتوا ﴿الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء﴾. وقد قالوا ذلك من باب السخرية والاستهزاء. فهم ليسوا من ملّتنا، وعلى ذلك أنفوهم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

﴿٨٣﴾
﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

أخرج الله تعالى رسوله ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ليوقع العِقاب بما تبقّى جميعاً، ولعلّ الأهل بمعنى أهل بيته، أي آمنت به ابنتاه فقط، فخرجتا مع أبيهما دون أحد غيرهم، لأن البقية كلها لم تؤمن. ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾الذاريات٣٥، ٣٦. فأهل لوط هم زوجته وابنتان بكران له، وقد استثنى الله تعالى ﴿امْرَأَتَهُ﴾ من الأهل، كون الزوجة، هي من أهل زوجها، كما أن زوجها هو من أهلها. والاستثناء يشير بأنها كانت تضمر موالاتها للقوم، فكانت بذلك ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الذين شملهم العذاب. وغَبَرَ بمعنى هلَكَ، و﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾أي ﴿مِنَ﴾ الهالكين.

﴿٨٤﴾
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

هنا يصف الله سبحانه وتعالى فاحشة الشذوذ بالإجرام، وأن الله يتولى عقاب ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَانظُرْ﴾ والكلام موجّه لمحمّد صلى الله عليه وسلم، ليس ليحتفظ به، بل ليبلغنا إياه، ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد، وأبلغ الناس لينظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. فالذي يقبل أن ينتهج منهج الانحراف، يكون قد قبِلَ وصفَ الله تعالى له بالمجرم، وقبِلَ أن تكون له ﴿عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. أما الـ ﴿فَانظُرْ﴾ الموجّهة للرسول صلى الله عليه وسلم، فهي تبيّن له بأن النصر يكون للصلاح وليس للفساد، مهما كانت أعداد الصالحين قليلة، فإن استطاع الأنبياء أن يقنعوا قلّة من أقوامهم، فإن لوطاً لم يستطع أن يقنع حتى هذه القلّة؛ بل لم يستطع أن يقنع حتى زوجته، وهذا ما حصل مع نوح أيضاً: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾التحريم١٠، ورغم ذلك فقد نصر الله تعالى نوحاً مع مَن آمن به، ونصر لوطاً مع ابنتيه البكرتين اللتين آمنتا به.

أما بالنسبة لامرأته، فلعلّها أخفت عدم إيمانها حتى تبقى مع ابنتيها، أو حتى تحافظ على حياتها الزوجية، لأنها لو أخبرته بأنها غير مقتنعة بما يدعو إليه، أو غير مؤمنه بأنه رسول من عند الله، لعلّه ما أبقاها عنده زوجة، وكان اسمها(واعلة) عندما كان يأتيه أضياف، تدل القوم عليهم من خلال إشعال النار إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان نهاراً من خلال التدخين. ويروى (أنّ الملائكة لّما نزلوا داره على هيئة الضّيفان مضت امرأته إلى قومها تخبرهم بهم، بخلا على الطّعام، فتسارعوا إليه، وفزع لوط عليه السّلام، فبشّره جبريل بأنّهم مرسلون لإهلاكهم، فقال مستعجلا: وما يمنعكم إذا؟ قالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هود٨١ ، وأخرج جبريل عليه السّلام ريشة من جناحه فاختطفت أبصارهم، فرجعوا عمياً يقولون: جاءنا لوط بسحرة. ولّما جنّ عليهم اللّيل مشى لوط عليه السّلام إلى رجل منهم كان يذبّ عنه ويحسن جواره فأنذره بالهلاك ودعاه ليخرج معه فلم يلتفت إلى قوله وأصرّ على كفره). لكن الله لايخفى عليه شيء، فأظهر الحق للعيان. وهذا بذاته من باب التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لايصيبه شيء من اليأس، أو يحزن بسبب الانكار الواسع الذي كان يلقاه من قومه، وهم الذين أخرجوه من أحب بقاع الأرض إليه، وما إلى ذلك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾، فقد عاقبهم الله تعالى بأن جعل حجارة شديدة الحرارة تقع عليهم من السماء ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ★ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾هود٨٢، ٨٣. لبثت الحجارة المكوّنة من الطين المطبوخ بالنار، تتساقط دون انقطاع ، وكل حجرة مكتوب عليها اسم مَن يُرمى بها، فتصيبه أينما كان.

قال مجاهد: (نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة).

وقيل بمعنى (وأنزلنا على الخارجين من المدائن الخمسة حجارة من السماء معلمة عليها اسم من يرمى بها).وروي (أن تاجرا منهم كان في الحرم، فوقف الحجر له أربعين يوماً حتى قضى تجارته، وخرج من الحرم، فوقع عليه فأهلكه). يبيّن الله تعالى كيف أنه يوقع العِقاب بالمفسدين، وكيف ينجي الصالحين.

الباب الثلاثون

شعيب عليه السلام

﴿٨٥﴾

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ما يزال الناس يطغون كلّما يعاقب الله قوماً، ويجدّد الأرض ويطهّرها من المفسدين، فيأتي غيرهم، وقد هيّأ لهم أسباب النعيم والرفاه، وأرسل لهم الرسل والأنبياء، لتوجيههم

وإرشادهم، وأغدق عليهم بالأرزاق والخيرات. لكنهم يُعاودون الفساد مرة أخرى، فيوقع الله بهم العِقاب.

وفي هذا بيان بأن الله تعالى لايميّز في عقابه بين قوم وآخر، أو في زمن وآخر، كما لايميّز في ثوابه بين قوم وآخر. فأفعال الناس هي التي تقيّمهم عند الله، مهما كانوا وحيثما وُجدوا.

إن الله غني في أمثلته للناس، ويبيّن لهم من قرن إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى أن الغَلَبة لن تكون للفساد، بل للصلاح. ومهما كثر المفسدون ومهما امتدّت رقعة الفساد، فإن الله يُعاقِب المفسدين بفسادهم، ويجعلهم يمنون بالهزيمة، وينصر عليهم قوماً صالحين ويورّثهم الأرض. فهي إذن دروس حتى يصلح الإنسان من شأنه، ويبلغ قناعة بأن الخير له ولأبنائه يكون في الصلاح، وأن بركة الله تكون في الصلاح، وأن الفوز في الدنيا والآخرة لايكون إلاّ بالصلاح. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾.

درس بليغ آخر يمنّ الله تعالى به على الناس ليتعظوا ويأخذوا العبرة، ويتجنبوا عواقب الفساد الذي مُني بها المفسدون من قبلهم، والأمثلة الغنية تبيّن تفرّعات الفساد. و هم أولاد ﴿مَدْيَنَ﴾ بن ابراهيم، من زوجته الثالثة (قَطُورَا)التي تزوّجها في أواخر عمره، وشعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين ﴿أَخَاهُمْ﴾في النسب، وقد تزوج (ريثا) ابنة لوط، ووُلِد له أبناء، هم: (عَيْفَةُ) وَ (عَفَرُ) وَ (حَنُوكُ) وَ (ابْيَدَاعِ) وَ (أَلْدَعَةُ).

وعندما كثر نسله، عُرفوا بقبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾، وكانوا نحو خمسة وعشرين ألفاً.

لقد دعا قومه إلى عبادة الله بقوله:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾. ذلك أن رأس صلاح الإنسان يكمن في عبادة الله، ورأس فساد الإنسان يكمن في عدم عبادة الله، وفي الشرك. فجاءت الكلمة دقيقة ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ﴾.

وهذا بيان لك بأن الإنسان لايكفي أنه يؤمن بالله، أو لا يشرك به، بل إن أراد أن يكون في صلاح من أمره، عليه أن يعبد الله من خلال الطاعات، لأن هذه الطاعات تكون بمثابة المطر للزرع حتى يثمر، وعدم العبادة يجعل الإيمان يقيناً دون تفعيل، كما لو أنك بذرت دون أن تسقي. ولذلك اشترك النبيّون في مفتتح إرشادهم للناس بالدعوة إلى عبادة الله أولاً، لأن الإنسان إن عَبدَ ربه، استقام أمره، وإن عصى ربه، اعوجّ أمره. واعلم أن كل اعوجاج أصله معصية، وكل استقامة أصلها عبادة، فمن خلال العِبادة تتقي الله، فتزدهر زهور العبادة في

قلبك، وتستقيم حياتك، وتتحوّل إلى إنسان نافع فاضل مُحِب ومُحَب، مرغوب فيه، لا مُنفَر منه.

وهذا كله ينعكس على تفاصيل حياتك اليومية، فتكون ناضجاً، هادئاً، طيباً، متزناً، حكيماً، تعيش حياتك ببطولة في مجتمعك، ويرغب الجميع أن يتقرّبوا إليك. في حين أن الذي يأبى عبادة الله والمثول لأوامره، تتنغص حياته عليه، فيكون مشَتتاً، مضطرباً، يتحاشاه الناس أينما وجدوه واتقوا شره.

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾. أعدلوا في كيلكم إذا كلتم، وميزانكم إذا زنتم، وجاءت كلمة ﴿فَأَوْفُوا﴾ بمعنى ﴿فَأ﴾عطوا تمام البضاعة التي قبضتم ثمنها، ولا تنقصوا منها شيئاً من خلال التحايل في ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾. فإن استطعتم أن تتحايلوا على الناس، فلن تستطيعوا أن تتحايلوا على رب الناس.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. وكلمة البخس تذكير بقلّة النفع من هذا الاعتداء على أموال الناس بالتحايل من خلال﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾. فالبخس هو القليل النفع، فترفّعوا عن هذا التحايل. قال الضحاك: (بكى شعيب من خشية الله حتى ذهب عيناه وصار أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم).

إذن تعلّمك الآية الكريمة بأنك عندما تقبض قيمة بضاعة جيدة من شخص، ثم تعطيه بضاعة ما دون ذلك، فتكون قد بخسته، أي هي بضاعة ليست وفق القيمة التي دفعها لك، فتكون بذلك قد بخسته.

ومثل ذلك ما يضع البائع بضاعة جيدة من الخضار والفاكهة أو ما شابه، في الواجهة، ثم يخفي في أسفلها مادون ذلك بحيث لا تكون ظاهرة للعيان، فيضع لك الوزن الذي تريد في الكيس من تلك البضاعة الخفية، وإن مددت يدك إلى حبة لتضعها في الكيس، منعك لأنه يكون قد وضع ذلك ليستجرّ به الناس ويخدعهم.

فذلك كالمصيدة التي يصطاد بها الناس، حتى يبيع من خلالها بضاعته الرديئة بسعر البضاعة الجيدة، وعندما تعود إلى البيت، تكتشف ذاك الغث، فتضطر أن ترمي نسبة في الحاوية، واحياناً تكون النسبة مرتفعة قد تشمل ثلاثة أرباع ما قد بخسك به، وقد أخذ منك قيمة كاملة عن بضاعة جيدة سليمة.

ولذلك نرى أن يتجنب البائع هذا الشكل في البيع، وأن يدع المشتري ينتقي ما يريد، فإن انتقى حبّة فاسدة، فيكون هو الذي انتقاها. ثم أنه يفرز البضاعة ما دون الجيدة، فيعرضها للبيع ظاهرة للعيان بسعر منخفض، لأنه قد لا يأمن أن تمتد يده إلى حبّة فاسدة، فتضعها في الكيس في لحظة طمَع. فلسدّ هذا الباب، يعرض البضاعة كاملة وظاهرة للعيان، ويعفي نفسه من مسؤولية الانتقاء. وقد توعّدهم الله تعالى بالويل: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ★ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ★ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾المطففين ١ ،٣.

جاءت كلمة الأشياء جامعة ومفتوحة لتشمل كل شيء يمكن أن يبخس فيه البائع على حق المشتري، وإن كان الميزان يعني الثقل الموازي للوحدة الذي يمكن أيضاً أن يبخس البائع من خلاله المشتري من خلال إحداث خلل في هذه الوحدات، فإن الكيل يعني جودة البضاعة التي قد لاتخضع للميزان، مثل الأقمشة، والأثاث، ومختلف الأدوات التي يمكن للبائع أن يبخس بها ﴿**النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾ على أنها أصلية، وتكون ما دون ذلك. ما هو مهم أن تعلم بأن هذا الكلام ليس موجهاً من نبي إلى قومه بشكل خاص، بل هو مثال لجميع البشر أينما كانوا وحيثما وُجدوا، فلو كان الكلام مقتصراً على قوم دون غيره، لَما كان من وجوده في القرآن من معنى، لأن الناس كانوا سيقرؤونه دون أن يجدوا فيه نفعاً. فاعلم أن كل أنبياء ورسل الله، هم أنبياء ورسل للناس جميعاً، وأن في قصصهم عبرة وموعظة للناس جميعاً.

فيا أيها الناس جميعاً: ﴿**قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**﴾.

فلا يجوز لك أن تقول بأنني لستُ مَعنياً بهذا الكلام، وأنه كلام خَصّه نبي لقومه. ولذلك جاء خاتم أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، مصدّقاً لِما جاء الأنبياء والرسل من قبله، وهذه الأحداث والوقائع يقصّها الله تعالى لك من خلال رسوله، والغاية من قصّها، أن تنتفع بها، وتتعظ بها.

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحملها إليك ينتفع ويتعظ بها، فبيَّن له الله تعالى المقصد من هذا القص: ﴿**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**﴾ الأنعام٩٠.

ولذلك فإن كل كلمة في القرآن، تلزم الإنسان، وما من كلمة احتواها القرآن، لا تلزم الإنسان. جاءت خاتمة الآية الكريمة:

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾. فإذن إن أردتم الخير، عليكم أن توفوا ﴿الْكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾، فاعلموا أن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٨٦﴾

﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذا يذكّر بقول الشيطان في الآية١٦، عندما قال: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فلا تتحوّلوا إلى شياطين الإنس، وتقتدوا بالشيطان في قوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. يقول لهم، والكلام ما دام قد ورد في القرآن، فهو للناس جميعاً:﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ﴾، ﴿وَلاَ﴾تترصّدوا الناس﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تهدّدون ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ تمنعون الذين آمنوا بالله عن سبيله السَوي.

فالمَنع يكون على شَكلَين، معنوي بالتهديد والوعيد، ومادي باعتراضهم على الطرقات التي يسلكونها للوصول إلى شعيب.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾. فهذا هو لب الصرا ع بين الاستقامة والاعوجاج، فدوماً أهل الاعوجاج يترصّدون أهل الاستقامة، ويسعون ما أمكنهم للإيقاع بهم، حتى يحيدوهم عن استقامتهم إلى الاعوجاج، ولا يدعوهم بشأنهم، ويستخدمون في ذلك شتى المكائد. في حين أن أهل الاستقامة يسعون ما أمكنهم لإنقاذهم من عواقب الاعوجاج، ويستخدمون في ذلك الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، حتى يحيدوهم عن الاعوجاج إلى الاستقامة، ثم يكتفون بذلك ويدعونهم بشأنهم. فهؤلاء لم يكتفوا بأن باتوا في الاعوجاج، بل

يـ ﴿بْغُونَهَا عِوَجاً﴾ بشكل عام حتى يشيع الاعوجاج ويعم في المجتمع، ولذلك يقعدون للمؤمنين المستقيمين﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾.

فيـذكّرهم: ﴿وَاذْكُـرُوا إِذْ كُنـتم قَلِيلاً فَكَثَّـرَكُمْ﴾ بعـد أن عاقـب الله الكثـرة الفاسـدة، واستخلص القلّة المؤمنة، ﴿فَ﴾ ها قد ﴿كَثَّرَكُمْ﴾الله من تلك القلّة المؤمنـة، وأنـه لـو سـكَت عن المفسدين، لَسَكَتَ عن تلك الكثرة.

ثم يـأتي تحـذيره مـن سـوء العاقبـة: ﴿وَانظُـرُواْ﴾ اتعظوا واعتـبروا ﴿كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ . تلك العاقبة الـتي تنتظـر كـل مفسـد، فـاتقوا أن تكـون لكـم تلـك العاقبـة بـالاّ تلبثوا مفسدين، وتصلحوا من شأنكم، فما زال بإمكانكم ذلـك رغـم كـل مـا اقترفتمـوه مـن فساد، وهذا من رحمة الله ورأفته بكم.

﴿٨٧﴾

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿طَآئِفَةٌ﴾ الاستقامة الذين ﴿آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ نظير ﴿طَآئِفَةٌ﴾ الاعوجاج الـذين ﴿لَّمْ يْؤْمِنـواْ﴾، وقـد أبلغـتكم جميعـاً مـا حمّلـني الله تعـالى إلـيكم، والآن: ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّـى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا﴾إن كنا نحن على حق، أو أنتم، وأن الله تعالى لايتركنا هكذا، فـلا تسـتعجلوا الأمر ﴿حَتَّى﴾ يأتينا حكم الله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾ أحق ﴿الْحَاكِمِينَ﴾لنا ولكم.

﴿٨٨﴾

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾

هنا تمادى ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ وقد انضمّوا إلى بعضهم البعض جميعاً، فأصبحوا مـلأً مسـتكبراً علـى الإيمـان، وقـالوا بموقـف واحـد: ﴿لَنُخْرِجَنَّـكَ يَـا شُعَيْبُ﴾ ﴿وَ﴾ نخـرج

﴿الذين آمنوا﴾ بما تدعو إليه ﴿معَكَ مِن قريَتِنا﴾ إن لبثتم على ما أنتم فيه، ﴿أو لتعودُنَّ في مِلّتِنا﴾.

فلم يكتفوا برفض النصح فحسب، بل بوضع شرط على الناصح والمؤمنين به أن ينزعوا عقيدة الإيمان من صدورهم، وإلاّ سوف يحجرون على بيوتهم وأموالهم، ويطردونهم بالقوّة من القرية التي لن تعود لهم، ولن يدعوا أن تطأها أقدامهم بعد الآن، ولذلك نسبوا القرية إلى أنفسهم فقط فقالوا: ﴿قريَتِنا﴾ كما لو أن ﴿شُعَيباً﴾والمؤمنين معه ليس لهم شيء قط في هذه القرية، فجرّدوهم منها.

وإذا نظرت إلى قول شعيب عليه السلام، سترى بأنه اكتفى بالنصح دون أن يتجاوز ذلك، وقال بكل أدب: ﴿فاصبِرُوا حَتى يَحكُمَ اللهُ بَينَنا وَهوَ خَيرُ الحَاكِمِينَ﴾، فليكن الله حَكَماً ﴿بَينَنا﴾، ولا نكرهكم على شيء، ونظير ذلك نطلب منكم ألاّ تكرهوننا على ما لانريد. فجاءت خاتمة الآية بإجابة شعيب لهم: ﴿أوَلَوْ كُنّا كارِهِين﴾.

فأضعف الإيمان أن نقول لكم ما لدينا، وتقولوا لنا ما لديكم، ويدع كلٌ منّا الآخر بشأنه ﴿حَتى يَحكُمَ اللهُ بَينَنا وَهوَ خَيرُ الحَاكِمِين﴾.

﴿٨٩﴾

﴿قدِ افترَيْنا علَى اللهِ كَذِباً إن عُدْنا في مِلّتِكُم بَعدَ إذ نَجّانا اللهُ مِنها وَما يَكُونُ لَنا أن نَعُودَ فِيهَا إلاّ أن يَشاءَ اللهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيءٍ عِلماً عَلى اللهِ تَوكّلنا رَبَّنا افتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَومِنا بالحَقِّ وَأنتَ خَيرُ الفَاتِحِين﴾

كما أن قول المستكبرين جاء جَمعاً، فإن قول المؤمنين كذلك جاء جمعاً للردّ عليهم، فبعد أن آمنّا وعاهدنا الله على ما آمنّا به، فإننا ﴿إن عُدْنا في مِلّتِكُم﴾ نكون ﴿قدِ افترَيْنا علَى اللهِ كَذِباً﴾، ولم نكن صادقين في إيماننا، والحق أننا صَدَقنا في إيماننا، وقد آمنّا عن قناعةٍ.

فقد ﴿نَجّانا اللهُ مِنهَا﴾ من ملّتكم التي عاقبتها غير محمودة، ﴿وَما يَكُونُ لَنا﴾ فنحن ما دمنا قد آمنّا، فقد فوّضنا أمرنا لله وتوكّلنا عليه ﴿وَما يَكُونُ لَنا أن نَعُودَ فِيهَا إلاّ أن يَشاءَ اللهُ رَبُّنا﴾.

هذا الكلام شبيه بالدعاء، حتى يجعل الله الإيمان راسخاً في صدورهم، لايزحزحه شيء، فعلى الإنسان دوماً أن يسأل الله تعالى ثبات الإيمان، وكان إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَاجنُبْنِي وَبَنِيَّ أن نَعْبُدَ الأصْنامَ﴾إبراهيم٣٥، فالإيمان من أعظم أفضال الله تعالى على الإنسان، وعلى الإنسان أن يحافظ على إيمانه بالطاعة، ويسأل الله تعالى ألاّ يحرمه هذه

الإيمان، ويجعله دوماً في زيادة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك".

فنحن نكون في مشيئة الله وليس في مشيئتكم، وقد شاء الله ﴿إِذْ نَجَّانَا﴾ من ملّة الكفر إلى ملّة الإيمان، فإنّ رجوعنا يعني أول ما يعنيه أنكم على حق، وأننا على باطل، وبذلك نكون﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ من خلال ارتدادنا عمّا آمنّا به.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾. لاشيء قط بوسعه أن يخرج عن علم الله، وقد ﴿وَسِعَ﴾ اتسع علمه ليشمل ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ . ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ، ولا نتكل على غيره. ثم اتجهوا إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

دعاء بمنتهى العدل، ولا يغيظ أحداً، فعندما ترى شخصاً على خلاف معك يقول: ربي افتح بيني وبين هذا الشخص ﴿بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، فإن كنتَ على حق، فعليك أن تصادق على دعائه بقولك: (آمين). وخلاف ذلك، فإنك تكون على باطل، لأن الرجل يدعو الله بإحقاق الحق. والفتح هنا بمعنى القضاء، أي ﴿رَبَّنَا﴾ نسألك أن تقضي وتفصل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾القاضين والفاصلين ﴿بِالْحَقِّ﴾.

﴿٩٠﴾

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾

فبدا أن ﴿الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾، لم يُصادقوا على قوله، ولم يقولوا(آمين)، بل صعّدوا في وتيرة النزاع، ولم يدعوهم بشأنهم، بل تمادوا أكثر بوَعيدهم وقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾.

وردت في الجملة لامان، الأولى على سبيل التهديد ﴿لَئِنِ﴾ في حال اتباعهم ﴿شُعَيْباً﴾، عندئذ تأتي اللام الثانية ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾، كتنفيذ للتهديد ، أي أننا سنجعلكم تدفعون ثمن اتباعكم لشعيب باهظاً. والثمَن الذي هدّدوا به كما ورد في الآية ما قبل الماضية، هو الطرد

من القرية، أي سوف نجرّدكم من كل ما تملكون، ولا ندع أقدامكم تطأ هذه القرية. فالآن أرادوا أن يحوّلوا القول إلى الفعل، ليحققوا فيهم هذه الخسارة التي هدّدوهم بها.

﴿٩١﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

فلم يمكّنهم الله من تنفيذ وعيدهم، ولم يأذن لهم كي يؤذوا ﴿شُعَيْباً﴾ والمؤمنين﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. وهي ذات الآية ٨٧ التي وردت بحق ثمود، لكن ﴿الرَّجْفَةُ﴾ هنا مختلفة عن رجفة ثمود، وهؤلاء هم ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾الشعراء ١٧٦ ، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾الشعراء ١٨٩. فقد تعرضوا لحر شديد، وباتوا يبحثون عن أي ملاذ يخفف عنهم هذا الحر. وعندما رأوا سحابة سوداء في السماء، تظللوا بها، عندذاك أمطرت عليهم ناراً وأحرقتهم.

دوماً نرى بأن الله تعالى يمهل الإنسان ما دام يكون مكتفياً بخطيئته على نفسه، وساتراً نفسه فيها، أو يكون متأرجحا بين الذنوب والتوبة، كما الأمر بالنسبة لأهل الأعراف. فهو يرتكب خطيئة بينه وبين نفسه، ولا يؤذي أحداً، ولا يُشجّع أحداً على الذنوب، فذلك ذنب يتحمّل وزره هو وحده، ويكون الأذى مقتصراً عليه فقط ولا يتعدّاه إلى غيره. لكن التمادي الغليظ يكمن في أولئك الأشخاص الذين لا يكتفون بارتكاب الذنوب، ويفشونها بعد أن يسترهم الله فيها، ثم لا يكتفون بذلك أيضاً، بل يستهزؤون

بآيات الله، والذين يؤمنون بها، ثم يكيدون المكائد للمؤمنين، فيقعدون لهم ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ ويسعون إلى إلحاق الأذى المادي والمعنوي بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وكل ذلك ليس لأن، بينهم وبين هؤلاء عداوة شخصية، بل لعلّهم لم يلتقوا بهم قط، ولكنها عداوة بنية تنيهم عن الاستقامة إلى الاعوجاج. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ التي أنذروا بها، وحذِروا كي يتجنبوها، فها هم هؤلاء أيضاً قد لحقوا بركب المفسدين، ولم يملكوا من أمرهم شيئاً سوى أن يستسلموا لـ ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي عاقبهم الله بها.

هؤلاء الذين تمادوا في الطغيان، وكانوا يجوبون المسافات وهم في أوج قوتهم وعافيتهم ونفوذهم، ولكنهم كانوا يوظّفون تلك الامكانات للفساد، وظنّوا أن الأرض لا صاحب لها، وأن الناس لا صاحب لهم، وأنهم يفعلون ما يشاؤون دون أن يكون لأحدٍ أن يوقفهم عند حدودهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

وهو عقاب إهانة وإذلال لهم، حيث خارَت قوّتهم، ﴿فَـ﴾ انتهوا بأن ﴿أَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. تحوّلوا إلى جثامين تحت وطأة ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي سلّطها الله عليهم.

﴿٩٢﴾

﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾

الخسارة التي توعّدوا بها المؤمنين، مُنيوا هم بها، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، ﴿لَّمْ﴾ يحافظوا على ما أنعم الله تعالى عليهم من النِعَم، فأصبحوا كما لو أنهم ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾في القرية التي أرادوا أن يُخرجوا منها ﴿شُعَيْباً﴾ والمؤمنين. أي أصبحوا كما لو أنهم لم يكونوا ﴿فِيهَا﴾. وبذلك فإن حكم الله عندما جاء، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾، نتيجة استكبارهم وتكذيبهم بالحق الذي أتى به شعيب إليهم.

﴿٩٣﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

عندئذ وقف شُعَيب في أوج قوته، وفي أوج النصر الذي وعده الله به، وتركهم في رجفتهم، ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي﴾ أنذرتكم وحذّرتكم بما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ بشأنكم، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ نصحتكم أن تتبعوه، لكنّكم كذّبتموني واستمررتم على ما أنتم فيه.

﴿فَـ﴾- بعد كل ما بيّنته لكم، وبعد كل ما بَدَرَ منكم نحوي ونحو الذين آمنوا بي- ﴿كَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أرادوا إفساد الناس جميعاً، ويرغموا عليهم الفساد بالقوة، وقعدوا للصالحين ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ كي يصدّوهم ﴿عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾. وحتى في تلك

اللحظات، لم يشمَت بهم، ولم يقل لهم (لا) ﴿آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ، بل: ﴿فَكَيْفَ﴾ وهي كلمة واحدة، لكنها مليئة بالمعاني.

﴿فَ﴾ ما الذي أقوله لربي إذا أسيتُ عليكم، ماذا أقول للمؤمنين، ماذا أقول لنفسي، وقد وقع حكم ﴿اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

ولعلّ بعض المؤمنين خطر لهم أن يأسوا، ولعلّه أراد بذلك أن يدفع عن نفسه أيضاً الأسى على ما أصابهم من هلاك، لأن هؤلاء كانوا أقرباء النسب، والأسى هو الحزن الشديد، فكان قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ بعد كل الذي وقع ﴿آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. ولذلك عندما ترى النهاية الحَتميّة لشخص تمادى في طغيانه وجوره، لا تستطيع أن تأسى عليه وأنت تتذكّر كل ما سَبّبه لك وللأبرياء، وكل ما نشره من فساد، فترى بأن عِقاب الله جاء ردعاً له، وتنفيساً للصالحين الذين كان يرزح بطغيانه على صدورهم. فكيف تأسى عليه وقد أوقفه الله عند حدّه، وحتى يكون عِبرة لغيره بأن الظلم لا يدوم.

﴿٩٤﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾

فالغاية من ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، أن يضرع الناس إلى ربهم ويستقيموا، أي هما عِقاب تأديب وتنبيه من أجل أخذ العبرة. وهنا يتحوّل العِقاب إلى شكل آخر من آيات الله في الناس، فيقرأ الناس هذه الآيات من خلال بعضهم البعض ويتعظوا. فكم مِن بأسٍ وقع على شخص، فكان سَبباً في صلاحه، وكذلك صلاح غيره، فعندما ترى بأساً أو ضَرّاً وقع على شخص يرتكب موبقة، قد يكون ذلك سبباً في تنبيهك ويقظتك، فتقلع عن تلك الموبقة، وتضرع إلى الله وتتوب إليه.

لذلك ذكرَت الآية الكريمة العِقاب في أمرَين هامَّين في الحياة، وهما العافية والرزق، فالداء يقع على البَدَن ويفتك به، وهو ما وصفه الله ﴿بِالْبَأْسَاء﴾، ويصيب الله الإنسان في رزقه، فيصبح فقيراً، وقد وصف الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَالضَّرَّاء﴾ أي يوقع الضَرر المادّي عليك.

فأصبحنا أمام ثنائية المرَض والعوز حتى يتعظ الإنسان ويعرف قيمة نِعمَتي العافية والمال، فلا يستهلكهما فيما لا طائل فيه، يعرف قيمة ماله فلا يفرّط فيه، ويعرف قيمة عافيته فلا يفرّط فيها. عن النبي صلى الله عليه وسلم: " عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّه لَهُ قَضَاء إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ".

﴿٩٥﴾

﴿ثمّ بَدّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأخَذْنَاهُم بَغتَةً وَهُمْ لاَ يَشعُرُونَ﴾

﴿ثمّ﴾ بعد **﴿البَأسَاء وَالضَّرَّاء﴾**، جعلنا الصحة العامرة، والرزق الوفير بدلاً عنهما، لبثنا نغدق عليهم بالنِعَم **﴿حَتى عَفَوا﴾** تضاعف بهم رَغَد العَيش أضعافاً مُضاعفةً. وكلمة **﴿عَفَوا﴾** بمعنى أنك تأكل وتشبع، وتعيف ما قد فضل، وهذا دليل على أن الله أكرمك بما هو زيادة عن حاجتك. **﴿حَتى عَفَوا﴾**، أي باتوا في زيادة سواء في العافية، أو أطايب الطعام والشراب، أو السكن الجيد، أو الأموال، وما شابه بما

يمس مقوّمات حياة كريمة، فاكتشفوا علاجات لأوبئة كانوا يعانونها، تيسّرت بهم سُبُل الحياة، انفَتحَت أمامهم أبواب المكتشفات العلميّة. فقد مكّنهم الله تعالى من الرفاه، وأصبحوا يرفلون في ألوان النعيم التي لم ينعم بها أحد قط قبلهم. فبدل أن يحمدوا الله على ما أغدق عليهم من الرفاه، بطروا وتمادوا، وباتوا ينحرفون، ويتخلّون عن عِبادة الله، ولا يذكروه ولا يشكروه، بل يستهزؤون بكتب الله ورسله، وينكرون الحساب.

ويتذرّعون قائلين: **﴿قَدْ مَسّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء﴾**، حصل لهم ذلك بحكم عوامل الطبيعة والظروف، سواء في **﴿الضَّرَّاء﴾**، أو في **﴿السَّرَّاء﴾**، فما نحن فيه أيضاً ليس من الله، بل بحكم عوامل الطبيعة والظروف والتطوّر البشري. فكان ردّ الله تعالى على جحودهم واستكبارهم وبَطَرهم:

﴿فَأخَذْنَاهُم بَغتَةً وَهُمْ لاَ يَشعُرُونَ﴾.

هكذا عندما يأخذ الله الإنسان **﴿بَغتَةً﴾** من كل ما هو فيه دون أن يكون له أن يقاوم. **﴿فَأخَذْنَاهُم﴾** من كل ما هم فيه **﴿بَغتَةً﴾** فُجاءَةً ، **﴿وَهُمْ لاَ يَشعُرُونَ﴾**، لأنهم يكونون قد غرقوا في المعاصي، فيأخذهم الله **﴿بَغتَةً﴾** وهم في ذروة معاصيهم وفجورهم.

﴿٩٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

﴿وَ﴾- كل هذا الذي حصل، كان بالإمكان الاّ يحصل- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ الذين أصابهم ما أصاب ﴿آمَنُواْ﴾ بما أنزِلَ إليهم من خلال أنبياء الله ورسله ﴿وَاتَّقَواْ﴾الله وأصلحوا ما بهم من اعوجاج واستقاموا، عندها وبدلاً عن كل ذلك الذي أصابهم: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

المطر الذي يحمل لهم الخير ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والنبات من ﴿الأَرْضِ﴾. ينتفعوا به. إذن ثمة أناس يفتح الله عليهم ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، فتراهم ينعمون ويستلذّون بكل مقوّمات حياتهم،

يتمتعون بصفاء الذهن، وطمأنينة القلب، يكونون حكماء في تصرّفاتهم، يأخذون العِبرة من التاريخ ومن الحاضر.

واعلم أن البركات لا تقتصر على أشياء دون غيرها، ولا تقتصر على المظاهر، بل يعيش الإنسان تفاصيلها وحقيقتها، تتفتح أساريره لإشراقتها، تنتشي حواسه لعبيرها. ويوماً عن يوم يزداد خبرة ونضجاً واستنارة وامتلاءً بالحياة، فتراه ناجحاً في مهنته، ناجحاً في علاقته الزوجية، ناجحاً في تربيته لأبنائه، في علاقته بأقربائه وجواره، ويكون كالغيث كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن كالغيث أينما وقع نفع".

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ﴾، ما أصابهم كل ذاك العِقاب الذي جلبوه على أنفسهم نتيجة تجاوزاتهم وتماديهم في العصيان، بل: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

وقد حصل ذلك لقوم يونس عليه السلام، حيث تراجعوا عن ذنوبهم وتابوا إلى الله قبل أن يحل عليهم العذاب﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾يونس٩٨. وقد آمن القوم جميعاً وكان عددهم يزيد عن مائة ألف ﴿**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ★ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾الصافات ١٤٦، ١٤٧ .

فأقصى ما يمكن أن يغدق عليك أغنى أغنياء الأرض، هو أن يفتح عليك خزائنه وممتلكاته، لكن الله بيده خزائن وممتلكات الأرض جميعاً. فإن قال بأنه يفتح للمؤمنين المتقين ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، فذلك من أعظم ما يمكن للإنسان أن يحظى به من نعيم، فلا شيء بوسعه أن ينال قيد شعرة من بركة الله في بدَنك، أو رزقك، أو أهلك، وشرط كل ذلك أن تكون مؤمناً، وتقياً في إيمانك. ثم جاء قوله تبارك وتعالى، كفاصل للجملة السابقة، ﴿وَلَكِن﴾، أي ﴿وَلَكِن﴾بدل أن يؤمنوا ويتقوا لنفتح ﴿عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآياتنا ورسلنا، ولبثوا في عصيانهم وفسادهم، ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. والعبارة دقيقة، أي يكون العِقاب مِن جنس المعصية، فلكل شيء نتاج، فإن زرعتَ ورداً، جنيت ورداً تنتعش به، وإن زرعتَ شوكاً، جنيتَ شوكاً تشاك به.

فالزاني يُعاقِبه زِناه، والفاجر يُعاقِبه فجوره، والفاسق يُعاقِبه فسوقه، والسارق تعاقِبه سَرِقته، والكاذِب يُعاقِبه كذبه. فتظهر أوبئة لأهل معصية ما، فيكفّوا عن ذلك خوفاً من إصابتهم بهذا المرض، وعلى هذا النحو في سائر أنواع المعاصي، كما أن الله سبحانه وتعالى يُعاقب الإنسان بالحرمان من رزق رزقه به، فلم

يقدّر هذا الفضل، أو يبذّر فيه، ومثل ذلك بعض الأوبئة التي تصيب الحيوان، فيضطر الناس إلى التخلّص منها تفادياً من انتقال تلك الأوبئة إلى الإنسان، فيكونوا بذلك قد انحرموا من رزق وفير رزقهم الله به، ثم حرمهم إياه.

وبالمقابل فإن الثواب أيضاً يكون من جنس الطاعة، ويُروى أن أبا الطيب الطبري(قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بعقله وقوته، فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر).

وإن كان ذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وسلم:" من وجأ نفسه بحديدة حُشر يوم القيامة وحديدته بيده يجأ بها نفسه خالدا مخلدا في النار ، ومن تردى من شاهق حُشر يوم القيامة يتردى على منخريه في النار خالدا مخلدا ، من تحسّى سما حُشر يوم القيامة وسمُّه بيده يتحساه خالدا مخلدا في النار". عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ

حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ "[56].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً "[57]وقد جعل الله سبحانه وتعالى للجنة أبواباً لايدخلها أحد غير أولئك الذين تميزوا بأعمال صالحة بعينها، وجعل لجهنم أبواباً لايدخلها أحد غير أولئك الذين تميّزوا بأعمال طالحة بعينها. وقد رأينا كيف أن بعض أزلام الطغاة الذين كانوا يدبّرون الاغتيالات للناس، ثم يدّعوا بأنهم انتحروا، أو اغتيلوا، أو ماتوا بحوادث، أو أمرض، فكانت نهايتهم على أيدي ذات الطغاة، فتم اغتيالهم، أو شيع بأنهم انتحروا، أو اغتيلوا، أو ما توا بحوادث، أو أمراض. فذاقوا ما كانوا يُذيقونهم لغيرهم، وذاق أهلوهم ما ذاق أهلوا أولئك. فالذي يوشي بالناس، يُوشى به، والذي يكذب، يُكذَب عليه، والذي ينتهك الأعراض، يُنتهَك عرضه، والذي يغتصب، يُغتصَب، فإن الله سبحانه وتعالى، يُسلّط على الفاسدين أناساً من معادنهم.

ثم تعلّمك الآية في وجهها الآخر بأن الذي يعز نفسه، يعزه الله، والذي يتجنب أن يؤذي الناس، يجنبه الله أذى الناس.

فإن أردتَ أن تكون فاسداً، فإن الله لا يزيدك فساداً، بل يرشدك إلى الصلاح، وإن أردتَ أن تكون صالحاً، فإن الله يزيدك صلاحاً، ويجتبك الفساد. فمهما حرصتَ على نفسك، فإن الله أحرص منك عليك، وإن مَدَدتَ خطوة إلى الصلاح، بارَكَها الله ويسّرك إلى المزيد، وإن مَدَدتَ خطوة إلى الفساد، أعاقها الله، وعسّرك فيها حتى لا تمدّها إلى المزيد، لعلّك تتراجع.

﴿٩٧﴾

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾

---

[56] رواه البخاري (٢٤٤٠)

[57] صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٩٦٦)

فإن نمتَ، هل تأمن أن بأس الله لا يقع عليك وأنتَ في لفائف نومك، وكأن الآية تسألك: كيف يأتيك نوم وأنت في كل هذا الوزر، وأنت في كل هذا الظلم،﴿أفأمن﴾ت أن تنهض من نومك.

فاترك فراشك، ولا تعد إليه قبل أن تعيد للناس حقوقهم عليك، قبل أن تصلح من شأنك وتتوب إلى بارئك، وتستغفره عمّا بَدَرَ منك سواء عن عمَد، أو غير عمَد، فإنه يغفر العمَد، وغير العمَد. فالبأس في الآية الكريمة، ما يصيب الجسد، لأن النائم لا يعلم مالذي يصيب جسده وهو نائم، فقد يحترق، قد تأتي حشرة وتلسعه، قد يدخل عليه شخص ويقتله، قد سرى حلماً ويضطرب، ونتيجة ذلك ترتفع نسبة أي معدّل في دمه، فيصاب بشلل، وما إلى ذلك مِمّا يمكن أن يصيب الإنسان وهو نائم. وهنا تنبيه بأن الله لا يسلّط عليك ما يؤذيك وأنت يقظ فحسب، بل قد يحدث ذلك عندما تكون نائماً، فلا تأمن أن يصيب بَدَنَكَ بأسُ الله في ظلمة سكون الليل وأنت نائم.

﴿٩٨﴾

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

وقد يأتيك بأسُ الله وأنتَ تمضي وقتاً في التسلية واللّعب مع أصحابك نهاراً، فعليك وأنت تلعب، وقد نسيتَ نفسك في اللّعب والتسلية، ألاّ تنسى بأن الله لم ينسك، ويمكن أن يصيبك في بَدَنِكَ وأنت في ذروة لعبك ﴿ضُحًى﴾، في وَضَح النهار، وهذا نظير ما جاء في الآية السابقة عند النوم. فعلى الأغلب يكون الليل وقت النوم، وكلّما تقدّم الليل وحلَكت العتمة، استسلم الناس للنوم أكثر. فجاء التذكير والتنبيه لك وأنتَ نائم في سكون الليل، ثم وأنتَ يقظ تلعب في وضح النهار. والهمزة في ﴿أَوَ﴾ استفهامية ولعلّ بينها وبين الواو العاطفة كلمة محذوفة، وتقديرها ﴿أ﴾ تجاهل ﴿وَ أمِنَ أهلُ القُرى﴾ استناداً إلى تجاهلهم، والتجاهل هنا غير الجهل، فالذي يجهل قد لا يعلم، لكن الذي يتجاهل، فيعلم لكنه يتجاهل ما يعلم.

﴿٩٩﴾

﴿أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾

المكر هنا بمعنى المُباغَتة بالحق، كالذي يمضي في طريق، فيسقط شيء ما عليه من بناء فيجعله في عاهة، أو تصدمه سيارة عابرة، أو تصيبه طلقة طائشة، أو بغتة يرى نفسه وسط حريق، أو بين يدَي مجرم.

والآية متعلّقة بالآيتين السابقتين، فقد يحدث ذلك في أي وقت من الأوقات، وفي أي وضع تكون فيه. ﴿أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ﴾، حتى يصولوا ويجولوا ويمردوا، كما لو أن لا أحد بمقدوره أن يردعهم أو يوقفهم عند حدودهم. فعليك أن تضع ذلك دوماً بالحسبان، ﴿فلا يَأمَنُ مَكْرَ﴾مُباغَتة ﴿اللهِ﴾ المتوقعة والغير متوقعة ﴿إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾. فكل الأوقات متوقّعة لإيقاع العِقاب على المفسدين سواء أكان ذلك متوقّعاً من قِبل الناس، أو غير متوقع، فبعض الوقائع يعجب الناس لوقوعها، لأنهم لو يكونوا يتخيّلوا وقوعها حتى على سبيل التخيّل. فشخص يكون قد طغى وتمكّن من البلاد والعِباد، ينتهي نهاية لم يتوقعها أحد، ولكن الله يذل هذا الظـــالم، ويجعله يخنع ويُهان على مرآة من الناس. فيتحـــوّل ما لم يكن يخطر للمخيّلة إلى واقـــع

ملموس يراه الناس جميعاً. فإن الله لا يدع البلاد والعِباد للطُغم الفاسدة، بل يستخلص البلاد والعِباد من طغيانهم: ﴿فلا يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾. وتكمن خسارتهم على مقدار لاشعورهم ولا يقينهم بهذا المكر الإلهي الذي سيصيبهم بغتة، ونقيض الخسارة، الفوز. فإن آمن الإنسان بهذا المكر، سيكون ذلك سبيله للتقوى، فيتحوّل من خاسر إلى فائز. وعلى ذلك، آمِنوا بوقوع عِقاب الله في أي وقت من الأوقات حتى تكونوا من الفائزين، ولا تكونوا من الخاسرين.

﴿١٠٠﴾

﴿أوَلَمْ يَهْدِ لِلّذِينَ يَرِثونَ الأرْضَ مِن بَعْدِ أهْلِهَا أن لَوْ نَشَاء أصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾

الآن يبيِّن الله تعالى بأن هذا القص ليس لأناس مرحلة ما، أولقوم ما، بل هو قص موجه للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان. ﴿أوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبيَّن ﴿لِلّذِينَ يَرِثونَ الأرْضَ﴾ عن

بعضهم البعض في كل زمان ومكان. والكلام موجّه إلى الحاضر ﴿يَرِثُونَ﴾ الآن ﴿مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الذين أصبحوا في الماضي. فيامَن ترثون ﴿الأَرْضَ مِن بَعْدِ﴾ أن نزعناها من ﴿أَهْلِهَا ﴿أَوَلَمْ﴾ يتبيَّن لكم: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ لأصبناكم بذنوبكم، كما ﴿أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نَطْبَعُ عَلَى﴾ قلوبكم، كما طبعنا على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾.

وجاءت ﴿لاَ يَسْمَعُونَ﴾ معبِّرة بدقّة بالغة عن لب المعنى، والسمع هو للقلب، فصمّ القلب لهو أشدّ من صمّ الأذنين، ذلك أن أصمّ الأذنين يمكن له أن يتغظ بما يرى، أو يقرأ، لكن أصمّ القلب، مهما أسمعَته أذناه من عبارات، مهما أرته عيناه من آيات الله، فإن ذلك لا يحرّك ساكناً في قلبه. فهو إن سمع ثناءً، أو سمع توبيخاً، كان ذلك سياناً عنده، إن قبض أجره، أو سرق، إن صدق، أو كذب، كان ذلك سياناً في مذهبه، إن أتى امرأته، أو زنى، إن رأى فاحشة على أهله، ما حرّك ذلك في قلبه ساكناً، أي يُصبح كائناً همَجيّاً مجرّداً من المشاعر الإنسانية. فدقّق في الآية: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي نجعل بضاعتهم هي التي تصيبهم، فيُصابون بما اقترفوا.

ثم قال جل شأنه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فهي عبارة تحـــذيرية، لأنها لم تقع، لكنها ممكنة الوقوع وفق قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ وهذا يعني بأنه لم يشأ بعد، وأنه ﴿لَوْ﴾ شاء، لَما ظلَمَكم، بل أصابكم بذنوبكم، وهنا فسحة كي يقلع الإنسان عن الذنوب، لأن عدم المشيئة هي للإمهال، وهي فرصة يتيحها الله سبحانه وتعالى للإنسان كي يتوب، فيمكن للإنسان أن يغتنم هذا الإمهال، ويتوب، فيتجنّب أن يطبع الله على قلبه، ويتحوّل بذلك إلى كائنٍ عَدَمي بكل مقاييس وتفرّعات العَدَميّة. ولكن كيف يطبع الله على قلب إنسان؟ ذلك أن هذا الإنسان يَستفحش، ويخرج عن المنظومة الإنسانية، فيستهزئ بالقِيَم، والفضائل، والأخلاق، والشرائع. فلا يفرّق بين حق وباطل، وبين حلال وحرام، أي يجرّد نفسه من كل خصلة إنسانية، وعقاباً له، فإن الله تعالى يدَعه يلوّث سمعته، ويتسع في فساده حتى يغلظ في طغيانه، فيصيبه الله بذنوبه، وهو في أوج هذا التمادي.

﴿١٠١﴾

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

﴿تِلْكَ﴾المجريات التي وقعت لأهل ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾، يقص الله على رسوله ﴿مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ وهي ليست الكل، بل جزء ﴿مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ أي غيضٌ من فيض، فالقَص هو بمثابة أخذ عَيّنة من مجمل الوقائع، وهذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يصبر على أذى قومه كما صبر الرسل من قبله. ﴿وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فلم نتركهم في غفلتهم وجهلهم، بل أرسلنا إليهم الرسل منهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، بالأدلّة والثبوتيّات، والإنذار والتحذير، وتفصيل الأمر لهم، وجعله بَيّناً جليّاً. ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾. كان بإمكانهم أن يؤمنوا، وقد بيَّن لهم الرسل كل مقوّمات وعوامل وأدلّة الإيمان، لكنهم أبوا أن يؤمنوا بالحق الذي كذّب به أسلافهم ﴿مِن قَبْلُ﴾، وأبوا إلاّ أن يقتدوا بهم، ويلبثوا في ملّة المكذّبين.

فكان مجيء الرسل بالنسبة إليهم، كعدم مجيئهم، لأنهم أبوا حتى فكرة التصديق، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، بأن يتركهم يغلظوا ويستفحشوا، فيأخذهم بأعمالهم. فمثلما طبع على قلوب أولئك يا محمّد ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾الذين ينكرون ما أرسلك الله به.

﴿١٠٢﴾
﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

تقابلُ الآيةُ بين كلمَتين ثقيلَتين هما العهد، والفسوق، وإحداها تناقِض الأخرى، وتنفر من الأخرى.

فالفاسق لا عهد له بأي حال من الأحوال، والمُعاهِد لا يفسق عن عهده بأي حال من الأحوال.

والإنسان الذي لا عهد له، يحذره والناس ويتوقعون منه أي شائنة، ذلك أنه كائن فاسق في بنيته، والفسوق يجري في دمه، والناس يتحاشونه، ويتجتبون أن يقرب إليهم، أو يدخل بيوتهم، فهو كائن لا خير فيه البتة، وأينما تواجَد، حلّ معه الأذى، فهذا هو ديدنه، وهذا هو أذاه الذي ما يزال الناس يعانون آثاره عليهم، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

فهذا ما وجده الله قبل ذلك فيهم، ويخبر الله عز وجل بأنه وجد ﴿أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، وهذا استئناف للآية ١٠١ ، أي أكثر أهالي ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾، فيحذّر الناس من عواقب فسوقهم.

وما تبقّى من الأكثرية، هي أقلّية صَدَقَت ما عاهدَت الله به، وما فسَقَت عن أمره. وهنا يتبيَّن لك بأن العقاب عندما يأتي عاماً على البلاد، فذلك يكون مردّه أن الفسوق غدا في الأكثرية، ويستخلص الله الأقلّية الصالحة وينجيهم، أو يرى في شأنهم ما يكون نفعاً لهم، ولا يكون عِقاباً لهم.

ولعل ذلك يدخل ضمن الابتلاء الذي يجعله الله تعالى لأناس يحبهم، كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا أحب الله قوماً ابتلاهم".

فثمة أناس يصطفيهم الله لنعمة الابتلاء، فلا ينتهي من كارثة، حتى تقع عليه أخرى في ماله، وبدنه، وأهله، وعمله، وعلاقاته في مجتمعه، لكنه يصبر ويحتسب ويقوّي إيمانه أكثر فأكثر، ولا يصيبه القنوط طرفة

عين، لأنه يرى في ذلك إشارات محبة الله له، رغم أن الأذى يكون قد أصابه مع الأذى الذي أصاب الفاسقين، ولكن شتّان بين الأذيين، كما شَتّان بين تاريخ الشَخصَين النقيضَين.

الباب الواحد والثلاثون
موسى عليه السلام

﴿١٠٣﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

الآن يُدخلك القَص الإلهي إلى حقبة انتقالية كبرى جديدة من التاريخ البشري، وهي تبدو أكثر قرباً زمنياً من سابقاتها، وأتباع هذه الحقبة ما زالوا موجودين، ولكن بنسبة قليلة، قياساً بنسبة النصارى، والمسلمين، كما أن نسبة الذين يرون بأنهم فراعنة قليلة.

﴿ثُمَّ﴾- بعد كل ذلك الذي فيه بيان بأننا لانسكت عن المفسدين- ﴿بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى﴾، أصبح كل ذلك في حكم البعد. وقد بعث الله تعالى رسوله ﴿مُّوسَى﴾، ليصبح واقعاً في الحاضر، فتخبرك الآية بأن ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ طغوا وقد ساد الطغيان في الأرض، ولذلك بعث الله ﴿مُّوسَى﴾، لإصلاح الفساد الذي عَم. وهنا تتعلّم أمراً هاماً، وهو أن الله تعالى لا يرسل الأنبياء، إلاّ في حال تعميم الفساد وتفشيه في الناس. فذلك درس بليغ تتعلّمه من سياق الأحداث التي وقعت لأقوام، وأرسل الله لهم الأنبياء.

فالنبي يأتي عندما يسود الفساد في الأرض. والأمر الهام هنا، هو أن البشرية بعد محمّد صلى الله عليه وسلم، لم تعد بحاجة إلى الأنبياء والرسل، ذلك أن الصلاح البشري في الأرض يكون متقدماً على الفساد، ومهما ظهر الفساد، فإنه لا يكون شاملاً، فترى بيوت الله منتشرة على أصقاع الأرض، وترى أن القائمين على تيسير أمور الحج، ينظّمون حجاج بيت الله الحرام في أعداد، حتى يتمكّنوا من الحفاظ على تنظيمهم وسلامتهم، ويرون بأن المجال لو فُسح للجميع دون تحديد أرقام، سيخرج ذلك عن سيطرتهم التنظيمية، مِمّا قد يتسبب بإلحاق الأذى بالحجاج نتيجة الازدحام الشديد الغير منضبط من خلال القائمين على أعمال الترتيب والانضباط، فدوماً هناك مَن ينتظرون أدوارهم للحج إلى بيت الله الحرام. فإذن، بعد محمّد صلى الله عليه وسلم، لبث الفساد في الأرض متفاوتاً في نسبته دون أن يكون عاماً بما يستدعي إرسال أنبياء ورسل، لأنه بموازاة هذا الفساد، فإن الصلاح في تقدم وازدهار، والمساجد تزداد بناءً في رحابة أرض الله، وأعداد المسلمين في تزايد. وحتى الذين لايؤمنون، فإنهم لايقفون عائقاً أمام انتشار الصلاح، فترى المنابر الإسلامية في شتى الوسائل، والدعاة يستأنفون نشر الصلاح في الناس على نقيض ما كان يحدث كما تبيَّن مع الأنبياء والرسل،

حيث كان العصاة يمنعون الصالحين من نشر الصلاح، في حين بات العصاة يكتفون بعصيانهم. لذلك بقيت المعالجة الإلهية للفاسدين نسبية، أي يتلقى المفسدون العِقاب بشكل فردي، وإن كثرت أعـــــــدادهم بعض

الشيء، يكون العِقاب مقتصراً على الموضع الذي يكونون فيه. إذن يمكننا القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم، جعل العالم بخير، وقد تحقق قول الله تعالى فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾الأنبياء١٠٧.

فما جاء به من صلاح وقيم، غدا أكثر ترسيخاً في الناس، وقد انتقلت الحياة البشرية برمّتها إلى مرحلة استنارية جديدة بما يمكننا تسمية ذلك بمرحلة ما قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ومرحلة ما بعد محمد صلى الله عليه وسلم. فالرحمة التي أرسله الله تعالى بها ينتفع بها الناس ما بَقيَت الحياة من بعده، وهي رحمة قابلة للانتشار، وغير قابلة للتراجع من خلال ما حمّله الله تعالى من كمال الدين وتمام النعمة، وقد رضي الله تعالى الإسلام ديناً للناس كافة. وهذا ما أرسى دعائمه محمد صلى الله عليه وسلم من خلال رسالته الخاتمة ونبوّته الخاتمة. ولذلك ترى بأن الله جلّ شأنه قد فتح أبواب النعيم على الناس كما لم يفتح من قبل، وأغدق على الناس بأسباب رَغَد العَيش بما لم يغدق من قبل. ونظير ذلك فإنه تبارك وتعالى، لا يسكت عن المفسدين والفَسَقة والطغاة حيثما وُجدوا، إن كانوا أفراداً، أو جماعات، بالغاً ما بلَغَت قوّتهم، وكامِناً ما كمنَ تمكينهم ونفوذهم. فقد استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يحسّن السلوك البشري العام بالقرآن، فأصبحت البشرية بعد القرآن أكثر نضجاً، وأكثر وعياً، وأكثر تقدماً. فمهما بلغ شخص من قوة ونفوذ، وقاد أعظم دول العالم، فإن الناس سيستهزؤون به إذا دعاهم إلى عبادته، أو ادّعى النبوّة، فقد أحدث القرآن الكريم انقلاباً فكرياً في مسار العقلية البشرية، فأصبح هذا العقل يوظّف في الإنتاج والاختراع ووسائل الترفيه، بدل توظيفه في ادّعاء النبوّة، أو الترويج للفساد. ولم يسبق لذلك أن حدث خلال التاريخ البشري برمّته، فأصبح القرآن المجيد الانعطاف الأكبر في مسار صلاح الذهنية البشرية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾الذين كانوا يؤازرونه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾. بدل أن يؤمنوا لتستقيم لهم حياتهم، ويصبحوا في عدل من أمرهم، لكنهم أنكروها وجعلوها وسيلة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ من خلال تأويلهم الخاطئ لهذه الآيات، وبالتالي

توظيفها لأعمال الظلم. ﴿فانظُرْ﴾ يا محمد، وقل للناس أن ينظروا ﴿كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفسِدِينَ﴾، الذين ظلموا بآياتنا.

﴿١٠٤﴾
﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أخبره موسى بأنه لم يأت من تلقاء نفسه، وأن الله هو الذي أرسله إليه، قالها بثقة وقوة رغم جبروت فرعون في وقت لم يكن أحد يجسر أن يناديه باسمه، لأنه كان يدّعي الألوهية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص ٣٨ . وجاءت ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، تذكيراً له بأنه ليس إلهاً، وأنه عبد كسائر عباد الله، وأن الذي أرسله إليه هو ربّه، و﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٠٥﴾
﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

عبارة دقيقة وبليغة ومتناغمة في كلماتها، وهي كفيلة بأن يصدّق السامع قائلها، إلاّ إذا كان مستكبراً عن الإيمان: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾. فلم يدع له مجالاً للشك، حتى أنه لم يقل له: أقول لك ﴿الحَقّ﴾. ولكن جاءت الـ ﴿لاَّ﴾النافية لِما هو غير ﴿الحَقّ﴾ ، ثم الـ ﴿إِلاَّ﴾المستثناة كتأكيد على تمام ﴿الحَقّ﴾ لمزيد من الإثبات أمام رجل كهذا وهو من أشدّ المستكبرين حتى أنه كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾النازعات٢٤.

ورغم ذلك فقد أوصاه الله مع أخيه هارون بالحوار الليّن معه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي★اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى★ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

يَخشَى﴾ طه ٤٢ ، ٤٤ . لقد أرسلني الله إليك يا فرعون، و﴿حَقِيقٌ﴾متوجّب ﴿عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾.

لأنني رسول الله ومؤتمَن ومكلّف ﴿أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾ الذي كلّفني به إليك. وإن لم تصدّق، فـ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أعطاني الله برهاناً حتى تصدّق، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حتى آخذهم معي إلى الأرض المقدّسة.

فقد وضعه أمام خيارين، فإن صدّق، لبّى له ما جاء به، وسمَح له بأخذ الإسرائيليين الذين كان يستعبدهم، ويعذّبهم في الأعمال الشاقة، أو يقدّم له برهاناً من الله.

﴿١٠٦﴾

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لبث في استكباره، ولم يصدّقه طالباً منه أن يُظهر برهانه الذي يحمله من الله إن كان صادقاً فيما يقول. وهذا الجواب فيه إشارة جليّة عن مدى استكباره، فلم يذكر الله رغم تكرار تذكيره بالله فيما قاله موسى له. فهات برهانك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ برسوليتك كما تقول.

﴿١٠٧﴾

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

كان يحمل العصا بيمينه، فرماها إلى الأرض على الفور كجواب عمَلي مباشر على قول فرعون﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فتحوّلت العصا إلى ثعبان أصفر اللون، ضخم في حجمه، وقد جعل الله تعالى فيه الحياة. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ التي فيها برهان الله ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، يتحرّك من موضع إلى آخر بشكل بائن.

﴿١٠٨﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾

أدخل َذات اليد في جيبه، ثم أخرجها لتغدو ﴿بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾، وهو بياض نوراني، فقد خرَجَت اليد تشعّ نوراً في عيني كل مَن ينظر إليها. وكان موسى عليه السلام شديد السمرة ولأن شدة البياض تدل على

البرص، فإن الله عز وجل قد برّأه من ذلك. ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ النمل١٢ .
بعد أن أظهر ذلك، أعاد يده إلى جيبه، ثم أخرجها مرة أخرى لتعود إلى ما كانت عليه في شكلها الطبيعي.

﴿١٠٩﴾
﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾

القول هنا هو لفرعون وكذلك لِمَن كانوا معه﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾الشعراء٣٤ . وذلك تجنّباً للتعارض بين الآيتين الكريمتين، فيكون فرعون قد قال ذلك، و ﴿الْمَلأُ مِن﴾قومه وافقوه وقالوا ذلك أيضاً. ﴿إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾. خبير في السحر يعرف كيف يأخذ بأعين الناس حتى يجعلهم يرون كيف أن العصا صارت ثعباناً، واليد السمراء صارت بيضاء.

﴿١١٠﴾
﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

إشارة إلى تردّد فرعون من اتخاذ أي قرار بحق موسى عليه السلام بعد أن رأى منه ما رأى، فجرت محاورة ما بين فرعون وبين ملئه، حتى يروا مخرجاً من هذا الأمر. وعبارة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، بمعنى يريد أن يأخذ بني إسرائيل من مصر، وليس هذا فحسب، بل يؤثر على سائر الناس من غيرهم ويستميلهم إلى صفه، حتى يصبح مَلَكاً قوياً يتمتع بشعبية كبيرة في مملكة فرعون، وبالتالي فيكون فرعون قد ضعف. وكلمة

﴿أرضِكُمۡ﴾ تذكير بالوطن، وقد أقام بنو إسرائيل نحو أربعة قرون في مصر، أي: أصبَحَت وطناً لكم. ثم لعلّ البعض منهم قد أصبح من المقرّبين لفرعون، ومن أعوانه، فقال ذلك حتى يثير فيهم مشاعر

التعلّق بالأرض التي يعيشون عليها. وعبارة ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾، موجهة إليهم جميعاً كي يشعروا بالمسؤولية، وهذا استكمال لقوله﴿أرضِكُمۡ﴾. أي ما الذي سنفعله جميعاً حتى ندافع عن بلادنا. وهذا الكلام يدل على شعوره بالخوف من خسارة الحشود المؤيّدة له، فبات يجعلهم شركاء في المسؤولية عن حماية البلاد. وقد جاءت العبارة ذكية﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾، أي ما تقولونه أجعله أمراً للتنفيذ.

﴿١١١﴾

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

رأى مستشاروه في هذه المحاورة أن يتم تبليغ موسى، وهارون بانتظار الرد الذي سيأتي بعد شيء من الانتظار. فالإرجاء هو الانتظار ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ اجعلهما في حالة انتظار ﴿وَ﴾خلال هذا الانتظار ﴿أَرۡسِلۡ﴾، كلّف جماعة كي ينتشروا ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾، ﴿حَٰشِرِينَ﴾، جامعين السحرة.

﴿١١٢﴾

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾

هؤلاء الذين ترسلهم ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، سوف يجمعوا السحرة، ثم ينتقوا أكثرهم علماً بالسحر، ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾متمكّن في السحر، من كافة أرجاء البلاد، فيتبارزوا مع موسى من خلال مواجهة سحره بسحر أقوى منه، وبذلك فإن الناس لا يصدّقوه، ويرفضون الذهاب معه.

﴿١١٣﴾

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾

قامت تلك الجماعة بإحضار ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾من كافة الأرجاء للقيام بما يتم تكليفهم به، ويبدون واثقين من أنفسهم ومن إمكاناتهم. ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ﴾ أصبحوا في حضرته،

ورهن إشارته، وأبدوا استعدادهم لمبارزة موسى، و﴿قالوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾. في حال فوزنا عليه بالسحر، نريد أن تؤجرنا على ذلك.

﴿١١٤﴾
﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

وعدهم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بأكثر مما طلبوا، فالأجر يكون لمرة واحدة، وينصرف المرء بعد أن يقبض أجره، فقوله ﴿نَعَمْ﴾ ، أي لكم ماشئتم من الأجر، ثم ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من مالي وجاهي بأن تكونوا من رجالي الخاصّين الذين يحصلون على الرواتب والمكافآت والامتيازات بشكل مستمر، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ستحظون بتلك المنزلة إضافة إلى الأجر. وهذا ما يحثهم كي يبذلوا قصارى جهدهم حتى يغلبوا موسى، ويكونوا من ﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾. وهنا أيضاً إشارة بأن﴿فِرْعَوْنَ﴾ أصبح مستعداً لدفع أي ثمن نظير أن يُغلَب موسى الذي بدا يهابه بعدما رأى منه ما رأى، وأراد أن يستعين عليه بالسحرة. لذلك وافق على طلبهم وأغراهم بالزيادة: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. وفي ذلك إشارة إلى عدم ثقته بنفسه بأنه يستطيع أن يوجه إليه عقاباً خشية ما يمكن أن يبدر من موسى بشكل غير متوقع كما حدث.

﴿١١٥﴾
﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾

﴿إِمَّا﴾ للتخيير بين أن يَبدأ هو بما لَديه، أو يَبدؤوا هم في هذه المُبارَزة التي أُعِدَّت لتكون أمام أعين جمع غفير من الناس ومن ضمنهم فرعون. و ﴿تُلْقِيَ﴾ بمعنى أن تجعل ما لديك ملقياً على الأرض، ثم فعل نحن أيضاً ذلك، ويكون الحضور حَكَماً بيننا. ثم أن موسى عليه السلام، هو شخص واحد في مواجهة مجموعة مختارة من أمهَر سَحَرَة البلاد.

﴿١١٦﴾

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

طلب منهم أن يبدؤوا بإلقاء ما لديهم على الأرض، فباشروا بفعل ذلك بكل قوة السحر التي امتلكوها، ولم يكن أحد يتخيّل أنه سيرى هذا العَجَب الذي أتوا به. تقول الآية الكريمة: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾. فقد أصبح الناس في ذهول مِمّا رأوا، واعتقدوا أن لا أحد بوسعه أن يأتي بمثل ذلك. وكلمة ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ تشير من خلال السين والتاء إلى شدة الرهبة. ولبث موسى مع أخيه هارون ينظران إلى هذا المشهد المريع. في تلك اللحظات يقول الله جل شأنه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى★ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾طه ٦٧، ٦٨. أصبح الناس في رهبة شديدة وهم ينظرون إلى هذه الأعمال السحرية التي أتوا بها. رُوِي (أنهم جلَبُوا ثلاثِمَائةٍ وَستين بعيراً موقورةً بالْحِبَالِ والعِصِيِّ، فلما ألْقَوْها، تحرَّكت، وملأت الوادِيَ، يركَبُ بعضُها بعضاً فاستهول النَّاس ذلك، واستَرْهَبَهم).

وروي (أنهم جمعوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات جسام غلاظ ولطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق داخل تلك العصي فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جداً تخيل الناس أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وصار الميدان كأنه مملوء بالحيات).

﴿١١٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

أمام كل هذه الحشود من السَحَرة، وكل ما لَدَيهم من أدوات هائلة، لم يكن ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام الذي كان عليه أن يبارزهم، يملك سوى عصاه. ولعلّ المنظر بدا غريباً بالنسبة للجماهير الحاضرة منذ البداية وحتى هذه اللحظات، وأن التوقّعات: ما الذي يمكن أن تفعله هذه العصا الصغيرة أمام كل هذه الأدوات الهائلة، وهذه الحشود الكبيرة من السَحَرة؟!.

في تلك اللحظات والأعين تنظر إلى ﴿مُوسَى﴾ وما يمكن أن يفعله تجاه هذا المنظر، جاء وحي الله تعالى ﴿إِلَى مُوسَى﴾ بإلقاء العصا إل الأرض. وهنا عليك أن تنتبه بأن المبارزة هي ليست بين ﴿مُوسَى﴾ وبين السَحَرة، بل هي بين الله الذي يمثل ﴿مُوسَى﴾ كلمته، وبين هؤلاء السَحَرة؛ وأن هذا السحر الذي قدّموه لعلّ أحداً لايستطيع أن يأتي بسحر أعجب منه، لأنهم كانوا الأكثر مهارة وإمكانيات في البلاد كلها. وهذا ما قاله ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، بأنه لم يأت من تلقاء نفسه، بل أتى بتكليف من الله؛ وأن الذي رأوه من العصا، لم يكن من خبرة لَديه في السحر، وهو لا يمتلك خبرة في السحر، بل أنه ينفّذ ما يتلقّاه من الله. فجاء قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾.

ودون هذا الوحي الإلهي، لا يستطيع ﴿مُوسَى﴾ أن يفعل شيئاً قبالة هؤلاء، فجاء قول الله جدلّ شأنه، بصيغة الأمر الفوري للتنفيذ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ . فهذا هو ردّ الله على سحرهم العظيم، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ تحوّلت العصا إلى حيّة ضخمة ﴿تَلْقَفُ﴾ تلتهم ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ كل هذه الأشكال السحريّة واحدة تلو الأخرى مهما كان حجمها كبيراً. قَالَ اِبْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ: (كَانَتْ إِذَا فتحت فاها صَارَ شِدْقهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، وَاضِعَة فَكّهَا الْأَسْفَل عَلَى الْأَرْض، وَفَكّهَا الْأَعْلَى عَلَى سُور الْقَصْر). وَقِيلَ: (كَانَ سِعَةُ فمهَا أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، فَقَصَدَتْ فِرْعَوْن لِتَبْتَلِعَهُ، فَوَثَبَ مِنْ سَرِيرِهِ فَهَرَبَ مِنْهَا وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى، فَأَخَذَهَا فَإِذَا هِيَ عَصًا كَمَا كَانَتْ). جاءت كلمة ﴿يَأْفِكُونَ﴾ بالغة الدقّة، فالإفك من الكذب، وهو مثل السراب الذي يظهر من بعيد على أنه ضباب، لكن عندما تدنو منه، لايكون كذلك.

فإذن مهما كان السحر قوياً، فإنه لا يملك من أمره ألاّ يتلاشى أمام أمر الله، وهذه إشارة جليّة بأن السحر لا يتم إبطاله على يد ساحر، لأنه يُدخِل سحراً في سحر، وفي أفضل الأحوال إذا تخلّص المسحور من السحر الأول، فإنه يكون قد وقع تحت سطوة السحر الثاني، مثل الذي يعالج نفسه من الأرق بتناول أقراص منوّمة، فيكون قد نام بالفعل، لكنه استيقاظه لا يكون استيقاظاً طبيعياً، لأنه لم ينم نوماً طبيعياً. لذلك تظهر ردود أفعال جديدة عليه نتيجة هذه الأقراص المنوّمة قد تكون أكثر سوءاً من الأرق الذي كان يعانيه. فالطبيعي أن يواجه الإنسان أي حالة نفسية، ويصارح نفسه، ويصل إلى سبب هذه الحالة، ويعالجها.

وعلى الأغلب فإن القلق النفسي ينتج عن حالة من اللا انضباط يسلكها المرء في حياته، فيتبع خطأً ويوهم نفسه بأنه على صواب، فيكون هذا الشخص مزدَوَجاً في حياته، حتى يتحوّل إلى كائن فِصامي يكون في الظاهر على شيء، وفي الباطن على نقيضه، يقول كلاماً، وهو يعلم بأن ما بداخله لا يوافق هذا الكلام. ومن الطبيعي أن هذا الشخص لن يكون بوسعه أن يعيش حياة طبيعية سويّة، استناداً إلى الفِصام الذي يعيشه في سلوكه اليومي.

ثم أنه يزيد الحالة سوءاً وهو يستخدم أدوية للتخفيف من الاضطرابات النفسية التي يعانيها، أو من الكوابيس الليلية، أو من أفكار غريبة تخطر له. فالمنهج السليم بالنسبة للأوبئة النفسية، أن يواجه الإنسان نفسه بالحقيقة، ويصلح من شأن نفسه، ويذكر الله كثيراً، ويُصبح شخصاً ينتفع منه الناس. فالاستعانة بالله خير حصانة للإنسان من أي أذى يمكن أن يترصّده، فيتحصّن الإنسان على قدر ما يذكر الله، ويستعيذ به، ويستغفره، ويقرأ القرآن حتى تعتاد عيناه على القرآن، فتحبا القرآن، ويحبهما القرآن، حتى يعتاد سمعه على سماع القرآن، فيحب القرآن، ويحبه القرآن، حتى يعتاد قلبه على ذكر القرآن، فيحب القرآن، ويحبه القرآن، فيحب الله، ويحبّه الله. تبيّن لك الآية الكريمة بأن الله تعالى يأتي بما لا يمكن لمخلوق أن يأتيه، فانظر إلى حجم إمكانات فرعون، وكل هذه الحشود التي جمعها من كافة أرجاء البلاد. ثم انظر إلى ﴿مُوسَى﴾ وهو شخص واحد، ولا يملك بيده سوى عصا، ولكن الله آزَرَه ونَصَره على كل هؤلاء، بهذه الإمكانات المحدودة، قياساً بالإمكانات الهائلة التي جُمِعَت عليه، فهذا هو الله عندما يشاء أمراً، تقع المعجزات من أجل تحقيق هذا الأمر.

﴿١١٨﴾

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

عندما يسطع ﴿الْحَقُّ﴾، فإن الباطل لا يملك إلاّ أن ينوس وينطفئ في حضرته.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ الذي أتى به الله من خلال موسى ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فأبطل ما أتى به فرعون من خلال سَحَرته.

﴿١١٩﴾

﴿فَظَلُّوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾

فقد غَلَبَ ﴿الحَقُّ﴾الذي يحمله موسى على باطلهم الذي جاؤوا ليتبارزوا به.

﴿وَانقَلَبُوا﴾، بعد أن صوّروا أنفسهم على أنهم كبار في تمكّنهم ومهارتهم، ﴿انقَلَبُوا﴾لتظهر حقيقتهم التي هي نقيض ذلك ﴿صَاغِرِينَ﴾.

ظهروا صِغاراً في أعين الحضور أمام موسى، وفي ذلك بيان بأن على الإنسان أن يعلم بأنه مهما غدا متمكّناً، وقوياً، فهو ضعيف أمام الله، وعليه ألاّ يغتر بنفسه، ويتواضع أمام خلق الله، لأنه من خلال ذلك يكون قد تواضع أمام الله.

﴿١٢٠﴾

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾

عندذاك رقّت قلوبهم، وتواضعوا وآمنوا بأن ما لدى موسى ليس سحراً، وإنما هو من رب العالمين. فتركوا السجود لفرعون، وسَجَدوا لله.

﴿١٢١﴾

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾

إن فرعون قد خدَعَنا، وهو ليس إلهاً، لأنه لو كان إلهاً كما يزعم، لَمَا تركَنا ننهزم أمام الحق الذي أتى به موسى، وقد أنصره الله علينا دون أن يستطيع فرعون فعل شيء أمام هزيمتنا. إن ما أتى به موسى هو الحق، ﴿آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿١٢٢﴾

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾

الرب الذي أرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾إلى فرعون، هو ليس ربهما فحسب، بل هو رب ﴿العَالَمِينَ﴾ الذي لا رب للعالمين سواه.

﴿١٢٣﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

توَهّمَ الرجل بأن الإيمان بالله يحتاج إلى أخذ إذن منه، ثم اتهمَهم بأنهم خدعوه، بعد أن خذلوه أمام حشود الجماهير ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي جرى فيها التبارز، وما ذلك إلا ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا﴾. وهنا تصوير لشعور الطاغية الذي يشعر بالوهن عندما يهاجر المواطنون من وطنهم بسبب طغيانه، فهو يستمدّ دعائم طغيانه من وجود الناس الذين يمارس عليهم هذا الطغيان، ويكونوا تحت سيطرته. أمّا إذا خرجوا عن دائرة سيطرته، فإنه يشعر بأن نفوذ طغيانه يقل ليقتصر على عدد قليل من الناس، ولعلّ هؤلاء أيضاً يهاجرون ويلحقون بأولئك. لذا يسعى الطغاة إلى توسيع دائرة نفوذهم، فلا يكتفون ببلدانهم، بل يسعون إلى احتلال بلدان أخرى من خلال افتعال الحروب كي يتحكّموا بأكبر عدد من الناس. فالرجل كان في مواجهة موسى الذي يريد أن يأخذ منه بني إسرائيل، والآن أصبح أمام خروج نخبة من مهرة السحر عليه، ولذلك بدأ يشعر بالضعف.

﴿إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا﴾، فما يهمه أن يبقى أهل المدينة فيها حتى يمارس عليهم طغيانه، لأن خروج الناس من سيطرة الطاغية، يعني تجريده من ممارسة الطغيان، ولذلك يسعى ما أمكنه كي يعيق حركة الخروج من البلاد. فتوعَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

بمعنى سوف ترون ما الذي سأفعله بكم، كي يبث الرعب من عاقبة الخروج عنه بالنسبة للآخرين أيضاً.

﴿١٢٤﴾

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فقد توعّدَهم بالتنكيل بأقصى ألوان العِقاب البَدَني، لم يقل: لأسجننكم. بل مباشرة العِقاب الدموي الفوري بأن يقطع الأيدي والأرجل ﴿مِّنْ خِلاَفٍ﴾. أي اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أفعل بكم ذلك، ﴿لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وهو تعذيب بَدَني شرس

حيث يتم تصليب أجسادهم ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾طه٧١. وكل هذا حتى يوصل رسالة إلى عموم الشعب من خلالهم، فقط لأنهم آمنوا بالله.

﴿١٢٥﴾

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

حسمنا أمرنا، وخرجنا عن ألوهيتك الباطلة التي أو همتنا بها، وانقلبنا إلى حقيقة الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لاشريك له.

﴿١٢٦﴾

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

إنك لا تنتقم ﴿مِنَّا﴾، ولكنك تنتقم من إيماننا ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا﴾. البراهين التي أتى بها موسى، وأبطلَت سحرنا، هي التي جعَلَتنا نؤمن ونيقن بأن الله قد أرسله، وما قدّمه موسى، ليس سحراً، بل هو الحق، وأن ما لدينا هو السحر الذي لا يملك أن يصمد أمام الحق. ومهما تبدّا لنا بأننا أقوياء بسحرنا، فإن ما أتى به موسى أظهَرَ لنا بأننا ضعفاء أمام الحقيقة. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾. كلمة﴿أَفْرِغْ﴾، تشير إلى مدى حاجتهم إلى الصبر، لأن الإفراغ لايكون في شيء مملوء، بل في شيء فارغ. ﴿أَفْرِغْ﴾ على فراغ قلوبنا من الصبر ﴿صَبْراً﴾ ، حتى نستعين به على مقاومة ما يتوعّدنا فرعون من ألوان العذاب المروع الشديد القسوة، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

لاتجعلنا نضعف أمام الخوف، أو أمام شدّة العذاب، واجعلنا نتوفى على الإيمان بك، لا على العودة إلى كفرنا. لذلك نسألك ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾، حتى لا ينال فرعون من عزيمتنا على الإيمان بك.

﴿١٢٧﴾

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

حرَّضوا ﴿فِرْعَوْنَ﴾ على المزيد من الفتك بهؤلاء، فغدوا يؤجّجونه نحو التصعيد، وليس ذلك من أجل﴿فِرْعَوْنَ﴾، بل من أجل حفاظهم على مواقعهم، لأن وقوع ﴿فِرْعَوْنَ﴾، هو خسارة حتمية لهم في مواقعهم. فـ ﴿الْمَلَأُ مِن﴾أعوانه الذين يعتمد عليهم في إدارة الحكم، وهم من الوصوليين الذين يتواجدون في كل زمان ومكان، ويمكن لهم أن يفعلوا أي شيء، ويتنازلوا عن أي شيء من أجل أن يتقرّبوا إلى الحكّام، ويتمكّنوا من ممارسة جزء من سلطانه على الناس. وبعد أن يحققوا وصولهم، يمكن لهم أن يسكتوا عن أي تجاوز، ويوافقوا على أي أمر جائر حتى يحافظوا على مواقعهم. فلا تبدر منهم بادرة نصيحة، أو بادرة انتقاد، فيومؤون رؤوسهم بالإيجاب لكل ما يرون، وما يسمعون. وعلى الأغلب فإن هؤلاء هم الذين يتسببون في دفع الطاغية نحو مزيد من الطغيان والجور من خلال تحريضه وتأجيجه على إصدار القرارات الجائرة. فلم يشف غليلهم بقطع الأيدي والأرجل ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾، والتصليب، بل حرّضوه إلى المزيد قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾. فكان أن استجاب لهذا التحريض، و ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.

كان الرجل قد اكتفى بهم فقط، دون أن يتمادى إلى الأبناء، أو النساء. ولكنهم دفعوه إلى هذا التمادي، ولذلك فإن بعض القرارات الجائرة لا تكون من الطاغية نفسه، بل من مقترحات الوصوليين من حوله.

وإذا دقّقت في هذه المسألة، سيجلو لك بأنهم من خلال ذلك، ينتقمون من الطاغية بشكل غير مباشر، لأنهم يثبّتونه في طغيانه أكثر، ويُضاعفون عليه أوزار الطغيان.

فنحن ما نزال ضمن سياق المعادلة الإلهية، حيث كل شيء يعادله شيء مثله، فهؤلاء أتوا ليس حباً بالحاكم، أو خدمة للشعب أو البلاد، بل فعلوا ما فعلوا، وتنازلوا عمّا تنازلوا، وتغاضوا عمّا تغاضوا من أجل تحقيق هذا الوصول، وعندما وصلوا، لا بدّ لهم أن ينتقموا من الحاكم أولاً، ولكن بطريقة غير مباشرة، وأحياناً بطريقة غير مقصودة، وذلك حتى لا يحدث خلل في التعادل الإلهي. ومن الطرف الآخر فإنهم يسعون إلى إسكات أصوات الحق في المجتمع، لأن هذه الأصوات عندما تعلو، فإنها ستبيّن ما هم عليه من باطل. ولذلك فهم يجمعون الأدلّة والوقائع والمستجدّات التي تحدث في المجتمع، ويبنون عليها مقترحاتهم، ويؤجّجون بها الحاكم ويحرّضونه إلى المزيد من الطغيان والتمادي، من خلال إصدار الأوامر

الجائرة، سواء علناً، أو خفية. فترى في كل زمان ومكان يتم تهديد المصلحين بإلحاق الأذى بهم، وكذلك بأبنائهم ونسائهم. وقد انتهت الآية الكريمة باستئناف قول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾. أي سنلاحقهم من مكان إلى مكان حتى نقهرهم، ونجعلهم يمنون بالهزيمة.

﴿١٢٨﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

الآن استطاع ﴿مُوسَى﴾ أن يجد له موطئ قدم في ديار فرعون، فبعد أن كان مع أخيه هارون فقط، أصبح هناك مَن يؤمن به ويؤازره، ويتخذ منه مرشداً، فأرشد هؤلاء الذين وقفوا إلى جانبه متحدّين فرعون ووعيده لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ﴾، لأن الله لديه ما يُقهر فرعون. ﴿وَاصْبِرُوا﴾، حتى يأتي الله بأمره ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ﴾، وليست لفرعون، ولو استطاع أن يُخرجنا بالقوة، لأخرجنا دون تردّد، ولكنه مرتعب من المعجزات الإلهية التي رآها من خلالي. واعلموا بأن الله يورث أرضه ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، ويجعلهم أسياداً عليها. وفي ذلك اختبار لهم، وإن حصل وأورثها لطغمة فاسدة ، وجعلهم يتمكّنون من البلاد والعباد، فليس ذلك كي يستمروا في الطغيان ، بل يريهم النعيم والسيادة لعلّهم يصلحون، ويأمرون بالصلاح. ﴿وَ﴾ لكن تبقى ﴿العَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذا يبقى ضمن سياق السورة التي تأتي بكل هذه البراهين والأدلّة والوقائع من التاريخ الإنساني لتبيّن بأن عقاب الله يبقى يلاحق المفسدين أينما كانوا، أفراداً، أو جماعات، وبمختلف مذاهبهم ومناهجهم. **فإن الله يسلّط عليهم الأوبئة، وعوامل الدمار، ويسلّطهم على بعضهم البعض حتى تبقى ﴿العَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. واعلم أن الكثرة ليست قياساً للعاقبة الحميدة، فقد ترى عدّة أشخاص أتقياء في مدينة كاملة، وترى شخصاً واحداً يحقق بطولة في حقبة زمنية بأكملها، فتعرَف تلك الحقبة باسمه، رغم أنه لم يكن ملكاً، ولم يكن غنياً، ولكنه كان متقياً، وأصبح رمزاً للتقوى. فأخذ الناس يستنون بما سَن من سنن طيبة.**

﴿١٢٩﴾

﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

إذن عندما يستخلفك الله في حكم، أو في دائرة، أو موقع، أو متجر، أو مال، يكون ذلك لينظر ﴿كَيْفَ﴾ تتصرّف بما استخلفك الله.

هل ستراعي شرع الله فيما أنت فيه، أم ستستغل ذلك وتطغى وتجور.

﴿قَالُواْ﴾لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا﴾، بأن اتبعنا هذا الطاغية بالقوّة.

و﴿أُوذِينَا﴾، أي كان يتجاوز على حقوقنا له ولحاشيته.

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا﴾، فتبيَّن لنا ما كنا نجهل ﴿مِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾من آيات بدّدَت جهلنا، وجَعَلَتنا نؤمن إيماناً صادقاً، ونكتشف ما كنا فيه من جهل.

﴿قَالَ﴾لهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

عندما تكون مظلوماً، ويرفع الله عنك الظلم، وعندما تكون ضعيفاً، فيجعلك الله قوياً، هنا عليك أن تدرك بأن الله تعالى جعلك في الوضعين النقيضين، ومن خلال ذلك تظهر الدقّة في حقيقة ما أنت عليه، ودوماً تذكّر بأن الله عز وجل ينظر ﴿كَيْفَ﴾تعمل.

وكما أنه نصرك، وقوّاك، فإنّه قادر أن يُنصِرَ ويقوّي عليك إذا جَنحت شَطر الجور.

﴿١٣٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

هذه هي عظمة الله سبحانه وتعالى، فإنه يمهل الإنسان إمهالاً تلو إمهال، لعلّه يتراجع، ولكن المستكبر بدل أن يتعظ من هذا الإمهال، فإنه يتمادى في طغيانه حتى أنه يتخذ من هذا الإمهال ذريعة للاستمرار في ظلمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ﴾. أمهلناهم من خلال تتالي السنين، ﴿وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ﴾.

ثم أمسكنا عليهم الأرزاق بعد النعيم.

ويُروى (أنه يبس لهم كل شيء حتى نيل مصر، ونقصوا من الثمرات حتى كانت النخلة تحمل الثمرة الواحدة).﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الله ويتوبون إليه، ويصلحون من شأنهم.

﴿١٣١﴾

﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾. الخصب، والثمار، والحيوانات، والرزق الوفير﴿قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ﴾،أي نحن نستحقّها، وسعة المعيشة ﴿هَـذِهِ﴾ اعتدنا عليها.

قال سعيد بن جبير:(كان ملك فرعون أربعمائة سنة، فعاش ثلاثمائة سنة لا يرى مكروهاً).

فحتى ينبّه الله الإنسان فإنه يمسك عنه ليذكر بأن هذه النعمة التي يرفل بها، إنما هي من الله، وعليه أن يشكر الله عليها، ويكف عن الفساد.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، فالإنسان يُصاب بالسيّئة، فيُصبح مُصاباً بها بعد أن يكون قد مارسها، فتصيبه.

فبدل أن يقلعوا عن ارتكاب السيئات، حتى يتفادوا إصابتهم بها، بل ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾. التطيّر هنا هو إنساب السَيّئة إلى ﴿مُوسَى﴾، والذين آمنوا به، أي أنّهم تسبّبوا في إصابتهم بهذه السَيّئة، وهي: القحط، والمحل، والعوز، والجذب، والمرض. فادّعوا أن ذلك قد حلّ عليهم بسبب وجود ﴿مُوسَى﴾ والذين وقفوا إلى جانبه، وخرجوا عن طوع فرعون.

﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾. فذلك ليس بسبب ﴿مُوسَى﴾، ومَن معه، بل يصيبهم ذلك نتيجة تماديهم في الغي وفق حكمة الله في الإنسان.

وفي الحديث: "لا طيرة، وإنما الطيرة على مَن تطيَّر".

فالإنسان يكون مسؤولاً عمّا يصيبه من سوء نتيجة عصيانه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. من كثر انهماكهم في الغي، ما عادوا يميّزون بين الحسَنة التي تجيئهم من الله، والسيّئة التي تصيبهم نتيجة فسادهم. واستناداً إلى ذلك باتوا يعتقدون أنهم كانوا في سِعة خلال كل تلك السنوات، وإذا لبثوا على ما هم عليه، ستلبث السِعة فيهم؛ ولكنهم إذا خَرَجوا عمّا هم عليه واتبَعوا ﴿مُوسَى﴾، فإن القحط سوف يصيبهم، ولذلك كانوا يقولون بأن ﴿مُوسَى﴾ هو سبب ما يصيبنا من ضيق لأننا قبل مجيئه إلينا لم نر شيئاً من ذلك.

وهنا درس بالغ الدقّة تتعلّمه من هذه الجملة التي اختتمَتْ بها الآية الكريمة، وهو أن دوام الرخاء مع وجود الفساد، لايعني سكوت الله عن الفساد، بل يعني إمهال الله تعالى للمفسد كي ينيب ويرجع.

وقد يجعل الله عليه ضيقاً بعد ذلك، كي ينتبه بأن الله قادر أن يغدق عليه، وقادر أن يمسك عنه.

ومثل ذلك، يمتعه بعافية، ثم يبليه بداء لعلّه يتعظ. فإن كان﴿أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، فإن ثمة مَن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أيضاً هذه الحقيقة، وإن كانوا قلّة، ولكنهم رغم ذلك يتظاهرون بأنهم ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾. كي يلبثوا في حاشية الغي، ولا يخرجوا منها.

﴿١٣٢﴾

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

فكل ما يبدر منك هو محض سحر في سحر، ولا تظنّن بأننا سنؤمن ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ﴾.

لتأت بما تشاء، واعلم بأننا لن نصدّق بأنك رسول الله، ولن نتخلّى عمّا نحن فيه.

﴿١٣٣﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾

إلى هذا الحدّ، ما يزال الله جلّ شأنه يمهلهم رحمة بهم علّهم يرجعون، فكانت السيّئة أشدّ من سابقتها، لأنه لعلّ مع الشدّة تلين القلوب وتنيب إلى الحق، وهذه الشدّة نظير ما كانوا فيه من سِعة؛ فجعلهم الله في سِعة، ثم في شيء من الوسَط، ثم في شدّة.: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾. كل هذه الألوان من الشدائد ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾. بيّنات وجليّات كي يتعظوا بها ﴿فَ﴾بدل أن يتعظوا، ﴿اسْتَكْبَرُواْ﴾ على الإيمان واليقين، ﴿وَكَانُواْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾.

﴿١٣٤﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

وتستمر رحمة الله تعالى بالإنسان، ويستمر إمهاله له رغم كل ما يبدر من الإنسان، لعلّه يتراجع ولو قليلاً، ثم قليلاً بشكل متدرّج كي يكون صالحا وطيّباً ومحباً، وموحّداً لله تبارك وتعالى، وشاكراً إياه على نعمته.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾. عندما أصبحوا تحت وطأة ﴿الرِّجْزُ﴾، ورأوا أنفسهم في وضع لم يعد يُطاق، واستعانوا بكل ما يمكنهم أن يستعينوا به، بذلوا كل ما يمكنهم أن يبذلوه من أجل إزاحة هذا ﴿الرِّجْزُ﴾عنهم، أو التخفيف من وطأته. وتبيَّن لهم أن فرعون الذي اتخذوه إلهاً غير قادر على فعل شيء لهم، كما أن فرعون نفسه بات واهناً أمام سطوة ﴿الرِّجْزُ﴾. عندذاك لم يبق لهم غير ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام كي يلجؤوا إليه، علّه يستطيع أن ينقذهم من هذه المحنة الكبرى التي ألمّت بهم، لينقلبوا مرة أخرى إلى النعيم. ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾. اسأل ﴿رَبَّكَ﴾ الذي تقول بأنك رسوله إلينا، أن يرفع ﴿عَنَّا﴾هذا ﴿الرِّجْزَ﴾. ﴿لَئِن﴾ إذا سألته واستجاب لك، و ﴿كَشَفْتَ﴾ رفعت ﴿عَنَّا﴾ ما نحن فيه من الفاقة التي أصابتنا، عندئذ ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، نصدّقك ونيقن بأنّك حقّاً رسول من عند الله، ونستجيب لمطلبك الذي جئتنا به، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿١٣٥﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾

دعا موسى عليه السلام، ربه أن يرفع عنهم العذاب، فاستجاب الله عز وجل لدعاء رسوله، ورفع عنهم ما سلّط عليهم، وجعلهم مرة أخرى في رفاه ﴿إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ .

ولبثوا يتقلّبون في رَغَد العَيش،﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

فنكثوا مرة أخرى بعهدهم مع موسى، ولم يؤمنوا به، وامتنعوا أن يرسلوا معه ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

روي: (أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ففزعوا إليه ثانياً فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا، فسلط

الله عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلم ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ثم نقضوا العهود، ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه). وهذا يحتاج إلى زمن، قيل بأنه استغرق عشرين سنة متصلة، وكلّما أخرجهم الله من محنة، لبثوا في استكبارهم دون أن يؤمنوا.

﴿١٣٦﴾

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

الآن، بلغوا حدّ اللاعودة، ولم تجد معهم مختلف ألوان وأشكال الاختبار والإمهال، فهم يريدون أن يلبثوا في الفساد والأهواء والطغيان، دون أن يقيموا لله حدوداً، ودون أن يؤمنوا به، بل يؤمنوا بفرعون إلهاً. وهنا يكون الله سبحانه وتعالى قد غضب على المتمادين في الفساد، إلى درجة أنهم باتوا في وضع لم يعودوا يستحقّوا فيه أي إمهال آخر، أو أي شكل من أشكال التقلّب من حال إلى حال لعلّهم ينيبوا، لأنهم عزموا وثبتوا على ألاّ ينيبوا. فيوقع الله عز وجل عندذاك عليهم عِقابه الحاسم الذي هو ليس اختباراً، ولا إمهالاً، بل هو عقاب بشكل قاطع مباشر لا مجال فيه لأي إمهال آخر،﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

لقد جمع الله لهم كل ذلك فوق بعضه البعض، خلال كل تلك المراحل والسنوات والتقلّبات، لعلّهم تابوا، فأسقط الله عنهم كل ذلك الذي تم جمعه، ورفعه عنهم، وعفا عنهم، وجرّدهم من كل ما رتكبوه من آثام. لكنهم لم يفعلوا ذلك، ولبثوا في عِنادهم واستكبارهم، واستغلاظهم في ألوان المعاصي. والانتقام الإلهي هنا بيان بأن الله كان قادراً أن يردعهم في أي وقت، لكنه رحمة بهم، ترك لهم الفرصة تلو الفرصة، والسَنة تلو السَنة، والتقلّب بين العافية والمرض، والغنى والفقر، لعلّ ذلك يجدي معهم فيؤوبوا إلى الحق، ويقلعوا عن الباطل. فأصابهم بما جَمَعه لهم، فذلك هو انتقام الله تعالى للإنسان. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾.

جعلناهم يغرقون في مياه البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، بما اقترفوا من تكذيب للبراهين والأدلّة الدامغة التي بلَغتهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. ينكرونها ويتغافلون عنها.

﴿١٣٧﴾

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾

انتصار المغلوبين على أمرهم، على الجبابرة والطغاة، فأحياناً لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً تحت وطأة الظلم سوى أن يسأل الله الفرج، لأن أي مقاومة قد تودي بالبلاد والعباد إلى الهلاك؛بسبب تمكّن الطاغية وأعوانه على مفاصل الإدارة في البلاد، وبسط نفوذهم على

الجيش، والسلاح، والعتاد، والأموال، والموارد، والقرارات. فيصبح الناس تحت ظل ذلك الواقع، ضعفاء لا حول لهم ولا قوة. لكن الله تعالى يهين هؤلاء الطغاة، ويذلّهم، ويجعلهم عبرة للناس، ويقدّم الأرض نظيفة لأناس صالحين، عادلين، طيّبين.

فإن لبثوا في استقامتهم، بارك الله لهم، وأغدق عليهم بالمزيد، وجنّبهم المكائد، وإن ضلّوا، يمهلهم الله، لكنه لا يسكت عن ضلالهم. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. لقد جعل الله بركته على ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ ، وهذه البركة تكون بمثابة حصانة إلهية للأرض كي لا يسود فيها الفساد.

ودوماً فإن الله يُخرج مفاتيح إدارة ﴿الأَرْضِ﴾من أيدي الظالمين، ليضعها في أيدي العادلين، ومهما تمكّنوا من هذه المفاتيح، فإن الله يُخرجها من أياديهم، ويعرّضهم للذل والخزي، ولو بعد حين. فإن رأيتَ الظلم في بقعة، فإنك ترى العدل في بقاع، وإذا رأيت حاكماً جائراً، فإنك ترى حكّاماً عادلين. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾. أخرجناهم من العبودية، إلى السيادة، لأنهم كانوا مستضعفين تحت طغيان ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وأعوانه، وقد ﴿صَبَرُوا﴾، فجازيناهم ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، وجعلناهم أحراراً، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

سحقنا وأزلنا ﴿مَا كَانَ﴾ يقوم به ﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ ، وكل ما كان يعرشوه في ﴿الأَرْضِ﴾ ، وفي الناس، حيث كان فرعون أكبر ملوك ﴿الأَرْضِ﴾ وكانت مملكته كبيرة.

﴿١٣٨﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

المجاوزة تكون من خلال المرور على موضع، ثم اجتيازه، وتجاوزه، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾. أي ما كان لهم أن يجتازوه، لولا أننا ﴿جَاوَزْنَا﴾ عبرنا بهم . وهو بحر القُرم، الذي يُعرف بالبحر الأحمر، وكان ذلك عندما ضرب ﴿مُوسَى﴾ بعصاه على﴿الْبَحْرَ﴾، ففلقه الله تعالى، كي يعبروا من الشطر الشرقي، إلى الشطر الغربي. ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾.

الاعتكاف هو التواجد في مكان تفرّغاً للعبادة، ولأن البقر كا يُعبَد عند الكنعانيين، فيُقال بأن القوم كانوا كنعانيين. وعن ابن جريح: (أن أصنامهم كانت تماثيل من النحاس). عندما رأوا ذلك، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾. فهؤلاء قد أتوا مع﴿مُوسَى﴾ دون أن يعلموا حقيقة التوحيد، رغم أنهم آمنوا به كونه حرّرهم من فرعون بعد الذي حصل. فإذن، اعتاد بنو ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ على الآلهة والتماثيل نتيجة مكوثهم في ظل ذلك، ولمّا رأوا هذه التماثيل، لعلّ ذلك حرّك فيهم شيئاً من الحنين إلى ما كانوا عليه، فـ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

ومن هنا كانت فكرة عبادة العجل بالنسبة لبني ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ ، لأن هذا أول ما رأوه بعد خروجهم من مصر، وعودتهم إلى ديار بني ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ في الأرض المقدّسة، فكان جواب﴿مُوسَى﴾ بأن ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾،أي ما تزالون في جهلكم رغم كل ما شاهدتموه من المعجزات.

﴿١٣٩﴾

﴿إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

بَيَّنَ لهم ﴿إِنَّ هَؤُلاء﴾ الذين ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ زائل ﴿مَّا﴾ يعبدون. وكلمة ﴿مُتَبَّرٌ﴾ ، بمعنى أن هذه الأصنام لاتستطيع أن تنفعهم بشيء، فهي جامدة لا حراك فيها، وبالتالي فإن وجودها كعدم وجودها. ﴿وَ﴾- استناداً إلى ذلك، فكل ما يفعلوه تجاه هذه الأصنام، فهو عمل- ﴿بَاطِلٌ﴾. والباطل بمعنى أنه بلا جدوى، فاعتكافكم، وعدم اعتكافكم لهذه الأصنام سيّان، لأنها هي ذاتها تتبرّأ مِمّا يفعلونه تجاهها.

﴿١٤٠﴾

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

لقد أكرمكم الله، وميّزكم بأن ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في هذا الزمان، وليس هناك في ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مَن هو أفضل منكم عند الله الآن. فكيف تريدونني أن أصنع لكم تماثيلاً،

وأدعوكم إلى عبادتها دون ﴿غَيْرَ اللهِ﴾ . فحري بكم أن تعبدوا ﴿اللهِ﴾ الذي لا إله إلاّ هو، وتشكروه على فضله.

﴿١٤١﴾

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

وهنا تذكير لهم كيف أن الله أنجاهم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَونَ﴾ الذين كانوا يذيقونهم أشدّ ألوان ﴿الْعَذَابِ﴾. ولا يكتفون بذلك، بل يفتكون بأبنائهم بالقتل، ويستبيحون أعراضهم، ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. فهذا من شأنه أن يجعلكم تشكروا الله على إنقاذه لكم من هؤلاء.

﴿١٤٢﴾

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

جعل الله تعالى ﴿ثَلاَثِينَ لَيْلَةً﴾ لـ ﴿مُوسَى﴾، ثم أتمّها ﴿بِعَشْرٍ﴾، حتى يخرج من قومه ويأتي لهم بما يُنزل الله عليه. ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فهذه هي الفترة الزمنية سيغيب فيها ﴿مُوسَى﴾ عن قومه. عندئذ أوصى أخاه كي ينوب عنه في العناية بقومه، وأن يصلح، وألاّ يتبع ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾، ريثما يعود.

﴿١٤٣﴾

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الميقات، هو الوقت الذي يتم تحديده من أجل أن يقع فيه الشيء الذي اتخذ من أجله هذا الميقات. والآن، قد جاء ﴿مُوسَى﴾ إلى هذا الميقات، وشرّفه الله عز وجل بأن ﴿كَلَّمَهُ﴾ . والتكلّم هو وقوع كلمات المتكلّم على سَمَع السامع مباشرة.

وعندما سَمِع كلمات ﴿رَبُّهُ﴾ ، طلب أن ينظر إليه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ . أحسّ بهذا الشعور في تلك اللحظات النورانية، فعبّر عنه.

فـ ﴿قَالَ﴾ له الله: ﴿لَن تَرَانِي﴾. أي لا تحتمل رؤيتي لأن إمكاناتك غير مؤهلة وغير معدّة لذلك في الدنيا. ﴿وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

ولم يدع الله تعالى ذلك محض كلام، بل أحاله إلى فعل ليلمسه﴿مُوسَى﴾ويعيشه، فقال: ﴿وَلَـكِنِ﴾ -أي لك ما تشاء ما دمتَ قد طلبتَ ذلك- ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي سأتجلّى لك عليه كي تراني.

﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾لبث صامداً وثابتاً ﴿مَكَانَهُ﴾ وأنا أتجلّى له ﴿فَسَوْفَ﴾ تتمكّن من رؤيتي. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾ . أي انهار ﴿الْجَبَلِ﴾ لعظمة تجلّي الله، ﴿وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾ ، أي فقدَ الوعي في حضرة هذا المشهد العظيم الذي لم يحتمله وعيه. ﴿فَلَمَّا﴾ عندما ﴿أَفَاقَ﴾ من الإغماء، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

التوبة هنا بمعنى إنني اعتقدتُ أن بإمكاني أن أراك، ولكنني الآن تعلّمتُ درساً ممّا وقع.

ثم قال ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ هنا بمعنى أنك الأعلى والأعظم الذي يأتي بما لا يمكن لأحد أن يأتيه، فعندما يرى الإنسان أمراً يتعجّب له، يقول: سبحان الله. أي آمنتُ بأن الله على كل شيء قدير. والمشهد نفسه قد جعل﴿مُوسَى﴾ أكثر قوة، وأكثر عزيمة وهو الذي رأى للتو قوماً يعبدون أصناماً، يدّعون أنها آلهة. فأي آلهة هذه التي تكون باهتة لاحراك فيها، ولاتملك أن تبدي حركة واحدة، ولذلك جاء قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فقد رأى بأن لا أحد في الأرض يمكن أن يكون أكثر إيماناً منه بعد الذي وقع. ولذلك سيفعل أقصى ما يمكنه أن يفعل في نشر ما يتلقاه من وحي.

﴿١٤٤﴾

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾

﴿قالَ﴾ له الله: ﴿يا مُوسَى إِنّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ انتقيتك واخترتك من سائر ﴿النّاسِ﴾ ، كي تحمل رسالتي، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشّاكِرِينَ﴾. عد إلى قومك، وبلّغهم شريعتي، ﴿وَكُن مِّنَ الشّاكِرِينَ﴾ . على ما أنعمتُ به عليكم من تحسين الحياة لكم، وإنقاذكم من أوبئة العقائد الباطلة.

﴿١٤٥﴾

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾

هي ﴿الأَلْوَاحِ﴾التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وقد كتب الله فيها ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ، فلم يدع شيئاً قط، إلاّ وكتبه الله تعالى في هذه ﴿الأَلْوَاحِ﴾. والموعظة هي ما يتعظ الإنسان بذكره، والتفصيل، هو البيان الواضح الذي لاتشوبه شائبة. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ بعزيمة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. وهي دعوة لبني إسرائيل أن يتفوّقوا ويتقدّموا، ويكونوا الأحسن. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾. سترون كيف تكون نهاية ﴿الْفَاسِقِينَ﴾، الذين يفسقون عن الحق.

﴿١٤٦﴾

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

فأساس الخروج من الضلال إلى الهداية، أن يتواضع الإنسان وينزع التكبّر من قلبه، عندذاك فإنه يرى الحق حقاً فيتخذه، ويرى الباطل باطلاً فيتجتبه. أمّا إذا لبث في

استكباره على آيات الله، فإنه يلبث في ضلاله، ولذلك فإن الله يدعه فيما هو فيه من ظلمات، ويحرمه بما تحمل هذه الآيات من هداية ورشد للإنسان. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

هؤلاء، سأجعلهم في صَرفٍ عن منافع ﴿آيَاتِيَ﴾ ، كعقاب لهم كونهم ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

فهم لاينتفعون بأي برهان يرونه، ويتجنبوا ﴿سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الذي ينفعهم، ويتخذوا ﴿سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الذي يؤذيهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. فما يصيبهم هو حصيلة تكذيبهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾وغفلتهم عنها.

﴿١٤٧﴾
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

مهما أقام المرء بنياناً كبيراً، ومهما بدا للناظرين إليه بأنه بديع، ولكن سينهار هذا البناء كونه قائم على أساس هش، وغير قويم. ولذلك ترى شخصاً يسطع اسمه في المجتمع، أو في البلاد، ويبدو كما لو أنه متحكّم بأرزاق وأحوال الناس، لكنه ينتهي نهاية ذليلة، لأن أرضيته التي وقف عليها، كانت أرضية فاسدة، وكل ذلك تحقق له نتيجة غفلة من الناس في ظروف ما، فاستغل ذاك الظرف، وأخذ يوسّع في نفوذه.

فهو شخص جائر، والحياة لا تبقى على ذاك الظرف، والله سبحانه وتعالى يغيّر الأحوال، فيلقى ذاك الجائر عقابه، ويظهر على حقيقته. فتبيِّن لك الآية الكريمة أن كل إنسان يُجزى بما يَعمَل، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، فلا تغرنّك المظاهر، فهو يُجزى بما يَعمَل حتى وهو في قمّة نفوذه، وكذلك تكون نهايته، وكذلك يكون في الآخرة. وعكس ذلك، فقد ترى شخصاً صالحاً، ويبدو للناظر بأنه بائس لأنه يقيم في بيت متواضع، وله دخله المتواضع، ولكن حتى وهو في ذروة ذلك، فإن الله يجازيه بصلاحه، فيكون سعيداً في حياته، مربياً جيداً لأبنائه، جاراً طيّباً، يأتمنه الناس في أموالهم وأعراضهم، تسري سيرته الطيّبة على الألسنة، يعيش بصدر منشرح، وذهنيّة نقيّة، يخفّف عن الناس بابتسامته ووجهه البشوش، وكلماته الطيّبة، وخصاله الحميدة، وكما الأمر في الدنيا، فإن الله تعالى يُجازيه في

الآخرة. فاقرأ الآية بدقّة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾. جاءت الأعمال جمعاً لأي عمل يمكن أن يقوموا به، فهو سيكون مُحبَطاً، أي منزوع البركة، وقابلاً للانهيار في أي لحظة متوقعة، أو غير متوقعة. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. والجملة سؤال وجواب في الوقت عينه، أي إنهم ﴿يُجْزَوْنَ﴾ بـ ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٤٨﴾

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾

لم يصبروا حتى يعود إليهم نبيهم بما يعود من عند الله، بل استعجلوا الأمر وصنعوا تمثالاً كتجسيد لعجل مِمّا كان معهم ﴿مِنْ﴾ ذهب . ثم جعلوه يُصدر صوتاً كصوت العجل. يقول الله جل شأنه، في صنيعهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ﴾. أي أنه مجرّد صوت يصدر بشكل آلي لا حياة فيه ﴿وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ جامد لا يملك أن يتحرّك، أو يحرّك. فهذا ما ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾. باتخاذ هذا المُجَسَّد إلهاً يعبدونه من دون الله.

﴿١٤٩﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

عندئذ أدركوا أن تمثالاً كهذا وقد صنعوه، ويخبرون كل قطعة فيه ، لا يمكن له أن يكون إلهاً يفعل ما يفعله إله موسى الذي أراهم المعجزة تلو المعجزة. ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ ، أي تحقق وتأكّد لهم أنهم أخطأوا . عندذاك ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فتابوا إلى الله وسألوه المغفرة حتى لا يكونوا ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿١٥٠﴾

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

عَلِمَ ﴿مُوسَى﴾ ما بَدَرَ من ﴿قَوْمِهِ﴾ ، فغضب إثر عودته إليهم، وتأسّف على ما وقعوا فيه من ضلال. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ﴾ بغيابي عنكم وقعتم في السوء، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ألم يكن بمقدوركم أن تصبروا حتى أعود إليكم بما أحمل من ﴿رَبِّكُمْ﴾ من صلاح لشأنكم. ﴿وَأَلْقَى الألْوَاحَ﴾ من يده ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾. الجرّ يكون من خلال الشعر، ولعلّه قدجرّه بيديه من شعره، ولحيته ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾طه٩٤. وهذا يشير إلى مدى غضبه، والمشهد يصوّر كيف أن الإنسان عندما يغضب، يقبض بكفّه على شعر المغضوب عليه، ليقرّبه أكثر فأكثر ﴿إِلَيْهِ﴾ ، فيقول له ما يقول، ثم يدعه. وفي ذلك إشارة بمعنى، ألم تكن قد سمعتني جيداً عندما قلتُ لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ . هل كنتَ تريد أن أفعل بك ما أفعل الآن لتسمع جيداً.

عندئذ جاوبه هارون مدافعاً عن نفسه، ومبيّناً ما قد وقع بالتفصيل: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ رأوني وحيداً، فاستغلّوا ضعفي في مواجهتهم بغيابك، وهم يعلمون بأنني لاأستطيع أن أفعل ما تفعله، أو أقدّم ما تقدّمه من معجزات حتى يرتدعوا. ﴿وَ﴾ عندما أردتُ منعهم ﴿كَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾، لأنهم كانوا مصرّين على فعل ذلك، ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء﴾.

فالكلام كله تهدئة في تهدئة، وعندما يختلف الأخوة، فإن ذلك يجعلهم عرضة لشماتة ﴿الأعْدَاء﴾. والشماتة بمعنى الاستضعاف، فالإنسان لايريد أن يبدو ضعيفاً أمام أعدائه، بل يريد أن يحافظ على قوّته في أعينهم، لكن خلاف الأخوة يجعل الأعداء يستضعفونهم، ويستهزؤون بهم.

ولذلك ﴿قَالَ﴾ له ﴿ابْنَ أُمَّ﴾.

أي خرجنا أنت وأنا من بطن امرأة واحدة، ورضعنا من حليب امـرأة واحـدة، وترعرعنـا في بيت واحد. وهذا تذكير له بأنهما عاشا طفولتهما وترعرعا في بيـت واحـد، وأنهمـا كمثـل شخص واحد.

فقد جاء الكلام دقيقاً يمتص غضب ﴿مُوسَى﴾، حتـى أنـه لم يقـل: ﴿ابْنَ﴾ أمّـي، بـل ﴿قَالَ﴾ عبارة أكثر قرباً: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ، أي أنت وأنا من ﴿أُمّ﴾ واحدة.

ثم أنهى كلامـه المهدئ مـن روع﴿مُوسَى﴾: ﴿وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾وهـذه تبرئة له من أفعالهم، ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾طه٩٠.

فهو لم يؤمن بما قاموا به، بل أدانهم، ولم يعنهم في صـناعة هـذا التمثـال، لكنـه لم يكـن قادراً على منعهم بـالقوة. فـاكتفى بموقفـه وإدانتـه لهـم، لأن هـذا أقصـى مـا كـان يمكـن أن يفعله.

﴿١٥١﴾
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

وَجَدَت كلمات هارون صداها في نفس موسى، وامتصَّت غَضَبه، فـ ﴿قَالَ﴾ وقـد عـاد إليـه الهدوء: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما بَدَر مني تجاه أخي، ثم أشرك أخاه أيضاً في الدعاء، وهذه إشـارة بـأن كـل شـيء بينهمـا عـاد إلى مـا كـان عليـه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾.

لأن المغفرة هي أساس إدخال الإنسان في رحمـة الله، فـلا أحـد قـط لا يحتـاج إلى مغفـرة الله، ولا أحد قط يمكن له أن يستغني عن مغفرة الله، وهذا الموقف مـن شـأنه أن يصـدّ أي شماتـة يمكن لها أن تصدر من ﴿الأَعْدَاء﴾، كما أن إشـراكه لـه بالـدعاء فيـه تبرئـة لـه مـن ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ عندما قال لـه: ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

واختتِمَت الآيـة بقولـه: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. كـل رحمـة هـي مشـتقّة مـن رحمتـك، ورحمتك هي الأصل، وهي فوق كل رحمة، وكل مَـن يـرحَم، إنمـا يـرحم بمقتضـى رحمتـك

له. وهنا يتبيَّن لك أن كل خـــــلاف يمكن له أن يُحلّ مِن خـــــلال الحوار الصـــــادق والجـــاد،

والاستماع الصادق والجاد بين المتحاورين. فقد أصغى موسى جيداً لأخيه، كما أن أخاه استوعب مدى مسؤوليته في هذه المهمّة.

﴿١٥٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

عبادة غير الله هي عملية افترائية، والافتراء أن تعتقد بشيء لا أصل له، وتدّعي بأنه الأصل، وبذات الوقت لا تعتقد بالأصل الذي ينتسب هذا اللا أصل إليه.

﴿إِنَّ﴾هذه الفئة من قوم موسى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ ألّهوا ﴿الْعِجْلَ﴾ بأن صنعوا له تمثالاً وعبدوه، ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ سيصيبهم ﴿غَضَبٌ﴾ عقاب ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. سيجعلهم أذلاّء على ما اقترفوا من افتراء، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، بما افتروا.

﴿١٥٣﴾

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

الندم على ارتكاب ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ والتوبة إلى الله، أساس المغفرة، فارتكاب ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ قد وقع، لكن الآن وبعد وقوعها، هل أنت مصرّ عليها، وتتبعها بسيّئات أخرى، وتستكبر عن التوبة، وتتخذ أشكالاً ورموزاً فتعبدها وتقدّسها وفقما تمليه عليك أهواؤك. وتعتقد بأن الحياة فوضى عارمة المتمكّن فيها يعتدي على المُتمكَّن منه، أم أنك بعد وقوعها، قد ندمت، وتبت إلى الله، وسألته المغفرة، ولزمت حدودك دون أن يردعك أحد، ولكن خوفاً من الله.

وهي من الآيات التي يمكن لك أن تجتزئها من سياقها، فتكون عامة وشاملة ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ في كل زمان ومكان. وفي الحديث: "التوبة تجبّ عمّا قبلها"، وكذلك " التائب عن الذنب كمن لا ذنب له".

﴿وَ﴾ أي شخص من ﴿الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ﴾سواء قوم موسى الذين قصَدَتهم الآية ضمن السياق، أو ﴿الَّذِينَ﴾ سيرتكبون ﴿السَّيِّئَاتِ﴾في أي زمان ومكان، ومهما كانت هذه ﴿السَّيِّئَاتِ﴾. وبعد ارتكابها أقلعوا عن تلك ﴿السَّيِّئَاتِ﴾، ﴿تَابُواْ﴾ إلى الله ﴿وَآمَنُواْ﴾ أي حتى لو كانت تلك ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ شركاً بالله. ﴿وَ﴾ لكنهم الآن ﴿آمَنُواْ﴾ بالتوحيد .

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾، ﴿مِن بَعْدِ﴾التوبة والإيمان ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر الذنوب مهما تعاظمَت، ﴿رَّحِيمٌ﴾ ، بالتائبين المؤمنين.

﴿١٥٤﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

عبارة ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾تعلّمك بأن صوت ﴿الْغَضَبُ﴾ يمكن أن يرتفع في الإنسان، ويمكن أن يخفت، ويمكن أن يسكت. وسكوت ﴿الْغَضَبُ﴾ في الإنسان هو أقصى درجات الاسترخاء والسكينة والصفاء، فالغضب مهما قلّبته، فلا ينجم عنه سوى الدمار.

ولذلك أرتكَ آيات السورة مع الأنبياء الستة الذين أدخلَتك إلى أجوائهم، كم أن الله سبحانه وتعالى يمهل ويمهل حتى لايحل غضبه على الإنسان، حتى أن الإنسان يعجب أحياناً لهذا الإمهال المتعدّد في أشكاله، والطويل في أوقاته، لأن غضب الله إن وقع على قوم، فإنه يهلك كل شيء.

وقد جاء هذا القص المستفيض، موعظة للإنسان حتى يتجنب غضب الله، سواء أكان فرداً أو عائلة، جماعة أو قوم. وحتى بالنسبة للغضب بين الناس، فلا ينجم عنه سوى الدمار، فعندما تغضب شخصاً، يُتوقّع أن يبدر منه أي ردّ فعل كي يؤذيك، وهو في ذروة غضبه.

وأيضاً عندما تغضب، قد يودي ذلك إلى ارتفاع نسبة في معدّل ما في دمك، ويتحوّل إلى داء. فالأولوية القصوى هي لعدم غضب الله من خلال الاستكبار، والمعاصي، والفسوق، والجور، وعدم الطاعة. وأن تغتنم فُرص الإمهال، وهي كثيرة، وتكون شديد الحرص على عدم إغضاب الله عز وجل، وتسأله التوبة والمغفرة حتى لو تكرّرت الذنوب، أو تعاظمَت، فلا تقنط من رحمة الله، وكما في الحديث: "اتبع السيّئة، الحسنة تمحها".

أن تستبدل ذلك بالحسنات. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ التي كان قد وضعها جانباً فور دخوله ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ يهتدي بها الضالون عن سبيل الله ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ينتفع بها مَن ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يتواضعون ويؤمنون.

﴿١٥٥﴾

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

عندذاك انتقى ﴿مُوسَى﴾ من بين ﴿قَوْمَهُ﴾ الذين لم يعبدوا العجل ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ كي يذهبوا معاً إلى الميقات الذي جعله الله لهم. وعندما بدأ ﴿مُوسَى﴾يناجي ربه ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ من الرهبة. عندما رأى ﴿مُوسَى﴾ ذلك ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾. لك المقدرة على إهلاكنا جميعاً في أي وقت ﴿لَوْ شِئْتَ﴾. نسألك ربنا ألاّ تهلكنا ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء﴾، ونسألك أن تهدينا وتجتبنا الضلال. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ تتولّى أمرنا بما ﴿تَشَاء﴾، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. يكمن الخير في مغفرتك لنا.

﴿١٥٦﴾

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

اجعلنا في وضع حسن في دنيانا، وفي وضع حسن في آخرتنا، ﴿إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ﴾ اهتدينا بهدايتك لنا، وجئناك بهداك إليك.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من الذين يستحقون العذاب، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، لا شيء قط لاتسعه ﴿رَحْمَتِي﴾ . هكذا بشكل مطلق ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، مهما تعاظَمَت واتسَعَت الذنوب بإنسان، فإنه يجد في رحمة الله سِعة للمغفرة، إذا ندم وتاب وأصلح.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ الرحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ستكون ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التي أمر بها الله، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾. يزدهر إيمانهم بصالحات الأعمال.

﴿١٥٧﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

الآن، فاصلة في سياق الآيات للتنبيه بأن كل هذا القص الذي مضى، هو موعظة لكل حاضر فيما بعد، فتنتبه إلى ما أنت فيه في واقعك وأنت تتلقّى القص القرآني.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾، اليهود والنصارى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم، ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾. فيؤمنون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء استكمالاً لما جاء ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعزّز فيهم كل ما هو معروف ويأمرهم باتباعه ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يمنعهم من كل ما هو منكر، ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ﴾ اتباعه. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ يبيح لهم ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ التي حظّروها وحرّموها على أنفسهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي أحلّوها لأنفسهم، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ . يزيح عنهم القيود التي قيّدوا أنفسهم بها، ويجعل لهم الحياة أكثر سِعة.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ﴾ خاتم أنبياء ورسل الله ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ آزروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أعانوه على النصر ﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ﴾ جعلوا من هذا ﴿النُّورَ﴾ يبدّد الظلمات التي كانوا فيها، فباتوا يرون

الحقائق كما هـي ﴿أُولَـئِكَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ في كل ذلك: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، في الدنيا، وفي الآخرة.

﴿١٥٨﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

لقد أرسلناك يا محمد إلى جميع ﴿النَّاسُ﴾، فبرسالتك تختتم رسالاتي، وبك يختتم رسلي، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾. ما أحمله إليكم لايخالف ما جاء به قبلي من الرسل والأنبياء، لأن الذي أرسلني وأرسلهم هو إله واحد ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ﴾. ولا أحد يقدر على ذلك غيره ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ﴾ الذي أرسل لكم الرسل والأنبياء، ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾. كونوا كما يكون عليه نبيكم عليه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ اعملوا بما يدعوكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. تنتقلون من الضلال إلى الهداية.

﴿١٥٩﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

فالعلاقة بين المسلمين وبين اليهود، تبقى علاقة قائمة، فيلتقي الصالحون من المسلمين بالصالحين من اليهود، وكلاهما يدينان الفاسدين، سواء في المسلمين، أو في اليهود. فثمة أناس من اليهود يقولون ويؤمنون ﴿بِالْحَقِّ﴾ ، ويدعون إليه ويكونون عادلين في أحكامهم ومواقفهم. فهؤلاء لايجوز مقاطعتهم، وتكون العلاقات معهم طبيعية ما داموا ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ . وفق شهادة الله سبحانه وتعالى بحقّهم، وهي أعلا الشهادات التي يجدر للمسلم أن يؤمن بها ويعمل بها.

﴿١٦٠﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

معجزة أخرى من معجزات ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، عندما أمره الله عز وجل، ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ ، عندئذ ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ من ﴿الْحَجَرَ﴾ اليابس الصلب: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ ينبع منها الماء كي يشرب منه الناس. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، حميناهم من أشعة الشمس، وجعلنا ﴿الْغَمَامَ﴾ ظلاً لهم من حرقة الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، حتى يأكلوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا﴾ رزقناهم به، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بعصيانهم ﴿وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ . بما اقترفوا من جحود فضل الله عليهم.

﴿١٦١﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

جعلهم الله تعالى يسكنوا قرية آمنة ويأكلوا من خيراتها بما شاؤوا من ألوان الرزق الوفير، ودعاهم أن يقولوا الحق، وأن يدخلوا ﴿الْبَابَ سُجَّداً﴾، يسجدوا لله، فيغفر لهم ذنوبهم، وكذلك سيزيد الذين يحسنون.

﴿١٦٢﴾

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾

لكنهم زوّروا الكلام، فلم يقولوا ﴿حِطَّةٌ﴾، عندذاك عاقبهم الله بأن أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ عقاباً لهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿١٦٣﴾

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

واسأل اليهود يا محمّد عمّا جرى في ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾. قريبة من ﴿الْبَحْرِ﴾، وتشرف على شاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾، يعتدون على حدود الله يوم﴿السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾. تظهر الأسماك على سطح الماء، ﴿شُرَّعاً﴾ حيث يوم ﴿السَّبْتِ﴾ تشرع الأسماك في ظهورها إليهم، فقد أبلاهم الله تعالى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿١٦٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

رغم ذلك فكان البعض يقدّم إليهم الموعظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ويتراجعون عمّا كانوا فيه من المعاصي.

عن ابن عباس: (﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾، هي قرية على شاطئ البحر بين مكة والمدينة، يقال لها: (أيلة)، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر. فإذا مضى يوم السبت، لم يقدروا عليها.

فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ! فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم.

فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النهاة: تعلّموا أنّ هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ ، وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير).

﴿١٦٥﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

فإن الله تعالى قد أنجى الصالحين ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾. أما الظالمين فقد أصابهم الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. ينكرون الحق، ويتبعون الباطل.

﴿١٦٦﴾

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

عندما استكبروا ﴿عَن﴾ أمر الله، ولبثوا على ما هم عليه من عصيان، مسخهم الله إلى ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

﴿١٦٧﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

إن الله تعالى يبعث على العصاة من اليهود ﴿مَن﴾ يذيقهم شديد ﴿الْعَذَابِ﴾ ما داموا يلبثون في المعاصي، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، لا تعلم متى يقع عقابه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهنا دعوة لهذه الفئة الضالة من اليهود أن تتعظ من العقاب الذي يسوقه الله تعالى إليها، وتتوب مثل بقية اليهود المؤمنين الصالحين. فعقاب الله للفئة الضالة، هو من أجل الموعظة والتوبة والخروج من الضلال إلى الهدى، ولذلك جاء ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوفاً على ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾. فإذن العقاب هو ليس للعقاب، بل للمراجعة ليكونوا مثل ﴿قَوْمِ مُوسَى﴾ الذين ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿١٦٨﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

الواو هنا عطفت مضمون الآية إلى سابقتها، فإن النعيم كذلك ابتلاء، كما أن الشدّة ابتلاء، والحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. فبات الكلام يشمل اليهود، وسائر الأمم، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً﴾. جعلنا الناس على تقاسيم أمم، من هذه الأمم ﴿الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ الصلاح. ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ ، امتحناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ الخيرات ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يتعظون و ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحق.

﴿١٦٩﴾

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

تكون مغفرة الله للإنسان بموجب أعماله، وليس بموجب أقواله، فالذي يعمل صالحاً، يكون قد اهتدى. وبذلك فإن الأجيال الجديدة عليها أن تتعظ مما وقعت فيه الأجيال السابقة التي ضلّت السبيل، فأصابها ما أصابها من الله، وكذلك مما سلكته الأجيال السابقة التي اهتدت إلى سواء السبيل، فأثابها الله وأنجاها، وكانت في عناية الله. وعلى الإنسان أن يتعظ ويقدم على العمل الصالح.

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

عندما يأتي أناس، يقرؤون أحكام الله، ويتبيَّن لهم الحلال من الحرام، ورغم ذلك، يأتون الحرام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾. وعليكَ أن تميِّز هنا بين المُذنب الذي يتوب، ويسأل الله المغفرة، والمُذنب الذي يصرّ على الذنب ويستمرّ فيه قائلاً بأن الله لن يعاقبه، وأنه سيغفر له.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾. فإن الله تعالى لا يدعو إلى الاستمرار في الذنوب على أمل المغفرة، بل يدعو إلى الإقلاع عن الذنوب والتوبة إلى الله على أمل المقفرة. ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾، أي تجاهلوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذي﴿فِيهِ﴾.

وهذا لا يعني بأن الذنوب لا تتكرّر بالنسبة للمؤمن، بل يمكن لها أن تتكرّر لكنه يتوب، ويسأل الله المغفرة من خلال التوبة، وليس من خلال الاستمرار في الذنوب.

﴿١٧٠﴾

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾

﴿وَالَّذِينَ﴾ أمّا الذين لا يتجاهلون ﴿الْحَقَّ﴾ الذي علموه من كتاب الله تعالى و﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يعملون به ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾. إن الله تعالى يحفظ للعاملين الصالحين الذين يحكمون بشرع الله، ويقيمون ﴿الصَّلَاةَ﴾، وأن ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾في الأرض، لاتضيع عند الله.

﴿١٧١﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

النتق هو الرفع، أي اقتلع الله سبحانه وتعالى بقدرته على كل شيء، ﴿الْجَبَلَ﴾ ورفعه ليصبح ﴿فَوْقَهُمْ﴾، ﴿وَ﴾ عندئذ ﴿ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

الباب الثاني والثلاثون

شهادة الربوبية

﴿١٧٢﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

فهذه المعاهدة التي عاهد بها الإنسان ربه بالإيمان، فقد ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أتشهدون بأني ربكم.

﴿قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ فأقرّوا بربوبيه الله لهم. وهذا تذكير للإنسان حتى لا يدّعي ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أنه كان غافلاً عن ذلك.

فالذي يستكبر، يكون قد أخلّ بهذه المعاهدة التي هي معاهدة الإنسان بشكل عام لله سبحانه وتعالى. فقد ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾يا محمّد ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾.

الشهادة هنا هي الإقرار بربوبية الله من خلال قولهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾. تبيِّن لك الآية الكريمة بأن كل إنسان لديه معاهدة بينه وبين الله بالإيمان بوحدانيته، وهذا أمر بالغ الأهمّية، وتكمن أهميته أن الإنسان الذي يكفر، لا يبلغ يقيناً كاملاً بالكفر، بل يقدم على ذلك استكباراً، فهو مهما تذرّع بالحجج، فإنه يعلم في حقيقة نفسه بأنه ليس على صواب، وأن الصواب هو الإيمان، ولذلك يكون متذبذباً، ولا يكون مستقراً في كفره. في حين أن الإنسان المؤمن، يبلغ يقيناً بصواب إيمانه، ذلك أنه يكون موفياً بمعاهدته مع الله، ويستمدّ من هذا اليقين السَكينة النفسية، فينعم بنسائم الاستقرار والهدوء.

﴿١٧٣﴾

﴿أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

﴿أَوْ﴾ تتذرّعوا بإنساب الشرك إلى آبائكم، وقد اتبعتم ما كانوا عليه، وتبرؤون أنفسكم قائلين: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

فهذا بيان من الله عز وجل يتبيَّن فيه الرشد من الغي حتى يتبع الإنسان الحق، ويتجنب الباطل وفق معاهدة الحق التي عاهدها الإنسان مع الله، وليس وفق الباطل الذي اتخذه البعض، وفسق به عن الحق.

فالإنسان ينفطر على الحق، وليس على الشر، وعلى توحيد الله، وليس على الشرك به.

الباب الثالث والثلاثون

الرجوع إلى الحق

الباب الثالث والثلاثون

الرجوع إلى الحق

﴿١٧٤﴾

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾، بهذا البيان يفصّل الله براهينه للناس حتى يتراجعوا عن الباطل، ويتبعوا الحق الذي عاهد به الإنسان ربه، وبموجبها تمضي مسيرة الحياة.

أما الذي يفسق، فلا يتذرّعن بأنه كان غافلاً. ولذلك جاء قوله عز وجل بالتفصيل، أي البيان الجلي الذي لالبس فيه، ولا غموض.

﴿١٧٥﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

أخبر الناس يا محمّد عن ﴿الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، رجل آتاه الله تعالى علماً، فلم يعمل بذاك العلم، ولم ينتفع به، فأغواه ﴿الشَّيْطَانُ﴾ وجعله ﴿مِنَ﴾ الضالّين.

تبيّن الآية بأن على الإنسان أن يشكر الله على نعمة العلم، وينتفع به، وينفع به غيره، لأن ﴿الشَّيْطَانُ﴾ يريد أن يضل الإنسان عن سواء السبيل.

﴿١٧٦﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

فالذي يتبع الأهواء، يبقى مضطرباً يبدو عليه الإنهاك، وقد شبهه الله تعالى بـ ﴿الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تضع عليه حملاً وتمضي به ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ في موضعه، كذلك ﴿يَلْهَث﴾.

وهنا بيان دقيق عن تفاصيل الحياة التي يعيشها الإنسان الذي يتبع الأهواء، فحتى لو رأيته مستكيناً هادئاً،

فاعلم بأنه ﴿يَلْهَث﴾ في داخله من تعب اتباع الأهواء. بل لا يتركه اللهاث حتى وهو مستغرق في النوم، فيخترق أحلامه، ويعكّر عليه نومه. ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾.

قد لا يعلم المؤمن هذه المعاناة المتفاقمة، أو قد تحدث له أحياناً بشكل عارض نتيجة حدث طارئ ما، فهنا تنبيه وبيان بأن حياة المكذّب بآيات الله تمضي على هذا النحو المفصّل مهما تمظهر بغير ذلك. ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فتكون هذه ﴿الْقَصَصَ﴾ موعظة لهم وتحرّك عقولهم، فـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾. ويخرجون من ظلمات الباطل إلى نور الحق، من اضطرابات انتهاك حدود الله، إلى سكينة الالتزام بهذه الحدود.

﴿١٧٧﴾

﴿سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾

فأولئك ﴿الَّذِينَ﴾ اتبعوا الضلال، لا يجوز الاقتداء بما كانوا عليه من ضلال، وهي أمثلة سَيِّئة لايقتدي بها سوى الضال، ولايجني منها غير السوء، ﴿وَ﴾ - كما أن أولئك - ﴿أَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، فإن متبعيهم ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ سوف ﴿يَظْلِمُونَ﴾.

﴿١٧٨﴾

﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

فالهداية هي هداية الله التي على الإنسان أن يكون دائم التضرّع إلى الله سبحانه وتعالى حتى يهديه، وحتى يديم عليه نعمة الهداية. أما الذي يستكبر و﴿يُضلِلِ﴾ سبيل الحق، ﴿فأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. الذين لا يصيبون ربحاً سواء في الدنيا، أو في الآخرة.

﴿١٧٩﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

فلا تكمن العبرة في المظاهر، وأن فلاناً من الناس يتمَتّع بلياقة وصحة، أو جاه أو مال أو نفوذ، ولكن كل ذلك غير مفعّل، وهو فارغ المعاني الحقيقية لآلاء الله في الإنسان، مثل العملة المزوّرة، فهي تبدو في مظهر حسن، ولكن أمام الحقيقة فلا قيمة مادية لها، مهما كانت فئتها، وأنها تودي بصاحبها إلى التهلكة. فأمام الحقيقة، تظهر المعادن الحقيقية.

يقول الله سبحانه وتعالى في مستهل هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، جعلنا وأصبح الجعل في حكم الواقع ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾، يدخلونها بأعمالهم.

انتهت هذه الجملة التي يبيّن الله تعالى فيها حكمه، وانتبه هنا إلى الصيغة المستقبلية للجمَل التالية من الآية التي تبيّن كيف أن الإنسان يمكن له أن يتفادى ذلك. فالآية تخاطب قارئها الحالي الراهن، لأن مامضى، قد مضى، والقارئ الراهن هو في حكم الحاضر الذي يمكن له أن يعتبر، أو يلبث على ما هو عليه. إذن فهؤلاء الذين يلحقون ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾، تتحقق فيهم هذه الصفات: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. لاتخشع، ولا تلين للحق، وتلبث قاسية على التمسّك بالباطل.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾. العين هي التي يبصر بها الإنسان الحقيقة، وعين لاتبصر الحقيقة، فهي عين عمياء، كالورقة النقدية المزوّرة، مظهرها قيمة، وجوهرها فارغ.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾. فليس المهم أن الأذن تسمع، لكن الذي يفعله هذا المسموع بها. فهؤلاء ﴿يَسْمَعُونَ﴾ الأصوات بآذانهم، ولكنهم يستجيبون ﴿بِهَا﴾لصوت الباطل، ولايستجيبون ﴿بِهَا﴾ لصوت الحق، ثم لايتفاعلون بها مع الحق الذي يسمعونه.

وقد ذكر الله لك ثلاثة أعضاء هامـة في البـدن، كـي تنتبـه إلى دقّة تكامليّة العلاقـة بـين هذه الأعضاء. فالقلب الذي يخشع، يجعل العين التي ترى، تبصر. والعين الـتي تبصـر، تجعـل السمع الذي يَسمَع، يتفاعـل مـع مـا يسمع في علاقـة تكامليـة بينهـا، وبـذلك يكـون العكـس بالعكس. ولم يذكر الله العقل، لأنه بشـــــــكل

تلقائي يمكن استنتاج أن ذلك يكون تحت أمـرة العقـل، فالطفـل لايسـتوعب هـذه الأشـياء، وكذلك المعتوه، أو الذي يُصاب بعَطَبٍ في عقله لسبب ما. فذلك يكون خارج الحكم، براءة لـه من الله.

﴿أولَـئِكَ﴾ الذين تم ذكرهم ﴿كَالأَنْعَامِ﴾، كالماشية في الأكل والشرب واللامبالاة، ﴿بَلْ هُـمْ أَضَلُّ﴾، لماذا؟ لأن الأنعام التي هي الإبل والبقر والضأن والماعز، لم يمتعها الله بالمدركات الـتي متع بها الإنسان، فهي غير مطلوب منها التكاليف.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، من هذه الأنعام الغير مكلّفة، ﴿أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

كونهم يستطيعون الاستجابة، لكنهم يتكبرون.

الباب الرابع والثلاثون

التحسّن بأسماء الله الحسنى

دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الناس أن يسألوه حاجاتهم بأسمائه ﴿الحُسنى﴾، وهي أسماء ينتفع الناس بمعانيها، ويرون كل طلباتهم فيها.

﴿١٨٠﴾

﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الناس أن يسألوه حاجاتهم بأسمائه ﴿الحُسنى﴾، وهي أسماء ينتفع الناس بمعانيها، ويرون كل طلباتهم فيها.

كذلك فهذه الأسماء ﴿الحُسْنى﴾ تبيّن صفاته عزو جل، من خلال التعرّف على هذه الأسماء. ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾. فالإنسان الذي يُحسن الله إليه ويستجيب لدعائه، عليه أن يأخذ ما يمكن له أن يأخذ، من مضامين أسماء الله ﴿الحُسْنى﴾ ويُحسن بها إلى غيره وفق المقياس البشري الذي حدّده الله تعالى للإنسان. فإن أكرمك الله، عليك أن تكون كريماً، وإن سترك الله، عليك أن تكون ستيراً، وإن عفا عنك الله، عليك أن تكون عفواً.

وعلى هذا النحو تنظر إلى كل نعمة أنعم بها الله تعالى عليك، فتشكره بأن تحسن علاقتك بالناس.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾الإسراء ١١٠

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾طه٨

{ هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾الحشر٢٤.

فأسماء الله ﴿الحُسْنى﴾، تحسّن للإنسان حياته وتجعله يتحسَّن بها. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[58]. وهذا لا يعني أنه ليس لله سبحانه وتعالى غير هذه الأسماء، عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ

قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ: "بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا"[59].

فالعدد الذي ذكره صلى الله عليه وسلّم هو من ضمن أسماء الله ﴿الحُسْنى﴾ "مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ". والإحصاء، بمعنى الحفظ، وتفعيل هذه الأسماء في حياتك والعمل بها، فتكون متفاعلاً في حياتك مع أسماء الله﴿الحُسْنى﴾. فلا تكتفي بقراءتها، بل تتفاعل مع معانيها،

---

[58] رواه البخاري البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧)

[59] رواه أحمد (٣٧٠٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩)

وتتعرّف على الله من خلال كل إسم من أسمائه ﴿الحُسنى﴾، فتسأل الله حاجتك من خلال أسمائه﴿الحُسنى﴾، وأنت موقن بأن الله قادر عل الاستجابة:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) البقرة ١٢٧.

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) آل عمران ٨.

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) آل عمران ٣٥.

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) المائدة ١١٤.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الأنبياء ٨٣.

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) الزمر ٤٦.

يقول ابن الوزير: (واعلم أن الحسنى في اللغة هو جمع الأحسن لا جمع الحسن، فإن جمعه حسان وحسنة، فأسماء الله التي لا تحصى كلها حسنى، أي أحسن الأسماء، وهو مثل قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الروم٢٧، أي الكمال الأعظم في ذاته وأسمائه ونعوته، فلذلك وجب أن تكون أسماؤه أحسن الأسماء، لا أن تكون. حسنة وحسانا لا سوى، وكم بين الحسن والأحسن من التفاوت العظيم عقلاً وشرعاً ولغةً وعرفاً).[٦٠]

يقول ابن القيم: (أسماؤه سبحانه وتعالى كلُها أسماء مدح وثناء،وتمجيد، ولذلك كانت حسنى).[٦١] وكذلك يقول: (وهناك صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغِنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من

[٦٠] العواصم من القواصم ٧/ ٢٢٨

[٦١] مدارج السالكين ١/ ١٢٥

اجتماعهما، وكذلك العفوُّ القدير، الحميد المجيد، العزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف"[٦٢]

في الشطر الآخر من الآية الكريمة يقول الله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾. ذلك أن البعض يستهزئ بالذي يدعو الله بأسمائه﴿الْحُسْنَى﴾، فيبيِّن الله جل شأنه: اتركوا ﴿الَّذِينَ﴾ ترونهم يكفرون ﴿فِي﴾ أسماء الله﴿الْحُسْنَى﴾، ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فإن الله هو الذي يجازيهم، كما أنه هو الذي يستجيب لكم.

﴿١٨١﴾

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

لم يدع الله الحياة للضالين، بل خلق أناساً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، وقد مضى في الآية ١٥٩ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، وهنا المعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمِمَّنْ﴾ أي كذلك بعد ﴿قَوْمِ مُوسَى﴾ خلق الله ﴿أُمَّةٌ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. يدعون إلى الحق، ﴿وَبِهِ﴾ يكونون عادلين.

---

[٦٢] بدائع الفوائد ١/ ١٦١

الباب الخامس والثلاثون

استدراج المكذّبين

﴿١٨٢﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

إن الله تعالى يستدرج ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بآياته واستكبروا على الإيمان بها ﴿مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾لم يحسبوا لذلك أي حساب، ولذلك لم يحتاطوا، فيجعل الله تعالى أسباباً يستدرجهم من خلالها ليقعوا في شر أعمالهم، ويلقوا عقاب ما ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله.

﴿١٨٣﴾

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

آية قصيرة، لكن كلماتها مكتنزة المعاني، وكل معنى في الكلمة يتكامل مع المعاني الأخرى لذات الكلمة، ثم تتكامل معاني كلمات الآية مع بعضها البعض.

فهي جملة متناسقة ومتناغمة، وفيها عِظة عظيمة، كما أنها تعرّف الإنسان على الله أكثر، وقد جاءت الكلمة الأولى منها بضمير المفرد، فإن الله جل شأنه يقول: ﴿وَأُمْلِي﴾. والكلمة من الإملاء، فشخص يملي على مجموعة أشخاص شيئاً، حتى يحفظوه ويعملوا به. والذي يتلقّى الإملاء، عليه أن يلتزم بما أملي عليه، وإلاّ سيتحمّل مسؤولية اللاعمل بالإملاء الذي تلقّاه.

كذلك فإنك تقول لشخص: انتظرتك مليّاً. ومعنى ذلك أنك أمهلته ومنحته وقتاً تلو الوقت حتى يأتي، والمَلَوان، الليل والنهار. ويجوز اشتقاق الكلمة من مَلَأ. وهذه إشارة بأن الظالم عندما يقع عليه عقاب الله، يكون قد امتلأ إمهالاً، لكنه نظير ذلك، امتلأ طغياناً، فيكون المُنتظر قد بلغ مرحلة الملء، وحصل مليّاً على على مراحل الانتظار والإمهال حتى يؤوب إلى الحق، لكنه يكون قد رَسَخ في عِناده، دون أن يؤوب، فلم يعد الإمهال مجدياً معه،

لأنه بدل أن يتوب إلى الله ويصلح ويحسن، فإنه يزداد تمادياً وبطشاً، فيأتي وعيد الله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

عندها يوقفه الله عند حدّه، وهو قادر أن يرفع الظلم عن عباده، ويعاقب الظالم بشدة، وهذا بمثابة الحَذَر الشديد حتى لايجعل الإنسان من نفسه عرضة ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾. أي ﴿إِنَّ﴾أخذي للظالمين شديد، لأن الله سبحانه وتعالى يمهل الظالم، لعلّه ينيب، وكذلك يقلّب عليه الأحوال. فإن كان بعافية، يجعله عليلاً، وإن كان عليلاً، يشفيه، وإن كان فقيراً، يجعله غنياً، وإن كان غنياً، يجعله فقيراً، ويجعل عليه المِحَن والتقلّبات حتى يرتدع عن ظلمه، ويتوب إلى الله، ويصلح من شأن نفسه، وعندها فإن الله غفور رحيم، وفي الحديث القدسي:" وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفروني". والكلام مفتوح يشمل أي ذنب يمكن للإنسان أن يرتكبه مهما كان كبيراً، أوصغيراً. لأن: " التوبة تجبّ عمّا قبلها". كما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمّا إذا ازداد الظالم تمادياً وعِناداً، وحَسِبَ أن الله تعالى يوافقه على ظلمه، حيث يغدق عليه الصحة، والنفوذ، ورَغَد العيش، رغم بطشه وطغيانه. فاعلم بأن الله جل شأنه يقلّب له ذلك إمهالاً كي يتوب، وليس كي يستمر في الطغيان: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾غافر٢١. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾يونس٤٤. فالعِقاب يكون شديداً على الظالم العَنيد موازاة بشدّة عِناده، بعد أن يكون قد تلقّى الإمهال تلو الإمهال من رب العالمين. عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " الظُلمُ ظُلماتٌ يوم القيام"[٦٣] فالكلمة الأولى من هذه الآية الكريمة هي بمثابة تحذير للظالم، وبذات الوقت، طمأنينة للمظلوم، فإن الله لايقبل التمادي في الظلم، فإن أمهَل، فإن ذلك يكون رحمة منه للتوبة والإصلاح، فلعلّ الإنسان يكون منفعلاً في أمرٍ ما، فيبدر منه أذى، لكنه بعد ذلك ينتبه، ويعود إلى رشده، ويصلح.

[٦٣] أخرجه البخاري (٢٣١٥) ومسلم (٢٥٧٩)

والأمرُ عامٌ، يشمل الناس جميعاً في مختلف شؤونهم: الزوج مع زوجته، الأب مع أبنائه، الجار مع جواره، مدير العمل مع عمّاله، الحاكم مع شعبه، بل حتى المرء مع نفسه، وما إلى ذلك.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته". فالعقاب لا يقع إلاّ بعد الإمهال، لكنه إن وقع، لن يفلت الظالم منه مهما كان متمكّناً في الأرض.

فالإملاء يكون ﴿لَهُمْ﴾، بلام التبيين، فليحذر الظالمون، وليطمئن المظلومون: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

﴿١٨٤﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾، وهو لا يأتي بالآيات من عنده، بل أن الله قد أرسله. ﴿إِنْ هُوَ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ينذركم من مغبّة ما أنتم به من ضلال ، ويبيّن لكم الحق.

﴿١٨٥﴾

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

إن النظر ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يجعل الناظر يسبّح الله، ويؤمن به، ويصلح العمل، لأن لاأحد يعلم متى يكون أجله، وعندها سيواجه الحقيقية التي كان يستكبر على الإيمان بها.

﴿١٨٦﴾

﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي عنده الهداية، فعلى الإنسان أن يسأل الهداية من الله، لكنه دون ذلك يلبث ضالاً.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. فيدع الله أهل الضلال يستمرّون ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، ما داموا قد أصرّوا على الضلال، فالله قادر أن يهديهم، لكنه لايفعل ذلك عقاباً لهم، ولذلك ﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾.

الباب السادس والثلاثون

علم الله بالغيب

﴿١٨٧﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

لم يخبر الله تعالى أحداً من مخلوقاته كافة عن ميعاد ﴿السَّاعَةِ﴾ ، ولا أحد قط يعلم بهذا الميعاد غير الله. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ يسأل أهل مكة محمداً صلى الله عليه وسلم متى ميعاد ﴿السَّاعَةِ﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ . وحده الله يعلم بذلك.

﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ ، ﴿لاَ﴾ أحد غير الله يعلم وقتها ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ فجأة ، ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ﴾ فذلك شأن الله وأنت لست معنياً بذلك ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله وحده يعلم، ولم يخبر بها أحداً من قبل.

﴿١٨٨﴾

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

فهنا على الإنسان أن يسأل الله تعالى النفع في الدنيا والآخرة، لأن أي نفع لايصيب الإنسان إلاّ بمشيئة الله، وكما أن عليه يستعين بالصبر، لأن عدم مشيئة الله تحول دون أي ضر يمكن له أن يصيب الإنسان، فلا أحد يملك لنفسه ﴿نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾ وذلك أيضاً بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ . ولذلك فإن الإنسان يخفى عنه ﴿الْغَيْبَ﴾الذي لايعلم متى يقع.

الباب السابع والثلاثون

ولاية الصالحين

﴿١٨٩﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

إن الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي﴾ خلق الإنسان الأول الذي تنتمون إليه، وتسلسلتم من صلبه، وهو الذي فضّل عليكم بأن جعل منكم أزواجاً يسكن بعضكم إلى بعض، ومن خلال ذلك يستمر تسلسلكم. وهذا يستوجب عليكم أن تكونوا ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. لامن الجاحدين فضل الله عليكم. ففي البدء ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾ جعلكم تتكاثرون ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾آدم عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ، حواء عليها السلام ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. ليشعر بالسكينة والأنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ عاشرها ﴿حَمَلَتْ﴾ نتيجة تلك العشرة ﴿حَمْلاً خَفِيفاً﴾. تم التلاقح كبداية أولى لجنين، وبدأت حواء تتحرّك بخفّة كون الحمل مازال ﴿خَفِيفاً﴾. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، أمضت الشهور وهي تحمله في بطنها ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾، عندما أثقل بها الحمل، ولم يعد خفيفاً، ولم تعد قادرة بالخفّة التي كانت عليها. ﴿دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾. عندما أدركا أن الولادة باتت قريبة، سألا ﴿رَبَّهُمَا﴾، أن يجعل ذريتهما سليمة وصالحة، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، على فضلك والاستجابة لدعائنا.

﴿١٩٠﴾

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

لعلّ الآية تعني ذرية آدم وحواء من بعدهما، حيث منهم مَن جعل لله ﴿شُرَكَاء﴾. وكان الأجدر بهذه الذرية أن تقتدي بأبويها في شكر الله تعالى دون أن تشرك به. ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ استجاب لهما الله بالبشر السوي، أشرك بالله، ﴿فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. تنزه ﴿اللّهُ﴾ عن كل أشكال الشرك الذي يمكن للإنسان أن يتخذها للعبادة.

﴿١٩١﴾

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

إن شرككم بما هو مخلوق، والمخلوق لا يُعبَد، بل يَعبُد الخالق، فالعبادة لا تكون إلاّ للخالق الذي يكون بيده ملكوت كل شيء.

﴿١٩٢﴾

﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

تعجز هذه المعبودات التي يتخذها المشركون للعبادة، أن تنفع بشيء، وتعجز أن تدفع عن ذاتها الضر.

﴿١٩٣﴾

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ ، إذا دعا المشركون هذه الأصنام أن تهديهم إلى الحق ﴿لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ . فإنها ليست قادرة على ذلك، ﴿سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ . السواء من التسوية، وجملة: ﴿سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ ، إجابة على جملة الابتداء: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ . وقد وردت الهمزة على كلمة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ للتسوية بين جملتي: ﴿سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ . فحديثكم مع هذه الأصنام هو كعدمه، لأنها عاجزة عن الاستجابة، و: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ . فإن ذاك ﴿سَوَاء عَلَيْكُمْ﴾ . فلا استجابة في حالة الدعاء، كما لا استجابة في حالة الصمت.

﴿١٩٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿إِنَّ﴾ هذه المعبودات التي تخذونها للعبادة، إنما هي من خلق ﴿اللهِ﴾ كما أنتم من خلق ﴿اللهِ﴾ . فاسألوها حاجة، ولتستجب ﴿لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في شرككم.

﴿١٩٥﴾

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾

فهي أصنام باهتة لاحراك فيها، وإن كانت قادرة على الضر، فاجمعوها واجعلوها تضر بشيء إن كانت قادرة على ذلك.

﴿١٩٦﴾

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

ولايتي وعبادتي لله ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن، وشرع فيه الشرائع، وبيَّن فيه الهدى من الضلال، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ بعنايته وحفظه.

﴿١٩٧﴾

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

أمّا هذه الأوثان، فإنها تعجز أن تحميكم، وتعجز أن تحمي ذاتها.

﴿١٩٨﴾

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾

لأن المشركين يستكبرون على الإيمان بالحق، فإنهم لا يستجيبون لِما تدعوهم إليه يا محمد من الهدى، ولا تبصر أعينهم الحق.

﴿١٩٩﴾

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

﴿خُذِ﴾ انتهج منهج ﴿الْعَفْوَ﴾ في الناس، اجعل يا محمّد ﴿الْعَفْوَ﴾ منهاجاً في حياتك، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾. ما عرّفك الله به من تشريع في الوحي، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ . بعد أن تبلّغ ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ ما كلّفك الله به، ورأيتهم استكبروا، دعهم في جهلهم، فقد أدّيت ما عليك.

الباب الثامن والثلاثون

حصانة الاستعاذة

﴿٢٠٠﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

النزغ، كالوخز، فيأتيك ﴿الشَّيْطَانِ﴾ على شكل وَخَزات يخزك بها، فإن استجبتَ، نالت تلك الوَخَزات منك بالنسبة لـ ﴿الشَّيْطَانِ﴾، ودفَعتك إلى الأفعال على قاعدة تلك الاستجابة. لأن الوخز يكون للدفع إلى المعصية من خلال الاستجابة لذاك الوخز . وَوَخز ﴿الشَّيْطَانِ﴾ يكون على شكل وسوسة ينغز بها القلب، والكلام هنا موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويبقى مفتوحاً للناس بشكل عام كي ينتفعوا به.

يا محمّد ﴿وَإِمَّا﴾، وهذا بيان بأن النزغ لم يقع لمحمّد صلى الله عليه وسلم، بعد، لكن ﴿الشَّيْطَانِ﴾ يسعى إلى ذلك، ويستغل أي لحظة كي يحقّق هدفه بهذا النزغ، وهو شبيه بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾الزمر٦٥. ولم يشرك النبي صلى الله عليه وسلم،

والله عز وجل ينبّه رسوله، ويحصّنه. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ ، عند ذاك ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ استجر ﴿بِاللَّهِ﴾ والتجئ إليه حتى يدفع عنك النزغ . عن أبي سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبر ثم يقول: "سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، الله أكبر كبيرا، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه"[٦٤] .

فإذن، يمكن لـ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ أن يدنو بوخَزَاته من الإنسان، فيستشعرها في قلبه، عندها تكون الاستعاذة بالله وحدها هي السبيل في صرف ﴿الشَّيْطَانِ﴾ ووخزاته عنك. ﴿إِنَّهُ﴾ الله الذي تستعيذ به ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما تلفظ بلسانك من كلمات الاستعاذة، وكذلك فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يسعى به ﴿الشَّيْطَانِ﴾ نحوك، وبما يكون عليه قلبك. وهذه علاقة تكاملية بين اللسان والقلب. إن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما تلفظ بلسانك، و﴿عَلِيمٌ﴾ بما تشعر به في قلبك.

﴿٢٠١﴾
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

﴿إِنَّ﴾ تقوى الله تجعل الإنسان مبصراً الأشياء على حقائقها، وكلمة ﴿طَائِفٌ﴾ ، هنا جاءت على شكل الالتباس. أي عندما يلتبس شيء على المتقي، فإن تقواه تجعله في بصيرة من أمره. فمدخل الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ . ثم إذا حصل لهم ﴿طَائِفٌ﴾ ، ما يطوف في البال، وهو من الطيف الذي يبثه ﴿الشَّيْطَانِ﴾ ، إلى الإنسان، ونتيجة ذلك تتداعى إليه خواطر شيطانية.

فغير المتقي، ينجرّ خلف تلك الخواطر، ويستطيبها، فيكون ذلك استدراج ﴿الشَّيْطَانِ﴾ له، حتى يفعّل في قلبه هذه الخواطر إلى أعمال، فيمضي وفق المخطط الذي خطّطه له ﴿الشَّيْطَانِ﴾ . وكل ذلك يحدث لغير المتقين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ . لماذا؟ لأنهم لا يـ ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ، وهذا اللا تذكّر يجعلهم في حالة عدم إبصار الحق، فيتبعون الضلال الذي يضلّهم به ﴿الشَّيْطَانِ﴾ . أمّا ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فهؤلاء ﴿إِذَا﴾ ، وجاءت ﴿إِذَا﴾ فجائية،

---

[٦٤] رواه الترمذي وأبو داود والنسائي

ومعنى ذلك أن الخاطرة الشيطانية تأتيك بشكل مفاجئ على شكل ﴿طَائِفٌ﴾ يطوف في بالك. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾.

المَس هنا معنوي وغير مادي، لأن مَس ﴿الشَّيْطَانِ﴾ هنا هو خاطرة تخطر في قلب الإنسان، وعندذاك ﴿إِذَا﴾ وقع هذا المَس المفاجئ للمتقين ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ . جعلهم الذكر في بصيرة فسلموا. ولا يعني ذلك أن المتقي يسلم دوماً من هذا المَس، لأن ﴿الشَّيْطَانِ﴾ يلبث يلاحقه ليحقّق مراده فيه، فيستغل كل وقت وكل وموقف كي يمسّه بـ ﴿طَائِفٌ﴾ منه . وهذا يأتي إلى نقاط ضعف الإنسان، أو إلى مواقف تحصل معه في حياته اليومية، وما إلى ذلك. فقد يحصل أن تحلو له الخاطرة الشيطانية، فيسترسل فيها، لكنه وبشكل مفاجئ أيضاً ينتبه إلى ذلك ويتراجع. فقد يزلّ المتقي أيضاً إلى ذنب، لكنه سرعان ما يتوب ويتراجع، لأن التقوى لاتدعه يستمرّ، فتنقذه وتجعله في بصيرة.

﴿٢٠٢﴾

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾

الأخوّة هنا هي أخوّة شيطانية، كما في قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾الإسراء٢٧. فهؤلاء ومن منطلق رابطة الأخوّة الشيطانية، يمدّون بعضهم البعض بكل ما هو باطل، و﴿لاَ يُقْصِرُونَ﴾ في ذلك تجاه بعضهم البعض. والتقصير هنا بمعنى الملل، أي لايملّون من ذلك بكل أشكال وتفرّعات ﴿الْغَيِّ﴾.

الباب التاسع والثلاثون
الاستماع والانصات
إلى القرآن

﴿٢٠٣﴾

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

عندما يتأخر التنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم، يقول له أهل مكة استهزاءً: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، لقد تأخرت في الآيات، فأنشئ وافتعل آيات أخرى، كما أنشأت وافتعلت من قبل. يوجّه الله رسوله كي يرد عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ . عنعما أتلقى التنزيل، أتلوه عليكم، وعندما لاأتلقاه، أكون في حالة انتظار، لأن لاشيء لدي أقوله من تلقاء نفسي. ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ . الـ ﴿بَصَائِرُ﴾ هي مصدر الإبصار، فالمؤمن يبصر بما يبصّره به القرآن. ودون ذلك لايبصر مهما ادّعى ذلك. فقال ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تميّزون به الحق من الباطل. ﴿وَهُدًى﴾ ، بعد أن تبصروا الحق من خلال نور القرآن، تهتدون ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن ويعملون به.

﴿٢٠٤﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

﴿الْقُرْآنُ﴾ ليس كأي كتاب، وقراءته ليست كأية قراءة، فهو كتاب الله إلى الناس، ولذلك يجب على الإنسان أن يعمل بهذه الخصوصية التي عليها القرآن. والقراءة هنا هي الصوت الذي يقرأ القرآن، فإن كنتَ في مكان و ﴿قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾، فعليك أن تكف عن الحديث، وتولي سمعك إلى آيات الله التي تقرأ، لأن ذلك أفضل من أي كلام آخر يمكن لك أن تقوله أو تسمعه. ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، إلى القرآن من خلال الصوت الذي يحمله إلى أسماعكم. ﴿وَأَنصِتُوا﴾، كونوا في حالة إنصات، أي هيبة الاستماع إلى كلمات الله.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ . لعل رحمة الله تعالى تصيبكم وأنتم تستوعبون آياته، عندما يُقرأ ﴿الْقُرْآنُ﴾، من خلال استماعكم وإنصاتكم. فالإنصات هو الذي يفعّل حالة الاستماع، ويجعل الإنسان في حالة استيعاب لِما يسمع.

الباب الأربعون

حكمة السجود

﴿٢٠٥﴾

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾

الكلمة الأولى من الآية هي الذكر، والكلمة الأخيرة هي الغفلة، فتعلم هنا بأن الذكر هو عملية طرد للغفلة، وبدون ذكر الله عز وجل، يلبث الإنسان في غفلة، حتى يذكر الله، ولاشيء يُخرج الإنسان من الغفلة سوى ذكر الله. والذكر هنا لايقتصر على الكلمات التي يقولها الإنسان، مثل الدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير، وما إلى ذلك، ولكنه أيضاً في الأعمال، فتعمل حسناً في سبيل الله، وتنتهي عن سيء مخافة الله. والتضرّع هو الخضوع، أي تكون خاضعاً لله، ولذلك قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾. خوفاً، وهذا

الخوف الذي أرشد الله تعالى إليه، يجعل الإنسان حذراً، ومتوقعاً أن تقع عليه مصيبة في أي لحظة، فيبقى خائفاً من الله، لأن هذا الخوف يجعله أكثر صلاحاً.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾. في وقتين انتقاليين، ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ ، بدايات طلوع الشمس لبداية نهار جديد، ﴿وَالآصَالِ﴾. بدايات غروب الشمس لبداية ليل جديد. ففي هذين الوقتين، ترى كيف أن الأحوال كلها تتقلّب رأساً على عقب، فقد اختلف الأمر تماماً، من نهار صاخب، إلى ليل ساكن، وهذا مدعاة إلى الخوف من الله، والتضرّع إليه. فجاء قوله ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾. سواء في النهار، أو في الليل.

﴿٢٠٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

يبيّن الله﴿إِنَّ﴾الملائكة﴿الَّذِينَ﴾ هم في الملأ الأعلى ﴿عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، يعبدون الله دون استكبار، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ينزّهونه﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾. تكون عبادتهم خالصة لله وحده.

تنتهي السورة بكلمة السجود، لأن الإنسان إن سجد لله، يكون قد نزع من نفسه الاستكبار، ففي البدء جاء اللااستكبار، واستناداً إلى ذلك يتحقق التسبيح الخالص، ويتحقق السجود الخالص لله.

وهذه دعوة من الله إلى الإنسان حتى يتجنّب الاستكبار، ويصلح العمل، وهي أول سجدة من خمس عشرة سجدة في القرآن الكريم.

عن عمرو بن العاص: (أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان)[٦٥]. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله عند سجدة التلاوة: "اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته تبارك الله أحسن الخالقين"[٦٦]

---

[٦٥] أخرجه أبو داود في كتاب السجود، باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن (١/ ٣٢٤) (١٤٠١) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن (١/ ٣٣٥) (١٠٥٧) والحاكم في المستدرك (١/ ٢٢٣) والدارقطني في كتاب الصلاة باب سجود القرآن (١/ ٤٠٨)

[٦٦] رواه مسلم في (صلاة المسافرين) برقم (١٢٩٠) والترمذي في (الدعوات) برقم (٣٣٤٤)

وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في سجود التلاوة: "اللهم اكتب لي بها عندك أجراً وامح عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام"[٦٧].

عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته)[٦٨]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء"[٦٩].

علاقة متكاملة بين اللااستكبار، والعبادة وعندما يكون الاستكبار، لاتكون العبادة، ولذلك جاء التسبيح، والسجود. فالتسبيح هو يقين بوحدانية الله الذي لا إله إلا هو، والسجود هو انتزاع لكل شكل من أشكال الاستكبار من نفس الإنسان.

فعندما يسجد الإنسان لربه، فإنه يتواضع، ولايتحقق التواضع إلا عند عدم الاستكبار، ومن خلال ذلك يستمد الإنسان تواضعه في سائر علاقاته بالناس. والله أعلم.

تم بفضل الله تعالى في أربيل

يوم الجمعة، السادس عشر من جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ

الثاني من فبراير ٢٠١٨ م

---

٦٧ ر رواه الترمذي في (الجمعة) برقم (٥٢٨)، وابن ماجه في (إقامة الصلاة) برقم (١٠٤٣)

٦٨ صحيح البخاري

٦٩ رواه مسلم

الفهرس

سورة الأنعام	
استهلال	
الباب الأول _ الخَلق والجَعل	
الباب الثانــي _ وظيفــة الطيـــن	
الباب الثالث _ الســر والجَهــر	
الباب الرابع _ أنتــم وهــم	
الباب الخامس _ حِكمــةُ التمكيــن	
الباب السادس _ آفــة الاستكبار	
الباب السابع _ الحيـــق	
الباب الثامن _ ولايـــةُ اللــه	
الباب التاسع _ قُدرةُ اللـــه	
الباب العاشر _ عقيدةُ التكذيب	
الباب الحادي عشـر _ النهــي والنأي	
الباب الثاني عشر _ الخســران	
الباب الثالث عشر _ الحَســرة	
الباب الرابع عشـــر _ الجحود بالرسالــة	
الباب الخامس عشــر _ أمَــم	
الباب السادس عشـــر _ الصرف والصدف	
الباب السابع عشــر _ بُنيـــة المساواة	

الباب الثامن عشــر _ الاسـتبانـة	
الباب التاسع عشـــر _ النجاة	

الباب العشرون _ الذكرى والإعراض	
الباب الواحد والعشرون _ قدوة الهُدى	
الباب الثاني ولعشرون _ شـكر الله وتعظيمـه	
الباب الثالث والعشرون _ التبريك والتصديق	
الباب الرابـع والعشرون _ آفــة التكهّـن	
الباب الخامـس والعشـرون _ الاهتـداء والاستيعاب	
الباب السادس والعشرون _ المُستقَر والمستَودَع	
الباب السابع والعشرون _ المُشتبَه والغير مُتشابه	
الباب الثامن والعشرون _ الخَرق	
الباب التاسع والعشرون _ المُدرِك اللامُدرَك	
الباب الثلاثون _ حدود البلاغ	
الباب الواحد والثلاثون _ شيطان وشياطين	
الباب الثاني والثلاثون _ الحكَمُ الحَق	
الباب الثالث والثلاثون _ اســم اللـه	
الباب الرابع والثلاثون _ مَكرُ الأكابـر	
الباب الخامس والثلاثون _ الشـرح والضيـق	
الباب السادس والثلاثون_ غِنـى اللـه	
الباب السابع والثلاثون _ حلال الله وحرامه	
الباب الثامن والثلاثون _ الترتيب الإلهي	
سورة الأعراف	
استهلال	

الباب الأول _ كلماتٌ في حروف	

الباب الثاني _ سِعة الصدر	
الباب الثالث _ اتباع الهدى	
الباب الرابع _ عندما يجيء بأس الله	
الباب الخامس _ حضور الله	
الباب السادس _ مَوازين ومَوازين	
الباب السابع _ تمكين ومعايـش	
الباب الثامن _ الأنا الإبليسية	
الباب التاسع _ عداوة الشيطان للإنسان	
الباب العاشر _ خطيئة الإنسان ومغفرة الله	
الباب الحادي عشر _ خير اللباس	
الباب الثاني عشر _ القِسط	
الباب الثالث عشر _ الاستمتاع بالزينة والطيبات	
الباب الرابع عشر _ التقوى والصلاح	
الباب الخامس عشر _ ظلم الافتراء على الله	
الباب السادس عشر _ المُضِلّون والمُضَلّون	
الباب السابع عشر _ مهاد وغواش الظالمين	
الباب الثامن عشر _ التكليف	
الباب التاسع عشر _ أعراف اللـه	
الباب العشرون _ وزر الجحود بآيات اللـه	
الباب الواحد والعشرون _ تفصيل الكتاب	
الباب الثاني والعشرون _ حكمة التأنـّـي	

الباب الثالث والعشرون _ التضرّع والخفية في الدعاء	
الباب الرابع والعشرون _ بشارة الرياح بالمطر	
الباب الخامس والعشرون _ بين الطيّب والخبيث	
الباب السادس والعشرون _ نوح عليه السلام	

الباب السابع والعشرون _ هود عليه السلام	
الباب الثامن والعشرون _ صالح عليه السلام	
الباب التاسع والعشرون _ لوط عليه السلام	
الباب الثلاثون _ شعيب عليه السلام	
الباب الواحد والثلاثون _ موسى عليه السلام	
الباب الثاني والثلاثون _ شهادة الربوبية	
الباب الثالث والثلاثون _ الرجوع إلى الحق	
الباب الرابع والثلاثون _ التحسّن بأسماء الله الحسنى	
الباب الخامس والثلاثون _ استدراج المكذّبين	
الباب السادس والثلاثون _ علم الله بالغيب	
الباب السابع والثلاثون _ ولاية الصالحين	
الباب الثامن والثلاثون _ حصانة الاستعاذة	
الباب التاسع والثلاثون _ الاستماع والانصات إلى القرآن	
الباب الأربعون _ حكمة السجود	